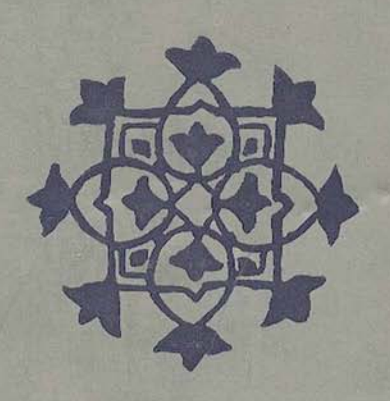
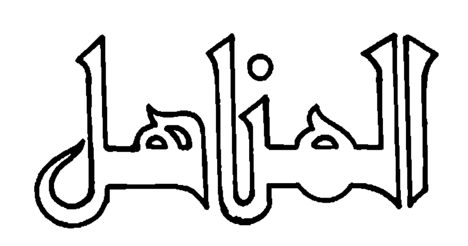
المناهل



34


المناهل

الآراء المعبر عنها في الأبحاث والمقالات المنشورة في هذه المجلة لا تلزم إلا أصحابها



تصدرها
وزارة الشؤون الثقافية
الرباط - المغرب

العدد الرابع والثلاثون
السنة الثالثة عشرة

ذو القعدة 1406
يوليــــو 1986

تهنئة "المناهل" بعيد الشباب

يصدر هذا العدد من مجلة "المناهل" والمملكة المغربية قاطبة في غمرة من البهجة والاغتباط والمسرات، احتفالاً بعيد الشباب المجيد، الذي يصادف هذه السنة الذكرى السابعة والخمسين لميلاد صاحب الجلالة الحسن الثاني حفظه الله.

وتغتنم أسرة المناهل محررين وكتاباً وقراء فرصة حلول هذه الذكرى العزيزة عليهم لترفع آيات التهاني والتبريك، إلى قائد المغرب المفدى ومبدع أمجاده ومسراته صاحب الجلالة الملك المعظم الحسن الثاني المؤيد المنصور بالله

وإذ ترفع أسرة "المناهل" أسمى عواطف محبتها وولائها وتعلقها المكين بشخص جلالته، تضرع إلى الله سبحانه أن يعيد عليه هذا العيد السعيد وعلى أسرته الكريمة بأعظم المسرات، وأن يطيل عمره، ويقر عينه بولي عهده صاحب السمو الملكي الأمير الجليل سيدي محمد وصنوه الأمير المحبوب مولاي رشيد وأخواتهما الأميرات الجليلات، وأن يحقق بما وهبه الله من عبقرية وحكمة وتوفيق ما يطمح إليه شعبه من واسع الآمال.

المناهل



نحنُ والتّراثُ(*)

عبد الله كنون

من المفارقات الغريبة التي يمكن لكل واحد أن يلاحظها في موقف الناس من التراث، أن الذين لا ماضي لهم أي لا تراث، يهمهم الأمر أكثر من الذين هم بالعكس أصحاب تراث وماضي يرجعون إليه ويستظهرون به.

فثم شعوب كثيرة لم يكن لها وجود متميز على الخارطة الجغرافية في مختلف القارات، لأنها كانت مندمجة في غيرها، أو كانت على جانب من التخلف لا تشعر به، فلما استقلت بأمرها أو مسها عامل التحول الحضاري بحكم تقارب الأبعاد وما ينشأ عنه من اتصال الأفراد والجماعات واحتكاك بعضهم ببعض، بدأت في حفر الجذور واستنطاق الأحجار، وصنع مشجرات

(*) بحث قدم لمجمع اللغة العربية بمصر، في دروته السنوية الأخيرة بمارس الفارط.

الأنساب، وإقامة متاحف الآثار، وأصبحنا نسمع عن مأثوراتها الشعبية، وفنونها الحضارية، ما لم يكن معروفا من قبل.

وهناك بالمقابل شعوب وأمم يظهر أنها أصيبت بتخمة التراث فجعلت تتخلص منه وتزهد فيه، وربما تنكرت له، واتخذت من تراث غيرها بديلا منه، وكثيرا ما يحدث ذلك من جهل بقيمة تراثها، أوبباعث الإعجاب بما هو أجنبي عنها مما يجعلها تستقى ماء أجاجا وعندها العذب الفرات...

ويكون مما يدعوها إلى هذه الحالة من الاستلاب، الرغبة في التحديث والتجديد وما يدعى بالمعاصرة، وهو التصور الذي طغى على بعض الأمم والشعوب الأصيلة الغنية بتراثها وحضارتها، فعجزت عن أن تبني على أصالتها وتنبعث منها، ورأت أن أصالتها هذه، هي سبب اندحارها أمام التوهجات الحضارية العصرية، فساورها هاجس المعاصرة، حتى توجست خيفة من أصالتها وصارت تتساءل : الأصالة أم المعاصرة ؟ كأن بين المقولتين تضادا.

ويخيل إلي أن الذين ينادون بشعار المعاصرة، وهم يعيشون حضارة القرن العشرين ويقبسون منها، نسوا أن أصحابها كانوا من الفريق الأول الذين لا تراث لهم، فاصطنعوا التراث اليوناني والروماني، ومالي لا أقول والعربي وإن كانوا يتآمرون عليه بالسكوت، وعلى أساس هذا التراث بنوا حضارتهم الجديدة.

وأكاد أقول أن هؤلاء الذين ينادون بالمعاصرة، لا يعيشون عصرهم فإنا نرى بلدا من أكثر البلاد تقدما علميا وحضاريا، وممن يتهافت المفتونون بالمعاصرة على التلقي منه والتقليد له، وهو فرنسا، بالرغم من تطوره العظيم

يتفانى في الدفاع عن أصالته والمحافظة على تراثه، وقد شعر بزاحمة اللغة الإنجليزية للغته الوطنية في الخارج، وهجومها عليها في الداخل باصطناع أبنائه لبعض المفردات والمصطلحات والعبارات التي يستعملها الإنجليز فهو ما يفتأ يقاوم هذا الهجوم ويحرص على تنقية لغته من الألفاظ الإنجليزية الدخيلة، وفي المدة الأخيرة احتفلت الأكاديمية الفرنسية بتقديم ألفي كلمة فرنسية أصيلة لتحل محل تلك الكلمات الأجنبية في لغة الحديث والصحافة والعلوم، ونوهت الأوساط الفكرية والأدبية بهذه المبادرة التي تدل على الاعتزاز باللغة الوطنية وإيقاف موجة الاستهتار بالمقومات الذاتية للأمة عند حدها.

ومعلوم أن اللغة هي مظهر أصالة كل شعب، والوعاء الذي يستوعب تراثه ومعطياته الفكرية، فالذين لا يبالون بها، ويقدمون عليها لغة أجنبية إنما يعملون على الانسلاخ من قوميتهم والذوبان في غيرهم، وهذا ليس من المعاصرة في شيء ولذاك رفضه الفرنسيون، ولم نسمع أحدا منهم ارتضاه أو دعا إليه كما وقع عندنا منذ فجرا لنهضة الحديثة، وصدر من أقطاب في السياسة والعلم والأدب، فمنهم من دعا إلى كتابة العربية بالحرف الأفرنجي، ومنهم من روج للغة العامية بكتابة بعض المسرحيات وإصدار بعض الصحف بها، وذاك ما جعل حافظ إبراهيم يقول في تأتيته الشهيرة :

أيهجوني قومي ـ عفا الله عنهم إلى لغة لم تتصل برواة

ومع أن دعوات هؤلاء المتردين على اللغة العربية، رفضت من أول يوم إلا أن صداها لم يزل يتردد بين الشباب المتعلم باللغات الأجنبية، والمثقف ثقافة حديثة لم تتطعم بشيء من التراث العربي الأصيل، فتولد من

ذلك جيل ثالث لغته عربية وفكره أجنبي، وهو يعتقد أنه يمد الجسور بين الاستعراب والاستغراب ولكن أعمـالـه كثيرا مـا تصب في قنـاة الاستغراب، ومن ثم فهو ما يزال ينسج على منوال التغريب متأثرا بالتراث الأجنبي حتى في أخطائه المتعمدة أو العفوية في تقويم تراثنا العربي والإسلامي، مما حـدا به إلى هجر هـذا التراث، وعـدم الاستفـادة منـه وانعكاس ذلـك على تفكيره ولغته التي ضعفت واعتادهـا اللحن وسـادهـا الغموض ضرورة عـدم إتقـانـه لقواعدها، وأما فنون بلاغتها فقلما يلم بها أحدهم بل إن منهم من صار يبشر بفن القـول في اللغــات الأخرى حتى سقــط في هـوة الاغتراب عن أجــواء التراث العربي، فصار لا يفهم عنـه مـا يقول، وتكون المفردات العربيـة التي تقع في كلامه، مثلهـا مثل التي تقع في الفـارسيـة أو التركيـة، فـانضـاف إلى الاستغراب والاغتراب وصف ثـالث من المـادة نفسهـا وهـو الغرابـة، وليست هي الغرابة التي يتحدث عنها البلاغيون، ويمثلون لها بقول الشاعر :

ومقلة وحاجبا مزججا   وفاحما ومرسنا مسرجا

فإن هذه تتعلق بلفظ واحد، وهو مسرج، الذي لم يعرفوا هل هو من السيف السريجي أو من السراج، ولكنها الغرابة في بنية الكلام وصياغته أي قاموسه وأسلوبه، وقد قرأت ديوانا شعريا كاملا مكتوبـا بـالحروف العربيـة وألفاظها، فلم أفهم منه إلا إسمي رابعـة العـدويـة وعروة بن الورد، وهو من إبداعات الشعر الحر الذي ملأ الساحة وحير الناس.

وأهداني صـديق لي ديوانـا من نظمـه على الطريقـة المرموزة، وكنت حريصا على أن أقول له كلمة عنه، فلم أدر ما أقول لأني بكل صراحة لم أفهم شيئا منه، فأجبته منوها بإخراجه الطباعي الممتاز، ومتمنيا أن لو كان وضع

له مقدمة تكشف عن رموزه وتوضح أفكاره التي لا يدركها عموم القراء، والواقع أن هذه أمنية جديرة بالتحقيق من جانب أصحاب هذه الدواوين إذا كانوا يكتبون لعموم الناس، ويريدون أن يفهم القراء أغراضهم أو إبداعاتهم كما يقولون.

وقرأت ديوانا آخر من هذا الشعر غير التقليدي، وأنا أصفه بهذا الوصف استخلاصا مما يصفون به الشعر العربي الأصيل، فإذا به يطفح بالتمرد على الأخلاق والمواضعات الاجتماعية، وعلى الخالق جل جلاله، وينعته بأسوإ النعوت، ويعكس اللعائن التي تصبها الكتب المقدسة على الشياطين وعلى المجرمين وعلى المفسدين في الأرض، فيوجهها للاله، لا أدري أي إله يقصد، لأنه يعبر تارة بالآلهة، تماما كما يعبر ملاحدة الغرب ووثنيوهم الذين طبعوا أعمالهم على غرارهم، فألقيت به من يدي، متعجبا من هذا الاستلاب الذي أصيب به صاحبه، وهو المسلم المفروض فيه أنه وعي دعوة الإسلام والإصلاح الاجتماعي الذي أتى به، وعقيدة التوحيد التي أنقذت البشرية من أوحال الشرك ورعونة التجديف وخزي الجاهلية، وقلت في نفسي أيها التقليدي ؟ هذا الشعر الذي هو بوق مبحوح لتراث متخلف وكافر بالقيم والأخلاق والمثل العليا، أم الشعر الذي رفع شعار الإنسانية المهذبة، وأعلن عن تحرر الفرد والجماعة من سيطرة المتآجرين بالشعوذة والتدجيل والتربب على الخلق وكان وما يزال علما للأخلاقية القومية المقدسة.

إن هذا لهو العجب العجاب، أن يرد الإنسان في الحافرة بعد أن هدي إلى الصراط المستقيم، ويكون السبب في ذلك هو جهله بتراثه الخاص به وزهده فيه والارتماء في أحضان التراث الأجنبي،بذريعة والتفتح على الثقافة

العامة والانتفاع بالتراث الإنساني المشاع بين الأمم والشعوب على اختلاف أجناسها وألوانها حتى لو كان متعارضا مع تراثه الخاص في الجوهر والعرض، ولا سيما التراث العربي الإسلامي الذي يحتوي على كنوز من المعرفة وذخائر من الآداب طالما استمد منها الآخرون، وكانت سبب نهضتهم، وإثراء ثقافاتهم، فكيف إذا تعلق الأمر بالمقومات الذاتية للأمة التي ينسب إليها من عقيدة وشريعة ودستور خلقي عظيم، إنها معالم لا يجوز أن يتخطاها أحد يحافظ على كرامة أمته، ويعمل لرفع شأنها وإحلالها المكانة اللائقة بها بين الأمم.

ولقد قام أوائلنا في عهد النقل والترجمة، باقتباس شتى المعارف والعلوم من شعوب مختلفة كالهند والفرس والإغريق وما إليهم، ولكنهم لما اطلعوا على بعض آثارهم الأدبية مروا عليها مر الكرام، بل ازدروها وسخروا منها لما رأوا فيها من سخافات وتكريس للوثنيات، اعتزازا بما عندهم من العلم الصحيح والعقيدة السليمة التي جاء بها كتابهم الفاتح للعيون العمي، والآذان الصم لا والقلوب الغلف، واستغناء بأدبهم الذي لم يلبث أن غزا الآداب العالمية، فألقت إليه باليد، وأخذت عنه، بدل أن يذوب هو فيها، فكان أن تصدرتها أناشيد رولان وكوميديا دانتي، وتبنى شعراء فارس أوزان شعره وعروضه، وهكذا تم لأدبه، شكلا وموضوعا، التفوق على آداب العالم، من غير أن يحتاج إلى تزكية دولية ولا جائزة من لجنة نوبل وماشاكلها.

إن كل ما أردت أن أقوله، ويفهم من كلامي هذا، هو أننا نحن العرب من الفريق الأول الزاهدين في تراثهم، على عظمه وغناه، والواقفين منه موقف النبذ والطرح، والمعتدل منا من يعبر عن حيرته بين الأصالة

والمعاصرة، وقلت إن تراثنا عظيم وغني، ولعلي بخسته حقـه، فهو إن لم يكن أعظم تراث وأغناه تمتلكه أمة من الأمم القـديمـة البـاقيـة كالهنـد والصين أو تركتـه أمـة من الأمم المنقرضـة كاليونـان والرومـان، فهـو من أعظم التراث الإنساني وأغناه بلا جدال ويقرر الخبراء في ميـدان الحضـارة والفكر، التراث العلمي والأدبي العربي، بمـا لا يقل عن ثلاثـة ملايين من الكتب المخطـوطـة المحفوظة في مكتبـات العـالم، منهـا نحو ثلث هـذا العـدد، بمكتبـات عـاصمة الخلافة العثمانيـة استـانبول، والبـاقي بمكتبـات مصر والشـام والعراق وتونس والمغرب، وعواصم أوروبيـة مختلفـة، وهي تتنـاول علـوم الفلسفـة والتشريـع واللغة والتـاريخ والأدب والطب والهنـدسـة والفلـك والريـاضيـات وتقويم البلدان والتراجم وغير ذلك.

ولم يبحث وينشر من هـذه الكتب القيمـة إلا القليـل الـذي لا يبلـغ نسبة ثلاثة في المئة، وغالبه إنما نشر بعنايـة المستشرقين الأجـانب، فمـا أضيع التراث الذي يكون اهتمام الأجنبي به أكثر من اهتمام أهله وذويه !

وإلى هذا التراث العلمي والأدبي، هناك التراث الفني والحضاري الـذي يتمثل في المعمار والبنـاء والـزخرفـة والنقش على الجص والخشب، والخطـوط الجميلـة المتنوعـة، وتجليـد الكتب والمصـاحف، والمصـابيح الزجـاجيـة الملونـة والصحون الخزفية الرفيعة، والأكواب والأبـاريق، والزرابي المخمليـة والنعـال المطرزة، والمناديل الحريرية والطيلسـانـات الفـاخرة، وأنواع الحلي الثمينـة، أضف إلى ذلك الآلات الموسيقية ومنهـا القـانون، والأنغـام والصنـائع وفنون الغناء، وصنوف الطعام، والطبيخ والأشربة والمربيـات والحلويـات وقوارير الطيب والعطور الفاغمـة، وغير ذلـك ممـا يطول تتبعـه، ولقـد بقيت قصور الحمراء في غرناطة بالأندلس شاهدا ناطقا بعظمة الفن الإسلامي، يحج إليهـا

السياح من جميع أنحاء العالم، فيبهرهم جمالها وتنسيقها، ويلتقطون منها الصور الرائعة التي لا ينقضي إعجابهم بها، فيكيف لو شاهدوها مفروشة بالفرش البديعة التي تنسجم مع بنائها، ومؤثثة بالأثاث الأنيق المناسب، وموائد الطعام الشهي مبسوطة، والمغنون يشنفون الأسماع، بالشجي من الألحان، والمطرب من الأوزان، إذن لكان إعجابهم أكبر وانبهارهم أعظم.

هذا هو التراث المهجور الذي كان يجب أن يتمثل في حياتنا المعاصرة ويحي بتجديده واستيحائه في أعمالنا ومنجزاتنا من أجل النهضة والانبعاث حتى لا نبقى عالة على الغير، ونتبدل بالغنى فقرا، ونكون كالغراب الذي أراد أن يحكي مشية الحمامة فلا هو بمشيته ولا بمشيتها.

إن قلة من الأجانب الذين داخلوا تراثنا العلمي ونخلوه، كانوا أكثر منا فهما له وتأثرا به، فعرفونا بقيمة ابن خلدون وابن رشد وابن بطوطة، والرازي وابن الهيثم والشريف الإدريسي وغيرهم وغيرهم، ممن لم نقم له وزنا إلا بعد الاطلاع على أعمالهم ودراساتهم، وكتبوا عن حضارتنا ومدنيتنا ما لم نكتب نحن نظيره إلى الآن، وإليكم كتاب مدينة العرب لغوسلاف لوبون وكتاب آدم ميتز عن الحضارة العربية في القرن الرابع وكتاب شمس العرب تشرق على الغرب للدكتورة هونكه، ولقد كان موريس بوكاي، وهو عالم أحياء معاصر أسبق منا إلى الكتابة عن إعجاز القرآن في البيانات التي أعطاها عن أطوار تكون الجنين مما لم يكن معروفا قبل القرن الحالي، ومثل ذلك يقال في الكتابة عن الفن الإسلامي من طرف الباحثين الأجانب في فن المعمار والموسيقى والرسم والزخرفة وما إليها وتقديمه علميا إلى من يهتم بذلك من أقوامهم، وإلينا نحن من أهله وذويه.

وفي نظري، أن إحياء التراث ليس بنشره وتحقيق نصوصه فقط، ولكن بتمثله وتقييمه ودراسته علميا وتقديمه إلى القراء، ليبعث فيهم روح الحفاظ عليه، ويحفزهم إلى محاكاته والبناء عليه، وإضافة ما جدفى عالم المعرفة له، وإقناع من لم يقتنع منهم بأن العربية لغة علم وبحث وتدريس وتدوين.

ولعل خطر الجهل بالتراث أعظم ما يتمثل في حياتنا الأدبية، فقد انعكس على إنتاجنا الشعري والروائي والمسرحي، ولا أقصد الصياغة الجديدة لما يسمى بالشعر الحديث، أو شعر التفعلة، فهذا لا يعدو أن يكون مثل عمل الموشحات التي ابتكرها الأندلسيون، ونظموها على ما لا يحصر من الأوزان والأشكال فبقي منها ما استساغته الطبيعة العربية، واندثر منها ما كان غير مستساغ، إن المضمون لا الشكل هو المراد، وهذا الشعر الحديث أو أكثره، قد أصبح كلاما لا هو بالعربي ولا بالأعجمي، أن قاموسه غير القاموس المستعمل عند أبناء العروبة، فهو يقلب دلالات الألفاظ على النحو الآتي في هذه الشطرة على سبيل المثال «أرى أنينا وأسمع دمعا» وقد انتشر على نطاق واسع، وفتحت له المجلات الكثيرة أبوابها لأنها لم تعد تجد المادة الكافية لملء أعمدتها، وتداعى إليه شباب لم يتموا دراستهم ولم يتزودوا بثقافة عربية أصيلة ثم أوجدوا له مقاييس نقدية مأخوذة من الآداب الأجنبية، وطبقوها عليه بل على الشعر العربي الأصيل، وهي أبعد ما تكون عن أذواقنا وثقافتنا، ولذلك فإنها كالشعر المتحدث عنه، لا تجد تجاوبا مع الجمهور العربي، كما كان العهد بالشعر إلى الأمس القريب، فكانت قصائد شوقي وأمثاله تنشر في الصفحة الأولى من الجرائد الكبرى، ويتناقلها الناس،

وتدرج في محفوظات تلاميذ المدارس وكتب الأدب، أما الآن وقد اختلط الحابل بالنابل، ومرض الذوق الأدبي فقد كدنا نصبح أمة بدون أدب.

وليقل في القصص والمسرح ما قيل في الشعر، إن لم يكن أسوأ، لمسه بالعقيدة والحياة الدينية، فهذه امرأة تسعى في الطلاق جهدها حتى إذا طلقت صباحا لم ترح إلا متزوجة بغير نظر إلى عدة ولا غيرها، وهذه أخرى تعمل على قتل زوجها لتستبد بثروته هي وخطيبها وعلى الأصح مُخَلِّقُها[1] على زوجها، وليذهب حكم عدم إرث القاتل وحرمة المخلقة على مخلقها إلى الأبد، وعدم انفراد الزوجة بالإرث إلى حيث ألقت رحلها أُمُّ قشعم، وأمثلة الاستلاب والاحتواء، والغزو من هذا القيل كثيرة، وكل ذلك نتيجة غياب التراث، وتعاملنا معه وانسياقنا في حبل المعاصرة المزعومة وهي بهذا المفهوم إنما تجرنا إلى تيه لا مخرج منه إلا برجوعنا إلى الجادة وتمسكنا بالعروة الوثقى.

عبد الله كَنون

1) التخليق : إفساد المرأة على زوجها حتى يطلقها فيتزوجها هو، وهي تحرم عليه حرمة مؤبدة.

اللهُ.. والطّبيعَة

محمد بهجة الأثري

فِتَنُ الطّبيعةِ، هَلْ لها من واقٍ ؟ والسِّحْرُ فيها، هَلْ لَهُ من راقِ
أُنظُرْ بِعَيْنِي مِثْلَما أنا ناظِرٌ تَعلَمْ هَوايَ وما أرى وأُلاقي
وَاسْأَلْ فُؤادَكَ: هَلْ أَحَبَّ وماسلا كَفُؤادِيَ المُتَوَلِّهِ الخَفّاقِ
قَلبي يُحِبُّ، وللصَّباحةِ رَوْعَةٌ تَعْنو لِصَوْلَتِها نُهَى العُشّاقِ
ما إنْ يُفيقُ من الصَّبابةِ سَكْرةً وآهاً لَهُ من والِهٍ تَوّاقِ

أَلِفَ الهوى أَسْراً، فلو كُسِرَتْ له
أطواقُه لاشتاق للأطواقِ!

نَعِمانُ بالحُسْنِ المُدِلّ بزهوِهِ
والحُسْنُ يخطف مُهْجَةَ المشتاقِ

نشوانُ من تهجابِهِ، فكأنّهُ
قد عبّ من كأسٍ لهنّ دِهاقِ

متفكّرٌ في كُنْهِ كُلّ خليقةٍ
كيف استقامتْ في المثالِ الرّاقي؟

يستشرفُ المكنونَ في أطوائها
من قُدْرةٍ خلّاقةٍ وحذاقِ

كلٌّ يُسَبِّحُ في السّماواتِ العُلى
والأرضِ للمتفرّدِ الخلّاقِ

البارئِ الصّورَ البدائعَ.. وجهُهُ
في صُنعِها مُتألّقُ الإشراقِ

ولوجهِهِ عَنَتِ الوجوهُ، وسبّحَ الـ
ـملكوتُ من بَهَرٍ ومن أشواقِ

*

يا ربِّ! أدرِكْ خافِقي، وقد التظى
بالحبِّ، أنْ يفنى من الإحراقِ

أنا منكَ، من نفحاتِ لطفِكَ، فارْعَني
في حبِّيَ الطّاغي وفي استغراقي

قد ذُبْتُ في نورِ الجمالِ ، لأنّهُ   عن نورِ ذاتِك شفَّ في الآفاقِ :

في الجمرةِ الحمراءِ تسبحُ في العُلى .   في النّيّرِ الخَصِرِ الثّرى الألّاقِ .

في الزّاهراتِ على الدُّجى كلآلئٍ   نُثِرَتْ فرائدُها على أَطْباقِ .

أو كالدّراري في ثُغورٍ فواتنٍ   أُغرِبْنَ في البَسَماتِ عندَ تَلاقِ .

في الشّامخِ الذِّرْواتِ . في المُتَبطّحِ الـ   أكنافِ . في المُتَسَلْسِلِ الرَّقْراقِ ،

في ناضرِ الجنّاتِ . في أرَجِ الشّذا   في الوَرْدِ . في الوَجَناتِ . في الأحداقِ

في ساجعٍ غَرِدِ الضُّحى مُتَقلّبٍ   في الجَوِّ . في مُتَخايلٍ صَفّاقِ .

في كلِّ ما فوقَ الصّعيدِ وتحتَهُ   من ناسمٍ حَيٍّ ومن أعْلاقِ .

في جوهرِ الأرْواحِ . في مُتَبايِنِ الـ   أشْباحِ . في مُتَمايزِ الأعْراقِ

ما شأنُها هيَ والوُجودُ ، وما أنا*   وسِوايَ من خَلْقٍ ومن أخْلاقِ ،

لولم تُقَدِّرْ خَلْقَها وحياتَها ،   وتَحُفَّها باللُّطفِ والإشْفاقِ !

يا باريَ الأكوانِ من عَدَمٍ ، ويا مُنْشي الحياةِ وباسِطَ الأرزاقِ

لك وَحْدَكَ - اللهُمَّ - جالَ تفكُّري وهواكَ مالِئُ قلبيَ الخفّاقِ :

رُوحي ، وريحاني ، ووارِفُ جَنَّتي ونعيمُ وِجداني ، وطيبُ مَذاقي ؟

محمد بهجة الأثري

مِنَ الأَدَبِ التُّركي

لعبد الحق حامد
تعريب: محمد ابن تاويت

عبد الحق حامد بك

أمير شعراء الترك ـ كما كان زميله أحمد شوقي في العربية ـ والملقب بالأُستاذ الأعظم في الأدب التركي الحديث.

ولد سنة 1851 وتوفي سنة 1937.

عاش في العهد الحميدي، ثم العهد الدستوري، وعاصر الحرب العالمية الأُولى، أو الحرب العظمى، الأُولى ثم عاش في العهد الجمهوري، الكمالي الأتاتوركي، وتوفي بعد الرئيس «أتاتورك» بنحو ثلاث سنوات وقد عمر نحو ست وثمانين سنة، لم يفتر فيها عن قول الشعر، إلى أن كان يجود بنفسه،(1) فتوفى بعد بقليل.

---

1) فكان آخر بيت قاله قبيل وفاته، وهو :

ذوق يوق كَيجه سنده كَوندوزنده   بن نه يله يه يم بو يريونزده.

وكان كثير التردد على البلاد الأوربية والأسيوية، بما فيها البلاد العربية.

تزوج فتاة يتيمة، اسمها فاطمة، من أسرة بيرزاده رئيس أحد أمراء البحار الترك، وهي أسرة عريقة شهيرة، وأنجب منها ابنين، وأصيبت بمرض السل توفيت به، وخلفت الإبنين الطفلين، وهي في رحلة بالشام، فدفنت في بيروت، وكان لوفاتها وقع شديد عليه، نظم فيه ملحمتين، تعدان من عيون الشعر التركي، بل العالمي، احداهما «أولو» أي الميت، والثانية «مقبر» أي القبر.

وقد وألف نحو أربعين تأليفا وتمثيلية من هذه مسرحية «نظيفة» التي سبق لي تعريبها ونشرت في إحدى مجلاتنا «دعوة الحق» أو «آفاق».

وهذا نموذج من الملحمة الأُولى «أولو» :

الـــذي اليـوم أراه مـــاثــلا	عــــده شرا حقيــــق وابـــلا
لا أقــول الشر هــــذا لائــق	بيـــديـع الكـون رب خـــالـق

☆ ☆

بـل يليـق القـول في هـذا الصنيـع	انــــــه حكم طبيعي وضيــــع
ولــــو أن أمر ربيَ يســــوق	آخرا حكم الـــذي دومــا يعـوق

☆ ☆

هــل عليم حـــالم مـــاذا يرى	في منـام حـالمـا مـا هـو يرى ؟
حـالي في الـدنيـا كحـال الحـالم	انــــه طبـــق لهــــذا منتمي

☆ ☆

أسفـــا ليس فـؤادي عـــالمـــا بحقيـــــــــق الأمر في ذا المنتمي
ولـــو أن مـــا نرى مرأى العيـــان كلـــــه حـــق وحـــق لاَيُمَـــــان

☆ ☆

إذ لنـــا من قـــدرة فـــائقـــة مكنت من جس ذي الفـــــاقرة
لا أقـــول العقـــل هـــــذا مَيَّـــزَا كنـــه ذي الأَشيـــاء أو هـــو حَيَّـــزَا

☆ ☆

بـــل أَقـــول إنـــــه قـــــد فهما أنـــــه كنهـــــا لهـــــا مـــــا فهما
غير أَني لا أرى علم البشر لاحقـــــا بـــــالأَمر ذا خيرا وشر

☆ ☆

فـابحثن ـ مجتهـدا في طـــالعـــك ـ في نفـــوذ القـــادر الخـــالـــق فيـــك
إن إشهـــــــــــــاد نصيب الآخر غير ميســـور ولـــــو بـــــالنظر

☆ ☆

وجـــــدير بـــــالفتى مستقبـــل مَعْنَـــوِيٌّ شـــــأنـــــه لا يُغْفَـــلُ
الـــــذي من طبعـــه قـــد عشقـــا حسن مـــا لم ير قـــط في اللقـــا

☆ ☆

فـــإذا كان هنـــا عـــدل جرى فـــأرى أن لـــزومـــا قُـــدِّرا
بـــاضطراب نـــاطـــق بـــالحسرة في الـــدنـــا ممـــا نقـــاسيـــه عَتِي

☆ ☆

ولـــو اني في كيـــاني كالخيـــال هـــائمـــا بيْنَ حَـــوَالِـــكِ اللَّيَـــالْ
فـــالـــذي يظهرني من ظلمـــة إنمـــا هـــو صـــدق صبـــح الفكرة

☆ ☆

ذرة الـــوهم بميزان الـــوجـــود		وحـــدة أو وحـــدة في ذا الـوجـود
إن ذا العـــالم في أحجـــامـــه		صغرا أو كبرا في جرمـــــــــه

☆ ☆

لخـواريــق ترى في ذي الجســوم		قيـل فيهــا عـالم يحـوي النجـوم
ليس لي من قــولـــة في القمرين		يكبران الإنس أو هــــــو ضمان

☆ ☆

إن لي في الرأس أفكارا تنــــــور		ليــل أشجــاني وإن كانت تــدور
فكرة الـوحــدة حينــا بعــد حين		بــارق يصعــق من فيهــا يــدين

☆ ☆

إن في الكائن بــــــل في كل شَي		في القران والسما أو كل طَي
قلبـا أو روحـا فهي شيء وحيـد		إنـــه اللـــه الـــذي ليس يلـــد

☆ ☆

ولــو أن الكائنــــات مظلمــــة		في الرؤى بعـد غروب السـاطعـة
فـــــالقبــــور كل قبر مَشْرِقٌ		لضيـــاء اللـــه وهــو الخــالــق

☆ ☆

فـــالتي كانت رمـــــال ضمنت		لـــدى بيروت هنـــاك نَعِمَتْ
بجــوار اللـــــه حتما، طيبـــا		ذلــك الخــالــق رَبّــاً وَاهِبــاً

«أُولُو»

كَون، صـانيرم، كَورديكَم، فنـالق در ديم كـه، بويلـه فنـالق خدايـه لايق در
لـه حكم طبيعت ديـك موافق اولور أكَرچـه أمر إلاهي أو حكمـه سـائقـدر

☆ ☆

بیلرمي كَرديكَني خواب، خـواب ايچنـده　　بنم جهـانـده كي حـالم بـوكَـا مطـابقـدر
يـازق خبير دكَـل بـونـده بر حقيقتـه دل　　اكَرچـه كَـورديكمـز سربسر حقـايقـدر

☆ ☆

اوني تجسسـه وار بـزده انجـق استعـداد　　ديم كـه كنهني شيئـكْ بوعقـل فـارقـادر
كَـوروب ده بيلمـه مكَى أكَـلامش ديرم منحصر　　فقـط ديم، بشركَ شـونـده علمي لاحقـدر

☆ ☆

نفـوذ خـالقي سن كنـدى طـالعكَـده آرا　　نصيب آخرى إشهـاد نـامـوافقـدر
سزادر ادم ايچـون معنـوي بر استقبـال　　كه هيچ كَـور مـديكي بر جمـالـه عـاشقـدر

☆ ☆

لـزومني وارايسـه معـدلت، أونـكْ بنجـه　　جهـانـده چكـد يكمز اضطراب نـاطـق در
ليال ايجنده خيالاتـه بكَزه رسـه م ده بني　　إزالـه إيلـه يـه جـك برصبـاح صـادقـدر

☆ ☆

وجـود وحـدتـه مـوهـوم ذره لرميزان　　بيوك كوچوك شو عـوالم بتـون خَـوارِقْـدرْ
وجـود آدمـه شـونـده برجهـان دينلير　　أو كَـايسـه بن مم مهر وملـه فـائقـدر

☆ ☆

إيـدر ليـالي هجراني كَـه بكَـه تنـوير　　سرمـده كي فكرت وحـدت كـه برق صـاعقـدر
بـوكائنـاتـده هر شيـده كَـوكـده قرانـه ده　　كَوكْلده جهانـده بر الله واركـه خـالقـدر

☆ ☆

بزه كَورونسـه ده مظلم مثـال جـادى غروب　　بـوقبرلر هپ أونكْ نـورينـه مشـارقـدر
بيروتـده قـوملرده دَفْنْ إيتـديكَم غريبـه دخي　　معين أو خـالـق بي مثـل ذي خـلايقـدر

☆ ☆

واجب المرء تجـــاه اللـــــه أن يجعـل الـزُّلْفَى وظيفـــا كل آن
قـــائمـــا دون شعـور بـوظيف عقـــد العـزم عليـــه كأليف

☆ ☆

لا أرى ذاك الـــوظيف ينحصر في ذوات الروح كِبْر وحقير
بـل شمـول الكائنـات الجـامـدة شـأنهـا شـأن عشوب صـاعـدة

☆ ☆

نغمـــة الطير ونشـوات الشجر جيشـان المـاء أيضـا يُـدّكر
وثبــــات لا يحيـــد الحجر عنـــــه في طرز غريب يبصر

☆ ☆

واليتيم ببكاه صـــــائحــــا والقبـــور في سكـــوت تنتحى
كل ذى أدت وظيفـــا لـلإلـــه شكرت في حضرة اللــــه إلاه

☆ ☆

مـــا أنـــا ؟ إني لست مستطيـع علم مـا في الكـون من سر منيـع
هـــل بحسبي شراب وطعــــام مثـل الانعـام بـديـدا في الظـلام

☆ ☆

إن ذي أيضـــا لهـــا تفكيرهـــا في الضرورات التي تحتـــاجهـــا
أو مــــا تشعر بــــالآلام في جسمهـــــا تبغي دواء تنتفي

☆ ☆

فلم الفكر لنــــا يعطي الــزوال لحيـــاة وحـــدّت في كل حـــال
الــــذي يمنـح وصف الأبـــدي لحظـة الكـون بـدنيـا تغتـــدى

☆ ☆

وبــذى الأرض نسمي الســـافلـــة ما لــزوم لظهــوري نــافلــة
إن أنـــا كنت غريقـــا ذاهبـــا في محيـــط النسي منسيـــا هبـــا

☆ ☆

كلا ؟ فالذاهب في المـاضي الحَلَك أبــديٌ ولــو أنْ يــدعى هلــك
نعم؛ ان الآتي ســاحـــات الْفَضَـا أزلي صـــاغـــه حكم القضـــا

☆ ☆

بيـــد إيجـــادي هـــذا إنمـــا هـــو إيجـــاد لعقلي لازمـــا
هـل لفكري ولـدركي من حســاب وفـق مـالي عنـد ربي من حسـاب

☆ ☆

إنـــه نتـــج ظــلام الشـــك، يــا قُتِـل الشـك، الــذي يمحـو الضيـا
انني الا أرى صبحـــا لليــــل هــذه الأحـزان ويلي منهــا ويـل

☆ ☆

فـالـذي يعطي صفــات الكبريـا ويجيـــد النعت عقلي لِاهِيـــا
هـل بــذاك العقـل في يــوم النفير يقحم الميـــــدان والأمرُ خطير

☆ ☆

فـــإذا لم يـــك لي أن أحكمـــا بحجـــاى وحـــده مستلهما
مـــا عسى أني أقـــول للضمير ـ حين يــدعــوني ـ مجيبـا كبصير

☆ ☆

والسما الأرض دوامـــا تســـأل وكـــذا الأرض سماهـــا تســـأل
وجــواب العجــز بين الســـائلين ذاهب من ذا إلى ذاك بمين

☆ ☆

والذي أدركه اليوم بذا　　العقل مني، جاهدا لن يحتذى
إن كل الكائنات تذهب　　لنهايات لها لا ترغب

☆ ☆

ينبغي أني أقول؛ زائلا　　كان، أو لما يزل ذا سائلا
إن حبِّي الذي قد ضمنا　　رمل بيروت، فأبخس ثمنا

☆ ☆

خدا أوكِنده كَرك بر وظيفه إنسانه　　كه بيلمه دن بوني ايفا إيده رأو بيكَانه
بن أول وظيفه يي ذى روحه منحصر كَرمم　　شمولي واردر أونڭ هم ده جسم بي جانه

☆ ☆

طيور نغمة، شجر نشو إيله، صو جوشش إيله　　حجر ثبات إيله بر طرز إيله غريبانه
يتيم كَريه، ومقبر سكوت ايله أبدى　　قيلار وظيفه سى إعلا حضور يزدانه

☆ ☆

نه يم ؟ فقط بيله مم بن نيچون دوشنمه ده يم　　ييوب ايچوب ده ايشيم بكَزه مكي حيوانه
بهيمه نكَ ده فقط بردوشونجه سي أولاجق　　كه دردى واو كَورونور احتياجي درمانه

☆ ☆

نيچون حياتنه ويرسون زوال فكرمزكَ　　ويره ن بوكَون أبديت جهانده برآنه
نه در لزوم ظهورم بوخاك أسفلده　　غريق أولوب كَيده جك سه م محيط نسيانه

☆ ☆

خاير، كَيده ن أبديد رظلام ماضي يه　　أوت؛ كَلن أزليدر فضاى دورانه
ينم فقط بوبولش كندى عقلمكَ بولوشي　　أويارمي فكر وحسابم حساب رحمانه

☆ ☆

بوشك مظلم پرتوكَسكَ نتيجه سيدر صباح كَورمز ايسه م كه بوليل هجرانه
ويره ن صفاتي دخي كبريايه عقلمدر أو عقل ايله چقليرمي بوكَون ميدانه

☆ ☆

أو عقل ايله فقط ايتمزإيسه م محاكمه مي نه سويليم كه بن أولسون جواب وجدانه
صورار بو حكمتي يرددن سما، سمادن ير جواب عجز كَيدر دائم إيندن آنه

☆ ☆

بوكَون أو عقل ايله درك ايتديكَم شو دركه بنم بوكائنات عقل سجده لر إيله پايانه
زوال بولدي ويا بولمادى ديمكمي كَرك بيروتده قوملره دفن إيتديكَم أو جنانه ؟

☆ ☆

لست أسطيع ابتساما بعده لربيع الروض مهما ضمه
فحياتي قد مضت منذ مضت باكيا من نهرها خلو الثبات

☆ ☆

حفرة في عمقها كان القرار وفراش رص من صلد الحجار
من بعيد وقع الأمر الخطير صاعقا حبا مليئا مستطير

☆ ☆

أقمين أنه قد سقطا من حياتي بسكون ربطا
وأنا في موقفي ذا أنظر حاسبا موج بحار تغمر

☆ ☆

ولو أن تلك التي قد أشبهت قمرا والشمس لما غربت
تسرع الروح وشيكا تذهب في طريق سلكها لي مرعب

☆ ☆

إن جسمي لشـــديـــدا يشعر   جــذبــة الأرض إليهـــا تنـــذر
كلمـــا القلب جـــوار المغرب   مر حيث مثـــــوى من لم يغب

☆ ☆

لم يـــزل أو تمحي حسرتـــه   مـــا العمـل ؟ مـا بيـدي سلـوتـه
ليس في الروضـــة من ذاك الأثر   من جمـــال وعـــذار وضفـــار

☆ ☆

أيهـــا الأفـلاك أني قـــد جرؤت   فـــــأصبت ذا الغريب ومرقت
أيهـــا المـــوت بـــأي لــــذة   جسمهـــا صـــدت وأي شهـــوة

☆ ☆

هـل هنـــاك عـــالم فيـــه معـــان   عجبـــا أي معـــان للمعـــان
هـل لهـذي الأرض في الـدنيـا مكان   غير حفن من غبـــار مستهـــان

☆ ☆

إن يكن فيهـا لنـا من فـائـــدة   كنت حتما تجتنيهـــا وافـــدة
فـــابيني، هــل لـــذكرى الميت من   فـــائـــد بعـــد الـــذي القبر ضمن

☆ ☆

إنـــه قبر رهين الأبـــد   أترى مـــاذا يريني في الغـــد
مـــا الـــذي أفهم من ذا المشهـــد   من شتيت الفكر في ذا المرقـــد

☆ ☆

إنـــه عنـــدي لعين للـــزوال   حين جسم لحبيبي استحـــال
فغـــدا رأسي من ذا واقعـــا   في انكســـار أي قلب صـــدعـــا

☆ ☆

من كمال العجـــز في هـــــــذا البشر صبره محتسيـــــــا هـــــــذا الأمر
وفراق الصبر لـــو حـــــاولـــــه خـــارج عن طــاقـــة ليست لـــه

☆ ☆

ليتيمين معـــــــــــــــا كان استقر شغف الحب لهـــــا عنـــــد الفكره
عجبـــا لا فرق يبـــدو من بعيـــد بين قبر وخيـــــال للفقيـــــــد

☆ ☆

إنهـــــا حي غريبـــــا دفنت برمـــــال حـــول بيروت ثـــوت
هكـــذا يـــا بعـــد قبر ضمهـــا عن ديـــار لاعبت فيهـــا المهـــا

☆ ☆

غير أني من يراني بـــــاهتـــــا شـاحب الـوجـه بحـزن صـامتـا
مبصرٍ وقـــع زوايــــا ذا القرار أثرا منبعثـــا حرقـــة نـــار

☆ ☆

يقـع الإنســان يـــاقلبي بعيـــد عن حبيب، ربمـــا، دهرا طريـــد
غير أن المرء لايقـــــــوى على بعـــد رب قـــاهر فـــوق المـــلأ

☆ ☆

بـوكَلشنكَ أولـه مـام مبتسم بهـارنـدن حيـاتم أغلايـارق كَچدى جويبـارنـدن
أولـورسـه بر أوچوروم يـار أولـور يـاپسترسنـكَ جـدادوش سرسـودا نشينـه يـارنـدن

☆ ☆

روامي همره عمرو دوشنجـــه كَردابـــه شمار مـــوجـــه بحر إيليم كارتـــدن
أكَرچه كَيتمكَـه بكَزه ر پينـده مهرومهـكَ شتاب إيدوب كَيديور روح رهكَذا رندن

☆ ☆

زمينه طوغري وجودم برا نجذاب طويار بومغربك كَذار إيتدكبه دل جوارندن
زواله إيرمز إيمش نيليم أو بنده دكَل بوكَلستانده أثر يوق كَل عذا رندن

☆ ☆

أو بينوايه نيچون قيدكَ أي فلك، عجبا ! نه لذت آكَلادكَ أي موت جسم زارندن
بيورمي عالم معنى ؟ عجب نه سودا أولاجق بوخاكدانه أونكَ بر أووچ غبار ندن

☆ ☆

أولا يدي سن أولي له شبهه يز يوق ايلردكَ أُولُولركَ بزه بر سوديا دكَارندن
نه كَوستر بكَابر قبرتا أبد بسته نه آكَلارم بن أونكَ فكر تار مارندن ؟

☆ ☆

تغير إيتمه سي عين زوالدر، بنجه أو پيكركَ كه سرم دوشدى انكسارندن
كمال عجزدن إيلر بوحاله صبر بشر أو صبري ترك إيسه خار جدر اقْتِدَارَنْدَنْ

☆ ☆

إيكي يتيم سر وپاى فكرتنده مقيم خيالنكَ، نه عجب فرقي يوق مزارندن
بيروتده قوملري دفن إيتديكَم أو ياغريب غريب كَيتدى، أو زاقدر مزاري دارندن

☆ ☆

بني بوچهره خاكي إيله كَورن لكن كَورور نشانه أونكَ كوشه قرارندن
أوزاق دوشرسه ده يارندى، إي كَوكَل، دهركَ كشي أوزاق دوشه بيلمز ياكر دكَارندن

تطوان

محمد بن تاويت

المؤسسات التعليمية الأولى بسوس
وخصائص المدارس العتيقة بالمنطقة

محمد المنوني

كان إقليم سوس بين المناطق المغربية التي بكر فيها المسجد : مسجد ماسة الذي حضر بنيانه عقبة بن نافع[1]، وتعتبر هذه المبادرة هي الإشارة الأولى للحركة التثقيفية بسوس الإسلامية، اعتبارا بأن المسجد كان مكانا للعبادة، ومركزا لتفقيه المومنين.

وتأتي الإشارة الثانية من ابن حوقل[2] : (أواسط ق 4/«10»)، فيذكر المالكية أهل السنة بسوس، وقتالهم مع الشيعة الرافضة، ولهم مسجد جامع تصلي فيه الفرقتان.

---

1) يقول ابن عذاري : «أخبرني الشيخ الصالح أبو علي صالح بن أبي صالح : أنه لم يصح عنده أن عقبة - رضي الله عنه - حضر بنيان شيء من مساجد المغرب، إلا مسجد القيروان، ومسجدا بدرعة، ومسجدا بالسوس الأقصى»، البيان المغرب. دار الثقافة - بيروت : 27/1.

2) صورة الأرض، دار مكتبة الحياة - بيروت : ص 90.

وفي أواسط المائة الهجرية الخامسة يسجل البكري[3] عن رباط ماسة أنه مكان مقصود، له موسم عظيم، ومجمع جليل، وهو مأوى الصالحين.

وإلى هذا تحتفظ بعض المصادر بأسماء عاشت ـ بالمنطقة ـ في الفترة ذاتها، فيبرز مؤلف رسالة «دلائل القبلة» أفرادا من تلاميذ ابن أبي زيد كانوا رحلوا إلى القيروان وأخذوا عنه :

1 ـ فمن لمطة : واكَاكَ بن زلوي.

2 ـ ومن جذميوة : أبو تاليلت الصودي.

3 ـ وابنه عبد الله.

4 ـ ويرزيكن بن علي الصودي[4].

وفي المدارك[5] يذكر عياض أربعة تراجم نورد منها بتعبيره :

5 ـ أيوب بن محمد : ذكر أنه كان من أهل العلم والرحلة فيه إلى بلاد المشرق، ولقي أبا عمران وغيره من شيوخ القرويين، وكان فقيه المصامدة[6] في وقته.

---

3) «المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب» : مكتبة المثنى ببغداد : ص 161، وانظر عن تحديد موقع رباط ماسة ووضعه الحالي : «خلال جزولة 209/2، 229 ـ 230.

4) انظر محمد المنوني : «ملامح العلاقات الثقافية بين المغرب وتونس» : مجلة «المناهل» 234/6.

5) 8 79 ـ 80، مع الرجوع إلى مخطوط خ.ع.د. 2633 ص 199 ـ 200.

6) يحدد عبد الواحد المراكشي بلاد المصامدة في عصره، فيذكر أنها تمتد ـ عرضا ـ من نهر أم الربيع إلى الصحراء، وتبتدئ ـ طولا ـ من جبل درن إلى المحيط : «المعجب» مطبعة السعادة بمصر ص 226.

6 ـ أبو القاسم بن عُذْري الفقيه : أخو سليمان ابن عذري الجزولي، كان من أصحاب واكَاكَ بن زلوي اللمطي الفقيه، وأخوه سليمان القائم بأمر المرابطين بعد عبد الله بن ياسين، وكانت وفاة سليمان سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة.

7 ـ تَوْبارت بن تيدي[7] : من الفقهاء الفضلاء من المصامدة، من هذه الطبقة.

وبالإضافة إلى هؤلاء نحيل على مخطوط مجهول المؤلف، ويحمل اسم «مسائل من كتاب الدلائل لأبي عمران الفاسي وغيره»[8] : خ.س 9057، فترد به الاشارات التالية :

قال الفاسي في كتاب الدلائل عن فقهاء جزولة ومصامدة : الورقة 2/أ.

قال الفاسي في كتاب الدلائل : من كتاب اجماع فقهاء جزولة : الورقة 2/أ.

---

7) في تعليق للأستاذ أحمد التوفيق على «التشوف» رقم 297 ص 164 وردت هذه الفقرة : «وهناك ولي يدعى بابا علي أوتُونارت تنتمي إليه قبيلة بايدا أو محود بالأطلس الكبير الغربي»، فهل هذا نفس الاسم الذي نعلق عليه، بعد أن تعرض للتحريف في منتسخات «المدارك»، ويكون أصل الاسم : تونارت بالنون، بن بيدي بالباء المفتوحة.

8) أشار الهلالي لأصل هذا المصدر فيما له من الشرح على المختصر الخليلي : المطبعة الحجرية الفاسية 1292 هـ : ص 126 ـ 127، وأكد ـ نقلا عن الزقاق ـ أن كتاب «الدلائل والأضداد» موضوع، غير صحيح النسبة لأبي عمران الفاسي، ولهذا يتحفظ في المعلومات الواردة بهذا المصدر، ولا يؤخذ بها إلا بعد نقدها وعرضها على النصوص، ودون هذا لا يعتمد ـ ألبتة ـ كتاب «الدلائل والأضداد» ولا مختصره الذي نعلق عليه.

في كتاب الدلائل للفاسي : قال في كتاب أحمد بن سعيد : في كتاب اجماع فقهاء المصامدة : الورقة 2/ب.

ومن كتاب الدلائل للفاسي : في كتاب طلبة جزولة : الورقة 2/ب.

☆ ☆ ☆

1 ـ رباط أكَلو :

على أن الحركة التعليمية بسوس بدأت تنتظم نحو بداية القرن الهجري الخامس، بمبادرة واكَاكَ بن زلوي اللمطي.

وكان من طلبة ابن أبي زيد القيرواني وأبي عمران الفاسي، حتى إذا عاد من القيروان لسوس أسس «رباط أكَلو» عند الشمال الغربي لمدينة تزنيت على الشاطئ، نحو أوائل القرن 5/«11».

ولا نتوفر ـ الآن ـ على أية إشارة لشكل بنايته الأولى التي اندثرت بالمرة[9]، غير أن المنهجية التعليمية للرباط ترد بعض ملامحها في تعبيرات قصيرة ومقتضبة، فيقول عنه عياض[10] وهو يترجم لعبد الله بن ياسين :

9) وصف محمد المختار السوسي الوضع الحالي لرباط أكَلو وما حواليه : خلال جزولة» 76/1 ـ 78، وقد سعدت بزيارة مكان الرباط في لمة من أهل العلم والفضل، عصر إلى غروب يوم الإثنين 14 جمادى الآخرة 24/1406 فبراير 1986، فدخلنا مشهد مؤسس الرباط، وصلينا العصر في مسجده، وزرنا الكتاب ومساكن الطلبة في مدرستهم، وكان ذلك بدعوة من حفيد صاحب الرباط الأستاذ العميد السيد الحسين واكَاك.

10) «المدارك» 81/8.

«كان - أولا - من طلبة واكَاكَ بن زلوي اللمطي في داره التي بناها بالسوس للعلم والخير».

وفي ترجمة ابن الزيات[11] لواكَاكَ : «فبني دارا سماها بـ«دار المرابطين» لطلبة العلم وقراء القرآن».

على أن الذي عرف - أكثر - برباط اكَلو ومؤسسه هو أبو عمران الفاسي، فيقول وهو يخاطب الأمير يحي بن إبراهيم الكَدالي :

«إني أعرف ببلاد نفيس من أرض المصامدة فقيها حاذقا تقيا ورعا، لقيني هنا (القيروان)، وأخذ عني علما كثيرا وعرفت ذلك منه، واسمه واكَاكَ بن زلو اللمطي من أهل السوس الأقصى، وهو الآن يتعبد ويدرس العلم ويدعو الناس إلى الخير في رباط هنالك، وله تلاميذ جمة يقرءون عليه العلم»[12].

فنفيد من هذه الفقرة المستوى العلمي الرفيع لوكَاكَ، وشهرة رباط اكَلو حتى تعدت المغرب إلى القيروان، ووفرة الطلبة به، كما نستفيد من أبي عمران ومعه عياض وابن الزيات : أن الرباط كان دارا للقرآن ونشر العلم، ومركزا للدعوة الإسلامية التي تفسر كلمة الخير في التعريف بالرباط.

---

11) «التشوف» مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء : ص 89.

12) «روض القرطاس» دار المنصور بالرباط ص 123.

أما أسماء طلبة الرباط فلا يعرف منهم ـ الآن ـ سوى اسمين :

أبي القاسم بن عذري سابق الذكر عن المدارك، ثم عبد الله بن ياسين التامانارتي الجزولي، فيفتتح عياض[13] ترجمته قائلا : «ذو الأنباء العظيمة والقصص الغريبة، القائم بدعوة المرابطين، المزين لدولتهم لأول خروجهم».

ويقول البكري[14] عن استشهاده : «وقتل ببرغواطة سنة إحدى وخمسين (وأربعمائة) بموضع يسمى كريفلت، وعلى قبره ـ اليوم ـ مشهد مقصود، ورابطة معمورة».

ومن المعروف أن عبد الله بن ياسين هو مخطط السياسة الإسلامية للمرابطين، بعدما تعلمها من دراسته في مدرسة اكّلو، مما يوضح منهاج هذه المؤسسة في الدعوة الإسلامية، وللمزيد من التوضيح نذيل بفقرة لأبي بكر بن العربي المعافري[15] عن سياسة المرابطين الإسلامية : «المرابطون قاموا بدعوة الحق ونصرة الدين، وهم حماة المسلمين الذابون عنهم، والمجاهدون دونهم».

وعن مدى استمرار مهمة دار المرابطين يرجع إلى سوس العالمة[16] و«خلال جزولة»[17].

13) «المدارك» 81/8.

14) «المغرب...» ص 168، وفي سياق حديث الزياني عن عبد الله بن ياسين : «ودفن على ربوة بوادي كريفلت، فقبره ظاهر يزار، وقفت عليه وزرته عام ستة وثمانين ومائة وألف» : «الترجمان» مخطوط خ،ع،د 658 ص 275.

15) «الحلل الموشية» دار الرشاد الحديثة ـ الدار البيضاء : ص 140.

16) ص 155.

17) 78/1.

2 ـ رباط هرغة بإيچلي :

وهو المؤسسة الثانية المعروفة بعد دار المرابطين، وكان من بناء المهدي بن تومرت عام 515/ «21 ـ 1122»، حسب ابن «خلدون[18] الذي يسميه رابطة، وقد اتخذه مؤسسه مكانا للتعليم، ومركزا لنشر الدعوة الموحدية، وعند ابن القطان[19] : «وأقام الإمام بجبل إيجيليز (الصواب إيچلي) ثلاثة أعوام يدرس العلم، ويهاجر إليه السعداء، ويعلم المهاجرين، ويخاطب القبائل».

وعبارة ابن خلدون[20] : «واجتمعت إليه الطلبة والقبائل، فعلمهم المرشدة، والتوحيد باللسان البربري».

ومن الجدير بالملاحظة أنه بهذا الرباط كان تحديث ابن تومرت لعبد المومن بكتابه «محاذي الموطأ»، فيوجد بأول بعض نسخه سند يتسلسل من يوسف الأول، عن والده عبد المومن، عن ابن تومرت، وهنا يحدد الزمان والمكان هكذا : «في غره شهر رمضان المعظم، من سنة خمس عشرة وخمسمائة، ببلد السوس برباط هرغة»، حسب نص السند أول نسختين : مخطوطة القرويين رقم 1449، ومخطوطة خ.ع.ج. 840.

---

18) «العبر» دار الكتاب اللبناني : 469/6، غير أنه تصحف به أيجلي بايكيلين.
19) «نظم الجمان» المطبعة المهدية بتطوان ص 23.
20) «العبر» 469/6.

وإلى هذا الرباط: كان بقربه «الغار» متعبد ابن تومرت، مع مسجده، وقد صار الأثران موضع تقدير عند الموحدين، فيشد الرحلة إليهما عبد المومن أول يوم من رمضان 552/ «1157»، ويزورهما في موكب حافل[21].

وفي منتصف القرن 8 هـ/«14» مر لسان الدين ابن الخطيب بهذه الجهة، فكان مما وقف عليه مسجد ابن تومرت، ومدرسته التي يقصد بها رباط هرغة، غير أنه يشير إلى أن الذي بقي من المدرسة هو أثرها[22].

ويلحق بهذا الرباط في الحرمة الموحدية مدفن ابن تومرت في تينمل، فيزوره - في جمع حاشد - عبد المومن[23]، ثم ابنه يوسف الأول[24]، وفي أواخر القرن 8/«14» يقول ابن خلدون[25] عن هذا المشهد : «وقبر الإمام بينهم (أهل تينمل) لهذا العهد على حاله من التجلة والتعظيم، وقراءة القرآن عليه أحزابا بالغدو والعشي، وتعاهده بالزيارة، وقيام الحجاب دون الزائرين من الغرباء لتسهيل الاذن، واستشعار الابهة، وتقديم الصدقات بين أيدي زيارته، على الرسم المعروف في احتفال الدولة».

وكان يتمتع بنفس الاحترام مسجد ابن تومرت بتينمل، فيأتي ذكره كمعهد دراسي خلال العشرة الثالثة من القرن 12/«18» حيث يزوره مؤلف «رحلة الوافد»، ثم يسجل ارتساماته عنه عام 1125/«1713»، وبعد ما يذكر ابن تومرت يعقب بهذه الفقرة :

---

21) «مجموع رسائل موحدية» المطبعة الاقتصادية بالرباط ص 86، وتصحف هنا إيجلي إلى ايجيليز.

22) «نفاضة الجراب» : السفر الثاني، دار الكاتب العربي بالقاهرة ص 49 - 50.

23) «مجموع رسائل موحدية» ص 92.

24) «تاريخ المن بالإمامة» دار الأندلس - بيروت ص 215 - 217.

25) العبر 562/6.

«... ومن رءا شغل بنيان مسجده العتيق الذي بتينمال، وأسفارُ خزانته الموضوعة فيه لتدريس العلوم وسرد الحديث : تنبيك عن خبر ما قلنا...»[26].

3 ـ في جبل الكَسَتْ بجزولة (منطقة تافراوت) :

وهنا ينتهي حديث رباط هرغة وملحقاته، ونعقب بإشارة من الإمام الرجراجي : علي بن سعيد، مؤلف «مناهج التحصيل» الذي علق به على كتاب تهذيب المدونة للبراذعي، فيذكر في طالعته أنه ابتدأ تصنيفه ـ بجبل الكست من جبال جزولة ـ عاشر ذي الحجة عام 633/«1236»[27].

☆ ☆ ☆

4 ـ في نول لمطة :

ومن هذا التاريخ ننتقل إلى عام 663/«64 ـ 1265» عند «نول لمطة[28]»، حيث كان الشيخ أبو سليمان داود بن علي الحيحائي يشتغل بالتعليم، فيضطلع بتدريس مادتي الحساب والفرائض بطريقة موسعة، وهما مادتان درسهما بين يديه تلميذه عبد الله بن أبي بكر بن يحي الجِدميوي الصودي الطديثي السمكاني نزيل الأسكندرية من بعد، فيأخذ عنه كثيرا

---

26) «رحلة الوافد» مخطوطة خ.س. 11875 ص 14.

27) «مناهج التحصيل» من مخطوطات خزانة القرويين رقم 381، حسب «فهرسها» 373/1 ـ 375، وانظر «المعسول» 305/5 ـ 308.

28) وادي نون.

من الحساب، وكتاب «الكافي» في الفرائض لابن عبد البر خمس مرات، ويتقن عليه المادتين وهو ابن عشرين سنة أو أقل منها.

وقد كانت إفادات أستاذه بين المصادر التي استمد منها في تأليف كتابه في الفرائض : «نهاية الرائض في خلاصة الفرائض»[29] : ثم اختصره في مؤلفيه :

«كفاية المرتاض في تعاليل الفراض».

و«مفتاح الغوامض، في أصول الفرائض».

والمؤلفات الثلاثة يضمها مجموع مخطوط في «دار الكتب الناصرية» بتمكَروت رقم 1647.

وثلاثتها من النوادر، وكانت لا تعرف إلا عن طريق أبي القاسم التجيبي[30]، فيذكر قراءته لها على مؤلفها في هذه الفقرة :

«كتاب نهاية الرائض في خلاصة الفرائض، من تأليف الشيخ الفقيه الفرضي الحسابي، العابد الزاهد الصوام القوام، جمال الدين، أبي محمد عبد الله بن أبي بكر بن يحيى بن عبد السلام، المغربي ثم الجدميوي الصودي نزيل الأسكندرية.

قرأت جميعه عليه بالمسجد المنسوب لأبي الدرداء رضي الله عنه، داخل باب السدرة من ثغر الأسكندرية، وصح ذلك وثبت في عدة مجالس،

---

29) في خاتمة هذا الكتاب تحدث المؤلف عن دراسته بنول لمطة على أستاذه الحيحائي، وقد تصحف هذا بالبجائي في «نيل الابتهاج» المنشور بالقاهرة على هامش الديباج ص 141.

30) «برنامج التجيبي» الدار العربية للكتاب : ص 274 ـ 275.

آخرها في ليلة يسفر صباحها عن يوم السبت التاسع لشهر ربيع الثاني، من سنة ست وتسعين وستمائة، ثم قرأت عليه جميعه بعد ذلك، وهو كتاب جليل مفيد في بابه، شكره أهل المعرفة بهذا الشأن...

كتاب كفاية المرتاض، في تعاليل الفراض، وجزء فيه مفتاح الغوامض في أصول الفرائض، كلاهما من تصنيف جمال الدين المذكور.

سمعت الكفاية عليه، ثم قرأتها أيضا، وقرأت المفتاح عودا بعد بدء عليه أيضا.



وعند هذه الفقرة من أبي القاسم التجيبي، يكون هذا العرض قدم أربعة مراكز تعليمية، وهي تمثل المعروف عن البدايات الأولى للمدارس العتيقة بسوس، بدءا بدار المرابطين، وانتهاء عند مركز نول لمطة أواسط القرن الهجري السابع، وبعد ذلك يتتابع تأسيس هذه المدارس ببطء، لتتكاثر مع القرن التاسع وبعده حتى بدايات المائة الهجرية الرابعة عشر، أو نهاية القرن العشرين، فتتناثر طول هذه الفترة على امتداد منطقة سوس، لتتدارس المواد التعليمية التي تنتشر بالمغرب، وهو موضوع طفحت بتفاصيله مؤلفات مؤرخ سوس المرحوم محمد المختار السوسي، وخصوصا «سوس العالمة»، و«المعسول»، و«خلال جزولة».

ووكدنا ـ الآن ـ هو الالماع لبعض خصائص المدارس العتيقة بسوس، فيلاحظ أبو القاسم التجيبي[31] عن الجزوليين اعتناءهم بمادة الفرائض وتحصيلها وما يتعلق بها، وهي ظاهرة يؤكد استمرارها محمد المختار السوسي[32]، فيقول عن هذه المادة : «وإنما أفردناها لأننا نرى للسوسيين نحوها التفاتا خاصا... ولكون السوسيين يولعون به كثيرا، كان بعض الحذاق الحضريين يسميه علم السوسيين».

وعن أخلاق رجال التعليم بالمنطقة نقتبس فقرة من الرصاع[33]، وهو يترجم لشيخه يعقوب المصمودي نزيل تونس ثم الشام، حيث توفي بها حدود 850 هـ أو ما قاربها، فيذكر ارتسامات المترجم عن علماء المصامدة في هذه القولة أثناء كلام :

«أما أنا فما أدركت المشايخ على هذه الحالة : من كثرة الكلام، وإظهار الفصاحة، والزيادة على المقصد في الفهم، وقل إن يسلم الإنسان مع الله في ذلك، ولا أدركت مشايخي يستندون إلى حائط، بل يستقبلون القبلة في المسجد، وتجلس الطلبة معهم يمينا وشمالا، ويقتصرون على أقل موضع في المسجد...

وقد شاهدت شيوخنا من المصامدة أهل الورع والحفظ والفقه والتحفظ في أعمالهم : يتادبون بآداب العلم، ولا يرفعون أصواتهم على أصحابهم فضلا عن شيوخهم، ولا يراجعون الشيخ إلا تفهما لا اعتراضا عليه».

---

31) نقل ذلك في نيل الابتهاج ص 141 : عن «رحلة أبي القاسم التجيبي».

32) «سوس العالمة» ص 50.

33) «فهرسة الرصاع» المكتبة العتيقة بتونس ص 130، مع الرجوع إلى نسخة مخطوطة.

ويصف الرصاع[34] طريقة شيخه في التدريس هكذا :

«والشيخ سيدي يعقوب يحل اللفظ بشرحه، ويتعبد الألفاظ عن شيوخه - بسكون وهدوء وورع - في العبارة وفي النقل، وإذا تشكك يقول : لا تنقلوا عني هذا».

وهذه الطريقة انتهجها أحد علماء سوس في القرن 10/«16» : مبارك بن علي بن إبراهيم الجزولي نزيل فاس، والمتوفى عام 1575/982، وهو أستاذ أحمد ابن القاضي، فيقول عنه في «المنتقى المقصور»[35] : قراءته لخليل يصور المسألة فقط، كعادة أهل مصر والمشرق، وحدثني شيخنا أبو راشد أن قراءة الزقاق وسيدي علي بن هارون كانت كذلك أيضا، فهي أنفع لطالب العلم».

وكانت للسوسيين منهجية متميزة في تعليم مادة «التصريف»، ونوه بها اليوسي[36] دون أن يعرف بها، فيقول عند ترجمة أستاذه عبد العزيز الرسموكي : «وحضرت عنده في تصريف الفعل، وله ولأهل بلده في ذلك طريقة نافعة».

وفي صدد تدريس الطب بالمنطقة يبرز اسم أبي العباس أحمد بن الإمام محمد بن أحمد الحضيكَي، فيعدد أحد تلاميذه مقروءاته عليه، ويذكر الفية ابن سينا مع شرحها لابن رشد، ثم يضيف : «وسمعت منه

34) المصدر ص 130.

35) مخطوط خ.س 11952 عند الباب 24 ص 297، وانظر أيضاً «الدرر المرصعة» خ.ع.ك 265 : عند ترجمة الشيخ أبي عبد الله بن ناصر.

36) فهرسة اليوسي : مخطوطة خاصة.

كثيرا من تذكرة الانطاكي في الطب، ومن «الزهراوي» : يحدثني بكلامهما من حفظه، وكان مولعا بذلك الفن»[37].

ويبدو أن تذكرة الانطاكي وصلت - مبكرة - إلى سوس، فيسند إلى مؤلفها يحي الجراري في فهرسه : «ضوء المصباح[38]»، ويسوق سنده في الطب عن شيخه سيدي محمد الزريفي، عن سيدي بورك بن عبد الله بن يعقوب السملالي الحسني، عن والده سيدي عبد الله المذكور، إلى أن ينتهي السند للشيخ داود الانطاكي.

ومن تقاليد الطلاب في مغرب الأمس تفانيهم في الاجتهاد لتحصيل العلم، وكان من حظ سوس في هذه الظاهرة ما يقصه سعيد الهوزالي عن أستاذه أبي القاسم بن عمر التفنوتي ثم الدرعي، فيذكر التلميذ : «وكانت مساكن دراستنا قرب مسكنه ونحن نجد غاية الجد، فكان يقول لنا ما كنتم تصنعون شيئا، ما هكذا عرفتُ جزولة»[39].

وأبو القاسم التفنوتي كان يحض طلبته على الاحتراف بما يكون به معاشهم[40].

وقد لمع بين علماء سوس أفراد كانت لهم يد صناع متميزة، ونتخير من نماذجهم ثلاثة :

---

37) «المعسول» 23/6، وترجمة الحضيكي بنفس المصدر 325/11.

38) مخطوط خ.س. 4275، غير أن هذا السند لا يخلو من مؤاخذة، سيما في آخره.

39) «طبقات الحضيكي» : المطبعة العربية بالدار البيضاء 151/1 - 152.

40) المصدر 151/1.

أ ـ الجمال المغربي : عبد الله بن محمد بن أبي عبد الله السوسي ثم المصري، ت 1400/803، كان ـ حسب ابن حجر ـ أعجوبة الدهر في صناعة الأشياء الدقيقة[41]....

ب ـ الروداني : محمد بن محمد بن سليمان السوسي نزيل الحرمين الشريفين، ت 1983/1094، ويقول عنه أبو سالم العياشي[42] : «وكانت له يد صناع يحسن غالب الحرف المهمة، سيما الرقيقة العمل، الرائقة الصنع، كالطرز العجيب، والصياغة المتقنة، وتسفير الكتب،والخرازة...

ج ـ الأدوزي : محمد بن العربي بن إبراهيم السملالي ت 1906/1323، وكان يحسن غالب الحرف المهمة، سيما التزويق، والتسفير للكتب، والنجارة، والبناء[43]...

ونتابع ـ بعد هذا ـ تقديم خصائص المدرسة العتيقة بسوس، فنشير إلى أن نفقات التعليم لم تكن ـ قط ـ من الدولة، ويتبناها الموسرون في زكوات وهبات منوعة توارثوا تقديمها خلفا عن سلف، فتغطي نفقات الكتاتيب القرآنية ومعلميها، والمدارس العلمية وأساتذتها وتلاميذها : شرطا وسكنى وتموينا، ويتم ذلك وفقا لتقاليد عفوية شرحها محمد المختار السوسي في «سوس العالمة»[44]، ونثر نبذا منها في «خلال جزولة»[45].

---

41) «الضوء اللامع» 57/5.

42) «الرحلة العياشية» ط.ف. : 38/2.

43) «المعسول» 175/5 ـ 176 و182.

44) ص 154 ـ 155.

45) 172/3، 186 ـ 20/4 ـ 21.

وكان لهذه العادة نظائرها في كثير من أرياف المغرب حيث توجد المدارس العتيقة، ثم اندثر ذلك من سوس وسواها بعد تعميم التعليم العصري بالمغرب. ومن الجدير بالذكر أن مبدأ الإنفاق الشعبي على التعليم الإسلامي يعم جهات شرق آسيا، وبذلك استطاع هذا التعليم الاستمرار - بجانب المدرسة العصرية - في كل من الباكستان والهند والافغان وإيران وسواها.

أما لغة التدريس فكانت هي اللهجة الشلحية[46]، بينما استمرت العربية لغة التأليف، ولم يشذ عن ذلك سوى مؤلفات محدودة في أغراض تعليمية.

☆ ☆ ☆

ونختم هذا التدخل بالإشارة إلى ثلاث من المثقفات السوسيات حافظت المصادر على أسمائهن :

1 - رحمة بنت الإمام محمد بن سعيد السوسي المرغيتي، تاريخ وفاتها غير مذكور، وتوفي والدها عام 1678/1089.

وألف برسمها مختصرا فقهيا مبسطا[47]، فاستفيد من ذلك أنها كانت على درجة من الثقافة.

2 - فاطمة بنت محمد الهلالية من وعل، المتوفاة عام 1207/92 - 1793.

---

46) يرجع هنا إلى خاتمة «المعسول» 280/20 - 281.

47) «الروض اليانع الفائح» للمعداني : مخطوط خ.س. 61 : 231/1.

لها ترجمة في فهرس[48] تلميذها محمد بن عمر السوسي اليبوركي، فيصفها بالفقيهة العالمة السالكة، ويذكر أخذها عن الشيخ أبي العباس بن ناصر وغيره.

3 ـ عائشة بنت الحاج مبارك الشلح بن أحمد بن الحسين التكَي (المتوكي)، كانت بقيد الحياة عام 1830/1245.

ولا يعرف عن حياتها إلا أنها خطت ـ بيدها ـ مصحفا شريفا ومؤلفين :

أ ـ «مصحف شريف»، كتبت في آخره باللون الأحمر : «كمل القرآن العظيم، بقدرة الجليل الكريم، بحمد الله وحسن عونه وتوفيقه الجميل، على يد خديمة ربها، الضعفة (كذا) عائشة بنت الحاج مبرك (كذا) الشلح التكَي، غفر الله لها ولوالديها ولمن نظر في خطها، ولجميع المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات : الأحياء منهم والأموات، اللهم اجعل آخر كلامنا : لا إلاه إلا الله، محمد رسوله الله».

وأثر هذا في الهامش بلون السواد : «عام سبع وثلاثين ومائتين وألف».
خ.س 4225.

ب ـ «مطالع المسرات بجلاء دلائل الخيرات» : اسم الشرح الصغير لدلائل الخيرات للجزولي : تأليف محمد المهدي الفاسي، وقد ذيلته بهذه الخاتمة :

48) خ.س. 12933.

«كمل الكتـاب المبـارك ـ بحمـد اللـه وحسن عونـه وتوفيقـه الجميـل ـ صبيحة يوم الجمعة، الثاني والعشرين يوما من شهر الله جمـادى، عـام سبعـة وثلاثين ومائتين وألف : 1237، اللـه يوفقنـا للصواب، على يـد أمـة اللـه : عـائشـة بنت الحـاج مبرك (كـذا) بن أحمـد الشلـح التكَي، البـائس الفقير، الضعيف الحقير، المحتـاج لرحمـة اللـه ومفتـاح البصير، (كـذا) غفر اللـه لهـا ولوالديها ولشيوخها، ولمن نظر في خطها، وكل من قراه يدعو إليهـا، ولجميع المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات، ورضي الله عن أصحاب النبي أئمة الهدى، ومصابيح الدنيا، وعن التابعين، والحمد لله رب العالمين، وهو حسبي ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا باللـه العلي العظيم، اللهم اجعل آخر كلامنا : لا إله إلا الله، محمد رسوله الله».

خ.س 4087.

ج ـ «مدارك التنزيل، وحقائق التأويل» : اسم تفسير القرآن الكريم لعبد الله النسفي في سفرين، وقالت آخر السفر الأول :

«قـد انتهى الجزء الأول... وكان الفراغ منـه يوم الحـد (كـذا)، الثـاني والعشرين من شهر الله ذي القعدة، عام خمسة وأربعين ومـائتين وألف، على يد أمة الله : عائشة بنت مبرك (كـذا) بن أحمـد نجل الحسين الشيخ، التكَي الغشي الحسنوي، غفر الله لها ولوالديها[49].

خ.س 5061.

الرباط : **محمد المنّوني**

49) من دراسة لمحمد المنوني بعنوان «الوراقة العلوية» : القسم الثـاني، مجلـة «دعوة الحق» : العـدد 246 ص 140 ـ 141.

البادية المغربية
وإشعاعها الحضاري

عبد العزيز بن عبد الله

اضطلعت البادية المغربية شمالا وجنوبا من الكَويرة إلى طنجة بدور حضاري أشع طوال ألف عام في مسار واكب، بل نافس، ركب التطور الفكري والاقتصادي والاجتماعي في كبريات الحواضر. وسنرسم صورة مكبرة عن إسهامات منطقتين هما إقليم (كَليميم) في الجنوب الأدنى للصحراء و(خريبكَة) في الوسط الشرقي، لاستشفاف جوانب ربما ظل بعضها غامضا خلال عشرات الأجيال؛ وهي مساهمة متواضعة لإبراز بُعد الإنجازات التي حققتها البادية المغربية في استقرارية أصيلة تطمح باطراد إلى التجدد ضمن إطار الحضارة الإسلامية.

خريبكَة ودورها في بناء الكيان الحضاري

لقد اضطلعت البادية المغربية برسالة حضارية عبر التاريخ ونود كنموذج لهذا المسار الحضاري إبراز دور (خريبكَة) في بناء الكيان المغربي، ونوجز فيما يلي الخطوط الكبرى لهذا النشاط الجهوي بعد رسم صورة

مكبرة، عن الجهاز القبلي في هذه المنطقة مبرزين هيكل الفصائل والبطون والأفخاذ التي كيفت المجتمع بهذا الإقليم مع حياة الترحل التي طبعتها خلال القرون الأولى إلى عهد الموحدين في القرن السادس الهجري.

تقع (خريبكَة) بين تامسنا وتادلا، ويقارب عدد سكانها اليوم أربعمائة ألف نسمة (372.000 حسب الإحصاء الأخير) وهي تتألف من الجماعات الآتية :

أولاد ابراهيم (بوجنيبة سابقا).

أولاد بحار كبار[1].

أولاد عزوز.

أولاد عبدون (نفس الإسم لجماعة في بلاد الرحامنة).

وادي زم : تضم جماعات منها أبو الجعد وآيت عمار والمعادنة وبني اسمير وبني بانا وأولاد فنان وتاشراقت وبني ازرنتل والشكران والرواشد والكناديز واولاد بوغادي.

وهنا يحق لنا أن نتساءل لماذا أطلق على المنطقة اسم (خريبكَة) أو (خريبقة) ؟ فهل هي كلمة بربرية أم عربية ؟ إن مادة خ ر ب ق تؤدي مفهوم الاستقرار بالأرض وقد يكون أصل الكلمة منذ القرن السادس الهجري حيث تخلى أهل المنطقة عن الترحال والنجعة والظعن للإقامة بالأرض.

---

1) راجع وصفها في كتاب صدر عام 1948 لـ Alain Chaillons

ولعل لموقع المنطقة بين تامسنا وتـادلا أثراً في اختيـاراتهـا الحضـاريـة بـل وحتى السيـاسيـة التي كيفت جـانبـا من مميزاتهـا بحكم المنـاخ الجغرافي والمؤشرات المختلفة وأول ظاهرة لتأثير الجوار هو مطـاطيـة مسـاحـة المنطقـة لأن إقليم تامسنا شكل في فترة زمنية غير واضحة مجموع السهول الممتـدة بين سلا ومراكش وسـط المغرب الأقصى وكانت كلمـة (حـوز) تقرن بهـذا الإقليم الـذي عرف امتـدادا آخر على طول سـاحل المحيـط الأطلنطيكي عبر نهر أبي رقراق (الفـاصل بين العـدوتين : سـلا والربـاط) إلى نهر أم الربيـع ثم انحصر بعد ذلك في إقليم الدار البيضاء ليطلق أخيرا على منطقة الشاويـة بمـا عرف فيها من تفاعلات عربية بربرية ولعل النحلة البرغواطية قد حـاولت طوال هذه الفترة وقبل ظهور الموحدين استقطاب الفكر العقدي والديني غير أنهـا لم تفلح لأننا لم نعثر على أيـة ظـاهرة بـارزة توذن بهـذا التـأثير وقـد يكون لطـابع الترحل وعـدم الاستقرار القبلي ضلع في استمرار أصـالـة المنطقـة التي وجـدهـا المـوحـدون خلـواً من رواسب الانحراف سـواء منـه البرغـواطي أو الخارجي (أي مذهب الخوارج).

وقد انحصر الشق الإباضي من الخوارج في تلمسـان منـذ عهـد أبي قرة (القرن الثـاني الهجري) والشـق الصفري في سجلمـاسـة منــذ تـأسست عــام 140 هـ على يـد بني مـدرار الى أوائل القرن الرابـع الهجري وهـو آخر عهـد المغرب بهذه الطوائف المنحرفة عدا فلول البرغواطيين وبقايـا اباضيـة تحمل اسم البضـاضوة أو العكاكزة إلى عهـد الحسن الأول أوائـل القرن الرابـع عشر الهجري.

أمـا تـادلا فقـد امتـد نفـوذ المـولى إدريس الأكبر إليهـا بين 172 هـ و 177 هـ جنوبي مكنـاس وفاس وطفقت إلى أوائل القرن السـادس الهجري

موئلا وملجأ لأدعياء الملك مما أدى عام 530 هـ إلى وقعة تادلا (في عهد عبد المومن بن علي الموحدي).

وكانت تعتبر طريقا مفتوحا بين فاس ومراكش قبل أوائل القرن الثاني عشر أي ممرا للقوافل التجارية التي كانت تنحدر منذ القرن الثالث الهجري من قرطبة بالأندلس إلى العدوة الجنوبية عبر قصر المجاز (القصر الصغير) ثم البصرة (العاصمة الثانية للأدارسة) وفاس ومراكش عن طريق الأطلس الأوسط ثم سجلماسة ومنها إلى السودان لاختراق (بحر القلزم) أي البحر الأحمر للوصول إلى اليمن ومحاذاة الربع الخالي المؤدي إلى الخليج العربي وبصرة المشرق وقد اتسمت هذه الطريق بكثير من مظاهر الوحدة والتساوي سلالة ولهجة وأعرافا بحكم الاحتكاك أو التهجين وقد اصبح الانتقال بين فاس ومراكش يتم منذ القرون الأخيرة عبر تامسنا أي عن طريق الساحل من الرباط إلى فضالة (المحمدية اليوم) ثم أنفا والشاوية.

ويمكن أن نتساءل عن ماهية القبائل الأصلية في المنطقة إذ لم تكن بها قبل الموحدين قبائل قارة ـ على ما قد يلوح ـ وإنما كانت تتردد عليها قبائل رحالة انتجاعا للمرعى والماء، وفي عام 584 هـ نقل إليها يعقوب المنصور الموحدي العرب الهلاليين وهم عرب (أثبج) مع (جشم) الذين منهم (الخلط) وبنو جابر وأولاد مطاع عرب معاقلة وبطن من سفيان أخوال المولى زيدان العلوي (راجع زهر البستان في أخبار المولى زيدان، لمحمد العياشي المتوفى عام 1139 هـ).

فالعرب الهلاليون كانوا مع زناتة درعا للجيش الموحدي الذي عبئ في 18 جمادى الثانية 558 هـ للجواز الثاني إلى الأندلس ضمن ثلاثمائة ألف

فارس انتشروا إلى سهول أبي رقراق قبل أن تعاجل المنية الأمير عبد المومن ابن علي في مدينة سلا.

أما بنو جابر فمن بطونهم ورديغة وقد تحيزوا إلى سفح الجبل بتادلا يجاورون صناكة القاطنين بهضابه بصناكة أو صنهاجة كان لها أيضا دور في المنطقة وهم عرب بائدة منحدرون من اليمن ومن هذه الكلمة اشتقت أسماء مثل سنغال وزنوج ...الخ.

وبخصوص اقتصاد المنطقة لوحظت ثلاث مراحل :

1) من الفتح الإسلامي إلى عام 584 هـ وهي فترة امتازت بالنجعة والتجارة أي فترة حركية اعتورتها تغييرات جذرية في الانتماءات القبلية.

2) من آخر القرن السادس الهجري إلى آخر القرن الثاني عشر منه : اتسم هذا العهد بنوع من الاستقرار تبلور في اتجاه متزايد نحو الالتصاق بالأرض لفلحها وزراعتها وتربية المواشي في مراعيها بالإضافة إلى الحركة التجارية التي تقلصت خلال القرن الثاني عشر بسبب المزاحمة التي انطلقت من الطريق الساحلي الجديد بين فاس ومراكش وأقصى الجنوب.

3) منذ اعتلاء جلالة المرحوم محمد الخامس على العرش عام 1927 تم الكشف عن الفوسفاط الذي بلغ دخله عام 1930 م ما قدره مائتا مليون فرنك وهو مبلغ باهظ بالنسبة لذلك العصر، غير أن المعمرين والفرنسيين والألمان استطاعوا أن يستحوذوا ـ في ظل الاستعمار ـ على الأراضي الصالحة للزراعة حيث بلغت مساحتها في الشاوية وحدها 27.671 هكتارا عام 1912 انتزعت من سبعمائة ألف فلاح أو ملاك زراعي مغربي وكانت الماشية آنذاك مزدهرة حيث بلغت رؤوس الغنم ثمانية ملايين والأبقار مليونين اثنين

حسب إحصاءات نفس السنة وهي 1927. وهي كمية لا يُستبعد وجودها في منطقة غنية إذا اعتبرنا أن إحصائيات عام 1859 سجلت 48 مليون رأس من الغنم وستة ملايين من البقر بالنسبة لمجموع المغرب، مع أن كمية رؤوس الغنم اليوم في الشمال الإفريقي لا تتجاوز خمسة وعشرين مليونا. وتأسست بالدار البيضاء مولدة كهربائية عام 1924 أصبحت تمد منذ سنة 1928 الخطوط الحديدية بين الدار البيضاء وخريبكَة.

وعناية الملوك العلويين بالمنطقة بلغت شأواً بعيداً تبلور في مدى اعتمادهم على رجالها اقتصاديا وعسكريا مما جعل السلطان محمد بن عبد الله يعين عام 1188 هـ / 1774 م على تادلا مثلا أحد أبنائها وهو صالح بن الرضى الورديغي[2] وقد اندرجوا في سلك الجيش المغربي في عهد ثلاثة ملوك علويين وهم محمد الثالث والمولى سليمان والمولى عبد الرحمن بن هشام بعد أن شاركوا في وقعة الأرك بالأندلس عام 591 هـ وفي وقعة وادي المخازن عام 986 هـ وانتظموا في العسكر الرسمي منذ أيام المرينيين.

أما في الحقل الثقافي فيكفي أن نشير إلى الدور الطلائعي الذي اضطلعت به مدارس (أبي الجعد) و (زاوية الدلاء) مما لا يقل أهمية عن دور (زاوية تامكروت) الناصرية ضمن نشاطات امتدت جسورها عبر عصور متوالية إلى عهد المولى هشام لاسيما بعد أن انتقل الزعيم الديني محمد العربي المعطى الشرقي من مراكش إلى أبي الجعد في هذه الفترة. على أن المنطقة استقطبت منذ القرنين الثالث والرابع الهجريين حركة مناوئة لبرغواطة

---

2) الاستقصا ج 4 ص 110.

المنحرفة فكانت معقلا حصينا للفكر والثقافة الإسلامية ومنطلقا لتطور اقتصادي عارم في الميادين الفلاحي والصناعي بفضل مناجم الفوسفاط وسد (بين الويدان) وقد كان لرجالها دور فعال رائد في مجال الاستشهاد والفداء في اتصال مع شهداء المقاومة بالدار البيضاء ضمن ثورة الملك والشعب عام 1953 فاستحقوا بذلك أسمى المعالم في ساحة الشرف.

تلك منطقة من عشرات المناطق المغربية التي شكلت طوال ألف عام حلقة حضارية فياضة بالعمل المطرد البناء !

كليميم عاصمة الجنوب الأدنى للصحراء

تختلف أنظار المؤرخين حول أبعاد منطقة كليميم أو كَولمين والأسماء التي تداولتها عبر التاريخ فقد حدثنا البعض أن اسمها الأول كان (نول لمطة) ثم تاكاوصت قبل أن تحمل الإسم الحالي[3].

و(نول لمطة) هذه وصل إليها المرابطون في القرن الخامس وهي حسب La Chapelle في كتابه (Les Tekna du Sud Marocain) – Paris مدينة (أسرير الزوافد) الحالية غير أن الشيخ دحمان ولد بيروك قائد (آيت موسى اوعلي) يرى أن (نول لمطة) هو اسم لمدينة (تاكاوصت) المعروفة اليوم

---

3) راجع تكاوصت ووادي نول مع ترجمة واليها
ابن يد عبد المولى بن عيسى في (مناهل الصفاء مختصر الجزء الثاني ص 59) وكانت تكاوصت هذه عاصمة للإقليم مثلما أصبحت اليوم حيث كان على رأسها وال.

بالقصابي ويرى البعض أن (نول) تكمن في أنقاض (تشيشت) بتغمرت شرقي وادي نون (كتاب تكنة ـ مونطي Monteil ص 21).

ومهما يكن فإن هذه الأسماء تندرج ضمن دوائر تخضع لكليم وهي طرفاية وأقا وأيتوسي (وكانت تعرف بأسا) وطاطا والطنطان والقصابي الخ...

أما أكليم فهي إحدى جماعات دائرة بني اسناسن (إقليم وجدة) وكوليمة إحدى دوائر الرشيدية (أي قصر السوق).

وكانت (كليم) تشكل في القرن الثالث عشر الهجري إحدى المناطق الكبرى في الصحراء تضم درعة أو طرفاية والساقية الحمراء وهي أربع مقاطعات تنطلق من سوس إلى ما وراء ذلك من باقي الصحراء إلى نهر النيجر وهو المعروف بالنيل الغربي في القسم الغربي من السودان الذي يقابله النيل الممتد على طول مصر والسودان، وقد لاحظ المؤرخ موليراس Mouliéras (في كتابه المغرب المجهول Le Maroc Inconnu الذي صدر عام 1895) أن المغرب كان يضم عشر مقاطعات ثلاث منها في أقصى الشمال وهي (الريف وجبالة وفاس) وثلاث في الوسط (حوز مراكش وبلاد البربر والظهرا شرقا) بالإضافة إلى المقاطعات الأربع المذكورة في الجنوب وأكد موليراس أن هذا التقسيم كان مجهولا في أوربا التي «ترسم خرائطها ـ كما يقول موليراس ـ في فوضى والتباس». وقد عبث الإسبان فقسموا الصحراء المغربية عام 1359 هـ/ 1940 م طبقا لنظام تجزيئي إلى أربع مناطق هي : إيفني وطرفاية والساقية الحمراء ووادي الذهب ثم قرروا تقسيما ثانيا

قبيل استقلال المغرب يحتوي على منطقة شمالية هي طرفاية وثانية وسطى هي الساقية الحمراء وثالثة جنوبية هي وادي الذهب.

ولعل تداخل المناطق الصحراوية المغربية هو الذي شجع المستعمر على التأرجح في تقسيماته لأغراض سياسية وإلا فمن الصعب تقسيم صحرائنا لأن قبائلها كانت تنتجع في مطاطية موصولة موارد العيش حيثما طاب لها المقام في مناخ هو نفس المناخ وبين بني عمومة أو خؤولة لا يختلفون حيثما انتقلت فلذلك نجد هذه القبائل مبعثرة تتأصل مغربيتها بالانتشار القبلي بين شمالها وجنوبها فمن العبث إذن أن نحاول تحديد تخوم مفتعلة لنواح عاش بعضها في ظل حاضرة اعتبرت باب الصحراء ومهبطا تستريح فيه الرواحل بين الجنوب وأقصى الجنوب ولهذا كانت (كليم) الحاضرة المركزة تحط فيها القوافل التي بلغت أعداد جمالها المحملة بمنتجات شقي المغرب الشمالي والجنوبي في فترات من تاريخ المغرب ألف جمل تتوالى قطاراتها كل يوم من الكويرة إلى طنجة.

وإذا أردنا أن نضرب مثلا حيا لهذا الانتشار القبلي ضمن الوطن الواحد أمكننا أن نرد عاصمة (العيون) نفسها إلى جهة طرفاية لأن أغلب سكانها مر هذه المنطقة أي من عمالة كليم وسكان طرفاية الحقيقيون هم الآن في الساقية الحمراء وهم الازرقيين والفيكات ولميار وآيت لحسن والرقيبات والعروسيين وأولاد تيدرارين ولنأخذ فخذة واحدة من هذه الفصائل وهي فخذة العروسيين الذين امتزجوا بباقي القبائل عن طريق المصاهرات والاحتكاكات الاجتماعية وهم يعيشون الآن بين الساقية الحمراء ووادي الذهب على طول ساحل المحيط وينتمون إلى الشيخ سيدي أحمد

العروسي الذي يوجد ضريحه قرب مدينة الصمارة وقد انتقل إلى الصحراء من مراكش الحمراء والمولى عبد السلام بن مشيش من قبيلة بني عروس التي توجد كلها أصالة في جبل (العلم) المعروف بجبل مولاي عبد السلام.

وهذه النجعة لم تكن لها دائما دوافع اقتصادية أو اجتماعية بل إن الاختيارات الثقافية كان لها ضلع حيث كان بعض أهل سوس يرسلون أولادهم إلى صحراء (كليميم) وغيرها ليتعربوا وهي شنشنة عرفناها في باقي البلاد الإسلامية فكان الناس يتبدون أي يقصدون البادية لإصلاح ألسنتهم كما فعل الإمام الشافعي الذي اختار لمقامه بطاح قبيلة (بني هذيل) على أن الوصلة كانت ممدودة منذ القرن الرابع الهجري أي طوال ألف عام بين جامعة القرويين بفاس وبعدها جامعة ابن يوسف بمراكش من جهة والصحراء المغربية من جهة أخرى فلذلك لم تخل هذه الفيافي الشاسعة من علماء أفذاذ أسهموا بحظ وافر في بلورة الفكر الإسلامي عبر الديار المغربية شمالا وجنوبا في مثاقفة عارمة ظلت لحمة حية عبر الأجيال.

وقد أشع وميض الحضارة المغربية عبر هذه المسارات متكاثفة متواكبة تواصلت من خلال ما جريات المذهب المالكي وسلفيات التصوف وتشابه الأعراف وتوافق اللهجات العامية وأساليب الكتابة المغربية المختلفة عن الشرقية ومناهج التعليم في الخلوة أو المسيد (تصغير مسجد) وحفظ المتون الخ.

ولعل إطلاق (دار بيروك) على جهات من هذه المنطقة راجع إلى الدور الذي قام به آل بيروك حيث تولوا عمالة الساقية الحمراء فوسعوا نشاط ميناء طرفاية بتعزيز القوافل التجارية مما أطمع الأنجليز في امتلاك الإقليم

وقد تصدى آل بيروك عام 1292 هـ 1875 بأمر من السلطـان الحسن الأول للاستعـداد للطوارئ حسما لغزو محتمـل وقـد عين المخـزن دحمـان بن بيروك عـام 1299 هـ 1881م وسلحـه عـام 1303 هـ 1885 لحراسـة السواحـل من طرفايـة إلى الـداخلـة (وهو الاسم العربي لوادي الـذهب) وصـد كل عـدوان أجنبي عن الصحراء وفي العهد الحفيظي تولى على فال بن دحمـان خلفـا عن والـده على رأس ولايـة السـاقيـة الحمراء لإقرار الأمن في آيت بـاعمران مـع مواصلـة خفر السـواحـل وقـد خلفـه أخـوه أحمـد سـالم بن دحمـان إلى عـام 1331 هـ 1913م حيث انضم إلى جيش التحرير بقيادة أحمد الهيبـة على إثر استيلاء الأسبان على المنطقـة وفي نفس السنـة تولى أخوه عـابـدين الولايـة وصاحب مندوب السلطـان المولى إدريس بن عبـد الرحمن إلى موريطـانيـا عندمـا حمل الظهـائر السلطـانيـة لتنصيب الولاة في الصحراء وهكـذا يمكن القول بأن الصحراء كانت تشكل منطقة واحدة لها حاضرتان مركزيتان همـا (العيون) في أقصى الجنوب و(كليم) في أدناه.

وقـد اشتهرت (كليم) بـزاويـة (أسـا) حيث مـدفن الشيـخ يعـزى بن وهدى الذي توفى عام 766 هـ 1335م[4] وقـد تولى على هـذا المركز الصوفي بعض رجـالات الفكر مثـل محمـد بن أحمـد الحضيكي (المتـوفى عـام 1189 هـ 1775م) ويظهر أن زاوية (أسا) من أقـدم الزوايـا أي الربـاطـات الصوفيـة التي عرفهـا المغرب حيث أسسهـا شيخ صوفي تـوفي عـام 500 هـ 1107م في

4) توجد مذكرات مجهولة المؤلف في حياته وقع النقل عنها إلى القرن العـاشر اختصرهـا محمـد بن عمرو السـوسي الإسريري من رجال القرن التاسع وسماها (الهدى في أخبار ءال يعزى وهدى).

نفس السنة التي توفي فيها يوسف بن تاشفين حسب وثيقة محفوظة في الزاوية ويقام سوق سنوي بهذا المكان وقد وصفها كأحد رباطات (تكنة) مؤرخون غربيون تحدثوا عن سبب تأسيسها وذلك من أجل طرد المشركين من تيزكي سلام والقضاء على قصر (أدروم) وقد تجمعت حول الزواية المناضلة عناصر من أصول مختلفة هي التي كونت (آيت أوسى أو أيتوسى)[5] كما استقطبت المنطقة بفضل هذا الإشعاع الروحي عناصر وردت من المغرب الأدنى كآل حمود وعلى الذين جاءوا على ما قيل من تونس وضربوا خيامهم في (إيفران) وتكجيست وهم الذين أسسوا مسجد (أسا) وقد انضم إلى الزاوية بعد ذلك أهل (أجواكين) الواردين من تاجا كانت وأهل أكوارير وهم محارزة (تيميون) بكوراره.

كل ذلك يدل على أن المنطقة اضطلعت برسالة ثقافية ودينية سامية في الصحراء منذ عهد المرابطين حيث كانت صلة الوصل بين أقصى الصحراء وشمال المغرب ومهبط ركب الحجيج الوارد من السودان الغربي (السنغال الحالي) والمتجه شمالا نحو مراكش أو شرقا نحو سجلماسة التي كان الانطلاق منها يغذى الطريق الأولى التي عرفها المغرب عبر الأطلس بين فاس ومراكش قبل أن تؤسس في العهد العلوي الطريق الساحلية المارة بالرباط والدار البيضاء على أن مدينة (سجلماسة) قد أسست عام 140 هـ فكانت العاصمة الفكرية الأولى للمغرب قبل عهد الأدارسة الذي بدأ عام 172 هـ بدخول المولى إدريس الأكبر وكان مسجد سجلماسة أول معهد درس به العلم قبل جامعة القرويين التي لم تؤسس إلا عام 245 هـ وإلى سجلماسة ينتسب

---

5) m. de Furst, Etude sur latribu de aït Oussa, Assa

عكرمة التابعي تلميذ الصحابي الجليل سيدنا عبد الله بن عباس وقد لاحظ ابن حوقل في مسالكه (ص 70) وياقوت في معجمه امتيازها صناعيا بغزل للصوف فاقت تقنيته آنذاك ما عرفته مصر وبسجلماسة نزل الشريف الجليل الحسن بن قاسم الحسني جد الملوك العلويين الذي استقدمه أهل الصحراء تيمنا وتبركا من (ينبع النخل) بالجزيرة العربية فاختار لإقامته اسمى منطقة من حيث السكون الروحي والفيض الرباني وقد قام بتدريس العلوم في جامعها إلى أن توفى عام 676 هـ 1277م وكانت القضايا الفقهية ترفع إليها من سائر أنحاء المغرب وقد بلغت مكانة اقتصادية جعلت الأندلس نفسها تتعامل بالدنانير السجلماسية التي عرفت بالدنانير العشرية وكانت أداة التعامل بمجموع الصحراء وخاصة في إقليم (كليم) الذي يظهر أنه بدأ يستقطب جزءا من النشاط الحضاري في المنطقة بعد تأسيس (مراكش) التي خلفت أغمات حيث تجمعت آنذاك فئات من رجالات العلم اجتذبت إليها علماء تونس الذين وجدوا في المنطقة بين كليم وسجلماسة الموئل الفكري والروحي الخصب وقد حدثنا صاحب (التشوف في رجال التصوف) عن العشرات من هؤلاء وعن غيرهم من علماء المغرب والأندلس الذين اختاروا اللجوء إلى هذه الرحاب.

والواقع أن الإقليم شكل منذ ذاك شبكة طرق سالكة كان بعضها يتجه أيضا من سجلماسة إلى (تنبكتو) ومن درعة إلى السودان الغربي ومن (وادي نون) إلى (سان لوي) (بالسنغال) زيادة على الجادة العادية التي أصبحت تستقبل منذ القرن، الثالث الهجري القوافل المنحدرة من قرطبة عبر البصرة وفاس ومراكش وقد وصف الحسن الوزان المعروف بليون الإفريقي في كتابه (وصف إفريقيا) هذه الطريق عام 918 هـ 1512م

حيث رافق تجارا بين المغرب والسودان الشرقي وكانوا قد دشنوا حينذاك طريقا جديدا من الجنوب عبر التشاد (وصف إفريقيا ج1 ص 14 و99) لأن الطريق المار بفزان وطرابلس كان قد هجر منذ قرن بسبب عبث عبر الساحل كما هجر البحر بسبب عيث القرصان وكانت القوافل تتجه قبل ذلك طوال ستة قرون عبر بلاد النوبة وجنوب السودان الشرقي ثم بحر القلزم (البحر الأحمر) إلى اليمن والخليج العربي للوصول إلى (بصرة) الشرق التي كانت لها مبادلات ضمن مراكز تجارية مشتركة مع سجلماسة تعاملت لأول مرة في تاريخ المغرب الكبير فضلا عن باقي غربا في القارة الإفريقية بالحوالات الماليةوقد ظلت الوصلة ممدودة والتضامل مستمرا في جميع المجالات بين أجزاء المنطقة وخاصة بين سجلماسة ودرعة في العهد الذي أسست فيه مدينة (كليميم) حيث كتب فقهاء كل من سجلماسة ودرعة عام 447 هـ 1055م إلى عبد الله بن ياسين ويحي بن عمر يستنجدون لإنقاذهم من ظلم مسعود بن وانودين وتحديد معالم الإسلام المندثرة في الصحراء فهب المرابطون في نفس العام (وقيل عام 445 هـ) لتحرير درعة من الإقطاع المغراوي وقتل الأمير مسعود وإحراق مزامير اللهو والمواخير وإسقاط المكوس والمغارم في كل من سجلماسة وباقي الصحراء وقد سار الموحدون على هذا النهج ضمن وحدة المغرب وصحرائه وحاول بنو عبد الوادي تملك المنطقة في عهد يغمراس بن زيان ولكن يعقوبا المريني انبرى عام 673 هـ 1274م لصدهم مستعملا نوعا من السلاح أشار إليه ابن خلدون وهو «هندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانة أمام النار الموقوذة في البارود» وهي أول مرة استعمل فيها المسلمون مادة تشبه البارود لمقاومة ما عرف آنذاك بالنار الإغريقية.

ومنذ أوائل القرن الماضي عمد المخزن إلى توفير وسائل تأمين السواحل المغربية في الصحراء حيث قام الحسن الأول عام 1303 هـ برحلة إلى طرفاية Cap Juby لإقامة مركز وحامية وتغيير ما أحدثه التجار الإنجليز وطمس أعلامه وبناء مرسى (أساكا) واتخاذها مركزا للإصدار مع ترتيب (عسات) بالسواحل من أكادير إلى كليميم (الاستقصا ج 4 ص 265) ولعل شساعة المسافات في هذا الشاطئ قد حدت المخزن منذ عهد مبكر إلى نهج طريقة ناجعة للخفر والحراسة فهل كانت هنالك حاميات مبعثرة على طول الساحل ؟ هل كان الخفر برا أم بحرا ؟ كل ما نعلم أن آخر وثيقة تحدثت عن ذلك يرجع تاريخها إلى عام 1319 هـ 1901م أي أول القرن العشرين حيث كلف المولى عبد العزيز إبراهيم بن مبارك الشتوكي التكني مع محمد بن بلال البوسعيدي بـ (السهر على حراسة السواحل المغربية على طول الصحراء من طرفاية إلى رأس بوجدور «....برا وبحرا ونصب العيون وتطيير الأعلام بما عسى أن يروم أحد إحداثه» وقد تحدث ابن مرزوق الخطيب التلمساني (المتوفى عام 781 هـ / 1379م) (حسب المسند الصحيح الحسن ـ الباب 39) عن الربط التي أنشاها أبو الحسن المريني على سواحل المغرب والجزائر وكانت «إذا وقعت النيران في أعلاها تتصل في الليلة الواحدة أو بعض ليلة في مسافة تسير فيها القوافل نحوا من شهرين وفي كل محرس منها رجال مرتبون نظار وطلاع يكشفون البحر فلا تظهر في البحر قطعة تقصد ساحل بلاد المسلمين إلا والتنفير يبدو في المحارس فأمنت السواحل في أيامه السعيدة وقد نصت المعاهدة الإنجليزية المغربية لعام (1273 هـ / 1856م) في بندها الثالث عشر على أنه إذا غرق مركب بريطاني في وادي نون أو مكان ما من سواحله فإن سلطان المغرب سيستعمل سلطته لإنقاذ وحماية

قائد المركب وطاقمه إلى أن يعودوا إلى بلادهم يساعدهم ولاة وعمال سلطات المغرب في مثل هذه الأماكن » وقد أصبحت السفن منذ ذاك تحمل كل ستة أشهر المؤن إلى الجند المغربي المرابط هناك.

فكليم كانت إذن المنطلق المركزي الذي انبرت منه جيوش الحامية لتنتشر في الصحراء وهي الحاضرة التي استقر فيها مولانا الحسن الأول عام 1303 هـ لتركيز الوحدة وتحرير الجيوب.

الرباط **عبد العزيز ابن عبد الله**

في التحقيق الأدبي:

مع بيتي الرقمتين وصاحبهما

عبدالقادر زمامة

لهذا القلم المتواضع، تاريخ طويل، مع بيتي الرقمتين، اللذين اشتهرا شهرة واسعة، في كتب التاريخ، والأدب، والنقد، والتصوف..! بينما نسي عند مؤلفي هذه الكتب، اسم الشاعر، الذي جادت قريحته بها...!

فقد كنت حاضر الذهن، مرهف السمع، مع بقية الزملاء من طلاب الأدب، والنقد، يوم كان أستاذنا ـ رحمه الله ـ يلقي علينا درسه في الأدب، والنقد، ويقدم جل نصوص الاستشهادات، من ديوان أبي الطيب المتنبي، الذي كان في نظره، الشاعر السباق إلى الأفكار الواردة، والمعاني الشاردة..!

وذات صباح مشرق، جرنا حديث المجاز، والاستعارة والتشبيه، إلى بيتين من أبيات أبي الطيب المتنبي، وهما :

كشفت ثلاث ذوائب من شعرها في ليلة فأرت ليالي أربعا
واستقبلت قمر السماء بوجهها فأرتني القمرين في وقت معا

وكان الشاعر قد ساق البيتين، في مقدمة غزلية، لقصيدة مدح بها الكاتب عبد الواحد ابن أبي الأصبع... ولا أدري كيف انتقل الأستاذ النقادة، بعد تحليل نص المتنبي، إلى إنشاد بيتين آخرين، منوها بقيمتها الأدبية، سماها : بيتي الرقتين، وهما :

رأت قمر السماء فأذكرتني ليالي وصلها بالرقتين
كلانا ناظر قمرا ولكن رأيت بعينها.. ورأت بعيني

والذي أذكره، أننا فتنا إذ ذاك ببيتي الرقتين.. شكلا، ومضمونا، وظهر لنا أنها في القمة... وأن بيتي المتنبي دونها، في التصوير، والتخييل...! وكانت مناسبة، ذهبنا فيها مذاهب شته، في الفهم، والتفسير، والنقد، وبيان عناصر الجمال، ولا سيا في الشطر الأخير :

«رأيت بعينها...! ورأت بعيني...!»

ومرت أيام، وتبدلت أحوال... ترفع، وتضع، وتنشر، وتطوي، من صحائف الأدب، والنقد... ورجعنا إلى بيتي الرقتين، لنستشهد بها في دراسة الأدب، والنقد...

ولكننا فوجئنا بما يفرضه المنهاج، من تعيين الشاعر صاحب البيتين، وظروف الزمان، والمكان المحيطة به... والمصادر التي يمكن الرجوع إليها لدراسة ترجمته، وآثاره، ومكانته الأدبية في عصره..!

وظننا ـ أول الأمر ـ أن ذلك سهل هين، لا يكلفنا إلا استعراض بعض المصادر القديمة، والمراجع الحديثة، لنظفر بمرادنا : من اسم الشاعر، وترجمته، وعصره...!

وهنا تبدأ القصة الطويلة... والمسيرة العسيرة...!

فالمصادر القديمة ـ وما أكثرها ـ سواء منها ما ألف خلال القرن الثالث، ككتب الجاحظ، وابن قتيبة، والمبرد. وغيرهم... وما ألف خلال القرن الرابع، ككتب الأصبهاني، وابن عبد ربه والقالي، وغيرهم... تلتزم الصمت التام، لأن الأمر لا يعنيها...!

وكذلك الشأن مع مصادر أخرى متعددة، أدبية، ونقدية، وتاريخية، ألفت بعد هذين القرنين، ولم يعرج مؤلفوها على هذين البيتين فيما نعلم..!

أما المصادر التي ألفت ابتداء من أواخر القرن السابع فإننا لاحظنا في بعضها، مكانا لبيتي الرقمتين... والتنويه بها، ومحاولة تعيين **«هذين القمرين»** الحقيقي منهما، والمجازي، مع عدد من التأويلات، والتقديرات، والإشارات، التي ربما لم تخطر لصاحبها يوم نظمهما على بال...!

كل هذا تذكره هذه المصادر، ولكنها تنسى أو تتناسى ذكر الشاعر الذي نظمهما، ومضى لسبيله، وترك الباحثين في المقيم، المقعد، من أجل معرفته... ومنهم صاحب هذا القلم...

ولابأس هنا أن نشير إلى مثال واحد، من الأمثلة التي لاحظناها في بعض المصادر حين رجعنا إليها، وتتبعنا واتقول... في فترات... ومناسبات... متعددة... حسب الإمكان... من دون أن نزعم الإحاطة بجميع المصادر... التي كتبت في عدة قرون...!!!

فابن هشام النحوي الشهير (761 هـ ـ 1360م) يذكر في كتابه : «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب» في القاعدة الرابعة، وهي قاعدة التغليب، من الباب الثامن، بيت أبي الطيب المتنبي :

واستقبلت قمر السماء بوجهها فأرتني القمرين في وقت معا

فاتخذ الشراح والمعلقون ذلك ذريعة للاستشهاد ببيتي الرقمتين، من أجل التوسع في قاعدة التغليب، التي أشار إليها ابن هشام، واستشهد لها ببيت أبي الطيب المتنبي...

والمستغرب في هذا كله، أن هؤلاء الشراح والمعلقين ـ فيما نعلم ـ لم يعرجوا على صاحب بيتي الرقمتين...! وتتابع ذكر البيتين في عدد من كتب الأدب، والنقد، والتاريخ، والتصوف، بعضها في المشرق، وبعضها في المغرب، وبعضها في الأندلس... وكل منها يذكر البيتين، ويهمل صاحبهما... حسب ما أمكننا الاطلاع عليه إذ ذاك...!

بل إننا نجد بعض الأعلام سئل عن معناهما من صرف معاصريه، فكان جوابه حسب مشربه، وذوقه، وثقافته...! وقائمة السائلين، والمجيبين، طويلة لا مجال لذكرها في هذه العجالة... وفيهم القاضي، والمفتي، والأديب، والمؤرخ..!

وكنا نود أن نجد عند بعضهم إفادة تتعلق بالشاعر، وعصره، ولكن الأمر يقف عندهم كما كان يقف عند سابقيهم، حول المعنى المراد، والتفسير المقبول... ولا يتعدى ذلك إلى شيء آخر... مما يتعلق بالشاعر، وعصره ومصره... والملابسات المحيطة به...

هكذا كان حظنا... وتجربتنا الخاصة... مع هذين البيتين... والله أعلم بتجارب الآخرين...

ومن ذكرياتي في هذه المسيرة الطويلة الطريفة... أنني عثرت بطريق المصادفة على كتيب كان عنوانه فيما أذكر (....) في شرح بيتي الرقميتين... لكن أحد الزملاء ـ سامحه الله ـ استبد به، فكان آخر العهد به...!

كما أن بعض الباحثين الفضلاء، أفادني مشكورا أن هناك كتابا في المنتخبات الشعرية، جمعه شاكر البتلوني، وضبط أشعاره وشرحها الشيخ ابراهيم اليازجي... وطبع قديما في بيروت... ويسمى الكتاب نفح الأزهار في منتخبات الأشعار[1]... قد ذكر بيتي الرقمتين ص 9 ونسبهما إلى القاضي عياض السبتي : (544 هـ ـ 1149م).

وحيث إنني لم أقتنع بما فعله شاكر البتلوني من نسبة بيتي الرقمتين إلى القاضي عياض السبتي، لسبب وجيه... وهو أن مترجمي عياض، والمؤلفين في سيرته، لا نعلم أن أحدهم نسب إليه البيتين المذكورين...!! فقد بعثت سؤالا إلى الباحثين، نشرته مجلة مجمع اللغة العربية، بدمشق، في العدد الرابع بتاريخ شعبان 1391 هـ ـ تشرين الأول 1971م.

وقد ضمنت السؤال ما قدمت من محاولات... وما أفادني به بعض الباحثين في الموضوع، طالبا جوابا شافيا.!!. ومرت مدة طويلة ولم أتلق

1) انظر ترجمة البتلوني في معجم سركيس ص 526، وأعلام الزركلي ج 3 ص 156 ط 4. سنة 1979م بيروت، وقد رجعنا إلى آخر طبعة من كتاب نفح الأزهار وهي طبعة مصورة، دار كرم. دمشق. بدون تاريخ...

جوابا فيها..!!! ومن أجل ذلك طويت هذه الصفحة، وشغلتني أشياء أخرى... لكن علامة الاستفهام لم تطو من ذاكرتي...! فكلما تمكنت من مصدر بحثت في مظانه عن صاحب بيتي الرقمتين... دون يأس...! واستمر ذلك سنوات...!

وحدثت المفاجأة...! حيث عثرت بطريق المصادفة أيضا... على كتاب لطيف مفيد في بابه، وهو كتاب «كمال العطية بإعراب كلمات من العربية» لعالم مغربي، هو المؤلف الشهير محمد بن علي دينية، الأندلسي، الرباطي، رحمه الله... وهذا الكتاب مطبوع بالرباط أوائل الثلاثينات من هذا القرن...[2].

فقد ذكر هذا المؤلف ص 79 من كتابه هذا أن بيتي الرقمتين كتب عليهما والده معلومات من جملتها قوله :

«... الصواب أنها لشرف الدين وزير الملك المظفر صاحب إربل....».

فهذه الفائدة الثمينة، التي أفادنا بها هذا المؤلف المغربي، المحقق، وجهت بحثنا عن صاحب بيتي الرقمتين وجهة صحيحة، وقربت لنا سبيل الوصول إلى الهدف، بعد مسيرة طويلة وعسيرة... ولكنها مفيدة، شاركنا فيها بعض الزملاء، من الباحثين المحققين...!

- فمن هو الوزير شرف الدين...؟
- ومن هو الملك المظفر صاحب إربل....؟

2) المطبعة الوطنية، الرباط، بدون تاريخ الطبع...!

من أجل الإجابة عن هذين السؤالين ينبغي أن ننتقل إلى القرن السابع الهجري... وإلى الشمال الشرقي من عاصمة بغداد... حيث تقع مدينة إربل التاريخية، التي هي الآن مركز إقليم كردستان....

وقد شاهدت هذه المدينة الأثرية بعد تفكك دولة الخلافة العباسية، عدة تقلبات سياسية، وقامت بها عدة إمارات، مستقلة، أو تابعة لدولتي : السلجوقيين أو الأيوبيين، قبل أن تتعرض لهجمات التتار سنة 634 هـ ـ 1236م...!

ومن كلام المؤرخين، والجغرافيين، والرحالين، الذين تحدثوا عن هذه المدينة نستنتج أن مدينة إربل كانت خلال القرن السادس الهجري، وأوائل القرن السابع، ذات مركز متميز ثقافيا، وحضاريا، بما ظهر بها من مؤسسات : دينية، وعمرانية، واجتماعية، ومن أجل ذلك قصدها جماعة من أعلام المشرق. والمغرب... والأندلس... توزعت تراجمهم كتب التاريخ والطبقات...

ولعلنا لا ننسى أن أبا الخطاب ابن دحية السبتي الحافظ الرحالة الشهير (633 هـ ـ 1235م) أثناء رحلته الطويلة، ببلاد المشرق، نزل ضيفا، مكرما، على أمير مدينة إربل. وهو : مظفر الدين كوكبوري (630 هـ ـ 1232م)...

وفي هذه المدينة، وفي ظل أميرها الذي كان مهتما بإقامة الحفلات، يوم عيد المولد... ألف أبو الخطاب ابن دحية السبتي كتابه المسمى :

وقرأه عليه بنفسه، وأجازه على ذلك بألف دينار... وكان ذلك سنة 604 هـ ـ 1207م كما يقول ابن خلكان[3].

هذه إشارة عابرة إلى مدينة إربل التاريخية التي كان لها شان كبير، وشهرة واسعة، ولا سيما على عهد الملك المعروف عند المؤرخين، بالملك المعظم، مضفر الدين، كوكبوري 630 هـ ـ 1232م... الذي قضى مدة طويلة في الحياة العسكرية، وكان من القواد الكبار الذين لمعت أسماؤهم، وهم يقودون جيوش صلاح الدين الأيوبي 589 هـ ـ 1193م... في المعارك الفاصلة التي جعلت حذا للغزو الصليبي، وغيرت مجرى تاريخ الحروب الصليبية...! وكان محط تقدير وتكريم من طرف صلاح الدين، إلى درجة أن كافأه بتزويجه من أخته[4]...

وصاحب بيتي الرقمتين، كان منحدرا من أسرة نبيلة أثيلة في العلم، والأدب، والأخلاق، والقيام بالأعمال الإدارية، والسياسية، وتولى أفراد منها وظيفتيه :

= الاستيفاء = والوزارة...

ويقول ابن خلكان عن الوظيفة الأولى :

«... والاستيفاء في تلك البلاد منزلة علية وهو تلو الوزارة...»[5].

---

3) وفيات الأعيان ج 3 ص 122، ط. القاهرة 1948م تحقيق محي الدين عبد الحميد...

4) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 3 ص 270.

5) نفس المصدر ص 297، وقد كان لقب «المستوفي» معروفا قبل هذا العصر... انظر الثعالبي، تتمة اليتيمة، ص 288 وص 309، ط. ثانية.

والاسم الكامل، مع الألقاب، لهذا الوزير الشاعر، هو :

أبو البركات، المبارك بن أحمد بن مبارك بن موهوب اللخمي الإربلي، الملقب : شرف الدين... والمعروف (عند بعض المؤلفين الذين أشاروا إلى ترجمته... وآثاره، النثرية، والشعرية...)، بابن المستوفي.... وكذلك بمستوفي إربل...

ولد بمدينة إربل سنة 564 هـ - 1168م وبها تعلم، وتأدب، ولقي عدداً من أعلام العصر الوافدين على هذه المدينة، وتولى منصب «استيفاء الديوان» ثم الوزارة... لملك إربل مظفر الدين كوكبوري متقدم الذكر[6].... وبهذه المدينة نظم القصائد والمقطعات الكثيرة وألف كتبا أدبية وتاريخية... منها كتابه المسمى :

(نباهة البلد الخامل بمن ورده[7] من الأماثل) ويعني بالبلد الخامل، مدينة إربل، التي كانت خاملة، منسية، إلى أن ازدهرت، واشتهرت بما ظهر فيها من معالم الحضارة، والعلم، والأدب...

وقد لاحظنا أن المؤلفين يعبرون عنه في كتبهم تارة بمستوفي إربل وتارة بشرف الدين، وزير مظفر الدين... وتارة... بابن المستوفي... والمعنى

---

6) نفس المصدر ج 3 ص 294.

7) طبع من هذا الكتاب القسم الثاني، في جزءين.
بتحقيق وتعليق د.سامي الصفار، بغداد 1980 في سلسلة كتب التراث، من منشورات وزارة الثقافة والإعلام وينقل عن أصل الكتاب كثيرون...!!

بالأمر واحد... هو أبو البركات المبارك بن أحمد اللخمي الإربلي... الشاعر الأديب المؤرخ، المؤلف.... النقادة، شارح شعري أبي تمام والمتنبي[8]...

وحينما تعرضت مدينة إربل لهجمات التتار سنة 634 هـ ـ 1234م انتقل ابن المستوفي إلى مدينة الموصل، وبها قضى بقية حايته مشتغلا بالمطالعة والتأليف إلى أن ودع هذه الحياة سنة 637 هـ ـ 1234م وبالموصل رآه بها، بهاء الدين المنشت الإربلي 692 هـ ـ 1292م مؤلف كتاب «التذكرة الفخرية» وترجم له في كتابه المذكور[9]...

ومن حسن حظ ابن المستوفي أن يكون الجغرافي الرحالة ياقوت الحموي، الرومي : 626 هـ ـ 1228م قد اتصل به في مدينة إربل، واستفاد منه، ونقل عنه في كتبه... وابن المستوفي ترجم لياقوت في تاريخ إربل[10].

كا أنه من حسن حظه، أن يكون المؤرخ ابن خلكان 681 هـ ـ 1282م. قد اتصل به في إربل، وسمع منه واستفاد من معلوماته الأدبية، والتاريخية، ونقل عنه في كتبه[11]...

وحينما تحقق لدينا أن صاحب بيتي الرقتين هو المعني بابن المستوفي... وهو المعني أيضا بشرف الدين... أمكننا إذ ذاك أن نرجع إلى عدد من

8) انظر مقدمة شرح التبريزي لديوان أبي تمام ج 1 ص 24. ط. القاهرة 1976م.
9) التذكرة الفخرية ص 104. مطبعة المجمع العلمي العراقي بغداد 1984م...
10) معجم البلدان ج 1 ص 137. ط. بيروت 1955م. وانظر تاريخ إربل ق 1 ص 319.
11) وفيات الأعيان ج 3 ص 294.

المصـادر التي نسبت البيتي إلى صـاحبها الحقيقي... أبي البركات ابن المستوفي الملقب بشرف الدين الإربلي...

ومن هؤلاء المـؤلفين، شهـاب الـدين الخفـاجي 1069 هـ ـ 1658م في كتـابـه : طراز المجـالس، في المجلس الحـادي والعشرين ويظهر ـ حسب الاستقراء ـ أن شعر ابن المستوفي كان متداولاً، وأن ديوانه كان معروفاً، عند كثير من المـؤلفين الـذين نقلـوا منـه... ومنهم شهـاب الـدين الخفـاجي، في القرن الحادي عشر الهجري، حيث نقل منه عدة مقطعـات وأبيـات، ومنهـا بيتا الرقمتين[12]... وكذلك فعل آخرون قبله... وبعده...

ومن الطريف الـذي لا أنســاه في هـذه الرحلـة مـع بيتي الرقمتين، ـ زيـادة على مـا سبـق ـ ومـا يعرفـه زمـلائـه الـذين بـادلـوني الإفـادة، والاستفادة، أن أستاذا باحثا كريما هو السيـد عبـد الإلـه نبهـان... كان قـد اطلع على السؤال الموجه سنة 1971م إلى السادة البـاحثين في شـأن صـاحب بيتي الرقمتين على صفحـات مجلـة مجمـع اللغـة العربيـة بـدمشـق... فتفضـل بالإجابـة في نفس المجلـة سنـة 1979م...!! ذاكرا أن الشهـاب الخفـاجي في كتابه طراز المجالس نسب البيتين إلى صاحبها ابن المستوفي الإربلي...

وصادف ذلك أن الرحلة قد انتهت...! وأن الصحيفة قـد طـويت...! يوم وجدنا الضالة المنشودة في كتاب (كمال العطيـة) ورحم اللـه من أفـادنـا ميتاً كان أو حياً... وشكراً لمن أجابنا مبطئاً كان أو مسرعاً....

عبد القادر زمامة

---

12) طراز المجالس. ص 205. ط. القاهرة، 1284 هـ.

بين الدعوى والأصالة

علي الصقلي

ارق، مــا شئت، في سماء الخيــال   وأقم كالسهــا بــأقصى العــوالي
وانشر النــور من هنــاك مقــالا   شــاعريــا، يــزري بكل مقــال !
وتخير لــه، كما رمت، لفظــا   لم تصغــه أواخر وأوالي
وتنقــل فــإنمــا أنت حر   في شعــاب، أو فـوق أعلى الجبــال
وتحـد الفيروزبــادي، وسفــه   سيبـويــه الإمــام، غير مبــال
وبجر جــاني البيــان أطـنح، منـ   ـفردا عنــه بــالبيــان العــالي
واسبحن في بحــورك الألف من ميـ   ـت، إلى هــادر، إلى زلــزال !!
من قصير في نصف لفــظ، كسقــط   ليس إلا...! إلى طــويــل الطــوال
آه لــو أننــا، ونحن على الأر   ض، ترينــا سماك طيف جمــال
نتمــلاه في بيــانــك، في غـ   ـر معــانيــك، في الرؤى، في الخيــال
فــإذا نحن في ركابــك فـوق الـ   ـسحب، ترقى بنــا لأسمى مجــال
وإذا شعرك المجنــح أسمى   طــائر، في سمائــه متعــال
وإذا نحن في ذراك عبيــد الـ   ـشعر حرا، نراه أغلى الغــوالي !

☆ ☆ ☆

كم هفـونـــا إلى سماك، فهـل من سلم يرتقي بنـا لـلأعـالي ؟
أعلى سلم الطـــلاسم والألـــغـاز، والعـاصفـات والأحـوال
نتعـالى إليـك، نسرح في أفـقـك في مثـل سرحـة الجـوال ؟
أو لسنـــا، إذن كمن هم أن يســتـورد المـاء من بحيرة آل ؟!
أو كأعشى إذا مشى فهـو مـاش،شـاء أم لم يشـأ، أسير ضـلال
أغثـاء هـو الجنى ؟ أم هـذاء ؟ أم ضبـاب في مثلـه متـوال ؟
أم رمـوز في فكهـا يقف الفكـر معنى بطرح ألف سـؤال ؟
أم حروف صيغت من الحمـإ النّتـن ؟ وحيكت من أردإ الصلصـال ؟
ليس فيهنّ، مـا نظرت، حيـاة لا ! ولا سر غير أتفـه بـال

☆ ☆ ☆

إنمـا الشعر روضـة نضـدت من خير زهر تغـار منـه اللآلي
وسماء تــزينهـا أنجم زهـر، وهيهـات مثلهـا لليـالي
وبيـان بسحره ينتشي الفكـر بمـا لا تطيـق بنت الـدوالي
إنـه السلسبيـل وردا قراحـا، دون مـذق، وذاك سر الجمـال
ومغـان بـالأنس آسرة، لا دمن تـوحش النفـوس خـوال
وكمثـل الضحى وضـوح شعـاع يستبينـا وسـائر الأجيـال
هـوذا الشعر لافقـاقيـع حبلى بفراغ... فـلا تقر ببـال

☆ ☆ ☆

أيهـا الحر كن، بحقـك، حرا خيرنـا الحر مـالـه من عقـال
غير أنـا إيـاك نرجـو، لتنضـو عن مغـازيـك ضـافي الأسـدال
قـد سئمنـا الكـلام محض أحـاجـ ـدلها، مقطـع الأوصـال
نتهجـاه من يمين، والانتهجـاه، خيبـة، من شمال !!
ولـه كم وكم نقلب طـولا ثم عرضـا، لا ! بـل على كل حـال
عبثـا مثـل حـارث البحر، أو محـتطب الثلـج، آه يـا للمحـال !

☆ ☆ ☆

أيهـــــا الحر دون غـــــل، ألا لا   من بـــديـل نرضــاه بـــالأغـلال
هي للشعر حصنـــــه دون أمثـــا   لـــك من كل مـــدع دجَّـــال !
وإذا لم تكنـــــه أنت فكـــــذبـ   ـني ببيت يقـــوم دون اختـــلال
مفهم قصـــــــده، ومن لي ببيت   منـك ذي مقصـد قريب المنـال ؟!
ولـــه من حـــلاه لفظـــا ومعنى   وخيـــالا مـــا لم يشب بـــاعتـلال
كالنـــدى، كالشـــذا، كبسمـــة فجر   كنسيم، كـــوارف من ظـــلال
كل فن، مـــــا لم يحصن، رخيص   مطمـع فيـه سـذج الأطفـال
كل شعر يعـــز فيها، ولـــو عن   ربـه ! رجـع هـاتف من خبـال

☆ ☆ ☆

أيهـــا الحر، إنمـــا الشعر، والهـ   ـفي عليـه !، مهـدد بـالـزوال
وكفى أنـــك الـــذي جرت حتى   لم يعـد صرحـه سـوى أطـلال

علي الصقلي

من مظاهر العقيدة والسلوك
عند المغاربة في العصر المريني

رضوان ابن شقرون

عانى المذهب المالكي ورجاله طيلة العهد الموحدي محنـاً بسبب منهج الدولة الموحديـة، الـذي كان قـائمًا على مـذهبيـة خـاصـة نـابعـة من فكرة المهدوية[1]. وحينما تأسست الدولة المرينيـة عـاد المـذهب إلى السـاحـة بكل وضوح وعـلانيـة؛ فقـد تمكن الفقهـاء من إعـلان تمسكهم بـالمـذهب المـالكي، وأخذوا ـ بتشجيع من الدولة ـ يشتغلون بكتب الفروع المالكيـة، يصححون نقولها ويدرسونها، وكان ذلك مظهرا من مظاهر الثورة ضـد المـذهب الـذي كانت الدولة الموحدية تتبناه في منـاهج الحكم والعقيـدة والسيـادة، على الرغم من أن البيئـة المغربيـة ظلت مـالكيـة، إلا أنهـا لم تكن تجرؤ على إعـلان مالكيتها.

---

1) ينظر عن مذهبيـة الموحـدين أعز مـا يطلب للمهـدي بن تومرت، الجزائر 1903 م. والـدعوة الموحـديـة بـالمغرب، لعبـد اللـه علام، القـاهرة 1964 م. والأمير الشـاعر أبو الربيـع سليمـان الموحدي، للدكتور عباس الجراري، الدار البيضاء 1974 م.

وبمجرد انقلاب الأوضاع لصالح المرينيين أضحى السلاطين يصدرون في سياستهم العامة عن آراء الفقهاء المالكية، ويهتمون اهتماماً بالغاً بالفقه ورجاله، ويقدرونهم التقدير الكامل. وترتب عن ذلك أن سادت الروح الدينية لدى جميع فئات الأمة، وظهر وعي دقيق لأمور الدين، وفهم عميق لمقاصد الشريعة وتطبيق أحكامها، وحماسة بالغة في نصرة الإسلام، تجلت في كثير من المظاهر التي لها أثر فعال في تقوية الإحساس الديني لدى المغاربة في هذه الحقبة، كإقامة المساجد وإنشاء المدارس وتشجيع التعليم وإعلان مبدأ الجهاد لحماية أرض الإسلام بالأندلس.

ويقف الباحث في العصر المريني معجباً بالحرية التي صبغت سياسة الدولة في الفكر والعمل منذ نشأتها، برغم تبنيها لمذهب معين هو المذهب المالكي وتشجيعها له ولرجاله على كل صعيد. ففي الوقت نفسه نجد مذاهب أخرى وجماعات مخالفة للمذهب العام السائد، بل نجد جماعات متطرفة تعمل على النقيض من مذهب الفقهاء أصحاب النفوذ والكلمة في الدولة، وتجمع حولها الأنصار والمريدين الذين يقفون من سياسة الدولة موقف المعارضة، ويوجهون المجتمع حسب طرقهم ومذاهبهم.

فقد كان المذهب الأشعري موجودا[2]، له أشياعه منذ دخول كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي في القرن الخامس الهجري (11م).

---

2) يعتبر المذهب الأشعري ربيب مذهب الاعتزال، وينسب إلى أبي الحسن الأشعري البصري (ت 322 هـ/935 م). ينظر الملل والنحل 65/1، وأزهار البستان 3، وظهر الإسلام 65/4.

وكان هنـاك أتبـاع للمـذهب الظـاهري[3]، كعبـد المهين الأشجعي (ت 697 هـ / 1298 م) الـذي كان يعتنقـه ويتعصب لـه ويناضـل عنـه، وربما كان قتلـه الـذي تم بإيعـاز من الشـاعر عبـد العزيز الملزوزي بسبب مذهبه هذا.

وكانت هناك أيضاً طائفة (العكازون) الـذين هم من بقـايـا المهـدويـة الموحدية ينبني مذهبهم على تسع مسائل منها تكفير من لا يومن بالمهدوية، والامتنـاع من أكل ذبـائـح المسلمين، واعتبـار من حلـق مـا تحت اللحيـة مجوسياً[4].

وكانت هناك جماعات تتبنى الاجتهاد وتجمع الأنصار لمناهضـة سلطـة الفقهاء المالكية ونفوذهم[5]، كالجماعـة التي قـاد حركتهـا المجتهـد المفكر موسى الحسـاني الهسكـوري الـذي كان حيـاً في الربـع الأول من القرن الثـامن الهجري (14م).

ومنها ما اتجـه إلى معـارضـة الانحراف الحكومي بعـد أن لوحـظ زيغ بعض المسؤولين المرينيين عن الجادة، فـأخـذ هؤلاء يوجهون نقـداً سيـاسيـا يتفاوت شدة وليناً في شكل رسائل أو فتاوى أو معـارضـات، مثل الرسـالـة

---

3) الظاهرية يقدمون ظاهر القرآن والسنة على التعليل العقلي للأحكام، وهم ينتسبون لـداود بن علي الظاهري (ت 270 هـ/ 883 م) ينظر الملل والنحل 1 /104، وشذرات الـذهب 185/2، وضحى الإسلام 236/2.

4) المعيار المعرب 352/2، 423، وورقات عن الحضارة المغربية 246.

5) ينظر عن هـذه الجمـاعـات نوازل الجـاصي 91 ـ 125، والمـدخل لابن الحـاج 332/1 ومواضـع أخرى متفرقة منها.

التي رفعها الإمام محمد بن عباد النفزي إلى السلطان المريني عبد العزيز الأول، ينصحه فيها بالانتباه إلى أهل الفساد والضرب على أيديهم، ويحذره من الغفلة عن تفقد أحوال المستضعفين ومن التقصير في مراقبة الولاة ومعاقبة العصاة وانتهاج نهج العدالة «كما كان يفعله الخلفاء الراشدون»[6].

وتصدى البعض من الأفراد لمقاومة البدع وإقامة السنة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في داخل المغرب وخارجه، مثل الموقف الذي يحكيه المقريزي وابن تغري بردي من أن وزيراً مغربياً زار القاهرة عام 700 هـ / 1301 م فاستنكر الامتيازات التي كان اليهود والنصارى يتمتعون بها في مصر، وكان لاستنكاره أثر في المسؤولين هنالك فاستجابوا له وأبعدوا اليهود والنصارى من مناصب السلطة والإمارة، وأسلم بسبب ذلك جماعة غفيرة من النصارى[7].

وظهرت مؤلفات في مقاومة البدع والأمر بالمعروف داخل البلاد ككتاب البدع لأبي الحسن الصغير الفاسي (ت 719 هـ /1320 م) وكتاب المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات، لأبي عبد الله العبدري الفاسي (ت 737 هـ/1337 م) المعروف بابن الحاج.

وفي هذه الأثناء وصلت المغرب أفكار الإمام ابن تيمية الدمشقي (ت 728 هـ/1328 م)[8] وهو فقيه حنبلي متمكن، عن طريقين أولهما

---

6) توجد هذه الرسالة ضمن مجموعة رسائل مخطوطة لابن عباد (ت 792 هـ/1390 م) في الخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم 255. وقد حققها مؤخراً عبد الرحيم الشنكيطي الأنصاري وتقدم بها لنيل دبلوم الدراسات العليا من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.

7) الخطط 404/4 والنجوم الزاهرة 132/8. وفي تحفة النظار 125/2 صورة أخرى لذلك.

8) ترجمته في فوات الوفيات 35/1 والدرر الكامنة 144/1 والنجوم الزاهرة 271/9.

الرحلة والاتصال المباشر كما فعل أبو القاسم التجيبي السبتي (ت 730 هـ/1330 م)[9] الذي رحل إلى دمشق وسمع من ابن تيمية أربعة مؤلفات. وثانيهما المكاتبة كما فعل أبو طالب العزفي (ت 713 هـ/1313 م)[10] الذي كاتب ابن تيمية في بداية القرن الثامن، والتمس منه أن يجيز له رواية مروياته[11]، وكل ذلك يؤكد تنوير الرأي العام بالمغرب وازدهار الحياة الدينية في هذا العهد.

وفضلا عن ذلك حدث أمر مهم في العصر المريني، وهو تقرير ذكرى المولد النبوي الشريف عيدا رسمياً في البلاد، فمنذ سنة 691 هـ/1292 م، أمر السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق بإقامة المولد النبوي والاحتفال به، فصار عيداً رسمياً في كل البلاد[12]. وكان الاحتفال يستمر عدة أيام يتلى فيها القرآن الكريم، ويتبارى الشعراء في إنشاد المولديات والمدائح النبوية، فاتخذ هذا العيد مناسبة دينية كبرى يبرز فيها مدى اهتمام الأمة والمسؤولين بأمور الدين وعنايتهم بأهله. وقد اسهم ذلك في نمو المذهب السني وازدهاره، وزاد في تمسك الأمة المغربية بعقيدتها الإسلامية والتزامها بما تدعو إليه من أسباب الخير والصلاح.

وإلى جانب تلك العوامل كلها نجد عاملا آخر له أهميته في الحياة الدينية لهذا العهد، هو ذيوع التصوف وازدياد نشاط رجاله وتكاثر

---

9) ترجمته في مستودع العلامة 41 والدرر الكامنة 240/3 وفهرس الفهارس 191/1.

10) ترجمته في جذوة الاقتباس 525/2 وسلوة الأنفاس 301/3.

11) نيل الابتهاج 246 ونفح الطيب 116/3.

12) أزهار الرياض 39/1، 245 والتعريف بابن خلدون 85.

المريدين والأتباع وانتشار الزوايا في مختلف أنحاء المغرب واتساع نشاطها وارتباط السلاطين أنفسهم مع المتصوفة بعلاقات خاصة وانهماكهم في قراءة مؤلفات التصوف وبذل الجهود لتسهيل انتشاره[13]، فعل ذلك السلطان أبو الحسن والسلطان أبو عنان. ومنهم من اهتم بأقوال المتصوفة وما يخبرون به أو يدعون إليه، وصدقوا كراماتهم وانقادوا لآرائهم[14]. فعرف التصوف بتشجيع من المسؤولين الكبار تطورا وانتشارا عز نظيرهما في تاريخ المغرب. لكنه لم يسلم من النقد والمعارضة من قبل الفقهاء المالكية السنيين الذين ميزوا بين نوعين من التصوف :

أحدهما يرتبط بمبادئ الشريعة الإسلامية ولا يبتعد عن أحكامها ومقتضياتها، وكان منتشرا في المدن الكبرى خاصة كفاس ومراكش وسلا وسبتة حيث كان يقيم كبار العلماء وتنظم الدراسة وتنتشر العلوم والمعارف. وهذا النوع كان مقبولا لدى الفقهاء، بل كان منهم من يشارك في شعائره ومراسيمه، كالأبلي وابن مرزوق وابن داود السلوي[15].

والثاني يتساهل أصحابه في اتباع السنة، وتداخله المفاسد والبدع أو المبالغات والخارق، حتى ليبدو من انحرافه كأنه ينهج شريعة أخرى غير ما جاء به سيدنا محمد ﷺ. «فمن ذلك أنهم يعتمدون في كثير من الأحكام على

---

13) La vie intellectuelle marocaine sous les Mérinides et les Watassides p. 488.

14) في جذوة الاقتباس 149/1 أن السلطان أبا سعيد بن يعقوب بن عبد الحق سأل المتصوف ابن البناء المراكشي عن زمن وفاته، وكان السلطان قد استدعى ابن البناء إلى حضرته بفاس إكراماً له وإقراراً بفضله.

15) صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد 6 سنة 1958 م ص 228.

الكشف والمعاينة وخرق العادة، فيحكمون بالحل والحرمة، ويثبتون على ذلك الإقدام والإحجام، كما يحكى عن المحاسبي أنه كان إذا تناول طعاماً فيه شبهة ينبض له عرق في أصبعه فيمتنع منه»[16]. وكان هذا النوع منتشراً خارج المدن في المناطق النائية، والفقهاء يرفضونه ويحاربونه ويشنعون عليه ويفندون ما يدعيه أهله من خارق.

وكان المتصوفة يدعون بالفقراء[17]، ويجتمعون في الزوايا والمساجد أو عند بعض الخواص، ويمارسون شعائرهم ومراسيمهم إلى ساعة متأخرة من الليل ينقطعون فيها إلى قراءة القرآن بصوت عال، وإنشاد الأذكار، وأداء الرقصات عليها، وكانت الجماعات الصوفية بالمغرب تعقد مؤتمرا سنوياً يحضره عدد كبير من الفقهاء والعلماء والصلحاء، وكانت تجري فيه غرائب وعجائب مدهشة[18].

وإذا كان الاتجاه الغالب الذي ساد في هذا العصر هو التصوف الملتزم بالعمل بالكتاب والسنة، والمبتعد عن التيارات المغالية أو المنحرفة، فإن ظروف العصر وحرية الفكر والعمل التي كانت دأب المسؤولين حينئذ، سمحت بوجود طوائف صوفية متعددة[19]، نذكر منها :

16) الاعتصام 282/1.

17) يراجع كلام ابن تيمية عن المتصوفة والفقراء وتحديدهما وأصنافهما في الفتاوى 5/11 وما بعدها.

18) ينظر ذلك في أنس الفقير وعز الحقير 71 ـ 72.

19) تنظر هذه الطوائف في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد 6 سنة 1958 م ص 228 وما بعدها.

1) طائفة الشعيبين أصحاب أبي شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي دفين أزمور (ت 561 هـ / 1166م)[20].

2) طائفة الحجاج، ولا ينخرط فيها إلا من أدى فريضة الحج.

3) طائفة الأغماتيين أصحاب أبي زيد عبد الرحمان الهزميري دفين فاس (ت 706 هـ/1306 م)[21]. ولكن طريقتين اثنتين كانتا أكثر انتشاراً وتنظيما من غيرهما، وهما :

- طريقة الإمام شعيب بن الحسن الأنصاري الأندلسي دفين تلمسان، المعروف بأبي مدين الغوث (ت 594 هـ/1198 م)[22] وكانت طريقته تعتمد على مذهب الإمام الغزالي وآرائه التي يتضمنها كتابه : إحياء علوم الدين.

- وطريقة الإمام الشيخ علي بن عبد الله بن عبد الجبار الحسني الإدريسي، المعروف بأبي الحسن الشاذلي (ت 656 هـ/1258 م)[23]. وتعتمد طريقته على الحقيقة والمعرفة أساساً لنظرتها إلى الأمور وتحليلها للأسرار، وكان مبدأ شيخها ومريديه «اعرف الله وكن كيف شئت»[24].

وظهرت بعض الاتجاهات الفردية في النهج الصوفي على يد بعض الأفراد الذين لم يكونوا منضمين إلى أي تجمع طائفي أو طرقي، ولكن انفرد

---

20) ترجمته في الإعلام للمراكشي 396/1 عدد 118.

21) ترجم له ابن تيجلات في كتاب خصه وأخاه عبد الله به، وسماه إثمد العينين ونزهة الناظرين في مناقب الأخوين. وترجم له كذلك في أنس الساري والسارب 15 وفي جذوة الاقتباس 410/2 وسلوة الأنفاس 52/2.

22) ترجمته في سلوة الأنفاس 364/1 والأعلام 120/5 و Encyclopédie de l'Islam 1/100.

23) ترجمته في عنوان الدراية 140 ولطائف المنن 41 ونفح الطيب 416/1.

24) لطائف المنن 41.

كل واحد بـاتجـاه خـاص، كاتجـاه محمـد بن مـوسى الحلفـاوي (ت 758 هـ/ 1357 م)[25] الـذي يغلب على تصوفـه الطـابع الاجتماعي، فكان دؤوبا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإيثار المحتاجين.

واتجاه أحمد بن عـاشر السلوي (ت 765 هـ/ 1363 م)[26] الـذي يقوم على نشر العلم والفقه والتصوف.

ومن أهم المتصوفـة المشهـورين في العصر المريني هـذا غير من تقـدم ذكرهم لا ينبغي أن نغفل بعض الأعلام كابن الـزيـات التـادلي وأبي الحسن الصغير الزرويلي والمراكشي تيجلات وابن البناء المراكشي المعروف بالعـددي وابن رشيـد الفهري وابن شـاطر اللخمي وأبي عبـد اللـه المطـارحي وأبي يعقوب البادسي والإمام الأبلي والخطيب بن مرزوق ومحمد بن عباد.

وأغلب هؤلاء الأعلام المشاهير أنشـأ التـآليف القيمـة في بـاب التصوف ومذاهبه وطرقه وشروطـه ورجـالـه، فظهرت كتب عـديـدة نـذكر منهـا : التشوف إلى رجـال التصـوف لابن الـزيـات التـادلي، وعـدة المريـد، وشرح حزب البحر، وكـلاهمـا لأبي الحسن الشـاذلي، وعـوارف المعـارف في حقيقـة النظر للعارف، ومراسم الطريقة في علم الحقيقـة، وبـدايـة التعريف، وكلهـا لابن البناء المراكشي، والمقصـد الشريف والمنزع اللطيف للبـادسي، والسلسل العذب والمنهل الأحلى لعبد المهين الحضرمي.

الدار البيضاء　　　　**رضوان ابن شقرون**

25) ترجمته في جذوة الاقتباس 305/1 ودرة الحجال 231/2.

26) ترجمته في النجم الثاقب 67/1 وجذوة الاقتباس 153/1 ونيل الابتهاج 70.

جوائز نوبل لسنة 1985:

تكريم سبعة منجزين
أوروبا والولايات المتحدة تحصدان مجموع جوائز هذه السنة

بقلم: مجموعة من الكتّاب(1)
ترجمة: أحمد عبد السلام البقالي

بقيت «لجنة نوبل» وفية لتقاليدها عند تسميتها لسبعة فائزين بجوائزها المرغوبة. وقد منح القضاة جائزة الاقتصاد للفائز الأميركي الثالث عشر في بحر سبعة عشر عاما. وكالعادة، استولى الباحثون الأميركيون على ميدان العلوم. وفي الآداب ذهبت الميدالية الذهبية للكاتب التجريبي الفرنسي الذي أصبحت رواياته الغامضة قديمة. وهؤلاء هم الفائزون، ومبررات فوزهم :

---

1) عن مجلة (تايم) الأميريكية عدد 28 أكتوبر 1985. ص 50.

في الاقتصاد

تبدو النظرية، للوهلة الأولى، ناصعة الوضوح، وتقوم حول فكرة أن الناس يميلون إلى التوفير وهم شباب لوضع بيضة في العش لأيام شيخوختهم. ورغم بساطة الفكرة، فإنها تقف في صف أقوى التصورات، وأوسعها استعمالا في الاقتصاد الحديث. وقد كانت محور العمل الذي نال عنه جائزة العلوم الاقتصادية لسنة 1985. (فرانكو موديغلياني) من معهد ماسا تشو سيتس للتكنولوجيا) البالغ 67 سنة من العمر، وصاحب النظرية المركزية.

قال زميله (پول صامويلسن) الفائز بنفس الجائزة لسنة 1970 : «بالنسبة لكثير من المرشحين، يعتمد حصولهم على الجائزة على «إذا»، أما بالنسبة لـ «فرانكو» فالسؤال كان : «متى ؟» فقط. «وموديغلياني» الإيطالي المولد، هو الأميريكي الثالث عشر الذي يفوز بالجائزة أو يتقاسمها، منذ أن منحت لأول مرة سنة 1969، وخامس فائز بها في السنوات الست الماضية.

وقد أثرت كشوف «موديغلياني» على أجيال من الطلبة وصانعي القرارات السياسية. فنظريته عن توفير «دورة - العمر»، التي طورها سنة 1950، صحبة (ريتشرد برومبرغ)، قبلت من جميع الخبراء كمفتاح لفهم «الاقتصاد في الانفاق. فبين عدة استعمالات، تصلح نظريته كعلامة لاختبار تأثير أنظمة المعاشات المختلفة. فمثلا، تقول النظرية : ان الناس يوفرون أقل حين يضمن لهم معاش للتقاعد» وقد أكدت ذلك تجربة (السويد)، حيث نزلت نسبة التوفير من 7 ٪ إلى صفر تقريبا بعد أن عممت الحكومة برنامج المعاشات في الستينات.

وقد ثبت نفع منجزات «موديغلياني» المتعددة للمستثمرين ولموظفي الشركات كذلك. وعند منحه الجائزة، ذكرت اللجنة بصفة خاصة، دراسة ريادية «لموديغلياني» عن قيمة الأسهم. وقد أظهرت الدراسة التي كتبت في سنة 1958 بمشاركة (ميرتون ميلر) من (جامعة شيكاغو)، أن المستثمرين ينظرون أساسا إلى ما تتوقعه مؤسسة ما من أرباح في المستقبل حين يقررون قيمة أسهمها. وقد أصبحت نتائج أبحاثه مسلمات لدى مديري المؤسسات ومحللي السندات.

ويدعو «موديغلياني» ذو الشعر الفضي، و«الكينيزي» المتحمس، إلى استعمال برامج مرنة في الانفاق وفرض الضرائب لتحريك الاقتصاد. وقد اغتنم فرصة شهرته الحديثة، في الأسبوع الماضي، لمهاجمة عجز الميزانية الجامح والسياسات الاقتصادية لإدارة الرئيس «ريغان».

ورغم أن جائزة «موديغلياني» بدت طبيعية لزملائه، فقد فوجئ هو بها. يقول : «لم يخطر ببالي التفكير فيها بصفتي رجل اقتصاد يسير في الخط العام، فقد كان يفوز بها اقتصاديون من القلة الخارجة عن هذا الخط».

و«موديغلياني» الذي هاجر من إيطاليا سنة 1938، هربا من الاضطهاد الموجه ضد اليهود، يصفه أصدقاؤه بأنه رجل ملئ بالطاقة والحماس، ولا يعتني بهندامه، وينطبق عليه لقب البروفيسور الشارد الذهن. ولكنه معروف بإدراك القضايا المعقدة بسرعة مدهشة. وليستريح يمارس رياضة قيادة القوارب الشراعية، والانزلاق على الثلج، وكرة المضرب، ولكن ذهنه لا يبتعد أبدا عن الاقتصاد. وقد طور، مرة، فكرة لبحث أثناء مباراة عنيفة في كرة المضرب مع زميله «صمويلسون».

وتتولى زوجة «موديغلياني» شؤون الاقتصاد المنزلي. ويقول هو : «أنا أعطيها الفكرة العامة. وتتخذ هي القرارات الدقيقة بشكل أفضل».

وحين سئل ماذا سيفعل بمبلغ الجائزة الذي هو 225 ألف دولار، أجاب بأنه سيطبق عليها نظرياته، وينشر إنفاقها على السنوات الباقية من حياته.

كتبه : جان غرينوولد
عن تقرير لـ : ويليم سونزكي - من بوسطون

في الطب

بالنسبة للعلماء الذين حضروا الندوة السنوية لـ (معهد وايتهيد) بـ (معهد ماسا تشوستس للتكنولوجيا)، كان خطاب الافتتاح عرضا نادرا للبراعة العلمية. فقد أعطى (ما يكل براون) من (مركز علم الصحة بجامعة تكساس) وصفا حيا للبحث الذي أجراه، هو وزميله (جوزيف غولد ستاين)، في بحر اثني عشر عاما، على متلقى البروتين الدهني القليل الكثافة، وهو جزئ يحمل الفتات الغني بالكوليسترول من مجرى الدم إلى الخلية.

كانت شروحه مرتبة بدقة، وشرائحه الشفافة تجاوزت الرسوم البيانية العادية لتشمل صور المرضى. وقد علق أحد الحاضرين على عمل «براون» و«غولد ستاين» بأنه «مذهل».

وفي صباح الغد، وقف «براون» و«غولد ستاين»، على أصوات انفتاح زجاجات الشامبان، تبدو عليهما الدهشة، أمام نفس الجمهور. يقول (ديفيد بولتيمور) مدير (معهد وايتهيد) :

«بينما كنا ننصت إلى الخطاب الليلة الماضية، كانت أفكارنا تنتقل إلى لجنة في (ستوكهولم). وقد استجابت تلك اللجنة بمنح (مايك براون) و(جوغولد ستاين) جائزة نوبل للطب أو الفيزيولوجيا (علم وظائف الأعضاء)».

كان متوقعا فوزهما بالجائزة منذ مدة، ولسبب وجيه : وهو أن كشفهم لمتلقي البروتين الدهني القليل الكثافة، أحدث ثورة في ما يعرفه العلماء عن أيض[2] الكوليسترول، وبعض أمراض القلب. يقول (غولدستاين) : «الآن نفهم كيف يمكن للحمية - نظام الأكل - والتمارين الرياضية أن تساعد على الوقاية من الصدمات القلبية».

وقد بدأ (براون) و(غولد ستاين) عملهما الريادي أثناء بحثهما لمرض ارتفاع الكوليسترول الحاد بالنسبة لبعض الأسر، وهو مرض وراثي نادر. والأطفال الذين يعانون منه يرتفع مستوى الكوليسترول في دمهم عن المستوى العادي من ست إلى عشر مرات، وقد يصابون بالسكتات القلبية منذ السنة الثانية من عمرهم، وبمقارنة خلايا جلد ضحاياه بخلايا الأصحاء، تبين للباحثين أن المشكل ناتج عن غياب المتلقيات للبروتين الدهني القليل الكثافة، أو نقصه. وهذه المتلقيات هي عبارة عن بروتينات تلتصق بأغشية

2) الايض : مجموع العمليات المتصلة ببناء (البروتوبلازما) وانحلالها.

أغلب الخلايا، وخاصة خلايا الكبد. وبعد ذلـك حلو شِفرة التفـاعل الـذي يقع بين المتلقي وذرة پروتينـه الـدهني القليل الكثـافـة. ويقول (بولتمور) : «كان ذلك مهما لفهم الطريقة التي تتصل بها الخلايا ببيئتها».

ورغم أن الفكرة السائدة عن الكوليسترول هي أنـه عـدو، فـإن الجسم يحتـاجـه لصنع أغلفـة الخلايـا الجـديـدة، وهورمون الستيروويـد، وأحمـاض الصفراء. ويصنع الكوليسترول أساسا في الكبد، ويـأتي كـذلـك في الطعـام. وينتقل في مجرى الدم على شكل كتل من الدهن والبروتين تـدعى البروتين الدهني. وتعمل المتلقيات الخالية للبروتين الدهني الخفيف الكثـافـة كشبـاك صيد الذباب، فتمسك بالكتل العـابرة. ويتكسر البروتين الـدهني فورا داخل الخليـة، ويتحرر الكوليسترول ليصبح جـاهزا للاستعمال، بينما يعود المتلقي إلى الغشاء مستعدا للانقضاض.

فإذا كان شخص مـا يـأكل الكثير من الـدهون المشبعـة، فـإن خلايـا الكبد توقف إنتاج متلقيات البروتين القليل الكثافـة. فيتجمع الكوليسترول عندئد على جدران الشرايين على شكل صفائح علامة على قرب انسدادها.

وبـالعكس فـإن الأطعمـة القليلـة الكـوليسترول تشجـع على إنتـاج متلقيات جديدة، تحمي صاحبها من أمراض القلب.

ويبلغ (براون) 44 سنـة، وهو من (نيويورك) ومتزوج، ويبلغ (غولـد ستـاين) 45 سنـة، وهو من مـدينـة (سـامر) من ولايـة (جنوب كارولاينـا) وأعزب. وهما صديقان حميان. ويقول (براون) :

«منـذ إثنى عشر عـامـا ونحن نلتقي كل يـوم تقريبـا، والأحسن أن نتفاهم».

في الكيمياء

في البداية أصر العلماء على أن المسألة غير ممكنة. وبعد ذلك قالوا إنه من الصعب جدا فهمها. ولكن بعد ثلاثة عقود من اشتغال (هربيرت هو ميتمان) و(جيروم كارل) من (مختبر البحث البحري) (بواشنطن) بتطوير طريقة حسابية لتحديد بناء «الجزئ» Molecule ذي الأبعاد الثلاثة، لم يعد كيميائي يستطيع العيش بدونها. وحين أدركت «لجنة نوبل» أهمية الطريقة التحليلية، منحت جائزة 1985 في الكيمياء «لكارل» الذي ما يزال يعمل (بالمختبر البحري)، و(هومبتمان) الذي يعمل الآن مديرا للبحث (بمختبرات البحث لمؤسسة «بوفالو» الطبية). ولم يكن هذا الشرف غير متوقع. يقول (كارل) : «تصلك إشارات بأن هناك أشخاصا حول العالم يزكونك لشيء هام. ورغم ذلك، فحين يتحقق ذلك تصاب بصدمة».

وطريقة (كارل ـ هوميتمان) المعروفة باسم بسيط هو «الطريقة المباشرة»، لها تطبيقات طبية وعملية واسعة. فقد تم بمساعدتها تحليل أكثر من 45 ألف «جُزَيْء» Molecule بما في ذلك بعض المواد الأساسية مثل الهورمونات، والفيتامينات. ومنذ عهد قريب، استعملت الطريقة لتصميم مضادات حيوية ولقاحات جديدة. يقول الكيميائي السويدي، وعضو «لجنة نوبل» : (انغمار ليند كويست) «لا يمكن ذكر مجال في الكيمياء لا تستعمل فيه هذه الطريقة».

وعمل «كارل وهو ميتمان» كان تقدما في حقل تصوير المواد المتبلورة «بأشعة س»، التي كانت تستخدم منذ سنة 1912 لفحص مبني المواد المتبلورة. فيوجه شعاع سيني إلى البلورة، وحين يخترقها الشعاع، تنحرف

ذرات البلورة أو تتشتت، فتترك الأشعة بقعا مهزوزة متباينة القوة على الشريط. فتبدو أشكال الانحراف الناتجة عن ذلك على شكل سبحة. ورغم أن كل نوع من البلور ينتج عنه شكل مختلف. فإن تلك النماذج بالغة التعقيد، وكان يصعب فهمها من قبل. ولتفادى العملية البدائية والمرهقة التي كان يتم بها فحص الفيلم، ابتكر «كارل وهو ميتمان» معادلة إحصائية معقدة تأخذ وضع البقع المتفرقة، ودرجة سطوعها، وتعيد بناءها في صورة ثلاثية الأبعاد للبلورة. ورغم ما يبدو على هذه المعادلات من وضوح، فقد كانت من الصعوبة لدرجة أن الوسط العلمي ظل يتجاهلها طوال عشر سنوات. يقول (هوميتمان) : «إن التصوير البلوري لم تكن له خلفية لاستعماله. «وبانتشار الكومبيوتر ذي السرعة العالية، أصبحت قوة الطريقة الجديدة واضحة. فقديما كان تحليل بلورة صغيرة يتطلب سنتين. واليوم، تقول زوجة «كارل إيصابيلا» العالمة الكيماوية، وواحدة من رواد هذه التقنية : «يتم هذا التحليل بطريقة عادية في يوم أو يومين».

وقد التقى «كارل» و«هوميتمان» لأول مرة في «سيتي كوليج» بنيويورك، وتخرجا منها سنة 1937 (نفس الدفعة التي تخرج فيها «أرثور كورنبيرغ» الحاصل على جائزة نوبل في الطب سنة 1959).

وكلا الفائزين هذه السنة مملوكان للعلم. ولكن «هوميتمان»، على الأقل، يعتصر بعض الوقت ليمارس بعض الاهتمامات الخارجية، مثل ابتكار أشكال جديدة للزجاج الملون. والفرق بين مزاجيهما يمكن استخلاصه من الطريقة التي عرف كل منهما عن فوزه بالجائزة. (فهوميتمان) المتزوج من معلمة وأب بنتين، كان قد أنهى ساعة سباحته اليومية بمسبح أحد مآوى

الشباب (YMCA). و«كارل» الذي هو أب لثلاث بنات عالمات كذلـك. كان عائدا إلى أهله بالطائرة من مؤتمر علمي «بميونيخ» حين أعلن الطيـار الخبر : «لنـا الشرف أن يكون معنـا على متن هـذه الطـائرة أحـدث فـائز أميريكي بجائزة نوبل... وحتى هو نفسه لا يعرف ذلك !».

بقلم : ناتالي أنجيي
عن تقرير : جورج بوريللي
من «بوفالو»

في الفيزياء

صـاح (كْلاَوْسْ ڤُون كْلِيزِينْغْ) في الأسبوع الفـارط : «إنـه رائـع ! لا أستطيع إدراكه !».

أما هذا الذي لا يمكن إدراكه فقد كان شيئا مألوفا منـذ زمن طويل بـالنسبـة لـ (كليتزينغ) البولوني المولـد، والبـالغ 44 سنـة من العمر، والـذي يعمل مديرا لـ (معهد ماكس بلانك للأبحاث البحتة) بمدينـة (ستوتغـارت ـ بـألمـانيـا الغربيـة. فحقـل ميكانيـا الكم QUANTUM MECHNICS المحير للعقل، هو حقله الخاص. وهذه السنة، بعـد إطلاع لجنـة نوبل على طريقـة (فـون كليزينـغ) التي أدخـل بهـا ميكانيكا الكم على نظريـة مفعـول (هـول HALL)، وهي تطبيـق للحقـائق البـديهيـة العـويصـة لنظريـة «الكم» QUANTUM THEORY في حقـل أقـل تعقيـدا، وهـو الاليكترونـات التجارية، قررت اللجنة منحه جائزة نوبل للفيزياء.

ويقول العالم ذو الوجه الطفولي، وأب ثلاثة أطفال : «كنت دائما أريد أن أجيب على جميع الأسئلة التي تطرحها علينا الطبيعة».

ويرتكز كشف «كليتزينغ»، الذي يقوم مباشرة على تصميم أشباه الموصلات، على اكتشاف للفيزيائي الأميركي (إيدوين هيربيرت هول) سنة 1979. فقد لاحظ (هول) أن الكهرباء التي تسرى في شريط معدني تجنح إلى أحد الجوانب حينما يقترب حقل مغناطيسي بشكل عمودي من مجرى التيار. ويعرف مقياس ذلك التيار المنحرف «بتيار هول» HALL VOLTAGE وقد توقع (فون كليتزينغ) أن يجد أن «تيار هول» في أشباه الموصلات SEMICONDUCTORS يتأثر بنوع المادة التي تتكون منها أشباه الموصلات. وقد اندهش حين اكتشف أن طرفا من ذلك التيار لم يعتمد على طبيعة المواد المذكورة. إلى جانب ذلك، لاحظ أنه حين زاد في قوة المغناطيس، فإن تيار «هول» لم يرتفع بالتدريج، بل قفز قفزا على فترات محددة.

ونظرية الكم تثبت أن الاليكترونات تقفز من حالة طاقة إلى أخرى بانتظام حسابي. وقد وضع (فون كليتزينغ) لتوضيح الظاهرة طريقة دقيقة بنسبة 0,000.0001 للفترة المتوقعة.

وقد كان العلماء، طوال العقد الماضي، يعتقدون أن «تيار هول» ينطبق على ميكانيكا الكم. وتقول لجنة نوبل : «ولكنه لم يكن متوقعا أن نظام تقنين الكمية Quantization يمكن تطبيقه عليها بهذه الدقة الكبيرة».

في الآداب

منذ عقدين من الزمـان، و(كلود سيمون)، 72 سنـة، يـذكر بصفـة غير رسمية كالمرشح الثاني للجائزة. وحين فاز بجـائزة نوبل للآداب، في الأسبوع الفارط، بدا الخبر قديما نوعـا وحتميـا. حـاز (سيمون) على شهرة متواضعـة في الخمسينـات وأوائل الستينـات. فقـد أصبـح هـو و(نـاتـالي سـاروت Natalie Sarraute) و(آلان روبل ـ كريي Alain Roble – Griller) و(ميشيل بـوتـور ـ Michel Butor) الرواد الأولين للروايـة الفرنسيـة الجـديـدة، وهي نـوع من الكتـابـة يعـاكس بشـدة طرق الحكي التقليـديـة. فـالحقيقـة، حسب المنطق الفرنسي، ليست سهلة القراءة. وقد أثبت (سيمون) نفسـه أنـه في جودة ودقـة الشكل الذي ساعد على إنشائه.

كانت عـائلـة (سيمون) تزرع الكروم في جبـال البرانس. ودرس هو في (باريس) وعمل بعد ذلك على أن يصبح رساما.

وشـارك في الحرب الإسبـانيـة الأهليـة ثم التحـق بعـد ذلـك بسلاح الفرسـان الفرنسي. وأسره الألمـان سنـة 1940، فهرب وانضم إلى المقـاومـة الفرنسية.

وتـومض، في بعض الأحيـان، تفـاصيـل عن حيـاتـه من وراء جملـه الفولكنيرية المتدفقة. وكتابه (الريح)، 1959، يحكي عن المحـاولات الفـاشلـة لرجل يطالب بمزرعة كروم أبيه، وتدور أحداث روايته (طريق الفلانـدر)، 1961، حـول ذكريـات أسرى الحرب الفرنسيين عنـد الألمـان، و(القصر)، 1963، تصور الذكريات الباقية وغير المحددة من الحرب الأهلية الإسبـانيـة، إلا أنـه من المستحيل غـالبـا فهم مـا يجري في روايـات (سيمـون)، فـاهتمامـه

المجهري بالأشياء قد يقود إلى هـذيـان في حجم فيل مثل هـذه الخطبـة عن حقيبـة يـد : «.... جهـاز مكمـل اخترع بـلا شـك ليعـوض نقص الآخرين (العضلات، والعظام) المسحوقة تحت النقل الهـائل للشحم واللحم المكتنز، من المادة التي أصبحت غير ملائمة لاشباع حاجاتها بنفسها، فيبدو أنهـا اخترعت، أفرزت، مثل نوع إنتاج جانبي للتعويض، حاسة سادسة صناعيـة، كإضـافـة عضو صناعي جديد ومهين...».

مثل هذه الجمل قد تكون بهرت أتباعه منذ عشرين سنة. ولكنهـا من منظور سنة 1985، يبدو أن كلا من الرواية الفرنسيـة، وجـائزة نوبل التي أعطيت لإحدى نماذجها، شيئا خبا لمعانه.

بقلم : بول غري

مِنْ أوْرَاقِ ابْنِ عَرَبِي

عبد الكريم الطبّال

الرأس الأسود

في حضرة البدء لم أشهد سوى الحضرة   وغـاب عني معنى البـدء والرتبـة
حتى صحوت فلم أعقـل سوى سـار   ممـدد في فـلاة... دائم الغيبـة
يـا ليت من كان في بـدئي يجليني   فـأستحيـل إلى مـا ليس في النسبـة
أن يسترد الـذي أولى بـلا سـؤلي   فمـا نعمت برأس أسـود الريبـة

وشادن يسبي

أحتـار حين أعب من كأس، ينـا   دمني بهـا.. في الـوجـه والشمس
أحتـار حين يصـدني ظلمـا فـأسـ   ـأل خـافقي عن غفلـة تنسي

سيـــان عنـــدي أن أراك ولا أرا ك، فحيرتي في الكشف واللبس
كيف اليقين، وشـادن يسبي الحشـا قـد يختفي في نـــاعـق نحس ؟!

حقيبة السفر

أيتهـــا اللبـلابـــة العجيبـــة تلتف حـول الـدوحـة الغريبـة
تسلب من جفـونهـــا الحقيبـــة فـلا تسيـح في الربى الجـديبـة
تنسخهـــا خميلـــة لطيفـــة فـأين منهـا الجنـة الكئيبـة ؟!
أنـا عريش الـدوحـة الغريبـة أهيم في ألطـــافـك العجيبـة

في فاس

هـا أنـا.. في كتفي ينشـق الفجـ ـر، فـــلا أشهـــد غير الفجر
أمشي، أسبـــح، أعلـــو، لا أدري إلا أني أحبـــــــــو كالطير
فـاس.. صـارت قبسـا أو طيفـا والكـــون غـــدا بحرا من عطر
لا تطـــويني جهـــة أو أفـــق محجــــوبـــــا عن عين الغير

شفشاون **عبد الكريم الطبال**

أبو جعفر أحمد بن الزبير
من خلال كتابه
"الصلة لصلة ابن بشكوال"

محمد بن عبد العزيز الدباغ

عرفت مدينة سبتة في القرن السابع الهجري نشاطا ثقافيا قويا، نظرا لكثرة الوافدين عليها من مثقفي الأندلس وغيرهم، فقد كانت تستقبلهم وتمنحهم كل الوسائل التي تعينهم على الإفادة والاستفادة، فمن حلقات الدروس المنظمة، إلى المكتبات العامرة التي تعينهم على النسخ والمقابلة وتمهد السبيل للاطلاع على ما أنتجته القرائح العلمية من مختلف الآفاق، إلى غير ذلك من أوجه النشاط الفكري الدالة على مشاركتها الفعالة في مجالات المعرفة.

ولقد استقبلت هذه المدينة في القرن السابع الهجري أحد أعلام علماء مدينة فاس، وهو الشيخ أبو العباس أحمد بن يوسف بن فرتون السلمي، استقبالا حارا، وصار يلقي دروسه هناك في مجلس حافل تستدر معلوماته جماعات من الطلبة المحليين والأفاقيين. وشاءت الصدفة أن يكون من بين

الطلبة الوافدين عليها في سنة خمس وأربعين وستمائة، شاب في الثامنة عشرة من عمره، أقبل من الأندلس باحثا في هذه المدينة عن المعرفة، سالكا سبلها، إنه أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي، الذي صار فيما بعد من أشهر العلماء الأندلسيين المهتمين بتأليف كتب التراجم والطبقات.

لقد كان هذا الطالب تواقا إلى المعرفة، حريصا على الاستفادة، ووجد في ابن فرتون ضالته، وتعلم منه الشيء الكثير، واطلع على كتابه الذي جعله ذيلا لكتاب الصلة لابن بشكوال، فأحيا فيه روح الجدية، وجعله يتتبع حياة المجدين من العلماء والفضلاء، إلا أنه لاحظ أن هذا الكتاب لم يتجرد شيخه رحمه الله لتنقيحه ولا فرغ لاختباره وتصحيحه، فدفعه ذلك إلى الاهتمام به وتتبع أخباره، وأضاف إليه ترجمة بعض الأعلام، ثم أخرجه إخراجا آخر وجعله تأليفا جديدا يتضمن بعض التعقيبات والمستدركات، وسماه «كتاب الصلة لصلة ابن بشكوال».

إن هذا الكتاب يكاد يكون تهذيبا لذيل الأستاذ وتتميما لعمله وتكميلا لمجهوده وإن عملا كهذا ليعتبر خدمة للعلم وتشريفا للبحث وليس فيه أي تجريح للأستاذ ولا أي كفران لجميله، بل إنه داخل في العمل العلمي النزيه الذي يكون فيه الحق أقوى من المجالات السلبية، ويكون فيه الصدق أقرب الخصال إلى النفوس البريئة الخالية من المخاتلة والنفاق.

وحرص ابن الزبير عند تأليف كتابه هذا على أن يكون سليم العبارة نزيه المقاصد، وأن يجعله صورة للمجتمع العلمي الجاد البعيد عن الترهات والأباطيل، الشيء الذي أضفى على كتابه من الجلال ما جعله مرددا على كل لسان، ومعتمدا في المشرق والمغرب عند الباحثين والنقاد والمؤرخين

ورجال الطبقات، مما أدى إلى أن تنقل بعض نصوصه وفوائده في كتاب «الإحاطة لابن الخطيب» وفي «تكملة ابن الأبار» وفي كتاب «بغية الوعاة للسيوطي» وفي كتب أخرى حسب الاهتمامات والاختصاصات.

ولم يتيسر لحد الآن طبع هذا الكتاب تاما، ولا تيسر معرفة المظان التي يمكن وجوده بها كاملا، إنما الذي أمكننا الاطلاع عليه منه لا يتعدى النصف الثاني، الموجود مخطوطا بدار الكتب المصرية المسجل تحت عدد 280 من جناح التاريخ من كتب تيمور، وكذلك القسم الأخير المطبوع عام 1937 بالرباط، وهو الذي أصدره ليقي بروفنصال معتمدا فيه على الأصل المخطوط المحفوظ بخزانة الشيخ عبد الحي الكتاني آنذاك، زيادة على شذرات منه موجودة بخزانة القرويين تتعلق بالسفر الثالث من هذا الكتاب، وهي الأصل بما وجد في خزانة الشيخ الكتاني، وقد بينا ذلك في بحث مستقل(*) أظهرنا فيه الروابط الموجودة بين القسم المطبوع وبين شذرات القرويين.

ولعل نظرة فيما هو موجود بأيدينا كفيلة بأن تساعدنا على الحكم على الكتاب، وبأن تمنحنا إطلالة على حياة المؤلف، وعلى نوع ثقافته، وعلى ذكر شيوخه، وكيفية التعامل معهم والاستفادة من مواهبهم وخبرتهم وتجاربهم، وعلى خطته التي كان يسير عليها في تأليف كتابه هذا.

فمن الواضح عند التأمل في الكتاب، أن ابن الزبير كان يعمد في ترجمة الذين لا يعرفهم على النقل المسند، ليتحرى بذلك في ذكر الأخبار وليربطها بمصادرها الأصلية، أما بالنسبة إلى من عايشهم وعرف أحوالهم فإنه

---

*) انظر المناهل العدد 33.

كان ذادقة في وصفهم، وفي تدوين مختلف العلاقات التي تربطـه بهم، ومن تم كان كتابه كتابا مفيدا، مؤلفا بطريقـة علميـة نزيهـة، لا تعتمـد على الإلقـاء الجزافي ولا على الجانب الخطابي.

ومن أهم ما نلاحظه في طريقة تدوينـه، أنـه يعيش مع أعلامـه كأنـه فرد منهم، يشعر بشعـورهم ويحس بـإحســاسهم، ويتحــدث عن عـلاقــاتهم العائلية وعن مدى الاستفادة من تلك العلاقات، فإذا ترجم لشخص ما فإنه لا يكتفي بذكره، في مكان الترجمة الخاصة به بل يتعرض له من حين لآخر ليجعلك تحيا معه حياته التي كان يحياها، فلا تنفصل عنه انفصـالا نهـائيـا، ولا ينقضي الحديث عنه بانقضاء المكان الذي وضع فيه. ولنـأخـذ على ذلـك مثـالا يتعلق بـأحـد المـؤرخين الـذين اعتمـد عليهم عن طريـق أستـاذه ابن فرتون، وأعني به أبا القاسم ابن الطيلسـان، فقـد أشـار إليـه مرارا متعـددة، وذكره في مناسبات مختلفة :

أشار إليه أثناء الحديث عن ترجمتـه في بـاب القـاف، فقـال :[1] «هو القاسم بن محمد بن أحمد بن محمد بن سليمـان بن محمـد بن سليمـان الأوسي، من أهل قرطبة، يكنى أبا القـاسم ـ ويعرف : بـابن الطيلسـان، وقـد تقـدم اسم أخيه أحمد، وذكر أبيها وجدهما لأبيهما.

روى عن جده لأمه أبي القاسم عبد الرحمن بن غالب الشراط... وعالم كثير، نيّفـوا على المـائتين كلهم مـذكـورن في هـذا التـأليف إلا المشرقيين منهم...».

1) من الشذرات الموجودة بالقرويين.

ولقد تحدث ابن الزبير في مكان آخر عن الشراط، جد ابن الطيلسان لأمه، وأبان فضله وعلمه وزهده، واختار من شعره البيتين التاليين[2] :

سئمت الحيـــــاة على حبهــــــا وحــق لــذي الـداء أن يســأمــا
فــلا عيش إلا لــــذي صحـــة تكـــون لــــــه للتقى سلّما

وكان للشراط هذا بنت فائقة الـذكاء كثيرة الروايـة، هي فـاطمـة أم ابن الطيلسان المذكور، ذكرهـا ابن الزبير أيضـا وختم بهـا كتـابـه[3]، وقـال عنها: «إنها فاطمة ابنة أبي القاسم عبد الرحمن بن محمد بن غـالب الأنصـاري الشراط، تكنى أم الفتـح، وهي أم الأستـاذ أبي القـاسم بن الطيلسـان، قرأت القرآن على أبيها ختمات، وعرضت عليـه التنبيـه لمكي، والشهـاب للقضـاعي، ومختصر ابن عبيـد الطليطلي، ثـلاثتهـا عن ظهر قلب، وقرأت القرآن أيضــا على أبي عبد اللـه المـدوري الزاهـد عرضـا، وقـابلت مع أبيهـا صحيح مسلم، وسير ابن هشام تهذيبه، والكامل للمبرد، ونوادر البغدادي وغير ذلك، توفيت عام ثلاثة عشر وستمائة، ذكرها ابنها المقرئ أبو القاسم».

وقد أشـار المؤلف إلى ابن الطيلسـان أيضـا عنـد الحـديث عن خـالـه غالب بن عبد الرحمن الشراط[4].

وهكـذا لم يهمل ابن الزبير أحوال هـذا الرجل الـذي كان يروي عنـه عن طريق أستـاذه ابن فرتون السـابـق الـذكر، ولم يهمـل التـداخـل العلمي

2) منها أيضا.

3) منها أيضا.

4) القسم المطبوع صفحة 168.

القائم بين مختلف أفراد أسرته، فمن ذكره أثناء الترجمة الخاصة به، إلى ذكر أخيه وجده لأبيه وجده لأمه، إلى ذكر أمه العالمة الورعة، بحيث لا ينتهي القارئ من دراسة الكتاب، حتى تصبح عنده خبرة كافية بهذا العالم الأندلسي القدير.

ولعل هذه الشمولية في المعرفة إنما اكتسبها من شيوخه المقتدرين، الذين تركوا بصمات واضحة في تكوين شخصيته وفي تمتين ثقافته.

إن ابن الزبير كان له بأساتذته إعجاب كبير، فهو حينما كان يذكرهم في كتابه، كان ينص على قيمتهم العلمية، ويذكر مروياته عنهم، ويتحدث عن أحوالهم، وعما استفاده منهم، مما يدل على أن الترابط الذي يحصل بين الطالب النابغة وبين أساتذته لا ينقضي بانقضاء أيام الطلب، بل يستمر في تكوين الشخص استمرارا تظهر آثاره في السلوك وفي الإنتاج وفي طريقة التفكير.

فمن أساتذته الذين استفاد منهم كثيرا : أبو الحسن علي بن محمد الشاري الغافقي،[5] الذي أسس مدرسة بمدينة سبتة، كان لها وزن كبير في إبانها، وزودها بمكتبة جعلها في متناول الباحثين والدارسين، ولقد كان لهذه المدرسة أثر كبير على ازدهار الثقافة في المغرب، وكانت مكتبتها من أشهر المكتبات العامة التي يسرت المعرفة للباحثين وأعدت لهم ما يحتاجون إليه من نوادر المخطوطات ونفائس الوثائق، وكان صاحبها ينفق عليها بسخاء، ولقد استفاد منها ابن الزبير، وأعانه على فهم محتواها عدد من أساتذته

---

5) القسم المطبوع صفحة 149.

المقيمين بسبتة في عهده، إذ من المعلوم أن ذكاء الطالب وحده لا يكفي في استيعاب العلوم، فلابد من وجود موجهين يصقلون هذا الذكاء ويقوونه لئلا يبدد أو يضيع في غير منفعة.

وكان من حسن حظ ابن الزبير أنه وجد هؤلاء الموجهين الذين صار يعتز بهم في كتابه، ويذكرهم كلما واتته الفرصة لذلك، سواء كانوا من أساتذته الذين استفاد منهم في مدينة سبتة، أو من غيرهم. فمن شيوخه المرموقين الذين تحدث عنهم بإعجاب، والذين كان لهم أثر في تكوينه الأخلاقي وتكوينه الفقهي والأصولي : الشيخ عبد العظيم بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن عبد الله البلوي المالقي المعروف بابن الشيخ.[6] وكان فقيها جليلا أصوليا من بيت علم ودين، ومن جلة أهل الأندلس في وقته علما وعملا، قال عنه حينما كان يذكر ترجمته : «كان رحمه الله ورضي عنه يقرئ الفقه وأصول الفقه، ويعتمد في الأكثر، قراءة مستصفى أبي حامد، وجواهر ابن شاس، وكان له بهذين الكتابين اعتناء كبير، وفيهما تصرف لتعويله عليهما ودؤوبه على تدريسهما، وكان مسدد النظر جليلا في دينه، صحبته ـ رحمه الله ـ مدة ثلاثة أعوام، وأخذت عنه مسائل من مستصفى أبي حامد، مما كان له فيه اختيار أو مفهوم ما. وقرأت عليه أشياء خلال تلك المدة من الأصول وغيرها، وهو من علية من لقيت في فضله وورعه وممن ختم به رجال الأندلس. له تعاليق على أحاديث كتاب مسلم مما قيد وقت كلامه عليه بالمسجد الجامع من مالقة. إذ كان يحلق به ويخطب ويؤم. وتواليفه نبيهة مفيدة، منها شرحه للأسماء الحسنى وغير ذلك، وكان

6) القسم المطبوع صفحة 35.

شديد التصميم على المذهب المالكي، مع ميله إلى الترجيح والتصرف في نظره رضي الله عنه».

ومن هذا الوصف نلاحظ مدى العناية التي كان يوليها ابن الزبير لأساتذته، ومدى اهتمامه بالجانب العقلي والسلوكي في حياتهم، فهو حين التحدث عنهم، يبرز أهم خصائصهم ويذكر مايمتازون به من الصفات المميزة لهم، سواء كانت تتعلق بالجوانب العلمية أو بالجوانب العقائدية أو بالطريقة العملية التي يتصرفون بها أثناء التدريس والتأليف.

ونحن إذا ما تتبعنا كتابه هذا فسنستطيع ربط اهتماماته العلمية بشيوخه الذين أثروا فيه وساهموا في إعداده وتكوينه في مختلف المجالات، فإذا كان الشيخ عبد العظيم المذكور من الذين علموه الفقه والأصول والحديث ومناهج البحث، وعودوه على التصرف والاختيار والاجتهاد، فإن هناك أستاذا آخر كان له الأثر الكبير في تنمية ذوقه الأدبي، وفي تربية الجانب الجمالي في تعبيره ونقده. إنه الشيخ أبو الخطاب بن خليل، فقد روى عنه أبياتا شعرية لأبي حفص الأغماتي، قال أنشدني أبو الخطاب بن خليل قال أنشدني أبو حفص لنفسه وقد أهديت له جارية ثم تعرف أنه كان قد تسرى أمها فصرفها إلى مهديها وكتب معها : وذلك مما يدل على فضله وورعه[7].

يا مهدي الرشا الذي ألحاظه جعلت فؤادي نصب تلك الأسهم
ريحانة كل المنى في شمها لولا المهين واجتلاب المحرم
ما عن قلى صرفت إليك وإنما صيد الغزالة لم يبح للمحرم

---

7) القسم المطبوع صفحة 72.

يـــا ويــح عنترة يقــول وشفـــه   مـــــا شفني وجـــــدا وإن لم اكتم
يــا شــاة مــا قنص لمن حلت لـــه   حرمت علي وليتهـــــــــا لم تحرم

وأبو الخطاب هذا هو الذي كان يقول عند سماع قصيدة ابن عبدون في رثاء بني الأفطس : هي من القصائد الغر والكلام الحر[8].

وكان ابن الزبير كثير الإعجاب بأستاذه هـذا، ويعتمـد عليـه كثيرا فيما يتعلق بالمنتخبات الشعرية وبالخواطر النقديـة، وينقل عنـه من حين لآخر في كتابه ما يرتبط بذلك.

ولم يكن ابن الزبير ممن يكتفي بالاستفـادة الخـاصـة من شيوخـه، بل كان يرغب في أن يكون لأولاده نصيب منهم أيضا، لذلـك نراه حينمـا كان يتحدث عن واحـد منهم، وهو الشيخ عبـد المنعم بن سـالم بن عبـد اللـه بن أحمد بن إسماعيل بن سماك العاملي المالقي، قال : «وسألتـه الإجـازة لأولادي الزبير وعاصم ومحمد وإبراهيم، فأجاز لهم وسمع عليه منهم إبراهيم والزبير»[9].

إننا لا نستطيع حصر الشيوخ الذين استفـاد منهم ابن الزبير، والـذين تحدث عنهم، ولكن هـذا لا يحول بيننـا وبين ذكر بعض من أشـار إليهم في

8) القسم المطبوع صفحة 42.

9) توجد ترجمة الشيخ عبد المنعم بالقسم المطبوع بالصفحة 22 وقد أشار الناشر إلى أنهـا أخـذت في طرة الأصل، وهـذا هو الـذي يبرر كون الشيـخ عبـد المنعم تـوفي عـام 703 هجريـة لأن الأصل قد وقع الفراغ من نسخه عـام 697 هـ وأمـا الطرر والهوامش فقـد كتبت بعـد ذلـك من لدن المؤلف نفسه، وتوجد الورقة الأخيرة من الأصل بخزانة القرويين.

كتابه، نختار منهم على سبيل المثال ـ زيادة على ما تقدم ـ الأساتذة الآتية أسماءهم وهم :

أبو محمد بن عطية (الصفحة الثامنة من المطبوع).

أبو الحسين بن السراج (الصفحة الثامنة من المطبوع).

أبو العباس بن عبد الملك (الصفحة الثامنة من المطبوع).

أبو يحيى بن عبد الرحيم (الصفحة الثامنة من المطبوع).

أبو عبد الله بن عبد الرحمن بن جرير (11).

أبو عمر بن حوط الله (11).

أبو عبد الله الأزدي (31).

أبو إبراهيم بن عامر (54).

أبو بكر بن العاصي (58).

أبو عبد الله بن جوبر البلسني (58).

أبو الحجاج بن أبي ريحانة (58).

أبو بكر محمد بن يوسف الأزدي المعروف بابن مسدي 128.

علي بن أحمد بن محمد بن يوسف الأنصاري المعروف بالغزال الحفيد 143.

عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الفهري الطبيب الشريشي المعروف بالعشاب، وقد أرشده إليه أستاذه ابن فرتون وأخذ عند بعض ما كان عنده (من المخطوط الموجود بالقرويين).

وكلهم إذا تتبعنا أحوالهم وأخلاقهم وعلومهم، فنسجدهم من العلماء الأكفاء الورعين الذين استمد منهم ابن الزبير علمه وسلوكه حسب ما قررنا من قبل.

إن قيمة تلقيه منهم لا تظهر إلا بتتبع أحوال هؤلاء الشيوخ، ودراسة حياتهم ومكانتهم العلمية من خلال كتب التراجم والطبقات، ففيهم أجلة كرام، وفضلاء عظام، ووعاة للمعارف، ودعاة للخير، وحماة للفضيلة، وحفاظ للحديث، ومفسرون للقرآن، وخبراء بالقراءات، ومختصون في علم النحو والصرف، ومولعون بجمع الكتب، ومجتهدون في التلقين، وزهاد وعباد.

وكأن هذه الصفات المتفرقة فيهم قد جمعها الله في علمه وأخلاقه، ووسمه بها، حتى أصبحت مرتبطة به معروفة لدى من عاشره وخالطه. يقول عنه تلميذه أبو حيان الغرناطي في كتابه النضار[10] : «كان محدثا جليلا ناقدا نحويا أصوليا أديبا فصيحا مفوها حسن الخط مقرئا مفسرا مؤرخا. أقرأ القرآن والنحو والحديث بمالقة وغرناطة وغيرهما. وكان كثير الإنصاف ناصحا في الإقراء، خرج من مالقة ومن طلبته أربعة يقرئون كتاب سيبويه، ثم عرض له أن السلطان تغير عليه، فجعل سجنه داره، وأذن له في حضور الجمعة، فلما مات شيوخ غرناطة وشغر البلد عن عالم رضي عليه، وقعد بالجامع يفيد الناس وولي الخطابة والإمامة بالجامع الكبير وقضاء الأنكحة، وتخرج عليه جماعة، وبه أبقى الله ما بأيدي الطلبة من العربية وغيرها، وكان محدث الأندلس بل المغرب في زمانه، خيرا صالحا كثير الصدقة معظما عند الخاصة والعامة متحريا أمارا بالمعروف نهاء عن المنكر».

---

10) هذا النص أخذناه من بغية الوعاة للسيوطي صفحة 146 الطبعة الأولى.

والواقع إن ما وصفه به أبو حيان يتجلى في كيفية عرضه للموضوعات التي يتطرق إليها داخل كتابه، فهو حين يصف أو يحلل أو ينقد تبدو عليه ملامح القوة، وتتجلى فيه مظاهر الثقافة التي استمدها من شيوخه، فهو دقيق العبارة نزيه المقاصد مطلع على كثير من الفنون الأدبية والدينية واللغوية، قدير على الوصف، مهتم بالجوانب التربوية، حريص على نقل الأخبار من ينابيعها، معتمد في ذلك على المؤلفات التاريخية من جهة، وعلى مشاهداته من جهة أخرى، لا ينقل نقل المقلد المستسلم، ولا يحيل على مصدر من المصادر دون أن يكون له رأي في قيمته، ولا يستحسن استحسان المبهورين الجاهلين، ولا يستقبح استقباح المعاندين الجادين، ولكنه كان إذا أعجب بشيء ذلّك على مواطن الجمال فيه، وإذا استنكر شيئا بين أسباب الاستنكار الدافعة إليه، فلا تنتهي من قراءة كتابه إلا وأنت قد جلت في ميدان الأدب والفكر جولات، وغصت في بحر المعارف فاقتنصت من جواهره ما يغنيك، وأخذت من فوائده ما ينفعك وشعرت بالهيبة العلمية والأخلاقية، فلا تجد إسفافا في العبارة ولا في الموضوع، ولا تجد ابتذالا في الاختيارات ولا في الأحكام والاستنتاجات.

ويمكننا أن نستدل ببعض منتقياته ليتجلى لنا ما ذكرناه من حسن القدرة على الاختيار الهادف، سواء من حيث المغزى الأخلاقي أو من حيث قوة البديهة التي يشير إليها حين الانتقاء، فمن ذلك قوله وهو يتحدث عن الفقيه عبد العزيز التونسي المتوفي بأغمات سنة 482 هـ[11] «إنه كان يقرئ

---

11) القسم المطبوع الصفحة الأولى.

الفقه بأغمات، ثم ترك ذلك لما رأى الناس نالوا به الخطط والعمالات، وقال صرنا بتعليمنا لهم كبائع السلاح من اللصوص».

ومن ذلك أنه قال حين تعرضه للحديث عن أبي محمد عبد الوهاب بن علي بن محمد القيسي المتوفى سنة 598 هـ :[12] «إنه كان يوثر حياة البادية على الحاضرة إيثارا للخمول، ورجاء لاعداد ذلك في عمله المقبول، ومع ذلك لم يسلم من أذى الخلق ومن حسد الحاسدين، فقد دخل على أحد السادة وعنده رجل يعرف بابن أخت غالب، فسأل السيد عنه فقال ذلك الرجل : إنه رجل من البادية».

وكان يقصد بهذا النعت أن يستخف به وأن يستنقصه، وأن يجرح كرامته، ولكن ماذا كان موقف الفقيه عبد الوهاب، وما كان رد فعله ؟

إنه كان أديبا عارفا لمواطن استغلال الإطار المحيط به، فهو لم ينفعل انفعالا يفقده صوابه، ولم يغضب غضبا يبعده عن الدفاع عن نفسه، بل ساير ذلك الحاضر المعروف بابن أخت غالب، وقال لمخاطبه يا مولاي : أما البادية فعلى وجهة بادية، ولا أنكر حالي ولا أعرف بخالي... فلاحظ السيد أن هذا الجواب مفحم، وأنه يدل على قوة أبي محمد، فقضى حاجته وبقي الساخر في حيرة. ووجم أمام هذه القوة البيانية التي جعلته لا يقدر على مواجهته، ولا يسلم منها إلا بالصمت والاستسلام، خشية أن يصاب بما هو أدهى وأمر.

---

12) القسم المطبوع صفحة 28.

وكان المؤلف معجبا كثير الإعجاب بأبي محمد هذا، واختار له بعض أشعاره قال... وقد قيدت من نظمه ونثره في غير هذا ما يشهد بسبقه في الآداب، وإحرازه الغاية في ذلك الباب».

ومن شعره المختار قوله في اللزوم :

بإحدى هذه الخيمات جاره ترى هجري وتعذيبي تجاره
وكم ناديت يا هذي ارحمينيا فلسنا بالحديد ولا الحجاره

وقوله أيضا :

الموت حصاد بلا منجل يسطو على القاطن والمنجلي
لا يقبل العذر على حالة ما كان من مشكل أو من جلي

ونحن حينما ندرس بعض الكتب الأدبية تجد أن هذا الحوار ينسب أيضا إلى شخص آخر، فقد ذكر المقري في كتابه نفح الطيب[13] : أن الفضل ابن شرف لما قدم من برجة في زي تظهر عليه البداوة بالنسبة إلى أهل حضرة المملكة العظمى، أنشد قصيدته الفائقة.

مطل الليل بوعد الفلق وتشكى النجم طول الأرق

فلما سمعها المعتصم لعبت بارتياحه وحسده بعضهم، ومن جملة من حسده ابن أخت غانم، فقال له من أي أنت ؟ قال : أنا من الشرف في الدرجة العالية وإن كانت البادية على بادية، ولا أنكر حالي ولا أعرف بخالي فمات ابن أخت غانم خجلا، وشمت به كل من حضر...

---

13) نفح الطيب تحقيق محي الدين عبد الحميد الجزء الرابع صفحة 363.

وعلى كل حـــال فنحن نرى أن الأدبـــاء يقتبس بعضهم من بعض، والعـاقل من جنب نفسـه إذايـة النـاس، ليسلم من لـواذع القـول ومن سـوء المنقلب.

ولعلنا بالاطلاع على هاتـه المختـارات التي اقتبسنـاهـا من كتـاب ابن الزبير، يتبين لنا أن هذا الأديب الأندلسي، كان يجمع بين المعرفة وبين رقـة الذوق وصفاء الحاسة الجماليـة التي لا يهبهـا اللـه إلا لمن اختـاره من عبـاده، ولمن أودعه سرا من أسرار حكمتـه وبيـانـه، فـما أجمل العلم الـذي يزدان بقوة القريحة، وينمو بصفاء النفس، وينطلق من أعـماق الموهوبين الملهمين الـذين زكا العلم بمـواهبهم وذكائهم، فصـارت مـؤلفـاتهم رغم مرور السنين منهـلا من مناهل المعرفة التي لا تنضب ومرجعـا من مراجع البيـان الـذي جعلـه اللـه خاصته فريدة من خصائص الإنسان قديما وحديثا وفي كل آن.

فاس : **محمد بن عبد العزيز الدباغ**

الجالية الأندلسيّة بالمغرب العربي
(تونس والجزائر)

محمد رزوق

عرف استقرار الجالية الأندلسية بتونس تطورا متباينا تبعا للظرفية التاريخية السائدة بالمنطقة، لكن على العموم كان تأثير هذه الجالية قويا في مختلف المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية. وقد اختلف الدارسون

---

*) هناك ملاحظات :

أولا : سبق للباحث أن قام بدراسة حول موضوع استقرار الجالية الأندلسية بالمغرب الأقصى، وقد نشرت ضمن أعمال المؤتمر الثاني حول الموريسكيين، المنعقد بتونس في شهر شتنبر من سنة 1983 :

« Evolution de l'Etablissement des minorités andalouses au Maroc » in Actes du 2e symposium International du CIE.M sur :

Religion, Identité et Sources Documentaires sur les morisques Andalous, 2 : 139 – 154 – Tunis, 1984.

ثانيا : سنقتصر في هذا المقال على الفترة ما قبل القرن السادس عشر، آملين أن تتاح لنا الفرصة لمواصلة البحث في الفترة الموالية.

في تقويم الوجود الحضاري الأندلسي بتونس، فبينما اعتبره البعض - وفي جميع الأحوال - عاملا إيجابيا، أقر له البعض الآخر ببعض المظاهر السلبية.

أما بالنسبة للجزائر فإن الوجود الأندلسي يبدو فيها ضعيفا إذا ما حاولنا مقارنته بمثيله في كل من المغرب وتونس ولكننا مع ذلك سنحاول من خلال استقرائنا لمصادر معينة أن نتلمس بعض صوره.

الجالية الأندلسية بتونس :

وردت إشارات عديدة عن الجالية الأندلسية في العهد الحفصي في المصادر التي أرخت لهذه الفترة، نخص بالذكر منها : **الفارسية** لابن القنفذ القسطنطيني، **وعنوان الدراية** للغبريني، **وتاريخ الدولتين** للزركشي، **ورحلة** ابن رشيد **ووصف إفريقيا** للوزان، **والروض الباسم** لعبد الباسط بن خليل،**والمؤنس** لابن أبي دينار، بالإضافة إلى ابن خلدون والمقري في **نفح الطيب.**

أما الدراسات، فبالإضافة إلى دراسة روبير برانشفيك R. Brunschvig حول الحفصيين[1] ودراسات الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب في كتابه الورقات، ظهرت أخيرا دراستان مهمتان : الأولى للأستاذ محمد الحبيب بن الخوجة[2]، والثانية للأستاذ محمد الطالبي[3]. على أن أهم دراسة للوجود

1) **La Berbérie orientale sous les Hafsides**, 2 : 370 371 et 383 – 389

2) «الهجرة الأندلسية إلى إفريقية في القرن 13/7» مقال بمجلة :
Les cahiers de Tunisie, 1er det 2e trim. 1970. pp 129 – 136

3) «الهجرة الأندلسية إلى إفريقية أيام الحفصيين»، مقال بمجلة الأصالة الجزائرية، عدد 26، سنة 1975، ص ص 46 ـ 90.

الأندلسي بتونس في العهد الحفصي هي الدراسة الأخيرة للأستاذ محمد الطالبي.

حاول الأستاذ الطالبي في مقاله ـ السالف الذكر ـ أن يحلل هذا الوجود الأندلسي من خلال نقطتين أساسيتين :

النقطة الأولى : (العقلية الانهزامية الانتهازية) التي حملها معهم الأندلسيون إلى تونس.

يقول الكاتب في هذا الصدد : «.... وهكذا استولت على مسلمي الأندلس عقلية انهزامية يصورها لنا أحسن تصوير الشاعر الأندلسي عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسال، حيث يقول :

يا أهل أندلس حثوا مطيكم   فما المقام بها الامن الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى   ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا   كيف الحياة مع الحيات في سفط[4]

قال ابن العسال هذه الأبيات عند ضياع طليطلة، وهي ترشح كلها بتلك العقلية الانهزامية التي تحدثنا عنها، والتي كانت السبب العميق والحقيقي الذي تولدت عنه الأحداث، تلك الأحداث التي لم تزد على أن تحقق ـ على مراحل ـ النتائج الحتمية لعقلية الانهزام وما يتبعها من انغماس في زائل اللذات، والتهام الفرص قبل ذق الجرس...»[5].

4) انظر الأبيات عند أ ـ المقري، **نفح**، 4 : 352.
5) م الطالبي، المصدر السابق، ص ص 48 ـ 49.

النقطة الثانية : الشعور بالغربة وهم بالأندلس نفسها.

وهي نقطة حاول الأستاذ الطالبي أن يعزز بها النقطة السالفة الذكر إذ يقول : «...والذي ينبغي التأكيد عليه لإدراك كل ابعاد الهجرة الأندلسية الاجتماعية والنفسية، هو أن مسلمي الأندلس - وهم في أغلبيتهم الساحقة من أبناء البلاد الأصليين - كانوا يشعرون أنهم أجانب، وأنهم بأرض ليست بأرضهم، حان وقت المطايا لمفارقتها... ومما يصور أحسن تصوير هذه العقلية، قول شاعر مجهول يورده المقري هكذا :

يا أهل أندلس ردوا المعار فما في العرض عارية إلا مردات[6]

هكذا كان القوم يشعرون أنهم استعاروا إلى أجل أرضا غير أرضهم، أو أنهم منحوا عارية لابد أن ترد إلى أصحابها الشرعيين، بعد استيفاء ما منحوا من غلتها... وأعاد إبراهيم بن الدباغ الإشبيلي صرخة ابن العسال :

وقائلة : أراك تطيل فكرا كأنك قد وقفت لدى الحساب
فقلت لها : أفكر في عقاب غدا سببا لمعركة العقاب
فما في أرض أندلس مقام وقد دخل البلا من كل باب[7]

ونجد في صرخته هذه تلك العقلية الانهزامية التي تحدثنا عنها، وتلك الدعوة إلى مغادرة السفينة قبل الغرق، فهو لم يدع أهل بلده إلى التكتل أمام الخطر، وإلى تغيير ما بنفوسهم من أسباب الانقسام والانهزام، حتى

6) انظر البيت عند أ. المقري، نفس المصدر والصفحة.
7) انظر الأبيات عند أ. المقري، المصدر السابق، 4 : 464.

يغيروا الوضع، كل ما أسفرت عنه محاسبة النفس، والتفكير في العقاب، هو أنه : فما في أرض أندلس مقام...[8] ، ويخرج بعد ذلك المؤلف بالنتيجة التالية : «....فالهجرة، أي مغادرة السفينة الأندلسية وشأنها، قد هيأت لها إذن عقلية انهزامية انتهازية استولت على النفوس منذ قرون. فكان أمراء الأندلس وكبراؤها يحتسون الكأس حتى الثمالة، قبل أن يفوزوا بأنفسهم وبما استطاعوا من أموالهم.

فأول من غادر الأندلس من المسلمين هم سراتها ونخبتها...»[9]. هذا إذن هو منطلق الأستاذ الطالبي لدراسة الوجود الأندلسي بتونس، والباحث وإن كان لا يريد أن يدخل معه في تفاصيل أسباب النكبة ونتائجها على الصعيدين الداخلي والخارجي والمركبات الاجتماعية والنفسية التي تولدت عنها ـ لأن هذا من شأنه أن يخرج بنا عن الإطار المحدد لهذه الفقرة ـ فإنه مع ذلك يبيح لنفسه أن يطرح على الأستاذ الأسئلة الآتية : كيف تجلت هذه العقلية الانهزامية الانتهازية بتونس ؟ هل أثرت هذه العقلية على التونسيين واعتبروا هم أيضا ألا جدوى من مقاومة (الروم)، وبالتالي يجب البحث عن الهجرة عن بلد أبعد، أم أن الأمر كان عكس ذلك ؟ هل اعتبر الأندلسيون غرباء بتونس كما اعتبروا أنفسهم غرباء بالأندلس ؟ هل اندمجوا، ما هي التنازلات التي قدمتها كلتا الطائفتين لأجل تحقيق هذا الاندماج ؟ لماذا اختار الأندلسيون (بعقليتهم الانهزامية الانتهازية وبشعورهم بالغربة) أرض تونس ؟

---

8) م. الطالبي، المصدر السابق، ص ص 49 ـ 51.

9) المصدر السابق، ص 51.

تلك أسئلة متعددة ولكنها في الواقع متكاملة ومن شأن الإحاطة ببعضها أن يجلو كثير من الغموض، لأن من شأن المنهج الوصفي ـ الذي يأخذ به الكثير من الدارسين ـ أن يزيد الأمر غموضا وتعقيدا، وبالتالي يؤدي إلى بروز عدد من المتناقضات، وسنحاول من خلال استعراضنا لبعض مراحل هذا الوجود والبحث عن مكوناته وأبعاده السياسية والحضارية أن نتوصل إلى أخذ صورة متكاملة عنه، يتأتى لنا بعد ذلك مقارنتها بالصورة التي حاولنا استخلاصها بالنسبة للمغرب، خاصة وأن أوجه الشبه متعددة.

عوامل استقرار الجالية الأندلسية بتونس في العهد الحفصي :

ـ العلاقات الودية بين الأسرة الحفصية وأهل الأندلس :

ذلك أن الأسرة الحفصية ـ التي كان مؤسسها أبو محمد عبد الواحد (604 ـ 1207/618 ـ 1221) أحد أبطال معركة الأرك ـ قد استقرت بالأندلس[10] قبل انتقالها إلى إفريقية، فكان الحفصيون يميلون لأهل الأندلس ويقدرون مواهبهم لخدمة دولتهم وسياستهم، فيحسنون لذلك وفادتهم.

ـ الانهيار الديمغرافي الذي أصاب تونس في هذه الفترة :

فقد تواصل الانهيار الديمغرافي منذ منتصف القرن الرابع عشر، فكان الوافدون الأندلسيون ـ لهذا السبب ـ يجدون مجالا واسعا لاستثمار مواهبهم في قطاعي التجارة والصناعة على الخصوص، بالإضافة إلى الميدانين الفكري والسياسي.

10) ابن خلدون، **العبر**، 6 : 579، 580، 581، 595 و611 ـ 614، 615 ـ 616.

- الاستقرار النسبي الذي كانت تتمتع به تونس :

كانت تونس تمثل في نظر الأندلسيين - في ذلك الحين - الملاذ الأخير لما كانت تتمتع به من استقرار ومناعة نسبية، فإليها اتجهت أنظار ابن مردنيش عندما داهمته جيوش أراغون في رمضان سنة 635 هـ / أبريل - ماي 1238، فأوفد كاتبه ابن الآبار إلى أبي زكرياء مستصرخا، فأدى له البيعة، وأنشده في حفل مشهود سينيته الشهيرة :

أدرك بخيلك، خيل الله، أندلسا   إن السبيل إلى منجاتها درسا(11)

ويضيف الأستاذ محمد الحبيب بن الخوجة إلى ذلك أن الأندلسيين ضاق بهم الأمر بالمغرب بسبب الفتن التي كانت تهزه «فاتجه قسم منه إلى المشرق نحو الديار المصرية والشامية والحجازية، وبقي القسم الأخير وهو

---

11) المصدر السابق، ص 601 - 604.

ملاحظة :

لم يستطع الأسطول الذي أرسل به أبو زكرياء مشحونا بالطعام والأسلحة فك الحصار على بلنسية، فاستفرغ المدد بدانية، وسقطت عاصمة ابن مردنيش. ذلك أن المملكة الحفصية كانت أضعف من أن تستطيع نجدة الأندلس، لقد كانت مجبورة على مسالمة نصارى إسبانيا وصقيلية وشراء صداقتهم بالمال وبأنواع التنازلات، فبينما كان النصارى يسترجعون عواصم الأندلس الإسلامية الواحدة تلو الأخرى، كان ملوك بني حفص يهادنونهم، ويفسحون المجال لفنادق تجارهم وقناصلهم، ويسمحون لرهبانهم بفتح مدارس (studium arabium) يريدون أن يجعلوا منها مراكزا تبشير بالمسيحية، وربما لجأ بعضهم، كابن اللحياني (711 - 717 / 1311 - 1317)، إلى الايهام بأنه يرغب في التنصر (ch. E. Dufourcq, l'Espagne et le maghrib aux XIII^{e} ey XIV^{e} siècles, p. 106 – 110, 488 – 494).

وكانوا يعترفون لملوك نصارى إسبانيا، في رسائل تطفح بالود بسيادتهم على ما تقبلوا عليه من ديار الإسلام، وعلى العموم فإن المملكة الحفصية كانت «تشكو في كل المستويات انخفاضا خطيرا في الوعي السياسي». م. الطالبي، المصدر السابق، ص 53.

كبير كثير بإفريقية وفي البلاد التونسية متوزعا بين أطرافها مستبدلا بالأهل أهلا وبالأوطان أوطانا. وإلى هذا يشير أبو الحسن حازم القرطاجي في أول قصيدته النحوية بقوله :

فتونس تؤنس الأبصار رؤيتها وتمنح الأمم الأسماء والأمما
كأنما الصبح فيها ثغر مبتسهم وحوة الليل فيها حوة ولما
فأقبلت نحوها للناس أفئدة ترتاد غيثا من الإحسان منسجما
فكلهم حضروا في ظل حضرتكم فأصبحت لهم الدنيا بها حلما
قد ند فيها الأسى عن أهل أندلس والانس فيها عليهم وفده قدما
وأبدلوا جنة من جنة حرموا منها وقد بوؤوا من ظلها حرما

كما ينوه بما تم له بإفريقية من أمن وهنا وحظ وذلك في بداية مقصورته حين يقول متحدثا عن ممدوحه المستنصر :

مقدم قبل السؤال جوده فما يقول من يرجيه : متى ؟
جرى إلى نهاية الجود التي ما بعدها وجود معنى لالى
لو لم يوصل أهله الدهر إلى الآئه لم يصلوا إلى الى
طابت بالأيام لي حتى لقد ذكرت في ما قد خلا عيشا حلا
فيا خليلي اسقياني أكؤسا نسكر من خمر الصبا من قد صحا
بلغت آراب المنى في دولة أولت يدى أسنى الأيادي واللهى(12)

ـ موقف الأندلسيين من الموحدين :

نفض معظم الأندلسيين أيديهم من الموحدين واعتبروهم مسؤولين عن ضياع بلدهم، لذلك ولوا وجوههم شطر الحفصيين مؤملين منهم أن يعملوا

12) المقال السابق الذكر، ص ص 129 ـ 130.

على إنقاذهـا، ولعل ابن عميرة يعبر عن هـذه الفكرة حين يقول من قصيـدة يحث فيها أبا زكرياء الحفصي على الاستيلاء على المغرب ويشكو إليه حـال الأندلس :

والمغرب الأقصى على غسـق بـــه وافـاه منـك سنـا الصبـاح المسفر
كلمتـه أنيـاب الـزمـان ومـاشكا داء ابن دايـــة غير ظهر الأدبر
والأمر فيـه قـد انقضى إلا لقى يكفيـه منـك تنـاول بـالخنصر
ولأرض أنـدلس إليـك بحـالهـا شكـوى الهشيم إلى السحـاب الممطر
سقمت بعبـاد المسيـح وأنهـا في أن تكـون مسيحهـا لا تمتري
رحمـاك فيهـا من أخيـذة أذؤب يـزري بقسـوتهـا زئير القسـور
وبقـوتهـا يقـوى القيـاس فسق إلى أبطـالـه نص الجيـاد الضمر
وأجبر قنـاة الـدين فيهـا بـالـذي يقص العـدو من القنـا المتكسر[13]

ونجد له قصيدة أخرى في مدحه يشيد فيها بـأعمـال الحفصيين ويهجو الموحدين، وفيها كذلك يشير إلى مبايعة سبتة وسجلماسة له فيقول :

وأرى البـلاد ولا لعـا لعثـارهم رمقت اقـالتهم بعين القـالي
ودعـا بـذات البحر[14] داع للهـدى لم تعـد أن ولتـه وجـه مـوال
سعـد المجيب بها ويـا لـك بـاعثـا منهـا جـوابـا كان قبـل سـؤال

13) **رسائل ابن عميرة،** مخطوط م.ع بالرباط، عدد ك 232 ص 3.
14) يقصد بها سبتة.

حسنــــاء أغلى مهرهـــا من لم يــزل من كان يرغب في النفيس الغـــالي
وأتتـك ضربهـا[15] فكان صـداقهـا بـــالنقــد من نعماك لا بـــالكالي
مــدت من الصحراء جيــدا إذ رأت من تلك جيدا هو بأسمك حـالي[16]

الهجـــرة

ـ جالية شرق الأندلس :

بدأت الهجرة (الكبرى) إلى إفريقية الحفصية بعد سقوط مدن الأندلس الكبرى خـاصـة بلنسيـة (636 هـ / 1238م) واتخـاذ قرارات الطر ضـدهم، وهكذا هاجرت جـاليـات مهمـة من شرق الأنـدلس إلى غرنـاطـة أولا ومن هناك إلى المغرب وإفريقية الحفصية بـالخصوص، حيث كونوا جـاليـة متميزة عن غيرهـا[17]. ويـلاحـظ أن ابن خلـدون يستعمـل في كل الحـالات كلمـة «جالية» مما يعني أن القدوم لم يكن فرديا، بل كان جماعيا[18].

ـ جالية غرب الأندلس :

تأتي بعد المجموعة الأولى مجموعة أخرى يتحدث عنهـا ابن خلـدون على أنها مجموعة متميزة عنها، وهي جالية غرب الأنـدلس التي أم أفرادهـا المملكـة الحفصية بعد ضياع اشبيلية (646 هـ. / 1249م).

---

15) يقصد سجلماسة.
16) ابن عميرة، نفس المصدر والصفحة.
17) انظر م. الطالبي المصدر السابق، ص 54.
18) انظر العبر، 6 : 711، 787....

ويذكر لنا ابن خلدون أن هذه الجالية كانت مقربة أكثر من الأولى من طرف أبي زكرياء مؤسس الدولة الحفصية، ومن طرف أبنائه من بعده. فهو يروى لنا أنه «كانت لأهل اشبيلية خصوصا من بين الأندلس وصلة بالأمير أبي زكرياء بن عبد الواحد بن أبي حفص وبنيه، منذ ولايته غرب الأندلس»[19] وعندما يقص علينا كيف ارتقى ابن الدباغ إلى الحجابة، يضيف : «وكان من خبر ابن الدباغ هذا أن إبراهيم أباه وفد على تونس في جالية اشبيلية سنة ستة وأربعين (وستمائة)، فولد هو بتونس ونشأ بها»[20].

غير أننا أمام سكوت المصادر عن إعطائنا أرقاما وإحصائيات لعدد هؤلاء المهاجرين، فإنه يستحيل علينا ضبط عدد الوافدين إلى إفريقية، لكن الأمر المؤكد أن عددهم كان مرتفعا وأنهم أموا بالخصوص إفريقيا، إذ يقول ابن خلدون في هذا الصدد : «لما تكالب الطاغية على العدوة، والتهم ثغورها واكتسح بسائطها، وأسف إلى قواعدها وأمصارها، أجاز الاعلام وأهل البيوت إلى أرض المغربين وإفريقية، وكان قصدهم إلى تونس أكثر لاستفحال الدولة الحفصية بها»[21].

ولم يجز إلى إفريقية «الاعلام وأهل البيوت»، فقط، بل انتقل إليها أيضا أقوام بأجمعهم، بعدما فشلوا بالمغرب الأقصى الذي كان أشد اضطرابا من إفريقية[22]. وهذا ما وقع لأبي الغنم وقومه فلقد حاولوا أولا الاستقرار

---

19) انظر ابن خلدون، المصدر السابق، 683.

20) المصدر السابق، 711.

21) المصدر السابق، 683 ـ 684.

22) انظر م. الطالبي، المصدر السابق، 56.

بطنجة، لكنهم غادروها سنة 661 هـ / 1263، بعدما قتل غدرا بنو مرين أميرها يوسف بن محمد بن عبد الله بن أحمد الهمداني المعروف بابن الأمين، فعندها يقول ابن خلدون : «انتقل بنوه إلى تونس، ومعهم صهرهم القاضي أبو الغنم عبد الرحمان بن يعقوب من جالية شاطبة، انتقل هو وقومه إلى طنجة أيام الجلاء، فنزلوا بها، وأصهر إليهم بنو الأمين، وارتحلوا معهم إلى تونس»[23].

ملامح التأثير السياسي :

- في الميدان السياسي : أراد أبو زكرياء الأول (625 هـ / 647 هـ - 1228 / 1249م) أن يستغل (النخبة الأندلسية) ليدعم بها أركان دولته، ويجعل منها أداة توازن يخفف بها من ضغط شيوخ الموحدين. فاصطنعهم واستكثر منهم في بلاطه وإدارته وجيشه، وأسند لبعضهم أسمى الوظائف فلقد كان الأندلسي الرئيس أبو عبد الله محمد بن أبي الحسين المسير لشؤون دولته، وكان أسند لابن الآبار، الذي وقد عليه من بلنسية مستنجدا، كتابة علامته، ولقد بلغ عدد الأندلسيين ونفوذهم بالإدارة والجيش مبلغا جعل شيوخ الموحدين يضيقون بهم ذرعا[24]، ذلك أن أبا زكرياء حسب عبارة ابن خلدون، كان قد «اصطنع منهم رجالا، ورتب جندا كثروا الموحدين وزاحموهم في مراكزهم من الدولة»[25].

23) انظر ابن خلدون المصدر السابق، 56.
24) انظر م. الطالبي، المصدر السابق، ص 57.
25) ابن خلدون، المصدر السابق، 627.

فلمـــا ولي المستنصر (647 هـ ـ 675 هـ / 1249م ـ 1277م) أراد أن يقدم بعض التنازلات (للمشيخة الموحديـة)، فـأبعـد ابن أبي الحسين، وأسنـد وزارته أتى شخصية موحدية مرموقة، فعين لذلك محمد بن أبي مهدي الهنتـاتي لكن المشيخة الموحدية لم تعتبر ذلك كافيـا، فـدبر ابن أبي مهـدي، بمسـاعـدة مشيخة الموحدين عملية انقلاب آلت في النهاية إلى الفشل، وإلى تـدعيم نفوذ الأندلسيين فأعاد المستنصر ابن أبي الحسين إلى مكانـه واعتمـد عليـه في تسيير شؤون الدولة[26]، وأصبح مثلا يحتذى لمن بعده[27].

واستفحل هكذا النفوذ الأنـدلسي في البلاط، فـأصبح الأنـدلسيون من «أهل الشورى»[28] على قدم المساواة مع الموحدين.

ولعلـه ليس أدل على مـا بلغــه الأنــدلسيـون من رقعــة في المملكــة الحفصيـة ممـا تهيـأ لأبي الحسين بن سيـد النـاس. كان أبوه أبو بكـر بن سيـد الناس «من بيوت اشبيلية، حافظا للحديث، راوية لـه، ظـاهريـا في فقهـه على مذهب داود وأصحـابـه»[29]، فقـدم إلى تونس عنـد الجلاء، وأسنـد إليـه التدريس بمدرسة جامع الهواء، واتصل أبناه أحمد وأبو الحسين بأبي فارس بن أبي إسحاق. فأما أحمد فقد قتل بسبب ما كان يحاك من الدسائس. وأمـا أبو الحسين فقد انقطع إلى أبي فارس، ثم بعد مقتل هذا الأخير في حرب الـدعي ابن أبي عمارة، التحق بـأبي زكريـاء بن أبي إسحـاق، وأعـانـه على اغتصـاب

26) المصدر السابق، 627 ـ 628.
27) المصدر السابق، 704.
28) المصدر السابق، 667.
29) المصدر السابق، 683 ـ 684.

بجاية سنة 1285/684 وإقامة مملكة مستقلة بها، ولعله يحسن أن نورد النص الكامل الذي خص به ابن خلدون : «قد قدمنا سلف هذا الرجل وأوليته، وأنه لحق بالأمير أبي زكرياء بتلمسان وأبلى في خدمته. فلما استولى الأمير أبو زكرياء على الثغر الغربي، واقتطعه عن أعمال الحضرة، ونزل بجاية وضاهر بها تونس، عقد لأبي الحسين بن سيد الناس على حجابته. وفوض إليه فيما وراء بابه، وأجراه في رئاسته على سنن ابن أبي الحسين، الرئيس قبله في دولة المستنصر، الذي كانوا يتلقنون طرقه، وينزعون إلى مراميه. بل كانت رئاسة هذا في حجابته أبلغ من رئاسة ابن أبي الحسين، لخلاء جو الدولة ببجاية من مشيخة الموحدين الذي يزاحمونه كما كان ابن أبي الحسين مزاحما بهم.

فاستولى أبو الحسين بن سيد الناس على الدولة ببجاية، وقام بأمر مخدومه أحسن قيام، وصار إلى الحل والعقد، وانصرفت إليه الوجوه، وتمكن في يده الزمام، إلى أن هلك سنة 690 أعظم ما كان رئاسة، وأقرب من صاحبه مكانا وسرا»[30]، وخلف ببجاية أبا الحسين أندلسي آخر، هو أبو القاسم بن أبي جبي الذي تمتع بنفس النفوذ، ودخل في سعايات ومغامرات عديدة[31]. وترك أبو الحسين بن سيد الناس ولدا، وهو محمد بن أبي الحسين بن سيد الناس، الذي لعب دورا هاما في سياسة عصر وولى الحجابة[32]. ومن أشهر الأندلسيين الذين بلغوا قمة الرتب يجب أن نذكر أيضا أبا عبد

30) المصدر السابق، 704 ـ 705.

31) المصدر السابق، 705، 719 ـ 724.

32) المصدر السابق، 758، 770، 780 ـ 782.

الرحمان يعقوب بن أبي بكر بن محمد بن عمر السلمي، الذي قدم جده محمد من شاطبة مع الجالية. وولى أبو عبد الرحمان بن عمر الحجابة ببجابة، واستبد بها سنة 1315/715، «مقتصرا على ذكر السلطات في الخطبة واسمه في سكة»[33]، إلى أن توفي على فراشه في شوال سنة 719 نوفمبر - دجنبر 1319.

هذا كان دور الجالية الأندلسية بتونس وهو دور لا يقل عن الدور الذي ستلعبه جالية سنة 1609 رغم أن الأقلام اتجهت إلى الثانية أكثر من الأولى، دور تمتزج فيه السلبيات بالإيجابيات إلى حد كبير، وإن كانت الوجود الأندلسي بتونس واضحة فإن السلبيات تثير الكثير من نقط الاستفهام : كيف سمح الأندلسيون لأنفسهم أن ينقلوا معهم إلى بلاط الحفصيين دسائس وسعايتات بلاطاتهم بالأندلس، خاصة وأنهم ذاقوا مرارتها وعرفوا كيف آلت بهم إلى السقوط ؟ لماذا لم يحترموا قواعد التركيبة السياسية الحفصية بكل مكوناتها ؟

إن الواقع يبين أن الأندلسيين بتونس - كما حاولوا ذلك في المغرب - حاولوا أن يفرضوا نوعا من الوصاية الحضارية على تونس. فقد كان أهل الأندلس يحتقرون أهل تونس ويزدرون ببلاطهم خاصة إذا ما قاسوه ببلاطات الأندلس وما كان يسودها من أناقة ورشاقة وترف وظرف، فإذا ما اعتبرنا هذا أدركنا أنه ليس من الغريب أن يخط ابن الآبار :

طغى بتونس جلف سموه ظلما خليفة[34]

---

33) المصدر السابق، 756.

34) المصدر السابق، 655.

وقد أظهر ابن الآبـار هفوات كشف بها لأعـدائـه عن مقـاتلـه، فـأمر المستنصر «بامتحانه، ثم بقلتـه قعصـا بـالرمـاح»[35] (وسـط محرم 658 / آخر دجنبر 1259)، وبحرق شلوه كما احرقت كتبه، ذلك أن ابن الآبـار كان يتهم فيما اتهم بـه بـأنـه كان يريـد الكيـد للأسرة الحفصيـة في شخص الـواثـق بن المستنصر عن طريق السحر والتنجيم[36].

هكـذا كثرت الـدسـائس والسعـايـات بين الأنـدلسيين والحفصيين من جهة وبين الأندلسيين أنفسهم من جهة أخرى إلى درجة أصبح معها الاحتراز هو العملة السائدة. وقد حاول الأستاذ محمد الطالبي أن يلخص سلبيات هذا الوجود الأندلسي بتونس في الفقرة التـاليـة : «...إن فيما تقـدم دلالـة كافيـة على مدى انهيار سلم القيم وفقدان كل شعور بالمسؤولية. فإذا ما استثنينا أبـا عبد الله محمد بن أبي الحسين، فإنـه لم يرتفع أي أنـدلسي ممن خـدم الحفصيين إلى مستوى رجل دولة بأتم معنى الكلمة. فإننا مهما أطلنـا مطـالعـة المصـادر والحنـا في استنطـاقهـا، فـإننـا لا نلمس أدنى وعي بـالمسؤوليـة نحـو الأمـة والدولة. وكـذلـك مفهوم الإخلاص، فـإننـا لم نكـد نعثر لـه على أثر يـذكر فـالإخلاص، إذا مـا توفر، فـإنمـا يكون إخـلاصـا لشخص أو لعـائلـة، وهـو عندها، مهما يكن الأمر، لا يحول دون الاختلاس، وإيداع دفائن الذهب في بطن الأرض احتيـاطـا للطـوارىء، ولا يثبت بحـال أمـام الـدسـائس والسعايات، ولا يمنع من قلب ظهر المجن عند الحاجة[37].

35) نفس المصدر والصفحة.

36) م. الطالبي المصدر السابق، 61.

37) المصدر السابق، 63.

وقـد تحـدث الأستـاذ الطـالبي بعـد ذلـك على تـأثير ذلـك على الأمن بالمنطقة قائلا : «كل هذا يكشف عن شعور قوي بعدم الأمن، تولـدت عنـه عقلية انتهازية قصيرة الرواية، كنـا قـد لاحظنـاهـا بـالأنـدلس. ولقـد كان الأمن حقا مفقودا في كل المستويـات، في مستوى الأريـاف ـ حيث انتشـار الظعن جعل من يـزرع لا يـأمن أبـدا على حصـاد مـا زرع ـ وفي مستـوى البلاط، حيث سوء الظن، والخيانة، والسعـايـة، والتعـذيـب، والقتل، وحرق الاشلاء، فتكونت عقلية نسجتهـا العنكبوت بخيوط التنجيم والطلسمات»[38]. ثم انتقل بعد ذلك الأستـاذ الطـالبي إلى فقـدان الوعي السيـاسي لـدى هـذه الجالية وكيف أنهم لم يستفيدوا من تجربتهم بوطنهم الأصلي مقارنا كل ذلـك بـالوضعيـة التي كانت تسير نحوهـاأوروبـا آنـذاك : «لقـد قـدم الأنـدلسيـون لاجئين بعدمـا أضـاعوا بلادهم وخرجوا منكوبين من وطنهم ولقـد شـاهـدوا كيف انتصر عليهم المسيحيون بفضل سياسة واعية متواصلة حافزها ومحورها استرجاع الوطن السليب كل هذا كان من شأنه ـ مبـدئيـا ـ أن يوقض فيهم الضمائر، ويـدعـوهم إلى التفكير، وإلى حفـز الهمم، والأعراض عن الخســائس والسفاسف، ويجعل منهم حزب يقظـة وإصلاح، بل ـ لم لا ؟ حزب اعـداد العدة لاستعادة ما اغتصب منهم بالقوة ونحن لا يسعنـا إلا أن نسجل أنـه لم يكن شيء من هذا لقد كان فقدان الوعي كاملا.

وكل ما فكرت فيه نخبة القوم وأصحـاب الأقلام منهم هو أن يعوضوا ثديا ـ بثدي ـ وإن كان أقل نعومة ـ وأن يحتلبوا من بلاطي تونس وبجاية ما تعودوا احتلابه من بلاطـات الأنـدلس احتلابـا قضى على الحسنـاء. لقـد

38) المصدر السابق، 64.

حمل الأنـدلسيـون في حقـائبهم المرض الـذي منـه مـاتت الأنـدلس، فـزادوا إفريقيـة ـ في المستوى السيـاسي ـ مرضـا على مرضهـا. كان ذلـك في الوقت الذي عرفت فيه أوروبا انفجارا ديمغرافيا عظيمـا، ومـدا اقتصـاديـا عـارمـا، وانطلاقة نهضة عمت جميع الميادين، وفي الوقت الذي كان فيه ملوك إسبانيـا يضعون الخطط لإعادة المغرب العربي أيضـا إلى حضيرة النصرانيـة.... وأقل ما يمكن أن يقال في شأن الجالية الأندلسية في هـذا الصـدد هو أنهـا لم تكن عاملا إيجابيـا»[39].

ـ في الميدان الفكري :

لا نبالغ إذا قلنا إن التأثير الأندلسي كان أبلغ في الميدان الفكري منـه في الميدان السياسي، بحيث أن المد الحضـاري الأنـدلسي كان من القوة بحيث أدخل الكثير من التغيير على السـاحة الفكرية بتونس.

التعليم الأولي : نـلاحـظ أن الأنــدلسيين احتكروه وأدخلـوا إليــه أساليب تربوية أندلسية، وهذا ما يوضحـه ابن خلـدون قـائلا : «وأمـا أهل إفريقية فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب، ومدارسـة قوانين العلوم، وتلقين بعض مسـائلهـا. إلا أن عنـايتهم بـالقرآن، واستظهـار الولـدان إيـاه، ووقـوفهم على اختـلاف روايـاتـه وقراءاتـه، أكثر ممـا سـواه. وعنايتهم بالخط تبع لذلـك. وبـالجملـة، فطريقتهم في تعلم القرآن أقرب إلى طريقة أهل الأندلس، لأن سند طريقتهم في ذلك متصل بمشيخـة الأنـدلس الذين أجـازوا عنـد تغلب النصـارى على شرق الأنـدلس، واستقروا بتونس،

---

39) نفس المصدر والصفحة.

وعنهم أخذ ولدانهم بعد ذلك»[40]، وقد أدى ذلك إلى اضمحلال الخط الإفريقي وتعويضه بالخط الأندلسي، إذ يذكر ابن خلدون في هذا الصدد : «... ونسى خطة القيروان والمهدية بنسيان عوائدهما وصنائعها، وصارت خطوط أهل إفريقيا كلها على الرسم الأندلسي بتونس، وما إليها، لتوفر أهل الأندلس بها عند الجالية من شرق الأندلس.

وبقى منه رسم ببلاد الجريد الذين لم يخالطوا كتاب الأندلس ولا تمرسوا بجوارهم وإنما كانوا يفدون على دار الملك بتونس، فصار خط أهل إفريقية من أحسن خطوط أهل الأندلس»[41]. إذن فقد عم هذا التأثير مختلف أرجاء البلاد التونسية باستثناء المناطق النائية كبلاد الجريد التي أشار إليها ابن خلدون، وهي بلاد لم تكن تستهوى أندلسي سواحل بلنسية ومرسية وضفاف الوادي الكبير.

التعليم العالي :

كان التعليم العالي يشهد منافسة بين الأندلسيين وأهل البلاد، نظرا لأن التعليم في هذا المستوى يؤدي في كثير من الأحيان إلى الجاه والنفوذ والثراء. غير أن الحفصيين كانوا يميلون على العموم إلى المدرسين الأندلسيين لشهرتهم وكفاءتهم ولاستغلالهم أيضا في الدعاية لهم، هذا ما وقع ـ مثلا ـ لأبي بكر محمد بن أحمد بن عبد الله بن سيد الناس الذي كان ظاهري المذهب وعلما من أعلام الحديث، إذ انه لما قدم تونس في جالية اشبيلية،

40) المقدمة، 1039 ـ 1040.

41) المصدر السابق، 751.

بعدما مكث زمنا ببجاية، استقبله المستنصر أحسن استقبال «وجعل إليه تدريس العلم بالمدرسة، عند جامع الهواء، التي أسستها أم الخلائف»[42]، وليس من من شك في أن ابن سيد الناس هذا لم يكن، من بين علماء الأندلس الوحيد الذي نال هذه الحظوة وارتقى إلى هذه الوظيفة فإننا نعلم مثلا أنه قد انتظم في سلك المدرسين أندلسي آخر، هو «الفقيه الحافظ المتقن التاريخي المدرس المحدث أبو العباس أحمد بن محمد القريشي الغرناطي»، الذي بعدما نزل بجاية، و«انفصل إلى المغرب»، «رجع إلى حاضرة أفريقية ولم يزل عاكفا على التدريس والتذكير، مشتغلا بعلم الرواية والتفسير إلى أن مات ـ رحمه الله»[43].

لكن الملاحظة الأساسية هنا أيضا أنه مهما قيل عن المدارس التي أنشأها الحفصيون فإن شأوها لم يبلغ ما بلغ عند المرينيين، وقد فسر الأستاذ الطالبي[44] هذا الفرق بكون إقبال الطلبة عليها كان محدودا بالرغم مما كان يبذل إليهم من منح أحيانا لجلبهم إليها[45]. لكن لم يوضح لماذا كان إقبال الطلبة محدودا ؟ إلا يمكن أن يكون السبب هو النفوذ الذي كان يتمتع به الأندلسيون ونظرتهم الخاصة إلى أبناء البلد، في حين أنه بالمغرب كانت المدارس المرينية مسيرة من طرف أبناء البلد وبالتالي لم تكن أية عقدة تفصل الطلبة عن أساتذتهم.

42) ابن خلدون، **العبر** 6 : 684، الغبريني، **عنوان الدراية**، ص 294.

43) أحمد الغبريني، **عنوان الدراية**، ص 347 ـ 348.

44) المصدر السابق، ص 67.

45) هذا ما فعله ـ مثلا ـ الأمير أبو زكرياء بن السلطان أبي إسحاق (1279 ـ 1273) عندما أسس بتونس في ولاية أبيه المدرسة المغرضية. انظر الزركشي، **تاريخ الدولتين**، ص 40 ـ 41.

ومهما يكن فإن عدد علماء الأندلس بتونس كان مرتفعا واشعاعهم كان قويا، فلقد أحصى محمد الحبيب بن الخوجة، اعتمادا بالخصوص على **رحلة** ابن رشيد، ما لايقل عن 35 عالما أندلسيا[46] كلهم دخلوا إفريقية في القرن 13/7، وأحصى الأستاذ الطالبي[47] في **عنوان الدراية** للغبريني (توفي 1304/704) في نفس الفترة الزمنية، 33 من مشايخ الأندلس ممن مر ببجاية أو استقر بها نهائيا.

ميادين التأثير :

النحو : احتل فيه الأندلسيون مكان الصدارة، وقد بزع فيه على الخصوص :

☆) أبو الحسن علي بن موسى الحضرمي، المعروف بابن عصفور وهو اشبيلي (ولد سنة 1201/597 وتوفي بتونس سنة 1270/669)، ومن تآليفه : **المغرب والممتع** في الاشتقاق، **والمغرب** في النحو[48].

☆) أبو جعفر أحمد بن يوسف اللبلي (613 ـ 1216/691 ـ 1282)، أخذ عن السلوبين والأعلم البطليوسي وابن لب، وترك تآليف كثيرة من بينها وشي الحلل الذي تعقبه حازم[49].

---

46) المصدر السابق.

47) المصدر السابق.

48) أ. الغبريني، المصدر السابق، 317، وم. الحبيب بن الخوجة، المقال السابق، ص 134.

49) أ. الغبريني، المصدر السابق، 345، والعبدري، **رحلة**، 43 ـ 44، وم. الحبيب بن الخوجة، المقال السالف الذكر، 134.

☆) ومنهم الإمام الناقد واللغوي الشاعر أبو الحسن حازم القرطاجني المولود سنة 1211/608 والمتوفى سنة 1285/684، صاحب **المقصورة والميمية** النحوية وكتاب **القوافي ومنهاج البلغاء وسراج الأدباء**[50].

الأدب : انتقل إلى تونس في هذه الفترة جمع من مشاهير الأدباء والشعراء نذكر من بينهم على الخصوص :

☆) أبو الحسن عيسى بن أبي محمد بن الحسين ابن دسيم البلنسي المولود سنة 1218/615 والمتوفى بتونس سنة 1283/692[51].

☆) وأبو الحسن علي بن أبي القاسم بن رزين المولد بمرسية، انتقل أولا إلى سبتة ثم إلى بجاية ومنها إلى تونس وأخذ عن ابن نبيل وابن أبي السداد.

☆) ومنهم أبو العباس أحمد بن القاسم بن القصير الاشبيلي، وهو المعروف بصلاته مع رجال البلاط الحفصي وبالخصوص مع الوزير ابن أبي الحسين العنسي. له في المستنصر ورجال دولته المدائح الكثيرة[52].

☆) ومنهم الشيخ أديب الجماعة أبو عبد الله بن همشك التطيلي[53].

☆) ومنهم الشيخ الكاتب الأديب أبو إسحاق بن حبي[54].

---

50) م. الحبيب بن الخوجة، نفس المقال والصفحة.

51) نفس المصدر والصفحة.

52) نفس المصدر والصفحة.

53) نفس المصدر والصفحة.

54) نفس المصدر والصفحة.

☆) ومنهم أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد (610/685 ـ 1213/1286)، صاحب **القدح، والمغرب في حلي المغرب، والغصون اليانعة في شعراء المائة السابعة**[55].

☆) وأبو الحجاج يوسف بن محمد البياسي (توفي بتونس سنة 653 هـ / 1255م)، صنف بتونس 646/1248 كتاب **الحماسة**[56].

☆) كما نبع بتونس في القرن 9/15، شاعران أندلسيان، وهما محمد الخير، الذي قدم من مالقة سنة 864/1459 ـ 1460، ومنافسه أحمد بن محمد الخلوف (توفي 899/1494)[57].

غير أن للأستاذ الطالبي رأي في الموضوع إذ يقول : «غير أنه ينبغي أن نؤكد أن هؤلاء الأدباء والشعراء، على نبوغهم في زمانهم وحذقهم في محسنات البديع، لم يقدموا في الحقيقة بجديد، ولم يحدثوا في البلاد نهضة أدبية. ذلك أن الحضارة الإسلامية ـ العربية قد انزلقت في منحدر الانحطاط في كامل الاصقاع، وفقدت روح الابتكار، وغادرها الالهام، وسلبت القوة، فأصبح القوم يتبارون في تأليف باقات لطيفة من أزهار يقطفونها من حدائق الأقدمين، ويصوغون تحفا أنيقة رشيقة من مختار الألفاظ غير أنها تحف ترن بالفراغ، وزاهية بالأملاق، لالب وراءها ولا طائل، كان الأدب في الرسائل المنمقة، وما يتخللها من أشعار تذوب رقة ولطفا، أدب انحطاط بأتم معنى الكلمة، فيه عذوبة الأحلام، وتعاريج

55) نفس المصدر والصفحة.

56) م. الطالبي، المصدر السابق 69.

57) عبد الباسط بن خليل، **الروض الباسم في حوادث العمر** ص 20 ـ 22.

الأوهام، وجنة المخدرات. أدب خاصة ترفل في دمقس الألفاظ وحريرها، أو برجوازية أنيقة بأسلوب حياتها هزيلة بنشاطها، تعيش في جميع الميادين - الاقتصادية منها والفكرية - على رصيد الماضي، فلا تخلق، ولا تبتكر، ولا تغامر، ولا تغزو أسواقا جديدة لبضاعة تلبي الرغبات الحيوية، وتغذي النشاط، وتفرض نفسها كما وكيفا. كان الأدب مرآة صادقة يعكس عقلية برجوازية انزوت في دفاء تراثها فلا تنشط إلا بمقدار»[58].

العلوم البحتة والتجريبية :

الطب : سبق أن رأينا أن ميدان الطب احتكره الأندلسيون بالمغرب، والأمر لا يختلف هنا بالنسبة لتونس، فقد تولى زمام قيادة هذا العام جملة من أطباء الأندلس، ويكفي أن نلقي مثلا نظرة على **عنوان الدراية** لنتأكد من ذلك، ومن بين هؤلاء نذكر :

☆) أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الأموي المعروف بابن اندراس (ت 1372/674 - 1373)، يقول عنه الغبريني : «...من أهل مرسية ورد على بجاية في عشر الستين وستمائة مستوطنا، وتبسط للطب طبيبا باحثا جيدا... وكان - رحمه الله - متوليا لطب الولاة ببجاية هو وبعض خواص الأطباء بها، ورحل إلى حاضرة إفريقية باستدعاء أمير المؤمنين المستنصر له بعد أن سمع به وعرف خبره، فحضر مجلسه وسئل فأجاب ووافق طريق الصواب، وانتظم في سلك أطبائه، وكان من

58) المقال السابق، ص 70.

جملة جلسائه...»[59]. وانجب ابن انـدراس ابنـا، هو أبو يعقوب يوسف (ت بتونس 1329/739)، فبرع أيضا في الطب.

☆) أبو العباس أحمد بن خالد من أهل مالقة[60].

☆) أبو عبد اللـه محمـد بن عبـد الرحمـان بن عبـد اللـه الخزرجي الشـاطبي (ت 1252/631)، تـولى غير مرة القضـاء إذ يقـول الغبريني في هـذا الصـدد : «...تخطـط بخطـة القضـاء في غير مـا بلـد، وكان أبو قـاضيـا وبيتهم بيت علم وقضاء وتوارث سؤدد، ثم قضى ببجاية فكان في قضائـه على سنن الفضلاء وطريـق الأوليـاء والعقـلاء... ثم انصرف عن بجـايـة فولى قضاء حاضرة إفريقية، فكان له فيهـا الظهور في أحكامـه...»[61]. ويمكن أن نـذكر أيضـا محمـد بن عيشـون، طبيب ابن اللحيـاني، وأبـا الحجاج يوسف، وكلاهما أندلسيان.

لكن يرى الأستـاذ الطـالبي أن «كل هـؤلاء الأطبـاء على حـذقهم في صناعتهم لم يتقدموا بعلم الطب، ولم يحدثوا مدرسة شبيهـة بمـدرسـة القيروان التي ذاع صيتها في القرنين 9/3 و10/4»[62].

---

59) **عنوان الدراية**، 76.

60) م. الطالبي، المقال السابق، 70.

61) **عنوان الدراية**، 116.

62) المقال السابق، 72.

علم النبات :

نذكر أبا العباس أحمد بن مفرج المعروف بابن الرومية المولود سنة 1171/567، والذي أقام بعد إقامته مدة بتونس عاد إلى اشبيلية ومات بها سنة 1239/637[63].

وابن البيطار الذي ورد على تونس من مالقة، له مؤلفات عديدة، وتابع طريقه نحو الشرق فتوفي بدمشق سنة 1248/646[64].

الرياضيات :

أهم رياضي أندلسي انتقل إلى تونس في هذه الفترة هو القلصادي أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن علي القرشي (توفي بناحية إفريقية سنة 1486/891)[65] بلغت مؤلفاته في الحساب 13 كتابا[66]، ألف البعض منها في تونس مثل : «**كشف الجلباب عن علم الحساب**»[67]، و«**القانون في الحساب**» (كراسة) وشرحه وكتابه «**الكليات في الفرائض**» وشرحه في نحو أربعة كراريس[68]. وقد كان آخر من تقدم بهذا العلم بالغرب[69] الإسلامي في العصر الوسيط.

---

63) محمد الحبيب بن الخوجة، المقال السابق، 135.

64) نفس المصدر والصفحة.

65) خصص الأستاذ محمد أبو الاجفان ترجمة مطولة أثناء تقديمه **لرحلة** القلصادي انظر ـ مثلا ـ ص 30 ـ 56.

66) انظر م. السوسي، عالم رياضي أندلسي تونسي، مقال بمجلة **حوليات الجامعة التونسية**، عدد 9، 1972. ص 43 وبعدها.

67) انظر م. أبو الاجفان، المصدر السابق، 35.

68) نفس المصدر والصفحة.

69) محمد الطالبي، المقال السابق، 71.

العلوم الشرعية :

برع الأندلسيون كما هو معلوم أيضا في العلوم الشرعية، وقد كانت ضرورية بالنسبة لهم نظرا للفزع الدائم الذي كان يلازمهم خوفا من ضياع هذه العلوم نتيجة التكالب المسيحي على الأراضي الإسلامية. لقد كان العجز المادي واضحا فكان على علماء الشريعة إذن أن يحثوا الناس على الاهتمام بأمور دينهم، خاصة وأنهم كانوا يربطون جدليا بين ضياع العلوم الشرعية وضياع الأندلس، أي أن المسلمين فقدوا الأندلس حيثما أصبحوا يجهلون تطبيق هذه العلوم، فلا غرابة إذن أن تأتي هذه الفئة من الجالية الأندلسية وهي تحمل معها أفكار محددة لئلا تتكرر مأساة الأندلس بتونس.

وثمة ملاحظة أهم وهي أن أفراد هذه الفئة من الجالية الأندلسية سوف تحاول دائما أن تظهر بمظهر الورع والصلاح، وذلك حتى تلغي الصورة التي ألفها سكان إفريقيا عن شعراء وأدباء الأندلس وأنهم السبب في ضياعها، أي أنهم يريدون أن يثبتوا أن هناك أصواتا كانت تنادي بضرورة الاتحاد والجهاد لاسترجاع الثغور، فلا غرابة إذن أن نجد عددا ممن تولوا منصب القضاء ـ مثلا ـ ذهبوا إلى حد التطبيق الصارم لقواعد الشريعة الإسلامية، مما جعل العامة تتعلق بهم وتضرب بهم المثل في إخلاصهم.

هناك ملاحظة أخرى نعزز بها ما أوردناه سابقا وهي أن المصادر المعاصرة كثيرا ما تحلى أفراد هذه الفئة بكلمة «الصوفي الصالح» مما يدعونا للتساؤل عن سبب تكرار هذه الصورة بالنسبة لهذه الفئة ؟ يرجع ذلك في نظرنا إلى المركبات التي حملوها معهم من الأندلس والتي أثبت ـ بالنسبة لهم ـ ألا جدوى في المغامرة في الحياة العملية وأن من الأفضل العزوف عن كل

ما من شأنه يجعلها وجها لوجه مع واقع هذه الحياة خوفا من تكرار التجربة. وهكذا كما قلنا ذلك سابقا عكس الفئة الأولى تماما، فقد كانت تتكون من كتاب وأدباء وشعراء ممن سخروا كل إمكانياتهم لتكرار التجربة بتونس بحماس كبير مما أدي بها إلى الدخول في صراع مرير مع الأهالي انتهى في أحيان كثيرة بنكبات ومآسي على الصعيدين السياسي والاجتماعي. وعلى كل فسنعرض لجملة من هؤلاء دون الدخول في التفاصيل، إذ المقصود فقط هو إعطاء نماذج لأفراد هذه الفئة.

فمن القراء نذكر :

☆) أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن عقاب الجذامي، وهو من أهل شاطبة، ولديها سنة 1216/613. وقد أخذ عن جماعة من العلماء قبل وفادته على تونس لقيهم على التوالي بشاطبة وغرناطة ومراكش[70].

☆) أبو العباس أحمد بن موسى بن عيسى بن أبي الفتح الانصاري البطرني : كان مقرئا للقرآن واسع الرواية[71].

☆) أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد بن لب الانصاري المرسي[72].

☆) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن حيان الانصاري الأوسي الشاطبي، ولد سنة 1237/635 أخذ عن كثير من شيوخ الأندلس والمغرب.

---

70) م. الحبيب بن الخوجة، المقال السابق، 131.

71) نفس المصدر والصفحة.

72) نفس المصدر والصفحة.

ومن الرواة المحدثين :

☆) أبو الكرم محمد بن إبراهيم بن محمد الحميري، ولد سنة 618 هـ ببلنسية، أخذ عن ابن محرز وعن الحافظ الناقد ابن عسكر المالقي(73).

☆) أبو التقى صالح بن محمد بن سليمان البلنسي عرف بابن شوشن وأصله من طرطوشة(74).

☆) أبو محمد عبد الله بن يوسف بن موسى الخلاسي، قال عنه الأستاذ محمد الحبيب بن الخوجة : «الشيخ الصوفي الزاهد... أحد الصلحاء الفضلاء الأولياء الاتقياء شاع بين الناس فضله وعرفوا قدره بالرغم عن خموله وتواضعه»(75) وهو من أهل بلنسة كان مولده بها عام 1213/610، أخذ عن الكلاعي وغيره من علماء المشرق والمغرب.

☆) أبو محمد عبد الحق ابن بربطلة الأزدي المولود بمرسبة حوالي 1184/580 والمتوفى بتونس سنة 1262/661. أخذ عن ابن المرأة وابن عات والكلاعي وهو الذي ترأس الوفد الملكي الذي قدم إلى تونس سنة 657ـ1258 مبايعا المستنصر أمير للمؤمنين إذ يقول ابن القنفذ في هذا الصدد : «وفي هذه السنة (657) وصلت بيعة أهل مكة للمستنصر على يدي الشيخ أبي محمد عبد الحق بن سبعين، وكان الواصل بها المحدث الراوية أبو محمد بن برطلة الأزدي الإشبيلي، وكان في ذلك هناك كبير»(76).

---

73) المصدر السابق، 132.

74) نفس المصدر والصفحة.

75) نفس المصدر والصفحة.

76) **الفارسية**، 120.

ومن الحفاظ الفقهاء نذكر :

☆) أبو عبد الله ابن الابار المار الذكر

☆) أبو بكر محمد بن الحسن بن يوسف بن جيش اللخمي، المولود بمرسية سنة 1218/615 والمتوفى بتونس 1268/685 أخذ عن ابن الولى والرف وابن محرز والوزير سهل بن مالك وابن السفاد وغيرهم ولي قضاء مرسية، وتنقل بين كثير من مدن الأندلس والمغرب هاجر أولا إلى بجاية ومنها انتقل إلى تونس، وولى بها القضاء[77].

☆) أبو البركات موسى بن عبد الله بن إبراهيم بن محمد القمجي ولد بمرسة سنة 1213/610، وتوفي بتونس سنة 1285/684[78].

☆) أبو العباس أحمد بن محمد بن الحسن ابن الغماز البلنسي الخزرجي، ولد ببلنسية سنة 1212/609 وتوفي بتونس سنة 1294/693، أخذ عن ابن محرز وابن عميرة والكلاعي وابن السراج وغيرهم. وقد اتخذ لنفسه في بيته مجلسا للتحديث والإقراء فأخذ عنه الكثير منهم : أبو الحسن التيجاني والغبريني وابن جابر الوادي آشي، وكان مقربا من السلطان إذ قال عنه ابن القنفذ في هذا الصدد : «...وكان ابن الغماز من سعداء الفقهاء، على أنه لم يقتصر به المستنصر على القضاء بل ناط به أشغالا سلطانية، وكان ينظر له في كثير من الأمور»[79].

---

77) محمد الحبيب بن الخوجة، 132.

78) المصدر السابق، 132.

79) **الفارسية**، 151.

ومن الفقهاء المحدثين نذكر :

☆) أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله الإشبيلي المعروف بابن سيد الناس المتوفى بتونس سنة 659/657 ـ 1261/1258. أخذ عنه ابن خروف وابن جبير وغيرهما من العلماء وعنه ابن الزبير وابن بكر، وكان أيضا من جلساء المستنصر، إذ يقول ابن القنفذ في هذا الصدد : «وفي هذه السنة توفي الفقيه المحدث أبو بكر بن سيد الناس، وكان المستنصر رتب لمجالسته أعلاما من الفقهاء والأدباء كالمحدث الحافظ أبو بكر بن سيد الناس المذكور ـ رحمه الله...»[80].

☆ ☆ ☆

هذه بصفة عامة أهم التأثيرات التي أحدثها الأندلسيون في الميدان الفكري والعلمي، وهي تأثيرات كانت تزداد قوة أو ضعفا حسب الظرفية السائدة آنذاك، تأثيرات حاول بعض الدارسين أن يوازن بين سلبياتها وإيجابياتها، فغلب بعضهم الأولى على الثانية، وغلب البعض الآخر الثانية على الأولى. فالذين قالوا بالأولى اعتمدوا بالخصوص على المكونات النفسية والعقلية التي أقر بها الأندلسيون (الانهزامية والانتهازية)، والذين قالوا بالثانية أخذوا بالجانب الامع من الوجود الأندلسي بالمغرب العربي ألا وهو ميدان الفنون بمعناه الواسع، إذ يعتمدون على استمرارية التأثر بالنسبة لهذا الميدان سواء في البناء أو اللباس أو الموسيقى.

---

80) المصدر السابق، 123.

فالبنسبة للموسيقى ـ مثلا ـ نلاحظ أن التأثير كان أعمق وأخلد مما يدعو للبحث عن مراحل هذا التأثير.

فممن لهم اليد الطولى في إدخال الموسيقى الأندلسية إلى تونس أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الإشبيلي (460 ـ 1067/529 ـ 1134)، ذلك أنه هاجر اشبيلية حوالي سنة 1096/489، أي بعد سقوط طليطلة، واتجه أولا نحو الاسكندرية قبل أن يستقر بالمهدية، حيث لقي في البلاط الزيري أحسن قبول، وبث الألحان الأندلسية و.يروى لنا ذلك المقري فيكتب : «وكان أمتن علومه الفلسفة والطب والتلحين. وله في ذلك تواليف تشهد بفضله ومعرفته. وكان يكنى بالأديب الحكيم وهو الذي لحن الأغاني الإفريقية قال ابن سعيد وإليه نسب إلى الآن»[81]. وقد لعب أبو الصلت بإفريقية دورا شبيها بذاك الذي لعبه من قبل زرياب بالأندلس[82].

وعندما قدمت أفواج اللاجئين هيأت للألحان الأندلسية قاعدة أوسع، فخرجت بها من البلاط إلى بيوتات الخواص وإلى الفئات البورجوازية عامة، ذلك أن هذه الفئات البورجوازية الإفرقية كانت شديدة الإعجاب بالحضارة الأندلسية فكانت تقلدها في الأدب والشعر، فزادت إلى ذلك الموسيقى لما تهيأت لها الفرص على أوسع نطاق[83].

---

81) **نفح الطيب**، 2 : 105 ـ 106. وابن سعد الذي يذكر لنا استار الألحان الأندلسية التي أدخلها أبو الصلت إلى إفريقيا ولد سنة 1213/610 وتوفي سنة 1286/685.
وانظر أيضا حسن حسني عبد الوهاب، **ورقات**، 2 : 227 ـ 231.

82) م. الطالبي، المقال السابق، 72.

83) المصدر السابق، 73.

وشاع الفن الموسيقي الأندلسي خاصة في المدن التي استقر بها الأندلسيون استقرارا كثيفا، وجل تلك المدن على السواحل. ومن جملة هذه المدن بجاية التي كانت المرحلة الأولى التي نزل بها الأندلسيون اللاجئون إلى إفريقيا، وكثير منهم ألقى بها عصا الترحال واستوطنها نهائيا كما يتضح ذلك بصفة جلية من خلال تصفح عنوان الدراية للغبريني. ونحن لا نشك في أن استيطان الأندلسيين الكثيف ببجاية هو الذي جعل منها مدينة تشبه اشبيلية في شغفها بالموسيقى وانصرافها إلى الطرب، فإن الحسن الوزان الذي زار إفريقية في الربع الأول من القرن السادس عشر يصف أهلها هكذا : «والبجائيون أناس طيبون ميالون إلى المرح والموسيقى والرقص، لا سيما منهم الأمراء الذين لم يشهروا الحرب قط على أحد»[84]، ويقول في أهل دلس : «وهؤلاء السكان ذوو بشاشة ومرح، يحسنون تقريبا كلهم العزف على العود والقيثار»[85]. فكل هذه الصفات تناسب تماما الأندلسيين ومن تأثر بعاداتهم وأذواقهم من أهل المغرب.

إن هذه الموسيقى التي طرقت باب إفريقية على يد أبي الصلت (توفي 1134/529)، وذاعت في أيام ابن سعيد (610 ـ 1213/685 ـ 1286)، وعمت شيئا فشيئا المدن لما وفر لها اللاجئون الأندلسيون من أسباب الانتشار هي ما نسميه اليوم بالمالوف.

---

84) **وصف إفريقيا**، 2 : 51.

85) المصدر السابق، 2 : 42.

في الميدان الاجتماعي :

إن الجالية الأندلسية بتونس - كمثيلتها بالمغرب - كانت تشعر بوجود خصائص معينة حضارية واجتماعية تفصلها عن بقية السكان مما حال دون انصهارها في المجتمع الإفريقي. لقد كانوا يشعرون أنهم في بلد انتقلوا إليه اضطرارا لا اختيارا، وأنهم في مجتمع أقل منهم تحضرا، وأنهم يجب أن يحصلوا فيه على الرتب العليا في سلمه، وهذا ما يفسر لنا تهافتهم على المناصب وبقاءهم أقلية متميزة لها سماتها الخاصة، لقد عرفت تونس - كباقي البلدان الإسلامية - أقليات، لكن الأقلية الأندلسية كان لتصرفها طابع خاص يميزها كلية عن الأقليات الأخرى، وذلك بفعل المركبات النفيسة والحضارية التي حملها معهم الأندلسيون لقد احتفظ هؤلاء بذاتيتهم بعد مرور عشرات السنين من هجرتهم، فبقوا أندلسيين في كل شيء، وليس فقط في أسمائهم التي استمر تداولها إلى يومنا هذا شعوريا ولا شعوريا.

ونستنتج كل ذلك بسهولة مما أورده المؤرخون المعاصرون، فنذكر - مثلا - أن عبد الباسط بن خليل أورد في كتابه **الباسم في حوادث العمر والتراجم** إشارات عديدة إلى ذلك، فلقد نزل هذا الرحالة المصري بتونس في 22 ذو القعدة 18/866 غشت 1462، أي بعد قرنين من قدوم جالية شرق الأندلس ثم غربيها، وقبل هجرة جالية غرناطة التي لم تسقط بعد. وبالرغم من مرور هذه الفترة الطويلة من الزمن، التي تعاقبت خلالها ثمانية أجيال، فإنه قد أتيحت لعبد الباسط الفرصة كي يلاحظ أن العنصر الأندلسي قد احتفظ بذاتيته وكل مميزاته بإفريقية وسجل لنا تلك الملاحظات في الروض الباسم. أتيحت له هذه الفرصة بمناسبة حفل أقامه

يوم الأحد 27 ربيع الأول 20/867 دجنبر 1462 التاجر المعظم، الخواجا المكرم، الحاج أبو القاسم البنيولي الغرناطي الأندلسي، نزيل تونس وكبير التجار بها»[86]. ولاشك ـ كما يفهم من السياق وتاريخ الحفل ـ أن هذا التاجر أقام «الضيافة» بمناسبة رجوع الحجيج من مكة، وأنه كان له بينهم عدد كبير من الأصدقاء، ولاشك أيضا أنه كان ذا ثروة طاءلة، ومنزلة اجتماعية رفيعة، إذ قد أقام حفله بحدائق «رأس الطابية من منتزهات ملوك تونس وأمكنة فرحهم»[87]. ولا حاجة إلى التأكيد على أن مثل هذا لا يتأتي إلا لاخص الخواص، مما فيه دلالة أخرى على المكانة التي استطاعة أن تحرز عليها الجالية الأندلسية في المجتمع الإفريقي. ولقد استدعى الحاج أبو القاسم البنيولي إلى حفله الذي أقامه بمنتزه الحفصيين ـ بينما كان السلطان المتوكل على الله عثمان (839 ـ 1435/893 ـ 1488) قد أشرف على العودة إلى تونس قادما من حرب تلمسان ـ «جماعة من أعيان التجار من أصحابه، والحجاج

---

86) **الروض الباسم**، 20.

87) نفس المصدر والصفحة.

فيما يخص حدائق رأس الطابية ـ المكان مازال يعرف إلى اليوم بهذا الاسم بضاحية باردو، انظر :

ابن خلدون، **العبر**، 6 : 629، والزركشي، **تاريخ الدولتين**، 33، والعبدري **رحلة**، 40. والذي أنشأ قصر رأس الطابية وحدائقه، وجلب إليه مياه زغوان هو المستنصر (647 ـ 1249/675 ـ 1277) ولقد ربط المستنصر قصبة تونس بحدائق رأس الطابية عن طريق ممر بين جدارين واستأثر بكامل مياه زغوان، إلا القليل منها الذي حول نحو جامع الزيتونة. وفي ذلك يكتب العبدري : «وأما الساقية المجلوبة من ناحية زغوان فقد لستأثر بها قصر السلطان وجنابه إلا رشحا يسيرا سرب إلى ساقيه جامع الزيتونة يرتشق منها في أنابيب من رصاص ويستقي منها الغرباء ومن ليس في داره ماء ويكثر عليها الازدحام».

الرحلة، 40.

منهم، من أهـل الأنـدلس وغيرهم»[88]. كان إذن هنــاك «أهـل الأنــدلس»، معروفون بسماهم، وهناك غيرهم. ولقـد أعجب عبـد البـاسـط خـاصـة بـأهل الأندلس، أعجب بظرفهم وذكائهم، مما دعاه أن يعد اليوم الـذي قضـاه معهم «يوما معدودا من الأعمار، سالما من الأغيار، اجتمع فيه عدة من ظرفـاء أهل الأنـدلس وأعيـانهـا، من طلبـة علم وتجـار، كلهم أهـل ذكاء»[89]. ويفهم من عبارة عبد الباسط هذه أن أهل الأندلس كانوا يمثلون أغلبيـة المـدعوين إلى الحفل، مما يؤكد ما قدمناه من أن الجـاليـة الأنـدلسيـة بقيت، بعـد تعـاقب ثمانية أجيـال، عـائلـة كبرى لم تعرف صلات الرحم التي تربـط بين أفرادهـا الفتور. ويظهر هذا (الاعتزاز الأندلسي) أيضا في أسلوب الحفل الذي أقـامـه الحاج أبو القاسم البنيولي لأصدقائه. ذلك أن هذا الحفل كان «أندلسيا». كان أندلسيا في اختيار حديقة «يجول فيها الماء جولانا غريبـا»، ونحن نعلم مـدى شغف أهل الأندلس بالطبيعـة، وبـالميـاه الجـاريـة، وبموسيقى النسيم. وكان الحفل أيضا أندلسيا في المآكل التي قدمت للمـدعوين. فعبـد البـاسـط يروي أنهم «هيأوا من جملة هذه الضيافة مأكولا يقال له المجبنة من مآكل الأندلس. وصفته جبن طرى يدعك بالأيـدي حتى يصير في قوام عجين الزلابيـة بهـذه البلاد أو اغلظ قواما منه بيسير، ثم يؤخذ منه قطعة تبسط بالكف بلطـافـة وشباقـة، ثم يجعل عليهـا قطعـة من الجبن المـدعوك ويجمع حتى يصير الجبن حشوا لهـا، ثم يبسـط قليلا، ثم يلقى في الطـاجن وهو على النـار بـالـدهن، فيقلى، ثم يرفع ويرش عليه السكر المـدقوق نـاعمـا ومعـه اليسير من الكمون،

---

88) **الروض الباسم**، 20.

89) المصدر السابق، 21.

وعمل ذلك بين يدي الحاضرين، وتولى عمله بعض الجماعة من ظرفائهم وحيث كان القوم (ظرفاء أذكياء) لم يخل حفلهم من أستاذ للشعر، لاسيا وقد حضره شاعران أندلسيان، وهما محمد الخير المالقي وأحمد الخلوف.

في الميدان الاقتصادي :

تعمدنا أن نترك الميدان الاقتصادي إلى الأخير، لا لأن التأثير الأندلسي كان فيه ضعيفا، ولكن فقط لأن الوثائق تعوزنا كثيرا في هذا الميدان، فالمصادر لا تثير إلا لماما لهذا التأثير، وكما قال الأستاذ الطالبي : «فنحن نتوجس هذا التأثر من دون أن تستطيع أن نلمس لمسا حسيا ومفصلا مقداره ووزنه، أو تحدد بدقة مواطنه»[90]. وسنحاول أن نبدي بعض الملاحظات علنا نستطيع أن نأخذ صورة تقريبية عن هذا التأثير الاقتصادي.

الملاحظة الأولى : كانت تونس في هذه الفترة تعرف فراغا ديمغرافيا، ولاشك أن قدوم أيدي عاملة جديدة ساهم في إعادة التوازن إلى اقتصاد المنطقة، نعم لا نعرف حجم هذا الفراغ الديمغرافي ولا الميادين التي تأثر بها، كما أننا لا نعرف حجم الهجرة الأندلسية ولا نوعية الأيدي العاملة التي أتت مع المهاجرين، ولا الإمكانات التي أتوا بها معهم، لكننا مع ذلك تمشيا مع منطق الأشياء نفترض مساهمة هؤلاء في إعادة التوازن خاصة وأن التجربة الموالية والتي ستدرس بغزارة من طرف الباحثين تؤيد وجهة نظرنا.

---

90) المقال السالف الذكر، 82.

الملاحظة الثانية : رأينا أن فئة من هؤلاء المهاجرين كانت تبحث عن سبل الارتزاق اما بالانخراط في صفوف الجيش أو في خدمة البلاط أو الاشتغال بالتعليم فأين ذهبت باقي الفئات، خاصة وأننا نعلم مدى براعة الأندلسيين في ميادين الزراعة والصناعة والتجارة، وبعد أن أثبتت الدراسات التي أنجرت حول الموضوع ما المحنا إليه.

لقد ثبت أن عددا من الأندلسيين استقروا بالمناطق الشمالية الساحلية الآمنة حيث تعدد المجاري المائية، الا نفترض أن هؤلاء استقروا أساسا قرب المناطق الزراعية لأجل استغلال خبرتهم في الزراعة، واستقرارهم مدة طويلة بالمنطقة يدل على تقبل السكان لهم. كما ثبت أن عددا مهما استقر منهم بالمدن الكبرى، ببجاية وتونس على الخصوص ـ ألا نفترض أيضا أن هؤلاء اشتغلوا بعدد من الصناعات وطوروها خاصة وأن الأفارقة كانت تستهويهم منتجات الحضارة الأندلسية.

الملاحظة الثالثة : نصل أخيرا إلى الميدان الذي بدأت تسعفنا فيه ـ إلى حدما ـ المصادر، ألا وهو ميدان التجارة، وربما برع فيه الأندلسيون أكثر من غيرهم، خاصة التجارة الخارجية إذ ان خبرتهم بالبلاد المسيحية كانت تؤهلهم لأن يلعبوا الدور الحاسم فيها، وقد أوردنا ـ سابقا ـ نصا لعبد الباسط بن خليل يشير فيه إلى الثروة الطائلة التي حصل عليها الحاج أبو القاسم، البنيولي وإلى وصوله إلى رتبة كرتبة «كبير التجار» مما يدل على أن ميدان التجارة هين، عليه الأندلسيون. وخاصة وأن هؤلاء كانوا «منظمين» في إطار (جماعات)، ففي إشارة للغبريني يوضح فيها أن أبا بكر محمد بن محرز ((ت 1257/655)) :

«كان على رأس الجماعة الأندلسية ببجاية»[91]، ولاشك أن نجاحها يرجع إلى تنظيماتها، وهي تنظيمات سبق أن تعودوا عليها وهم بالأندلس.

☆ ☆ ☆

هذه بصفة عامة أهم الميادين التي برز فيها التأثير الأندلسي، وهي ميادين تنوع فيها حجم هذا التأثير، فقد بدا واضحا في بعضها وغامضا في آخرها. لكن على العموم نستطيع أن تسجل في النهاية - نهاية هذا البحث عن الجالية الأندلسية بتونس - أن تأثيرها كان قويا، وأنه لا يقل عن تأثير الهجرة الثانية التي سوف تأتي بعد الطرد النهائي سنة 1609 - أي الهجرة الموركسية - بل يتجاوزه في ميداني السياسة والثقافة، فالدور الذي لعبه أندلسيو هذه الفترة يفوق بكثير الدور الذي سيلعبه موركسيو القرن السابع عشر، لسبب وحيد وأساسي وهو أن هؤلاء كانوا يجهلون العربية - لغة التخاطب الثقافي والسياسي - وهو جهل يتجاوز الحدود اللغوية، إلى جهل بالحضارة العربية الإسلامية ككل، وذلك بفعل الممارسات الطويلة والعنيفة التي مورست عليهم وهم بإسبانيا، والتي كانت ترمي أساسا إلى إدماجهم في المجتمع الإسباني بسماته الأوروبية المسيحية.

هذا ما يتعلق إذن بالتجربة الأندلسية بتونس، وقد آثرنا أن نقدمها على التجربة الأندلسية بالجزائر نظرا لأهمية الأولى وغموض الثانية فالتجربة الأندلسية بالجزائر في العصر الوسيط تبدو بسيطة إذا ما قورنت بمثيلاتها في

---

91) **عنوان الدراية**، 287.

كل من المغرب وتونس، ولكن مع ذلك سنحاول أن نعطي حولها بعض الإيضاحات حتى نستطيع أن نصل إلى الأسباب التي جعلت التجربة الأندلسية بالجزائر بهذا الشكل.

الجالية الأندلسية بالجزائر :

إن الوجود الأندلسي بالجزائر في العصر الوسيط يبدو ضعيفا إذا ما قورن بمثيله في كل من المغرب وتونس، فالتعقيدات التي صاحبت الوجود الأندلسي في القطرين الأخيرين تكاد تختفي هنا تماما، إذ ان الجزائر في الحقيقة في هذه الفترة لم تكن إلا ملجأ لمن فشل في إحدا القطرين، أو كمحطة انتقال من قطر لآخر[92]. ولعل ذلك يرجع أساسا إلى أن الإمارة الزيانية نفسها لم تستطع أن توفر لنفسها المجال الجغرافي الضروري لحمايتها، إذ ان جزءا كبيرا من الشرق الجزائري (قسطنطينة، وعنابة، وبجاية، وبسكرة، وتقرت) كان تحت نفوذ الحفصيين، واكتفت هي بالجزء الغربي من الجزائر متخذة كقاعدة لها تلمسان، في حين الوسط الجزائري منطقة عازلة بين الحفصيين والزيانيين، مما أهله لأن يكون منطقة صراع دائم بين القوتين، خاصة بعد ظهور إمارات محلية صغيرة[93]. ولم يكن التنافس مقتصرا على الزيانيين والحفصيين، بل تدخل المرينيون في اللعبة أيضا، تارة

---

92) نستثني - بطبيعة الحال - بعض الشخصيات العلمية والسياسية التي أتت للاستقرار بالمنطقة، لكن تأثيرها هي الأخرى مع ذلك كان ضعيفا إذا ما قورن بتأثير الشخصيات العلمية والسياسية الأندلسية التي استقرت في كل من المغرب وتونس.

93) كانت هذه الإنارات تحتفظ بحيادها أحيانا، ولكنها كانت في أغلب الأحيان تتبع الأقوى.

ضد الزيانيين المجاورين، وتارة ضد الحفصيين فقد وصلت جيوش المرينيين ـ كما هو معلوم ـ إلى تونس والزاب وقسطنطينة، كما وصلت جيوش الحفصيين إلى المدية ومليانة وتلمسان[94]. وقد لخص الحسن الوزان هذه الوضعية قائلا : «وقد استقر الملك في بني زيان ثلاثمائة سنة، غير أنهم اضطهدوا من قبل ملوك فاس، ـ أي بني مرين ـ الذين احتلوا مملكة تلمسان نحو عشر مرات، حسبما جاء في التاريخ. وكان مصير ملوك بني زيان حينئذ اما القتل أو الأسر أو الفرار إلى المغارات عند جيرانهم الأعراب، وتعرضوا أحيانا أخرى إلى الطرد من قبل ملوك تونس (يعني الحفصيين....»[95].

وقد كان لكل ذلك نتائج خطيرة على جميع الأصعدة، فعلى الصعيد السياسي حرمت هذه الوضعية الإمارة الزيانية من البروز كإمارة مستقرة تتمتع بالاحترام اللازم من طرف جيرانها (بفعل القضاء على عدد من أطر الدولة)، وعلى الصعيد البشري حرمت الإمارة من قاعدتها البشرية الأساسية (بفعل هجرة السكان إلى القطرين المجاورين)، وعلى الصعيد للاقتصادي أدت إلى الضعف المستمر للقاعدة الاقتصادية الهزيلة أصلا (بفعل الاعتماد على التجارة مع السودان، وعلى التجارة مع الخارج انطلاقا من وهران التي كانت تتمتع بشبه استقلال ذاتي)، فأمام هذه الصورة، إذن، كان الأندلسيون يفضلون الاستقرار بمكان يتسطيعون فيه تحقيق طموحاتهم العلمية والسياسية والاقتصادية وسنحاول من خلال استعراضنا لفصول هذه الصورة

94) انظر عبد الباسط بن خليل، **الثغر الباسم**، مواضع متفرقة. وأبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، 1 : 28 ـ 29.

95) **وصف إفريقيا** 2 ـ 8.

أن نلقي بعض الضوء على هذا الوجود الأندلسي بالجزائر، آملين أن نلمس من خلال استعراضنا لبعض مراحل تطورها بعض الضوابط التي كانت تتحكم في سلوك الأندلسيين بهذه المنطقة.

أولا : الصورة إلى غاية القرن السابع الهجري :

تبدأ الصورة في الجزائر بنفس الصورة - تقريبا - التي ابتدأت بها في المغرب، ذلك أن الخلافة الأموية بقرطبة كانت تبحث لها عن قاعدة (أندلسية) تقف بها في وجه المخططات الفاطمية، فكان أن وجدت وهران.

تجديد عمران مدينة وهران :

بإيعاز من قرطبة[96] جدد تعمير المدينة سنة 290 هـ/903م[79] من طرف أندلسيين، هما : محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون، وجماعة من بحارة الأندلس الذين كانوا يترددون على مرسى وهران، وذلك بمساعدة العشائر المحلية القريبة منها كنفزة ومسفن من ازداجة[98].

وهناك ثلاثة عوامل - على الأقل - دفعت هذه الجالية الأندلسية لتجديد تعمير المدينة.

---

96) أسست وهران في عهد الخليفة الأموي أبي محمد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمان بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمان الداخل الأموي.
انظر محمد بن عبد الكريم، الملحق الثاني الذي وضعه لكتاب **التحفة المرضية**، ص 314.

97) انظر محمد بن عبد الكريم، المصدر السابق، 313.

98) أبو عبيد الله البكري، **المغرب**، 70.

1 - عامل طبيعي : توفر المدينة على مرفأ طبيعي هام يجعل السفن بمنآى عن العواصف، ويساعد على رسوها، ويقول ابن حوقل في هذا الصدد :

«...ولمدينة وهران مرسى في غاية السلامة والصون من كل ريح، وما أظن له مثلا في جميع نواحي البربر - سوى مرسى موسى - فقد اكتنفته الجبال وله مدخل أمن....»[99].

- توفر المدينة على سهول واسعة خصبة مع توفر المياه العذبة بها، وذلك ما أكده الإدريسي قائلا : «...وشرب أهلها من واد يجري إليها من البر، وعليه بساتين وجنات، وبها فواكه ممكنة، وأهلها في خصب، والعسل بها موجود...»[100].

2 - عامل تجاري : كانت الجالية الأندلسية ترمي بهذا العمل إلى ضمان منفذ تجاري للبضائع الأندلسية داخل القطر الجزائري والسودان، وكذلك تصدير البضائع الجزائرية والسودانية إلى الأندلس، يقول ابن حوقل في هذا الصدد : «...وهي (وهران) فرضة (محط السفن) الأندلس، إليها ترد السلع، ومنها يحملون الغلال...[101]، ويقول الإدريسي أيضا في هذا الصدد : «...وبها (وهران) أسواق مقدرة وصنائع كثيرة، وتجارة نافقة، وهي تقابل مدينة المرية من ساحل بر الأندلس، وسعة البحر بينهما مجريان... ومراكب الأندلس إليها مختلفة...»[102].

99) **المسالك والممالك**، 1 : 77.

100) **نزهة المشتاق**، 57.

101) المصدر السابق، نفس الصفحة.

102) المصدر السابق، نفس الصفحة.

3 ـ عامل سياسي : كانت الخلافة الأموية بالأندلس ترمي من وراء ذلك إلى جعلها قاعدة (أندلسية) ضد الفاطميين، وضد الثائرين عليها من أدارسة المغرب، وذلك عن طريق بث دعاتها من قبائل مغراوة القاطنة بالمنطقة. بعد هذا يحق لنا أن نتساءل : كيف كان سلوك الأندلسيين بالمنطقة ؟ نورد في البداية نصا للحسن الوزان، وهو يحمل أكثر من جواب على هذا التساؤل، إذ يقول : «...وكان الوهرانيون دائما أعداء لملك تلمسان، لم يقبلوا قط أي وال من ولاته، ماعدا أمينا للمال وقابضا يستلم مداخيل الميناء. وكانوا ينتخبون رئيس مجلس ينظر في القضايا المدنية والجنائية، كما كان التجار فيما مضى يجهزون على الدوام سفنا شراعية وأخرى مسلحة يمارسون بها القرصنة، ويجتاحون سواحل قطلونية وجزر يابسة ومنورقة وميورقة، حتى أصبحت المدينة تزخر بالأسرى المسيحيين»[103].

نلاحظ أولا أن المؤلف لم ينص صراحة على أنهم أندلسيون، ولكن كل القرائن تدل بالفعل على أنهم أندلسيين، نذكر ـ مثلا ـ أن الجالية الأندلسية ظلت تتقاطر باستمرار على المنطقة ـ كما تؤكد ذلك المصادر التاريخية المعاصرة. ثم أن هذا التصرف من قبل الوهرانيين هو في الحقيقة موقف جديد، وهو يشبه إلى حد بعيد تصرف أندلسي المغرب، عندما استقروا بالرباط والقصبة، مما يجعلنا نميل إلى التأكيد بأنهم أندلسيين، أو على الأقل كانوا مسيرين من طرف أندلسيين، فهم في الحقيقة كونوا شبه جمهورية صغيرة مستقلة بالمنطقة تمارس جزءا كبيرا من سيادتها، فإذا كان الأمر كذلك فماذا يعني هذا ؟

---

103) **وصف إفريقيا** 2 : 3.

يعني بوضوح أن الجالية الأندلسية هنا أيضا ـ كما رأينا ذلك بالنسبة للمغرب وتونس ـ كانت تشعر بشخصيتها المتميزة، وبالتالي فإن تصرفها كان ينبثق من واقعها بكل مكوناته النفسية والخلقية.

غير أن وهران لم تكن المدينة الوحيدة التي جدد تعميرها من طرف الأندلسيين، فقد شيدوا أيضا تنس سنة 262 هـ (875 ـ 876)، وأصبحت بذلك موطنا للأندلسيين من أهالي البيرة وتدمر[104]، كما أعادوا الحياة إلى مرسى الدجاج[105] وبنى جدليداس القريبة من تنس[106]، وإلى المسيلة في أوائل القرن الرابع الهجري[107]، وإلى أرزيو التي اشتهرت بتجارها الأندلسيين الذين كانوا يصدرون ملح سباخها إلى الأندلس[108].

☆ ☆ ☆

هذا، إذن، ما يتعلق بالوجه الأول للصورة (الناحية السياسية والاقتصادية)، فكيف يبدو الوجه الثاني للصورة (الناحية الاجتماعية والعلمية) ؟ اجتماعيا : إذ ما حاولنا أن ننطلق من الصورة التي يرسمها لنا الوزان عن الحياة الاجتماعية في تلمسان ـ مثلا ـ وكيف يقارنها بمثيلتها

---

104) أبو عبيد الله البكري، المصدر السابق، 61.

105) المصدر السابق، ص 65.

106) المصدر السابق، ص 69.

107) ابن الخطيب، **أعمال الإعلام**، 66.

108) De la Primandie, F.E, le commerce et la navigation de l'Algerie avant la conquête Française, in **Revue Algérienne et coloniale,** p. 735.

بفاس فإننا لنا نجد عناء كبيرا في استجلاء معالمها إذ نجد بصفة عامة أن تلمسان ظلت محافظة على طابعها المغربي الأصيل، فهو يذكر ـ مثلا ـ في مجال العمران : «إن دور تلمسان أقل قمة بكثير من دور فاس»[109]، كما يذكر في مجال التصرفات المعاشية للسكان أن سكان تلمسان أكثر سخاء من سكان فاس[110]. وواضح أن الفرق بين المدينتين يرجع بالأساس إلى الأساليب العمرانية والمعاشية الجديدة التي دخلت مع الأندلسيين إلى فاس[111].

علميا : لا تختلف الصورة هنا عن سابقتها أيضا، فقد ظلت الجزائر في هذه الفترة بمنآى عن المؤثرات الأندلسية التي رأيناها بالنسبة للمغرب وتونس، وظلت تتراجع باستمرار بفعل الأوضاع التي أوضحناها سابقا، ويكفي أن نلقي نظرة على ما كتبه العبدري ـ وقد زار المنطقة ـ لنتأكد من ذلك، فقد كتب عن تلمسان عند زيارته لها ما يأتي : «...وأما العلم فقد درس رسمه في أكثر البلاد، وغاضت أنهاره فازدحم على الثماد... وأما الفقه عندهم فطويل الاغتراب...»[112]، ويقول عن مليانة : «...وما بقي بها من له بالعلم أدنى عناية...[113]، ويذكر عن الجزائر : «...فلم يبق بها من هو من أهل العلم محسوب ولا شخص إلى فن من فنون المعارف منسوب.

---

109) **وصف إفريقيا**، 19.
110) المصدر السابق، 21.
111) انظر ما سبق أن قلناه حول المؤثرات الأندلسية بالمغرب الأقصى.
112) **الرحلة**، ص 11 ـ 12.
113) المصدر السابق، 25.

وقد دخلتها سائلا عن عالم يكشف كربة. وأديب يؤنس غربة فكأني أسأل عن الأبلق العقوق أو أحاول تحصيل بيض الأنوق»[114].

قد يتساءل البعض لماذا هذا الربط الجدلي بين انعدام المؤثرات الأندلسية وخمول النشاط العلمي بالمنطقة ؟

إن الباحث لا يزعم أبدا أن أي ازدهار علمي بالمنطقة كان رهينا بقدوم (العلم الأندلسي) إليها، لكن حاولنا أن نبين فقط أنه كان بالإمكان أن تكون الصورة مغايرة تماما لما رأيناه في حالة ما إذا لو استقرت شخصيات علمية أندلسية بالمنطقة، فقد رأينا الدور العلمي الذي لعبه الأندلسيون في كل من المغرب وتونس.

☆ ☆ ☆

كيف تتجلى الصورة في القرن الثامن الهجري :

الملاحظة الأساسية هنا أن صورة التأثير الأندلسي ستبدو واضحة أكثر نتيجة استقبال الإمارة الزيانية لجاليات أكثر من المرحلة السابقة بفعل سقوط عدد من الثغور الأندلسية واكتظاظ الساحتين المغربية والتونسية بالأندلسيين، فجدوا في البحث عن (أماكن شاغرة) لاشتثمار مواهبهم السياسية والعلمية والاقتصادية في القطر المجاور.

114) المصدر السابق، 26.

وقـــد ذهب جـورج مـــارسي G. Marçais[115] وراشيـل أربي R. Arié[116] ـ وهما بصدد الحديث عن التـأثيرات الأنـدلسيـة المتسربـة إلى مملكة بني عبد الواد ـ إلى أن بلاط تلمسـان فقـد ـ في بـدايـة القرن الثـالث عشر الميلادي تحت حكم أبي حمو موسى الأول ـ طابعه البدوي بفضل التـأثير الأندلسي.

وتطرقت الأستاذة راشيل أربي بعد ذلك إلى التأثير في المجال السياسي فأوضحت أن أربعة من وزراء الأمير الزياني كانوا من عائلة أندلسية (تقصد عائلـة ابن الملاح من قرطبـة)، وأن أكبر أمير زيـاني (أبو حمو موسى الثـاني) كان ذا ثقافة أندلسية، وأنـه كان يختـار مسـاعديـه الرئيسيين من بين أفراد حـاشيتـه الأنـدلسيـة، وذكرت في هـذا المجال يحي بن خلـدون (من أصـل اشبيلي)، ومحمد بن يوسف القيسي الأندلسي الذي خلد الأحداث الكبرى التي شهدها عصر الأمير الزياني[117].

كما أن وليام مارسي W. Marçais لاحظ أن الاشعار المتداولة إلى بداية القرن العشرين من طرف فتيـات تلمسـان تـذكرنـا في نسقهـا بـالـزجـل الأندلسي[118].

وقـد تعمـد البـاحث إيراد أقـوال البـاحثين الفرنسيين حتى نتمكن من إبداء ملاحظاتنا حول ما أورداه.

---

(115) **La Berbérie musulmane et l'orient au moyen âge,** p. 297.

(116) **l'Espagne musulmane au temps des nasrides,** p. 458 – 459.

(117) تقصد القصيدة التي أوردها يحي بن خلدون في **بغية الرواد** ص 87 ـ 89.

(118) **Le dialecte arabe parlé à Tlemcen,** p. 207

الملاحظة الأولى : ذهبت الأستاذة آربي - ومعها مارسي - إلى أن بلاط تلمسان فقد طابعه البدوي بفضل التأثير الأندلسي، ولكنها لم تذكر مجالات هذا التأثير، فهل يكفي أن يحيط الأمير الزياني نفسه بأربعة وزراء أندلسيين وبشاعر أندلسي لتنسب إلى الجالية الأندلسية بالجزائر ماسمته (بالعمل التحضيري) L'action civilisatrice[119]، معرضة عن الدور المغربي بتلمسان وما قام به ملوك بني مرين هناك.

الملاحظة الثانية : لقد حاول جورج مارسي أن يستخلص - من خلال اشعار معينة قال عنها أنها ذات نسقٌ أندلسي - نتائج بعيدة قد تؤدي إلى عكس ما هدف إليه الباحث الفرنسي.

نعم ان الرواية الشفوية في هذا المجال أسلوب من الأساليب التي لا غنى للباحث عنها، لأنها تمكننا من تفسير بعض القضايا التي نعثر عليها في الوثائق المكتوبة. لكن يجب الحذر في مثل هذه الحالة قبل الأقدام على أي استنتاج من شأنه تشويه الحقائق، فالاشعار - مثلا - التي لاحظ الأستاذ مارسي أن فتيات تلمسان ينشدونها، اشعار مر عليها وقت طويل ولاشك أن هناك تغييرات قد دخلت عليها بفعل الاحتكاك بالمؤثرات الداخلية والخارجية والأمر يتطلب هنا تسجيل هذه الاشعار ومقارنتها بنصوص زجلية أندلسية مكتوبة حتى نتمكن من تحديد درجة التأثير. وحتى ان تأكدنا من حصول هذا التأثير، فإن هذا - في نظرنا - لا يعدو أن يكون جزئية صغيرة لا تسمح لنا بإصدار أي حكم عام من مظاهر حضارية أندلسية في كل من المغرب وتونس.

(119 L'Espagne musulmane au temps des nasrides, p. 458

الملاحظة الثالثة : ان الأستاذة أربي لم تستطع أن تثبت وجود أقلية أندلسية متماسكة، لها تأثيرها السياسي والاقتصادي المعين. ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن المصادر المعاصرة نفسها لم تشر إلى وجود مثل هذه الأقلية، ذلك أن أفراد هذه الجالية يتعاملون فرادى مع السلطة. ان التجربة الأندلسية بالجزائر لم تستطع أن تنفذ إلى الأعماق ـ كما وقع بالنسبة للمغرب وتونس ـ لأن أفراد هذه الأقلية لم يجدوا قاعدة أندلسية قوية يرتكزون عليها، فكان بذلك دورهم محدودا.

الجزائر من خلال الكتابات الأندلسية :

لعل الصورة تبدو جلية أكثر إذا ما حاولنا تتبع ماكتبه الأندلسيون الذين زاروا المنطقة، وهم اما أوضحوا رأيهم في كتاباتهم أو أعرضوا عن ذلك. والتفسير في مثل هذه الحالة الأخيرة يحتمل أكثر من معنى وسنختار ـ لإبراز نوعية هذه الكتابات ـ ثلاث شخصيات لا تخفى أهميتها.

أولا إبراهيم بن الحاج النميري.

قام برحلة سنة 745 هـ / 1344 ـ 1355 وزار خلالها تلمسان ومليانة[120]، ولكنه لم يذكر أي شيء مهم عنهما فلم يذكر ـ مثلا ـ أنه التقى بشخصيات أندلسية معينة أو سمع بها، مما يدل أن المنطقة لم تكن ـ في رأيه ـ المكان الملائم له، في حين أفاض في الحديث عن أندلسي التقى به في منطقة صغيرة بالمغرب (أنفا)، إذ يقول : «الشيخ الفقيه الجليل الأستاذ

120) انظر رحلته التي نشرها بريمار A. l de Premare بعنوان :
Maghreb et Andalousie au XIVe siècle, pp. 22 – 23

المقرئ الناقد المتفنن النحوي العارف العدل الشهير أبو الحسن علي بن إبراهيم بن علي بن إبراهيم بن علي الأموي المعروف بالرقاص.

أصل سلفه من لورقة وخرج منها جده إبراهيم بن علي لما استغلب عليها وكان سلفه يعرفون بها ببني الرامي واستقر جده إبراهيم المذكور بغرناطة وأقرأ بها القرآن وبها توفي، وانتقل ولده علي إلى فاس وبها توفي واستقر ولده إبراهيم بمالقة وبها ولد صاحبنا أبو الحسن بين عام خمسة وسبعمائة وعام عشرة...»[121]، إلى أن يقول : «كان لقائي بهذا الفاضل بمالقة وبها استفدت منه وعرفت معارفه وكان له اعتقاد في جانبي وذلك في عام ستة وثلاثين وسبعمائة ثم لقيته بسبتة عند قدوم مولانا عليها ثم لقيته بأنفا وهو اليوم يقرئ بمدرستها التي بناها مولانا ـ أيده الله ـ بالجامع الأعظم منها، ويقرى اليوم تفسير الكتاب العزيز **والموطأ** وابن الحاجب الفقهي **والرسالة وتسهيل الفوائد والجمل والكراس الجزولي.**

وقرأت عليه بأنفا الحديث...»[122].

وقد أتيحت له الفرصة ـ مرة ثانية ـ في إطار مهمة دبلوماسية لزيارة تلمسان سنة 763 هـ، وقد كان القصد من هذه المهمة طلب مديد المساعدة لملكة غرناطة اثر اشتداد الضغط المسيحي عليها[123]. غير أن التشاؤم واليأس في الحقيقة كانا يسيطران عليه، إذ انه كان ينوي فعلا الخروج من

(121) المصدر السابق، ص 15 ـ 16.

(122) المصدر السابق، ص 17.

(123 A. L dc Premare, op. cit pp. 71 – 73

الأنـدلس، لكن ليس إلى تلمسـان ولكن إلى المغرب لخـدمـة بني مرين، فـلا عجب أن يردد في آخر رحلته قول صاحبه إلى الحسن الرقاص وهو بأنفا :

إذا كنت في شبر من الأرض مكرما   ونلت بـه عـزا وكنت بـه صـدرا
فعـد عن المثـوى وإن كان مسقطـا   فمـا أضيق المثوى ومـا أوسع الشبرا[124]

ثانيا : خالد بن عيسى البلوي

خرج البلوي من بلده قتورية بالأندلس سنـة 736 هـ، وأول مـدينـة صادفته من مدن الجزائر هنين، ثم انتقل منها إلى تلمسان[125]، ولم يذكر من الأنـدلسيين إلا قبر أبي مـدين الـذي ذكر أنـه زاره مرتين[126]، ووصل بعـد ذلك إلى الجزائر التي مدح أهلها وطبيعتها. لكن البلوي يصل إلى مـا كان يتخوف منه الأندلسيون بالجزائر فيذكر في هذا الصدد : «...فدخلنـا في أمر عظيم، وطريق غير مستقيم، وعذاب يوم عظيم، نصعد على التهـائم ونغور في النجود ونسلك كل مخدع لم يكن بالمـألوف ولا بـالمعهود. ولا كان مسلكا إلا للذئاب واللصوص والأسود، إلى شعراء بالخوف مشعرة، وأرض خالية مقفرة، وجبـال منخرقـة في الجو وعرة، تقطـع الأسبـاب، وتخلـع الألبـاب، وتـذكر الصراط والميزان والحسـاب... فبقينـا نكابـد عظيم ذلـك الأمر، ونسير ولا نفـارق سـاحـل البحر...»[127]. وبطبيعـة الحـال لن يروق هـذا الـوصف

---

124) **الرحلة**، ص 41.

125) **انظر تاج المفرق في تحلية علماء المشرق**، 1 : 148.

126) المصدر السابق، 1 : 151.

127) المصدر السابق، 1 : 152.

للأندلسيين الذين كانوا يبحثون عن أماكن استقرار، مما يجعلنا نميل إلى أن الكتابات الأندلسية ـ في هذه الفترة الحاسمة ـ ساهمت في تهيئة الأندلسيين نفسيا لعدم الاستقرار المكثف بالمنطقة.

ثالثا : يحي بن خلدون

تختلف شخصية يحي بن خلدون عن سابقيه في شيئين :

أولا : تختلف عنهما في أن عائلة ابن خلدون استقرت بالمغرب العربي منذ وقت غير قصير، إذن فقد خبر أفرادها سلوك المغاربة تجاههم وبالتالي فإن الفروق بينهم وبين المغاربة لم تكن بنفس الحدة بالنسبة للأندلسيين الطارئين.

ثانيا : دخل يحي بن خلدون ميدان التجربة العلمية فمارس مهام سياسية بالفعل، وكان له فيها تصرفات معينة، في حين أنه لم يدخل سابقاه في أي تجربة في هذا الميدان من شأنها أن تبرز لهم سلوكا معينا.

وسنحاول من خلال استعراضنا لمراحل هذه التجربة أن نبين ملامح الصورة التي رسمتها هذه الشخصية ومقارنتها بالصورة التي سبق أن رسمت من طرف أندلسيين سابقين في هذا الميدان كأخيه عبد الرحمان وابن الخطيب.

التجربة :

لقد شغل يحي بن خلدون مناصب سياسية وإدارية في خدمة الأمير أبي عبد الله الحفصي، وفي خدمة السلطان الزياني أبي حمو موسى الثاني، ثم في بلاط الأمير عبد العزيز المريني، ثم عاد أخيرا إلى خدمة أبي حمو الثاني

بتلمسان، حيث قتل في رمضان سنة 780 هـ وهو لا يزال في مقتبل عمره، وفي بداية مرحلة الإنتاج الفكري.

وكانت السنوات السبع التي قضاها بتلمسان أزهى أيام هذه الفترة الهامة من حياته، فكان التأليف الوحيد الذي انتجه يتناول تاريخ الدولة العبد الوادية.

نشاطه قبل دخوله في خدمة أبي حمو موسى الثاني :

نجده أولا يقوم بخدمة الأمير أبي عبد الحفصي لمساعدته على امتلاك إمارة بجاية. ولاشك أن السلطان أبا سالم المريني عينه في هذا المنصب لما يعلم فيه من الدهاء لاتصالاته بعرب المنطقة[128]. وقد قرر الأمير الحفصي مساعدة السلطان أبي حمو الثاني، فأرسل يحي بن خلدون إلى تلمسان ليقوم بهذه المهمة، وفعلا أنجز هذه المهمة بمهارة[129].

وقد أعاد الأمير الحفصي الكرة مرة ثانية فذهب بنفسه صحبة يحي بن خلدون إلى بلاط أبي حمو الثاني، لكن الأمير إسحاق الحفصي فطن لذلك فأخفق هذه المساعي[130]. وعندما خاب أمل يحي بن خلدون والأمير أبي عبد الله في نجدة أبي حمو، اتجهت انظارهما مرة أخرى إلى قبائل الدواودة، وفعلا فقد تمكن من استرجاع إمارة بجاية سنة 765 هـ[131].

---

128) انظر عبد الحميد حاجيات، مقدمة تحقيق كتابه **بغية الرواد** 28.
129) المصدر السابق، ص 29.
130) المصدر السابق، ص 29 ـ 30.
131) المصدر السابق، ص 30.

لكن لم تلق إمارة أبي عبد الله النجاح المرجو، وترجع أسباب ذلك إلى سوء معاملة الرعية وحتى لاحلافه من العرب، وإلى أصراره على مناهضة ابن عمه أبي العباس، أمير قسطنطينة، اقتحمت جيوش هذا الأخير إمارة بجاية سنة 767 واستولت عليها وقتلت الأمير عبد الله الحفصي، وألقي القبض بعد ذلك على يحي بن خلدون وحجزت أمواله، لكنه تمكن من الفرار والالتحاق ببلاط أبي حمو الثاني[132].

تلك كانت المرحلة الأولى من تجربة يحي بن خلدون وهي تجربة قاسية، لكن طموحه الأندلسي دلل له كل الصعاب وكرر التجربة مع الإمارة الزيانية.

في بلاط الأمير أبي حمو الثاني :

من أهم العوامل التي دعت الأمير الزياني إلى استدعاء يحي المشاكل السياسة الخطيرة التي كان يواجهها من جراء الفتن التي أحدثتها، في المنطقة الشرقية، ثورة ابن عمه أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد الثاني، فكان القضاء على منافسه هذا يتطلب الحصول على مساعدة عرب رياح وخاصة قبيلة الدواودة السالفة الذكر[133]. وفعلا فقد أرسل الأمير الزياني خديمه يحي إليهم ونجح في مهمته[134]. فكان لذلك أحسن الوقع في نفس الأمير الزياني وعينه كاتبا له، وقربه إليه وجعله من مستشاريه، وعندئذ طاب

132) المصدر السابق، ص 31.

133) نفس المصدر والصفحة.

134) المصدر السابق، 32.

المقام ليحي بتلمسان واستقر هناك[135]. وقد مكنت هذه الإقامة يحي من الاتصال بالشعراء والأدباء والعلماء الذين كان يزخر بهم بلاط أبي حمو الثاني مما أفاده في تكوينه العلمي[136]. غير أن الأمر لم تستقر للأمير الزياني مما جعل إمارته تشتعل مرة أخرى بالفتن والاضطربات إلى أن استولى عبد العزيز المريني على تلمسان في سنة 772 هـ، فقرر يحي الالتحاق بالبلاط المريني[137].

في البلاط المريني :

التحق في هذه الآونة لسان الدين ابن الخطيب بالبلاط المريني بتلمسان فكانت فرصة ليحي للاستفادة منه مما كان له أكبر الأثر في تكوينه العلمي. وقد سارت الأمور على أطيب حال بتلمسان تحت ظل السلطان عبد العزيز المريني إلى أن توفي هذا الأخير سنة 774 هـ[138]، وعندئذ انتقل البلاط المريني إلى فاس فاتجه على أثر ذلك يحي وابن الخطيب إلى العاصمة المرينية، والظاهر أن يحي لم يجد أية صعوبة في الحفاظ على مكانته بالبلاط المريني.

لكن الفتن والاضطرابات والدسائس التي كانت تحاك في البلاط المريني حالت دون بقاء يحي بفاس خاصة بعد قتل ابن الخطيب في سجنه،

135) نفس المصدر والصفحة.

136) المصدر السابق، 32.

137) المصدر السابق، 35.

138) المصدر السابق، 37 ـ 38.

بعد أن اتهم بالزندقة وحوكم وعذب. وهكذا التحق مرة ثانية ببلاط أبي حمو الثاني بتلمسان[139].

عودته :

بعد فراق دام أربع سنوات، لم يجد يحي بن خلدون بدا من الرجوع إلى بلاط أبي حمو الثاني، معترفا بزلته، طالبا العفو والصفح، ومما ساعد على ذلك أن الأمير الزياني كان في حاجة إلى مستشار مخلص يساعده على حل المشاكل الخطيرة التي كانت تواجه إمارته. لكن الأموي لم تدم على هذا الشكل طويلا، إذا أصبح البلاط الزياني منذ أوائل سنة 779 هـ مسرحا للمناورات، وقد كان يحي نفسه ضحية لهذه المناورات إذ أودت بقتله في سنة 780 هـ[140].

هكذا نلاحظ، إذن، أن نفس الصورة التي رسمت من طرف ابن الخطيب وابن خلدون تتكرر بالنسبة ليحي، وهي صورة لا يمكن فهم ملامحها الامن خلال الإطار الأندلسي الذي سبق أن أوضحناه.

شخصيات أندلسية بالمنطقة :

تنوعت اهتمامات الشخصيات الأندلسية التي استقرت بالمنطقة، فهناك شخصيات آثرت الميدان العلمي، مفضلة الابتعاد عن كل (مشاغل الدنيا) لأن (أمور الآخرة أهم وأنجح)، وهو اهتمام تطور من مجرد اهتمام بالعلم إلى زهد وتصوف، في حين آثرت شخصيات أخرى المغامرة في الميادين السياسية

139) المصدر السابق، 39.

140) المصدر السابق، 39 ـ 44.

والعسكرية، وكان لبعضها سلوك معين وسنتعرض لبعض الشخصيات التي من شأنها أن تزيد من توضيح صورة هذا الوجود الأندلسي بالمنطقة.

☆ أبو العيش بن عبد الرحيم الخزرجي :

اشبيلي الأصل، ذكر يحي بن خلدون أنه : «كان أديبا بارع الكتابة، شاعرا مجيدا، رائق الخط، ذا مشاركات في فنون العلم، مؤلفا متقنا، فسر الكتاب العزيز وشرح الأسماء الحسنى، وصنف عقائد أصولية في الدين، وكتبا في أصول الفقه، وله في التصوف نظم حسن كثير في الزهد وسبل الخير والوعظ وتنزله الباري سبحانه وتعالى»[141].

☆ عبد الرحيم بن أبي العيش الخزرجي :

ولدا السابق، قال عنه يحي بن خلدون : «عالم متفنن، ذو علم بالوثائق، وخط بارع، خطيب الجامع الأعظم بتلمسان وامامه رحمة الله عليه»[142]. كما ذكر أنه : «هو جد الفقيه أبي زكرياء يحي بن محمد بن عبد الرحيم هذا، صاحب الأشغال العلية الآن بباب مولانا أمير المسلمين أبي حمو أيده الله، رجل خير، فاضل، ذو معرفة بالفرائض، وبصر الحساب والهندسة حج وخطب نائبا بجامع فاس الجديد، فاستجيدت خطبته»[143].

---

141) انظر يحي بن خلدون، **بغية الرواد**، 1 : 103.

142) المصدر السابق، 104.

143) نفس المصدر والصفحة.

☆ أبو الحسن ابن الصيقل :

هو يحي بن عيسى بن علي بن محمد بن أحمد المرسي، ذكر يحي بن خلدون عنه أنه «كان راوية للحديث عدلا صالحا»[144].

☆ أبو مدين شعيب :

هو شخصية صوفية مشهورة توسعت في ذكر مناقبه كتب التراجم، لكننا سنقتصر على ترجمة يحي بن خلدون له لأنها تمثل رؤيا أندلسية لشخصية أندلسية كما سيتأكد ذلك فيما بعد، وهكذا فقد قال عنه : «الشيخ الصالح قطب العارفين وشيخ المشائخ أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري، منشؤه قطنيانة من قرى اشبيلية، وأجاز البحر إلى المغرب... واستوطن بجاية فاشتهر بها خبره وعلا في مقام الولاية صيته... فلما بلغ تلمسان أعجبته خارجها قرية، فسأل عن اسمها فقيل : العباد، فقال أي موضع هو للرقاد، فمرض يومئذ ومات، ودفن هنالك»[145].

☆ أبو عبد الله الحلوي :

قال يحي بن خلدون عنه : «الشيخ الولي أبو عبد الله الشوذي الاشبيلي المعروف بالحلوي نزيل تلمسان، من كبار العباد العارفين»[146]. واسترسل بعد ذلك في ذكر بعض مناقبه.

---

144) المصدر السابق، 105.

145) المصدر السابق، 125 ـ 126.

146) المصدر السابق، 127 ـ 128.

☆ أبو بكر ابن خطاب الغافقي :

هو محمد بن عبد الله بن داود بن خطاب الغافقي، نزيل تلمسان من أهل مرسية، ذكر عنه يحي بن خلدون أنه «كان من أبرع الكتاب خطا وأدبا وشعرا، ومعرفة بأصول الفقه، كتب بغرناطة عن ملوكها، وقفل إلى مرسية، وقد اختلت أمورها، فارتحل إلى تلمسان، وكتب بها عن أمير المسلمين أبي يحي يغمراسن بن زيان، وتوفي بها يوم عاشوراء سنة ست وثلاثين وستمائة»(147).

☆ أبو بكر بن سعادة الاشبيلي :

ذكر عنه يحي بن خلدون أنه : «كان مجودا للقرآن، ضابطا، محدثا، نقادا، عالي الرواية، نزل تلمسان وعمر بها، وتوفي في رجب سنة ستمائة»(148).

☆ أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي :

شيخ عبد الرحمان بن خلدون، وقد أكد أصله الأندلسي قائلا : «أصله من جالية الأندلس، من أهل آبلة، من بلاد الجوف منها، أجاز أبوه وعمه أحمد، فاستخدمهم يغمراسن بن زيان، وولده في جندهم»(149). وقد كان أبوه إبراهيم قائدا بهنين من قبل الزيانيين، فلما ملكها المرينيون اعتقل، وتحول ابنه اثر ذلك إلى بني مرين حيث صار قائدا لجند الأندلسيين

(147) المصدر السابق، 129.

(148) نفس المصدر والصفحة.

(149) التعريف، 33 ـ 34.

بتاوريرت. لكن ذلك لم يرق له واتجه إلى الحج[150]. وقد رجع إلى تلمسان بعد أن صادق ذلك مهلك السلطان المريني يوسف بن يعقوب وخلاص أهلها من الحصار. وذكر تلميذه عبد الرحمان بن خلدون أن «همته انبعثت إلى تعلم العلم. وكان مائلا إلى العقليات»[151]. وقد أورد أبو حمو صاحب تلمسان ـ بعد أن استقرت له الأمور ـ أن يستخدم الابل في «ضبط أمواله ومشارفة عماله»[152] لكن الشيخ الابلي تفادى ذلك، ففر إلى المغرب واستقر مدة بتونس، ورجع إلى تلمسان بطلب من أبي عنان المريني ـ كان قد ملك تلمسان من بني عبد الواد ـ الذي «نظمه في طبقة أشياخه من العلماء»[153].

☆ أبو القاسم محمد بن يحي البرجي :

ذكر صاحبه عبد الرحمان بن خلدون أنه أقام مدة بتلمسان، لكنه لم يذكر نشاطه هناك[154].

☆ عائلة ابن الملاح :

ذكر يحي بن خلدون أن الأمير الزياني أبا حمو بن أبي سعيد «ألقى تقاليد الوزارة والحجابة إلى محمد بن ميمون بن الملاح، ثم ولده محمد الأشقر،

150) المصدر السابق، 34.
151) المصدر السابق، 36.
152) نفس المصدر والصفحة.
153) المصدر السابق، 39.
154) المصدر السابق، 67.

ثم ولده إبراهيم وعمه علي بن عبد اللـه»[155]. وذكر أنهم من «بيت سراوة من أهل قرطبة، احترافهم السكاكة، أولوا مانة فيها ودين»[156].

استخــــلاص :

لاحظنا أن جل الشخصيات الأندلسية التي تعرضنـا لهـا ذكرهـا يحي ابن خلدون في كتابه بغية الرواد، مما ستدعينا إلى البحث عن الأسباب التي قد تكون دفعته إلى أن يخصص لها هذا الحجم من الكتاب.

نلاحظ أنه فاتح القسم الأول من كتابه بقصيدة لفقيه أنـدلسي ـ وقـد نص على ذلك صراحة ـ هو أبو عبد الله محمـد بن يوسف الثغري الأنـدلسي، يمدح فيها تلمسان[157]، ثم انتقل بعد ذلـك مبـاشرة إلى الفصل الثـاني حيث استعرض مجموعـة من الشخصيـات الأنـدلسيـة المستقرة بـالجزائر[158]. إن كل القرائن تفيد ـ بالإضـافـة إلى كونـه كان يرمي إلى الحصول على رضى الأمير الزياني أبي حمو الثاني ـ كان يريد تقديم (أوراق اعتماده الأندلسية) لمخـدومـه، إذ من شـأن ذلـك أن يؤدي إلى التعرف على إمكانـات الجـاليـة الأنـدلسيـة السياسية والعلمية بالخصوص، وبـالفعل فقـد استخـدم عـدد من الأنـدلسيين كوسطاء بين الأمير الزياني وعرب المغرب الأوسـط الثـائرين. ولاشـك، من جهة ثانية أن الأمير الزياني كانت لديه صورة خـاصـة عن أنـدلسيي المغرب

155) **بغية الرواد،** 1 : 212 ـ 213.

156) المصدر السـابق، 213.

157) المصدر السـابق، 1 : 87 ـ 89.

158) في إطار الفصل الثـاني الـذي سماه : «تعـداد من أنجبتـه تلمسـان أو استقر بهـا من العلمـاء والصالحين»، 1 : 100 ـ 132.

الـذين كانوا يتهـالكـون على البـلاط المريني ودورهم في الصراع الـدائم بينـه وبين هـذا الأخير فـأراد إذن يحي بن خلـدون أن يمحو هـذه الصورة بـذكر عدد من الصلحاء والزهاد والمتصوفة وهو يرمي بذلك إلى شيئين :

أولا : أن هناك فئة من الأندلسيين زهـدت في الـدنيـا وأعرضت عن السيـاسـة والمـال وبـالتـالي فهي لا ترغب إلا في الاستقرار في اطمئنــان بالمنطقة، وبالتالي فهي لن تتدخل لتأييد هذا التـأثر أو ذاك سواء كان من داخل المنطقة أو خارجها بل سوف تلتزم الحياد الكلي إزاء جميع الأطراف.

ثانيا : إن الحصول على تأييد هؤلاء الزهاد والمتصوفـة معنـاه الحصول على تأبيد العامة، لما تكنه لهم هذه الأخيرة من تقدير واحترام.



وبعد، هذه جوانب من أهم التطورات التي عرفتها الساحة الأنـدلسيـة بالمغرب العربي، ركزنا فيهـا جهـدنـا على المغرب الأقصى بـاعتبـاره المنطلق والهدف، وقارناه بعد ذلك بالتجربـة الأنـدلسيـة في كل من تونس والجزائر. وقـد لاحظنـا من خلال كل ذلـك مـدى حجم وتعقـد التجربـة في كل من المغرب وتونس وبساطتها بالنسبة للجزائر لعوامل سبق أن أوضحناها.

وعلى كل فإننـا نلاحـظ ثلاثـة أنمـاط من السلوك الأنـدلسي بـالمغرب العربي :

سلوك فئة العلماء :

حاولت هذه الفئة إبراز (العلم الأندلسي) ومدى إشعاعـه على الســاحـة الفكريـة بـالمغرب العربي. وقـد تفرع سلـوك هـذه الفئـة إلى قسمين : فئـة

حاولت الارتزاق منه، وذلك عن طريق الدخول إلى بلاطات المغرب العربي أو عن طريق التعليم في المساجد والزوايا. وفئة أخرى عزفت عن ذلك، واتجهت كلية إلى التفرغ للتعليم وقد تطور ذلك ـ كما قلنا ـ إلى زهد وتصوف، وذلك نتيجة التجربة المريرة التي اجتازوها في الأندلس والتي خلقت في أنفسهم اليأس والتشاؤم كما خلقت في أنفسهم كذلك قناعة مطلقة بألا جدوى من المقاومة، ناسين أن الأندلس قد سقطت وهي تغص بالعلماء والأدباء والشعراء.

سلوك فئة الصناع والحرفيين :

هؤلاء، لكونهم كانوا يكونون فئة وضيعة في الأندلس نفسها، فإنهم لم يطمحوا في المغرب العربي إلى مناصب سامية أو قيادية، بل كان كل همهم ضمان موارد عيشهم. لكن هذه الفئة ـ كما أوضحنا ذلك سابقا ـ وجدت نفسها وجها لوجه مع صناع وحرفيين تقليديين منافسين مما أدى إلى وجود نوع من الصراع الاقتصادي، غير أن حدته كانت تتضاءل باستمرار مع مرور الزمن.

سلوك فئة العسكريين والسياسيين :

هذه الفئة هي التي ستدخل في صراع حاد بالفعل مع المغاربة، إذ أتى أفراد هذه الفئة وهم يحملون (أوراق اعتماد أندلسية) تبرز ماضيهم العريق في السياسة والقضاء والحسبة، فكانوا بذلك دائما يطمحون إلى الوصول إلى مناصب قيادية. وإذا ما حاولنا استعراض المراحل التي كان يخطوها هؤلاء للوصول إلى البلاط، فإننا نجد أنها كانت تجري على الشكل الآتي :

المرحلة الأولى : الدخول في اتصالات مع بلاطـات المغرب العربي عن طريق وسطاء أو بصفة مباشرة، وهي مرحلة غـالبـا لم تكن فيهـا مشـاكل، لأن أمراء المغرب العربي كانوا في حـاجـة إلى الاسترشـاد بـذوي الرأي، نظرا لمشاكلهم الداخلية والخارجية.

المرحلـة الثـانيـة : الممارسـات السيـاسيــة بــالفعـل، امـــا كـوزراء أو مستشارين أو حجاب، وقد حقق بعضهم نجاحات باهرة وعبروا بـذلـك عن كفاءتهم ومقدرتهم، لكن طـابع الاستحواذ على السلطـة هو الـذي كان يسود سلوكهم.

المرحلة الثالثة : بدأت النخبة المغربية التقليـديـة داخل البلاط تشعر أنهـا همشت وأن مقـاليـد الأمور أصبحت تفلت من يـديهـا من هنـا بـدأت المؤامرات والدسائس تحاك ضد هـذا أو ذاك، أو هـذه الفئـة أو تلـك، فكان الصراع عنيفا بينهما، وغالبا ما كان ينتهي هذا الصراع بفشل الفئة الطارئة، فكان مصير أفرادها إما القتل أو الإبعاد.

ويرجع هذا الفشل - أساسا - إلى أن الأنـدلسيين كانوا يحققون نتـائج إيجابية بالنسبة لهم - في إطار بنية سياسية تقليـديـة منظمـة لهـا قواعـدهـا وأعرافها وتقاليدها، إذ كانوا يقومون بدراسة لهذه البنية ويركزون فيها على مواطن الضعف لاستغلالها. لكن عندما تتعرض هذه البنيـة - الهشـة أصلا - لاختـلال في هيكلهـا (نتيجـة الفـوضى التي كانت تعم أقطـــار المغرب العربي بفعل تدخل القبائل) فإن المبادرة إذ ذاك تخرج من يـد الأنـدلسيين لتصبح في يدي الأقوى.

☆ ☆ ☆

وفي ختام المقال لا يسعنا إلا أن نؤكد أن هذه التجربة الأندلسية بالمغرب العربي كانت قائمة في ظل معطيات خاصة تتميز بالخصوص بكون المنطقة كانت تشكل مجالا جغرافيا موحدا، فالجالية الأندلسية كان بإمكانها أن تنتقل بين أقطار المغرب العربي بدون حواجز تذكر، وذكريات الأندلس وأمجادها كانت ماتزال حية في الاذهان، إذ كان الأندلسيون باستمرار يندبون حظهم رغم كل ما بذله المغاربة لتسهيل ظروف إقامتهم، ولمعان (العلم الأندلسي) كان يبدو وفي كل الواجهات. لكن الوضعية ستختلف تماما في المرحلة الموالية (المرحلة الحديثة)، إذ ستصبح هناك حدود بين أقطار المغرب العربي، بفعل الاحتلال التركي لكل من تونس والجزائر، والأمل فقد نهائيا باسترجاع الأندلس فكل الثغور الأندلسية الآن قد سقطت، وإسبانيا أصبحت امبراطورية قوية على الساحة العالمية لها وزنها السياسي والاقتصادي الكبير الذي تحسب له ألف حساب.

الدار البيضاء　　　　　　　　　　　　محمد رزوق

ابن جني الناقد

حسن الأمراني

ـ 1 ـ

لا يكاد يـذكر ابن جني (أبـو الفتـح عثمان، المتـوفى عـام 392 هـ) إلا مقترنا بكتـابـه النفيس (الخصـائص)، وكأن العـالم اللغوي غطى على الأديب الناقد، ونسي الناس ـ أو تنـاسوا ـ أن ابن جني قـد أثـار منـذ القرن الرابع، بنظراته النقدية، وشروحه على شعر أبي الطيب خـاصـة، كثيرا من الجـدل، وليس قـولي هـذا دليـلا على جهـل النـاس بكتب ابن جني النقـديـة، فقـد أصبحت هذه الكتب متداولة، أو معروفة على الأقل، بعدمـا قيض اللـه لهـا من يقوم بخدمتها تحقيقا وتعليقا ونشرا. إلا أني أرمي من وراء هـذه الوقفـة القصيرة، عند ابن جني الناقد، إلى حث الدارسين من ذوي الاختصـاص على مزيد من تسليط الضوء على هذا الجانب من شخصية ذلك الرجل القدير.

لقد كان ابن جني صفي أبي الطيب، وكان أبو الطيب يقول عنه (ابن جني أعلم بشعري مني)، وكان إذا سئل عن مثل قوله :

بـــــاد هـــواك صبرت أم لم تصبرا   وبكاك إن لم يجر دمعـــــك أو جرى

وابن جني في المجلس، قال : اسألوا الشارح.

لقـد وضع أبو الفتح لشعر المتنبي أكثر من شرح، ومـا هو موجـود بين أيدينا منه :

1 ـ الفسر : أو شرح ديـوان أبي الطيب المتنبي. وقـد حققـه وعلـق عليه الـدكتور صفـاء خلوصي. (صـدر الجزء الأول منـه عـام 1969، وصـدر الجزء الثاني عام 1977 ببغداد).

2 ـ الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي. وقد حققـه الـدكتور محسن غياض (بغداد / 1973).

ورغم أن المتصفـح شروح ديـوان أبي الطيب، يجـد الاستنـاد كثيرا إلى أقوال ابن جني، إلا أن الشراح لم يسلموا دائمـاً لأبي الفتح بمـا ذهب إليـه من شرح، بل إن بعضهم راح يتتبع عوراته، كما فعل محمد بن أحمـد ابن فورجـه، في كتـابيـه (التجني على ابن جني) و(الفتح على أبي الفتح). ولابـأس أن أشير هنا إلى أنـه قـد وقع نزاع حول عنوان الكتـاب الثـاني، فقـد ذكر الـدكتور محسن غيـاض في مقـدمـة تحقيقـه لكتـاب (الفتح الـوهبي : 9) أن صـاحب كشف الظنون (ذكر أن اسم كتـاب ابن فـورجـه هـو «الفتـح على فتـح أبي الفتح» وليس «الفتح على أبي الفتح»).

وقد رد عليه الدكتور عبد الكريم الدجيلي في مقدمة تحقيقه (الفتح على أبي الفتح : ص 17 ـ هـ 26) بقوله : (الفتح على أبي الفتح هو الاسم الصحيح، لا كما يقول د. محسن غياض : الفتح على فتح أبي الفتح، ذلك أن هذا الكتاب لا يقتصر رده على الفتح الوهبي، أو الفسر الصغير فحسب، وإنما يتعداه إلى أبيات للمتنبي لم يتطرق إليها ابن جني في كتابه، فتسمية الفتح على أبي الفتح أشمل وأعم، وأجمل أيضا. ثم إن المتقدمين على صاحب كشف الظنون يسمونه بالفتح على أبي الفتح، وبالقياس على كتاب التجني على ابن جني، فالأولى أن تكون تسميته الفتح على أبي الفتح) 1 هـ.

وأما عنوان الكتاب، كما هو في المخطوطة التي اعتمدها الدكتور الدجيلي في تحقيقه، فهو كما أثبت المحقق نفسه في الصفحة 27 من التحقيق : «مشكلات ديوان شعر أبي الطيب المتنبي، ردا على شرح أبي الفتح عثمان بن جني فيما وأخذ به المتنبي».

ومهما يكن من أمر هذا الخلاف حول عنوان الكتاب، فإن المحقق فيما يبدو، وقع تحت تأثير ابن فورجه، في الانتقاص من ابن جني، بل ربما جاوز الحد، فهو يقول (ص 24 ـ 25) : (فهو ـ أي ابن فورجه ـ لا يثق برواية ابن جني، ويتهمه بالكذب حيث يقول في أثناء رسالته : «وأنا أحلف بالله إن كان أبو الطيب قط سئل عن هذا البيت فأجاب بهذا الجواب الذي حكاه ابن جني، وإن كان إلا مزيدا مبطلا فيما يدعيه».

وأنا أرى ـ يقول المحقق ـ إن ابن جني ليس بذلك الأديب الناقد البصير بمغازي الشعر العربي، ولا هو نفاذ في أعماقه، وإنما هو مؤرخ للأدب جماع للنصوص، والمؤرخ للأدب غير الأديب وكتاباه : الفسر الكبير والفسر

الصغير، يدلان على صحة ما أقول... وليست هذه هنـاة في الرجل، ويكفي أبا الفتح فخرا بأنه أول من شرح شعر المتنبي، ولفت إليه أنظار الناس...).

ولست هنا بصدد تقويم شامل لآثار ابن جني النقدية، ولا سيا كتاب الفسر الكبير، حتى نعلم صحة ما ذهب إليه د. الدجيلي ورمى بـه ابن جني، ولكن عسى أن يكـون فيا سيرد بعـد، بعض مـا يبين أن المحقـق ركب في المغالاة في الانتقاص من الرجل مركبا وعرا.

- 2 -

ليست نقدات ابن جني محصورة في شروحـه على شعر المتنبي، بل إنهـا تتسرب إلى كتاباته اللغوية، وإلى كتاب (الخصائص) بالذات.

تحدث ابن قتيبـة في كتـابـه عن (الشعر والشعراء)، عن أضرب الشعر، وذكر منها ضربا حسن لفظه وحلا، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائـدة في المعنى. وقد مثل ابن قتيبة لهذا الضرب من الشعر بهذه الأبيات :

ولـمـا قضينـا من منى كلّ حـاجـة ومسّح بـالأركان من هـو مـاسـح
وشدّت على هـدب المهـاري رحـالنـا ولا ينظر الغـادي الـذي هـو رائـح
أخـذنـا بـأطراف الأحـاديث بيننـا وسـالت بـأعنـاق المطي الأبـاطـح

والحق أن ابن قتيبة يثني على هذه الأبيات، إلا أنـه ثنـاء لا يخلو من ذم حين عرى الأبيات من كل معنى جميل في قوله : (هذه الألفـاظ كما ترى، أحسن شيء مخـارج ومطـالع ومقـاطع، وإن نظرت إلى مـا تحتهـا من المعنى وجدته : ولما قطعنـا أيـام منى، واستلمنـا الأركان، وعـالينـا إبلنـا الأنضـاء،

ومضى الناس لا ينتظر الغادي الرائح، ابتدأنا الحديث، وسارت المطي في الأبطح).

لقد كنت وأنا أقرأ الأبيات، أعجب بها أيما إعجاب، وأحس لها جمالا لا أكاد أتبين مصدره، وألمس في قوله : (رسالت بأعناق المطي الأباطح) صورة أنتشى لها طربا. وهالني ألا يكون ذلك الجمال كله إلا فيما حدده أبو محمد من زينة اللفظ. وعلمت آنذاك أنه ما من جناية على الشعر أكبر من نثره بتلك الطريقة التي قدمه لها صاحب (الشعر والشعراء) وهو من هو بصرا بالشعر... وتبينت أن الشعر لغة، هي أقرب ما يكون إلى اللمح الخاطف، واللمعة البارقة. وقد عز علي الا يكون في نقادنا من التفت إلى شيء من هذار حتى وجدت رجلا، لا يدخل في أدباء الكتاب الذين أثنى عليهم الجاحظ، ولا هو ممن انصرفوا كل الانصراف إلى نقد الشعر، يضع يدي على مواطن الجمال من تلك الأبيات، وهذا الرجل، هو صاحبنا ابن جني، الذي عقد في كتابه (الخصائص) باباً (في الرد على من أدعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعاني)، وقال فيه (215/1) :

«فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسنوها، وحموا حواشيها وهذبوها، وصقلوا غروبها وأرهفوها، فلا ترين أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ، بل هي عندنا خدمة مفهم للمعاني، وتنويه بها وتشريف منها. ونظير ذلك إصلاح الوعاء وتحصينه، وتزكيته وتقديسه، وإنما المبغي بذلك منه الاحتياط للموعى عليه، وجواره بما يعطر بشره، ولا يعرّ جوهره، كما قد نجد من المعاني الفاخرة السامية ما يهجنه ويغض منه كدرة لفظه، وسوء العبارة عنه.

فإن قلت : فانا قد نجد من ألفاظهم ما قد نمقوه، وزخرفوه ووشوه، ودبجوه، ولسنا نجد مع ذلك تحته معنى شريفا، بل لا نجده قصدا ولا مقاربا، ألا ترى إلى قوله :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح

فقد ترى إلى علو هذا اللفظ ومائه، وصقاله وتلامح أنحائه، ومعناه مع هذا ما تحسه وتراه :

إنما هو : لما فرغنا من الحج ركبنا الطريق راجعين، وتحدثنا على ظهور الابل. ولهذا نظائر كثيرة، شريفة الألفاظ رفيعتها، مشروفة المعاني خفيضتها.

قيل : هذا الموضع قد سبق إلى التعلق به من لم ينعم النظر فيه، ولا رأى ما أراه القوم منه، وإنما ذلك لجفاء طبع الناظر، وخفاء غرض الناطق. وذلك أن في قوله «كل حاجة» ما يفيد منه أهل النسيب والرقة وذوو الأهواء والمقة ما لا يفيده غيرهم، ولا يشاركهم فيه من ليس منهم، ألا ترى أن من حوائج (منى) أشياء كثيرة غير ما الظاهر عليه، والمعتاد فيه سواها، لأن منها التلاقي، ومنها التشاكي، ومنها التخلي، إلى غير ذلك مما هو تال له، ومعقود الكون به. وكأنه صانع عن هذا الموضع الذي أومأ إليه، وعقد غرضه عليه، بقوله في آخر البيت : ومسح بالأركان من هو ماسح.

أي إنما كانت حوائجنا التي قضيناها، وآرابنا التي أنضيناها، من هذا النحو الذي هو مسح الأركان، وما هو لا حق به، وجار في القربة من الله

مجراه، أي لم يتعدّ هذا القدر المذكور إلى ملا يحتمله أول البيت من التعريض الجاري مجرى التصريح.

وأما البيت الثاني فإن فيه : أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا.

وفي هذا ما أذكره، لتراه فتعجب ممن عجب منه ووضع من معناه. وذلك أنه لو قال : أخذنا في أحاديثنا، ونحو ذلك لكان فيه معنى يكبره أهل النسيب، وتعنو له ميعة الماضي الصليب، ذلك أنهم قد شاع عنهم واتسع في محاوراتهم علو قدر الحديث بين الأليفين، والفكاهة بجمع شمل المتواصلين، ألا ترى إلى قول الهذلي :

وإن حديثا منك لو تعلمينه جنى النحل في ألبان عود مطافل

وقال آخر :

وحديثها كالغيث يسمعه راعى سنين تتابعت جدبا
فأصاخ يرجو أن يكون حيا ويقول من فرح هيا ربّا

وقال الآخر :

وحدثني يا سعد عنها فزدتني جنونا فزدني من حديثك يا سعد

وقال المولد :

وحديثها السحر الحلال لو آنه لم يجن قتل المسلم المتحرز

الأبيات الثلاثة[1]، فإذا كان قدر الحديث ـ مرسلا ـ عندهم هذا، على ما ترى، فكيف إذا قيده بقوله (بأطراف الأحاديث). وذلك أن في قوله (أطراف الأحاديث) وحياخفيا، ورمزا حلوا، ألا ترى أنه يريد بأطرافه ما يتعاطاه المحبون، ويتفاوضه ذوو الصبابة المتيمون، من التعريض والتلويح والإيماء دون التصريح، وذلك أحلى وأدمث، وأغزل وأنسب، من أن يكون مشافهة وكشفا، ومصارحة وجهدا، وإذا كان كذلك فمعنى هذين البيتين أعلى عندهم، وأشد تقدما في نفوسهم، من لفظهما وإن عذب موقعه، وأنق له مستمعه. نعم وفي قوله :

وسالت بأعناق المطي الأباطح

من الفصاحة ما لا خفاء فيه، والأمر في هذا أسير، وأعرف وأشهر. انتهى.

ولقد قصدت تقديم نص ابن جني كاملا، لما فيه من الدلالات القوية على ما نريد، من تميز لغة الشعر. فلغة الشعر عنده كما قال (وحي) و(رمز)، والشاعر يعرض عن التصريح والمباشرة، إلى التعريض والتلويح والإيماء.

ورغم أن ابن جني إنما أراد من وراء ذلك كله تأكيد ما ذهب إليه من جعل اللفظ خادما والمعنى مخدوما (والمخدوم ـ لاشك ـ أشرف من الخادم)[2]

1) هو ابن الرومي، والبيتان التاليان هما :

إن طال لم يملل وإن هي أوجزت ... ود المحدث أنها لم توجز
شرك القلوب وفتنة ما مثلها ... للمطمئن، وعقلة المستوفز

(الخصائص : 30/1).

2) الخصائص : 220/1.

إلا أنه أدرك من وراء قوله ذاك ما غاب عن كثير من النقاد، لقد أصبحت المشاركة الوجدانية عنده شرطا أساسيا لفهم الشعر، فالقصيدة لا يتم معناها، ولا تؤدي غرضها الفني، إلا إذا كانت العلاقة بين المنبع والمصب قوية متينة، أي إن القصيدة منبعها الشاعر ومصبها القارئ، ومالم تتحقق المشاركة الوجدانية بين الشاعر وبين القارئ، إما عاطفيا وإما فنيا، تظل القصيدة غير محققة غرضها. ولنتأمل قول ابن جني : «ذلك أن في قوله - كل حاجة - ما يفيد منه أهل النسيب والرقة، وذوو الأهواء والمقة ما لا يفيده غيرهم، ولا يشاركهم فيه من ليس منهم».

فهل يفهم هذا أن القارئ لا يتذوق القصيدة إلا إذا كان قد مر بتجربة مشابهة لتجربة الشاعر المعبر عنها في القصيدة ؟ ليس ذلك لازما، ولكن من الضروري أن يوفق القارئ - أو السامع - في تمثل تجربة الشاعر تمثلا فنيا. ولذلك يبدو أحيانا - مع انعدام ذلك التمثل أو ضعفه - أن الشاعر يأتي بلغة لا تفهم.

وهذا أمر آخر - قد نعود إلى الحديث عنه مرة أخرى إن شاء الله.

حسن الأمراني

الشاعر
أبو عبد الله محمد بن محمد المرابط الدلائي

عبد الجواد السقاط

يتميز التاريخ الأدبي للمغرب بما عرفته الساحة الشعرية من عطاءات وإبداعات مست جوانب متعددة وموضوعات مختلفة، وساهمت في بلورة الشخصية الشعرية المغربية بكل أبعادها وتفاعلاتها.

ويعتبر القرن الحادي عشر الهجري من أبرز القرون التي شهدت تراكما شعريا ملحوظا، نظرا لما احتضنه من شعراء كان لهم من بعد الصيت وانتشار الذكر ما يحملنا على التعريف ببعضهم ومقاربة إنتاجهم الذي لا يزال جزء مهم منه رهين المخطوطات، لم تتح له بعد فرصة التحقيق والنشر، من أمثال الشاعر أبي عبد الله محمد بن محمد المرابط الدلائي موضوع هذا البحث.

- التعريف بالشاعر :

هو أبو عبد الله محمد بن محمد المرابط بن محمد بن أبي بكر مؤسس الزاوية الدلائية في أواخر القرن العاشر الهجري بتادلا كواحدة من الزوايا التي شهدت هذه الفترة ميلادها لأسباب دينية واجتماعية وسياسية معروفة.

وقد ولد الشاعر في رحاب هذه الزاوية التي كانت أظهر من غيرها، والتي استطاعت أن تحتضن ضروبا من الثقافة أجيالا متعددة، نظرا لما كانت تتمتع به من ثقل سواء على الصعيد الديني أو العلمي أو السياسي.

إلا أن تاريخ ولادة الشاعر مجهول لم تشر إليه المصادر التي تكلمت عنه، وأغلب الظن أنها كانت في العقد الخامس بعد عام الألف هجرية.

وقد نشأ الشاعر بالزاوية، وبها أخذ العلم عن جماعة من أقاربه الذين كانوا مصابيح متألقة في سماء العلم والمعرفة، كما تلقى العلم عن الشيوخ الوافدين على الزاوية، والذين كانوا من جهتهم يطعمونها برصيدهم المعرفي الزاخر. وقد نتج عن كل هذا أن أصبح الشاعر «أحد الفضلاء في عصره تفسيرا وحديثا وفقها وأسماء الرجال، وما يتعلق بعلم الحديث ونقل اللغة»[1].

ولا ننسى أن هذه الثقافة الدينية واللسانية التي تشبع بها الشاعر، قد كانت مصحوبة لديه بثقافة أدبية مكنته من صقل موهبته الشعرية واستثمارها. وإذا كانت المصادر لا تحدثنا عن هذا الجانب الثقافي لديه، فإنه جانب تبدو ملامحه واضحة من خلال الأشعار التي نظمها، والتي تدل على

1) البدور الضاوية ص 448.

اهتمام منه بالأدب عامة، والشعر خاصة، وتؤكد اطلاع الشاعر على نماذج الشعراء السابقين، والاغتراف من معين بعضهم أحيانا.

وعموما، فقد أهلته ثقافته الواسعة لأنْ يضطلع بمهمة التدريس، حيث سلك نهج أسلافه في الإقراء والتعليم، ولاشك أنه أفاد بذلك جملة من معاصريه، سواء منهم الطلبة المبتدئون أو العلماء المتضلعون.

ويبدو أن الشاعر كان متمتعا باحترام معاصريه وتقديرهم، ومن ثم فقد كان منهم من يسجل بعض أحداثه ويهتم بلقطات من حياته، كالشاعر اليوسي[2]، الذي نظم أبياتا هنأ بها شاعرنا بمناسبة زواجه بكريمة الفقيه أحمد القصري[3] حيث يقول :

هنيئا لك ابن الجلة النجب الغر بلوغ المنى واليمن في شرف الذكر
وإحراز سبق في مدى كل بغية إلى سؤدد يسمو على هامة النسر
بطلعة سعد لا تزال سعيدة وشمس تزف اليوم منك إلى البدر
وليست بشمس الجو يخشى كسوفها ولكنها شمس تلوح من القصري
إذا غربت في أفقكم طلعت به نجوم عُلى تسمو على الأنجم الزهر
كواكب ما غير المنابر أفقها ولا نوءها غير الندى الفائض الغمر[4]

2) انظر مصادر ترجمته في كتاب عقرية اليوسي، وانظره كذلك في كتاب الشعر الدلائي ص 370.
3) أحد علماء الفترة.
4) ديوان اليوسي ص 201.

ولعل هذا الاحترام والتقدير يظهران كذلك من خلال اختيار الناس له خطيبا وإماما، وخاصة في صلوات الاستسقاء التي كانت تقام بين الحين والآخر، فينتدب لها شاعرنا، يزكيه لذلك ما عرف عنه من تقوى وصلاح، وما شب عليه من زهد في الدنيا وإعراض عن مباهجها، وتعلق بالروح الإسلامية في خشوع وتذلل، وهيام بشخصية رسول الله ﷺ، ذلك الهيام الذي يتجلى واضحا في الآثار التي خلفها الشاعر، والمتمثلة في مجموعة القصائد التي نظمها في هذا الباب[5] علاوة على كتابه المعروف بزهرة الوسائل في المدح والرسائل الذي أقتطف منه هذه العبارات التي تثبت تعلقه ذاك وهو يتجه بالخطاب إلى رسول الله ﷺ : «...من عبيدك المصدق بنبوتك ورسالتك، المتعلق بذمامك، الطامع في كفالتك، حامل راية العفاة المذنبين، المقر بالتقصير فيما جئت به عن رب العالمين، المعترف الغابط، محمد الشهير بابن المرابط...»[6].

وقد عاش شاعرنا النكبة التي حلت بالزاوية الدلائية عندما هدت معالمها سنة 1079 هـ، حيث كان مضطرا كباقي أفراد الزاوية إلى مغادرة منطقة الدلاء، وأغلب الظن أنه استقر بتلمسان التي أجبر أفراد الزاوية على النزوح إليها قبل أن يسمح لهم المولى إسماعيل[7] بالعودة إلى فاس التي استقر بها الشاعر أخيرا، يواصل اهتمامه العلمي والأدبي إبداعا وتدريسا، إلى أن لبى داعي ربه بها سنة 1099 هـ، فدفن بروضة أسلافه بالكغاطين.

---

5) توجد هذه القصائد في ديوان مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 3644 من ص 43 إلى ص 188.

6) زهرة الوسائل ص 48.

7) من أعظم ملوك الدولة العلوية (ت 1139 هـ) انظره في روضة التعريف بمفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف، والاستقصا ج 4 ص 21 ـ 94.

• شعره :

لعلنا ونحن نحاول رصد السمات البارزة في شعر شاعرنا مضطرون إلى الوقوف عند الروافد التي ساهمت في تكوين شخصيته الشعرية، هذه الروافد التي كان لها ولاشك حضور بارز في شعره، والتي ظهرت بصماتها واضحة في جل ما أبدعه من هذا الشعر.

فمن هذه الروافد أولا تلمذته على علماء الزاوية الدلائية وأدبائها، أولئك الذين غذوه بثقافتهم الدينية خاصة، وأمدوه بمعارف خصبة نستطيع أن نتبين ملامحها في معظم شعره. ولعل من أبرز هؤلاء العلماء والأدباء والد الشاعر أبا عبد الله محمدا المرابط الدلائي[8] الذي امتاز بثقافته الشاملة، والذي جمع بين علوم متعددة إلى جانب اهتماماته الإبداعية المعروفة. وقد انعكست هذه التلمذة خصوصا في المجال الشعري حيث نجد شاعرنا مهتما كوالده بشعر الأمداح النبوية والتسولات، بل إننا نجده وقد كاد ينصرف إلى هذا اللون من الشعر انصرافا كليا ملك عليه جوارحه، ووجه إلهامه نحو شخصية الرسول ﷺ يخصها بمدحه وتنويهه.

ولعل من هذه الروافد أيضا، والتي وجهته نحو الأمداح النبوية دون غيرها، بعض الشعراء الذين اهتموا بهذا الموضوع في التراث العربي عامة، وخاصة منهم الإمام البوصيري[9] الذي ركز في جل شعره على هذا الجانب،

---

8) انظر مصادر ترجمته في كتاب الشعر الدلائي ص 358.

9) هو محمد بن سعيد الصنهاجي، أغلب شعره في الأمداح النبوية، مات عام 694 هـ.

ونستطيع أي نتبين ذلك من خلال التربيع الذي وضعه على البردة[10]، ومطلعه :

أمن تـذكر جيران بـذي سلم أفضت مـدمعـك القـاني بمنسجم
أم اضطرمت بنيران الجـوى ولـذا مزجت دمعا جرى من مقلة بدم[11]

ولعل من الشخصيات التي تأثر بها شاعرنا كذلك، الشاعر القاضي عياضا[12]، حيث نجد بعض ملامح شعره بينة المعالم في شعر محمد بن محمد المرابط، وأهمها هنا نظم بعض الحقائق والمعارف، وخاصة ما يتعلق منها بالجانب الديني.

فإذا نحن عرفنا أن القاضي عياضا قد نظم سور القرآن الكريم في القصيدة التي أولها :

في كل «فـاتحـة» للقـول معتبره حـق الثنـاء على المبعوث «بالبقره»
في «آل عمران» قد ما شاع مبعثه رجالهم و«النسـاء» استوضحوا خبره[13]

أدركنا أنها كانت مما تأثر به شاعرنا فنظم مختلف المراكز والمدن التي يقطعها الحاج في طريقه إلى الديار المقدسة بدءا من مدينة فاس بالمغرب، وذلك في القصيدة التي مطلعها :

زم الهـوادج واتئـد يـا حـادي فلقـد حملت بها جميع فـؤادي[14]

---

10) بردة البوصيري التي مطلعها :
أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعا جرى من مقلة بدم
11) انظر التربيع كاملا في ديوان ابن المرابط من ص 166 إلى ص 188.
12) من أبرز شعراء العصر المرابطي وعلمائه، انظره في التعريف بالقاضي عياض، وأزهار الرياض، والقاضي عياض الأديب.
13) الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى ج 1 ص 62.
14) انظر هذه القصيدة في ديوان ابن المرابط من ص 116 إلى ص 125.

فقد جاء فيها على سبيل المثال :

ومتى نبـــذ تم خلفكم بــــاب الفتــو ح ميمين هضـــــاب خير بـــلاد
فيتمــوا تـــازا الخصيبـــة واعبروا وادي ملــويـــة لشرق الــوادي[15]

كما نظم جملة من أجداد الرسول ﷺ وآل بيته الكرام، وإن كان هـذا الجانب قد تأثر فيه كذلك بوالده الذي نظم كافة أجـداد الرسول ﷺ بـدءا من عبد الله بن عبد المطلب إلى آدم في مطولة جاء في أولها :

حي المعــاهــد طــافــح الأشجــان وانثر هنـــاك لآلئ الأجفـــان[16]

على أن شاعرنا قد تميز بما نظمـه على لسـان المولى جل جلالـه، حيث نجده يستعرض جملة من أسماء اللـه الحسنى على غرار مـا نقرأ لـه في قصيـدة بدايتها :

أمـــا ترضى بمــا أختـــار عبـــدي وتحمـــده إذا وافـــاك رفـــدي[17]

فقد نقتصر منها على قوله :

أنـــا الفتـــاح أفتـح كل صعب فـلا تخضـع لعمرو أو لـــزيـــد
أنـــا المنـــاح أمنـح كل خلقي فهـل أحـد سـواي تراه يجـــدي
أنـــا الرحمن أرحم من أتـــاني يــــؤملني فكل الخير عنـــــدي
أنـــا الحنـــان إن وافيت بـــابي لقيتـــك بـــالبشـــاشـــة لا بصـد
أنـــا المنـــان أعطي كل ســؤل وأتحف من تعرض لي وأهــــــدي
أنـــا الجبـــــار أجبر كل كسر عظيم الجود فاسأل كيف أسدي[18]

---

15) نفس المصدر السابق ص 117.
16) انظرها في البدور الضاوية من ص 297 إلى ص 303.
17) انظر القصيدة في ديوان ابن المرابط من ص 155 إلى ص 159.
18) نفس المصدر السابق ص 155.

وعموما فإن شعر شاعرنا لا يتجاوز باب المديح النبوي بما يعرفه هذا الباب من جوانب ونوافذ، إلا إلى قطعتين في مدح والده محمد المرابط، بمناسبة وضع هذا الأخير لكتاب نتائج التحصيل[19]. وكم كنا ننتظر من الشاعر أشعارا في فنون أخرى إسوة بغيره من معظم أدباء الزاوية الدلائية، ولكن المصادر لا تشير إلى شيء من ذلك، بل كنا ننتظر منه شعرا في المديح السياسي باعتباره من شعراء المولى إسماعيل كما يؤكد صاحب المنزع اللطيف[20]، ولكن ذلك أيضاً مما ليس له وجود. ومن ثم يمكن القول بأن شاعرنا ربما كان قد تعمد الاقتصار على فن المديح النبوي، مدفوعا إلى ذلك بمختلف الروافد السالفة الذكر، علاوة على أن مدح الرسول ﷺ في الفترة التي عاشها الشاعر لاشك أنه كان يكتسي طابعا آخر، لا يقف به عند حدود المدح والثناء فحسب، بل يتجاوز به إلى التوسل والتذلل أملا في حسم الاضطرابات والفتن المتتالية، ونزوعا نحو التحول من حياة قلقة حرجة، إلى حياة أكثر استقرارا وأجلى طمأنينة.

☆ ☆ ☆

وعلى كل فإن المديح النبوي عند شاعرنا ينطلق من حبه للرسول ﷺ وتمجيده إياه، ليصب في محاور ستة تكاد تستقطب كل ما أبدعه في هذا الميدان، وهذه المحاور هي الآتية :

19) هو كتاب نتائج التحصيل في شرح التسهيل، وضعه صاحبه في شرح كتاب تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لابن مالك.

20) المنزع اللطيف ص 31.

- مدح الرسول ﷺ والثناء عليه، وهو محور مشترك بين معظم القصائد التي أبدعها الشاعر، من ذلك قوله من قصيدة :

هو الطالع الميمون للخلق رحمة ... هو المرتجى المامول في مشهد الحد
سعدنا به شرقا وغربا وقبلة ... فيا سعد من يهدى بنور الهدى المهدي
فمن مثلنا فليبد مثل رسولنا ... فما في الورى مبد كهذا الذي نبدي
هو السيد المرجو في كل أزمة ... إذا طال في يوم الوعيد مدى الوعد[21]

- استعراض كراماته ومعجزاته كحنين الجذع وكلام الحيوان وطلوع الشمس بعيد غروبها وانشقاق البدر وإشباع الألوف بصاع وتفجر الماء بين أصابعه ﷺ...

وفي هذا الإطار نكتفي بالإشارة إلى قوله :

كم له من معجزات أعجزت ... كل من كابر حقا ونفر
ككلام الضب والظبي معا ... وزلال ريء بالكف انهمر
وكذا إشباع ألف آية ... بهرت بالصاع من كان حضر
وحنين الجذع يكفي حجة ... كل ذي لب سليم اعتبر[22]

21) ديوان ابن المرابط ص 53.

22) نفس المصدر السابق ص 45.

- التوسلات سواء كانت بالرسول ﷺ أو بآل بيته أو بصحابته، وهي توسلات تفيض تذللا وانكسارا على غرار قوله متوسلا بآل البيت النبوي الشريف :

بـبـابكم وقفت حسير طرف كسير القلب منهمرا بصـوب
أنـادي في رحـابكم مفيضـا شـؤوني خـاضبـا شعرات شيبي
ألا يـا آل بيت المصطفى هـل يراع نـزيلكم بـوبـال ذنب[23]

- المولديات، وإن لم تتجاور عنده مولدية واحدة مطلعها :

بـدر الأمـاني قـد بـدا بربيـع مـولـد أحمـدا
هـذا المشفـع من هـدى ودعـا إلى طرق الرشـاد[24]

مع أن المولد النبوي كان مناسبة يقال فيها شعر المديح النبوي بكثرة وخصوبة. غير أننا نلاحظ أن شعراء الزاوية الدلائية لم ينظموا المولديات إلا قليلا، وربما كان أبرزهم في هذا الميدان أبو العباس الدغوغي[25] الشاعر الرسمي للزاوية الدلائية.

- الرحلة إلى الديار المقدسة، بما يكتنفها من شوق وهيام، وما تفوح به من ثقافة جغرافية تدل على سعة أفق الشاعر.

---

23) نفس المصدر السابق ص 128.
24) انظر القصيدة في ديوان ابن المرابط من ص 94 إلى ص 98.
25) انظر مصادر ترجمته في كتاب الشعر الدلائي ص 362.

- التصليات على الرسول ﷺ وبها يختم الشاعر قصائده كقوله في نهاية إحداها :

عليكم مـــا بـــدا نجم صـــلاة　　تـــوافيكم مـــواهبهـــا الغـــزار
وآلٍ والصحـــابـــة مـــا تغنى　　بـــذكراكم على الأيـــك الهـــزار[26]

وكقوله في خاتمة أخرى :

فعليـــه مـــا هب النسيم تحيـــة　　فتمايلت ورقـــاء بـــالترداد
والآل والأصحـــاب أطـــواد العلى　　بين الـورى نـاهيـك من أطـواد[27]

☆ ☆ ☆

وإذا نحن عـدنـا بعـد هـذا إلى النظر في مميزات هـذا الشعر وأهم خصائصه، وجدناها محصورة فيما يلي :

- الطـابع التقريري في شعره، وفي هـذه الخـاصيـة أيضـا قـد يتصـل بالقاضي عياض الذي يذهب بعض الباحثين إلى أن شعره في المـديح النبوي لا يتجاوز طابع التقرير[28].

- انعكاس أثر اللهجة البربرية عند شاعرنا، ويتجلى هـذا واضحـا في حذفه همزة المـدود غير مـا مرة سواء كان الاسم مفردا أو كان جمعـا، مثـال ذلك قوله من قصيدة:

---

26) ديوان ابن المرابط ص 154.

27) نفس المصدر السابق ص 125.

28) انظر كتاب القاضي عياض الأديب.

لا تــأملــوا في أرض مشربــة شرا شيء لفرط غـــلا من الأزواد[29]

ـ سهولة اللغة في الغالب، بل ميل الشاعر أحيانا إلى توظيف بعض العبارات المحلية الدارجة، الشيء الذي نستطيع أن نلمسه في أكثر من قصيدة.

ـ التكرار، وهذه ظاهرة بارزة في معظم شعر الشاعر، ولعله فيها متأثر ببعض الأعلام الذين توسلوا بالتكرار في أشعارهم، بدءا بالقاضي عياض القائل من قصيدة على سبيل المثال :

هذا الحبيب الذي أسرى لخالقه ليلا وقد ضربت بالليل أستار
هذا الرسول الذي من أجله شهدت لنا على غيرنا فضل وآثار
هذا الشريف الذي سادت به مضر هذا الذي تربه كالمسك معطار
هذا الشفيع الذي ترجى شفاعته للمذنبين إذا ما اسودت النار[30]

ومروراً بجملة من الشعراء، وخاصة منهم المتصوفة أمثال أبي مدين الغوث[31] القائل :

أستغفر الله مجري الفلك في الظلم على عباب من التيار ملتطم
أستغفر الله منجي المستجير به إذا ألم به ضر من الألم
أستغفر الله غفار الذنوب لمن بالانكسار أتى والذل والندم
أستغفر الله ستار العيوب على أهل العيوب ومنجيهم من النقم[32]

29) ديوان ابن المرابط ص 117.

30) مجموع رقم 359 بخزانة ابن يوسف بمراكش غير مرقم الأوراق.

31) من مواليد إشبيلية في العصر الموحدي، جاء إلى مراكش ثم فاس لطلب العلم، وقد كانت وفاته بإحدى قرى تلمسان تعرف بالعباد، وله ذكر عظيم في ميدان التصوف.

32) مجموع قصائد تصوفية لجامع مجهول رقم د 2445 بالخزانة العامة بالرباط ص 128.

وأمثال أحمد بن عبد الحي الحلبي[33] القائل من قصيدة في مدح الرسول ﷺ :

أنت الطبيب ولا طبيب سواك يا نعم الحبيب لكل قلب أمرضا
أنت النعيم ولا نعيم سواك يا طه لنا أنت النعيم المرتضى
أنت الحياة ولا حياة سواك يا طه لصب لم يزل متمرضا
أنت الهلال ولا هلال سواك إذ أقبلت نورت الرواسي والغضا
أنت الحبيب ولا حبيب سواك في كل القلوب من البرية يرتضى[34]

وأمثال اليوسي كذلك الذي نقرأ قوله من قصيدة :

يا رسول الإله إني محب لك والله شائق مستهام
يا رسول الإله في كل حين لك مني تحية وسلام
يا رسول الإله شوقي عظيم زائد والغرام فيك غرام
يا رسول الإله جئتك أسعى قيدتني الذنوب وهي عظام[35]

وتكاد تكون ظاهرة التكرار في الفترة التي عاشها الشاعر سنة محمودة لدى الكثير من الشعراء، وخاصة منهم المتصوفة أمثال شاعرنا لأنها تنسجم مع التكرار المألوف لدى المنشدين في الأوراد والأذكار التي ترتل في الزوايا والمساجد، بل لأنها تنحو منحى القرآن الكريم الذي يعتبر التكرار والتشابه

33) من أكبر شعراء المديح النبوي، مات عام 1020 هـ، انظره في الأنيس المطرب ص 6 والتقاط الدرر ص 302 والإعلام ج 2 ص 332، 352.
34) مجموع بخزانة ابن يوسف بمراكش رقم 359، غير مرقم الأوراق أو الصفحات.
35) نفس المصدر السابق.

من بين سماته البارزة، ولا غرابة أن يسلك المتصوفة هذا المسلك ما دام القرآن الكريم مصدر تصوفهم ومنبع إحساسهم. فقد نقرأ من سورة الروم مثلا :

﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾.

﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين﴾.

﴿ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله، إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾.

﴿ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾[36].

وقد يكون والد الشاعر واحدا ممن كرسوا هذه الظاهرة في شعرهم، وتوسلوا بها في قصائد متعددة.

بعض مظاهر الزخرف الشعري، ويبدو هذا واضحا في الجوانب الآتية :

- الاقتباس من القرآن الكريم، ومثال ذلك قوله من قصيدة :

ينـــاديهم منـــاد قـــد سعـــدتم وطبتم فـــادخلـوهـــا أهـل ود[37]

36) الآيات 19 ـ 20 ـ 21 ـ 22 ـ 23.

37) ديوان ابن المرابط ص 158.

فلعل البيت مقتبس من قوله تعالى : ﴿**وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا، حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين**﴾[38].

• الجناس، ويبدو عند الشاعر مظهرا ملحوظا في نماذج متعددة منها قوله :

تداعت لارتهابي وانتهابي عوادي الدهر كيف يكون نهبي[39]

• الطباق، وأكتفي بذكر قوله من قصيدة :

فذا يدنى وذا يقصى شقاء يجرع للمدامع كل سكب[40]

• رد الصدر على العجز حيث يجعل الشطر الثاني من البيت الأخير في القصيدة هو نفس الشطر الأول من مطلعها، وكمثال على هذا قصيدة أولها :

بعينك ما دهاني من خطوب أيا مولاي علام الغيوب[41]

فقد جاء في نهايتها :

فشفعهم بفضلك في عضالي بعينك ما دهاني من خطوب[42]

---

38) سورة الزمر، الآية 70.
39) ديوان ابن المرابط ص 126.
40) نفس المصدر السابق ص 129.
41) نفس المصدر السابق ص 159.
42) نفس المصدر السابق ص 161.

• الحفاظ على التصريع في معظم قصائده، إن لم أقل فيها جميعها، ولئن كانت هذه الظاهرة مألوفة منذ القديم، فإن الطريف فيها عند شاعرنا هو حفاظه على هذا التصريع ليس في مطلع القصيدة فحسب، بل أحيانا في بداية كل فقرة من فقرات القصيدة الواحدة كما نجد في القصيدة التي عنوانها : أنا مولاك الكريم[43]، فقد استهل الفقرة الأولى منها بقوله :

جاور الناس بأهل وولد   بربوع ورسوم وبلد

والثانية بقوله :

كن هنيا عبدي لا تخشى أحد   آمنا من كل سوء ونكد

والثالثة بقوله :

سيدي مولاي من لي بجلد   ومآلي قد بدا لي متقد

والرابعة بقوله :

كيف لا تحنو وأنت المستند   وعظيم العفو والفضل المعد

- شعر محمد بن محمد المرابط ينبئ عن ثقافة واسعة لدى شاعرنا، هي ثقافة متضلعة في مجال السيرة النبوية حيث نجد الشاعر محيطا بهذه السيرة، ملما بتفاصيلها وأحداثها، كما أنها ثقافة جغرافية واسعة لما تعرضت له من أسماء المناطق والمراكز المختلفة، علاوة على كونها ثقافة تاريخية متعمقة نظرا لما أورده الشاعر في قصائده من أسماء الرجال وأسماء الوقائع، وما يتبع ذلك من الأخبار والمواقف، ولعلي في غير حاجة إلى طرح نماذج تدل على تنوع هذه الثقافة ما دامت القصائد جميعها كفيلة بإبراز هذا الشمول والتنوع.

43) انظرها في ديوان ابن المرابط من ص 74 إلى ص 77، والعنوان من وضع الباحث.

ـ وأخيرا يتميز محمد بن محمد المرابط بطول النفس الشعري حيث إن قصائده يغلب عليها الطول، ذلك الطول الذي مهما أوقع الشاعر في التكرار أحيانا، فإنه يدل على انسياق الشاعر مع تياره الصوفي، وانغماسه في أجوائه الفسيحة، مما يتيح لشاعريته أن تفيض في استرسال وتتابع، مستمدا إلهامه من شدة تعلقه برسول الله ﷺ، ذلك التعلق الذي ملك عليه كل جوارحه وإحساساته، ووجه شيطانه الشعري نحو موضوع الأمداح النبوية لا يكاد ينفصل عنه إلى غيره.

ـ على أن أسلوب الشاعر، وإن جاء مستقيما في معظمه، فإنه يشكو بعض الهنات أحيانا، وهي هنات لا تجرد الشاعر مما فطر عليه من جودة في التعبير وسلامة في القول، إلا أنها مع ذلك تفرض وجودها بين الحين والحين، فقد نصادف بعض الحشو الذي يذهب برونق العبارة، إذ يكثر من استعمال البدل كما في قوله من قصائد مختلفة :

- احش قلبي بنـور نـور هـداه ... واكفني فعـل فـاسـق مرتـاب[44]
- تفتـح الأبـواب أبـواب الرضى ... لكئيب ضاق درعا مـا اصطبر[45]
- وبجملـة الأبنـاء أبنـاء الهـدى ... وبنـاتـه أكفى أذى الـوسـواس[46]

كما نصادف أحيانا أخرى بعض الاجترار كالذي يظهر في قوله من قصيدة :

منـذ أزمـان وأعصـار مضت ... ودهـور وقرون وجيـول[47]

---

44) نفس المصدر السابق ص 84.
45) نفس المصدر السابق ص 106.
46) نفس المصدر السابق ص 89.
47) نفس المصدر السابق ص 135.

فلا شك أن الأزمان والأعصار والدهور... شيء واحد وإن تعددت الأسماء واحتلفت النعوت. وقد يكون مرد ذلك إلى الرغبة في إتمام البيت الشعري والعثور على القافية المناسبة، تلك الرغبة التي توقعه في شيء من الخلط أحيانا.

على أن الحديث عن شعر الشاعر لا ينسينا أن نقول كلمة عن نثره، ذلك النثر الذي كان عنده قليلا جدا إذا قيس بالشعر، لا يعدو بعض الخطب، خلافا لوالده الذي كان ناثرا كبيرا الى كونه شاعرا مكثرا، ولكنه يتفق مع والده، بل مع نثار العصر عامة في ركوب ألوان الصنعة في الكتابة، والتركيز على السجع والتأنق على غرار قوله في بداية خطبته التي قدم بها لتربيع بردة البوصيري حيث يقول :

حمدا لمن جعل أرباب البلاغة صيارفة امتداح المصطفى ﷺ وصاغه، وأرقاهم باشتغالهم بذلك الإبريز، منصة التبريز، وعقد لهم بين أيمة اللسان أرفع راية، وبلغهم من المقاصد السنية والمواهب البهية أبعد غاية...[48].

وعموما فإن شاعرنا من بين المعالم التي يسترشد بها الباحث في تتبع المسيرة الشعرية ببلادنا، وخاصة في مجال التصوف والأمداح النبوية، ذلك المجال الذي أبدع فيه ابن المرابط ديوانا كاملا أفرز فيه أحاسيسه الصادقة نحو رسول الإنسانية ﷺ، واستحق به أن يعتبر علما بارزا من أعلام هذا الموضوع، إن على مستوى الزمان أو المكان.

الرباط : عبد الجواد السقاط

---

48) نفس المصدر السابق ص 164.

المصادر والمراجع المذكورة في البحث

- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض.
لأحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1357 هـ - 1939م.
- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى.
لأحمد بن خالد الناصري السلاوي، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955م
- الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام.
لعباس بن إبراهيم التعارجي، المطبعة الملكية بالرباط، 1974م.
- التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار المائة الحادية والثانية عشر.
لمحمد بن الطيب القادري، تحقيق هاشم العلوي القاسمي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت 1403 هـ، 1983م.
- الأنيس المطرب فيمن لقيه مؤلفه من أدباء المغرب
لمحمد بن الطيب العلمي، المطبعة الحجرية بفاس، 1315 هـ.
- البدور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية
لأبي الربيع سليمان ابن محمد العلمي الحوات، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 261.
- التعريف بالقاضي عياض.
لأبي عبد الله محمد بن القاضي عياض، تحقيق الدكتور محمد بنشريفة.
- ديوان البوصيري، محمد بن سعيد.
تحقيق محمد سيد كيلاني.
- ديوان الدلائي، محمد المرابط.
مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 3644.
- ديوان الدلائي، محمد بن محمد المرابط.
مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 3644.
- ديوان اليوسي، الحسن بن مسعود.
مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ج 32.

• روضة التعريف بمفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف.
لمحمد الصغير اليفرني، المطبعة الملكية بالرباط، 1382 هـ، 1962م.
• زهرة الوسائل في المدح والرسائل.
لمحمد بن محمد المرابط الدلائي، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ك 3179.
• الشعر الدلائي.
لعبد الجواد السقاط، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 1985م.
• عبقرية اليوسي.
للدكتور عباس الجراري، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1401 هـ، 1981م.
• القاضي عياض الأديب.
لعبد السلام شقور، نشر دار الفكر المغربي، 1983م.
• مجموع رقم د 2445 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
• مجموع رقم 359 مخطوط بخزانة ابن يوسف بمراكش.
• المنزع اللطيف في التلميح لمفاخر مولاي إسماعيل بن الشريف.
لعبد الرحمن بن زيدان العلوي، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ج 595.
• نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني.
لمحمد بن الطيب القادري، تحقيق الدكتور محمد حجي وأحمد التوفيق، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر الرباط 1402 هـ، 1982م.
• الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى.
لمحمد بنتاويت، دار الثقافة، الدار البيضاء 1402 هـ، 1982م.

ع.ج.س

وفود البيعة بين يدي النبي ﷺ

-3-

د. فاروق حمادة

5 ـ وفد ثقيف :

وثقيف هو قسيّ بن منبه بن بكر بن هوازن، وهو أبو هذه القبيلة المشهورة من قيس عيلان، ومعقلهم مدينة الطائف، وهي ثاني مركز في الجزيرة العربية قوة ومنعة، لا يتقدمها سوى مكة المكرمة، وهي في موقع منيع على مقربة من مكة، وفي مرتفع بديع جعل منها مصيف الحجاز بل مصيف الجزيرة العربية كلها قبل الإسلام، وحتى اليوم.

ولما فتحت مكة توجه النبي ﷺ إلى حنين، ولما انتهى منها توجه إلى الطائف، ودفع بين يديه مقدمة الجيش، وعلى رأسه خالد بن الوليد، فأسرع الثقفيون الدخول إلى حصنهم، وأغلقوه عليهم، وكانوا قد استعدوا من قبل وهيؤوا مؤنة سنة واتخذوا العدة للدفاع عنه.

ونـزل رسـول اللـه ﷺ قريبـا من الحصن، وعسكر جيشــه هنــاك، فرمـاهم الثقفيون رميـا غـزيرا بـالنبـل، وأصيب في ذلـك نـاس من المسلمين بجراحات، وقتل منهم إثنـا عشر رجلا، فـارتفع رسول اللـه ﷺ عن مكانـه ذاك، وابتعد عن الحصن وحاصرهم مدة جاء عن أنس بن مالـك أن الحصـار كان أربعين ليلة[1].

فلما طال الحصـار، وكانت المنـاوشـة دائمـة، وقتل رجـال من المسلمين، قرر رسول الله ﷺ أن يقفل عائدا إلى مكة ويدع الطـائف، واستشـار في ذلك نوفل بن معاوية الدِّيلي، فقال له : ما ترى ؟ فقال لـه : رسول اللـه، شأنهم ثعلب في جحر إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرّك[2].

فلمـا استقل رسول اللـه ﷺ راحلتـه قـال : قولوا : آيبون تـائبـون، عابدون، لربنا حامدون...

اللهم اهد ثقيفا، وائت بهم :

ولمـا ارتحل العسكر ونـال المسلمين مـا نـالهم من الجهـد قـال قـائـل : يارسول الله ادع الله على ثقيف فقال : اللهم اهد ثقيفا وائت بهم[3].

1) انظر ابن سعيد في طبقاته 158/2، وسيرة ابن هشام 127/4، وابن سعد 159/2.
2) انظر زاد المعاد 497/3.
3) أخرجه أحمد في مسنده 342/3، والترمذي من حديث جابر وقال : حسن غريب، وابن اسحق كما في ابن هشام 135/4، وابن سعد 159/2، والواقدي 937/3، وابن أبي شيبة من رسل ابن الزبير كما في فتح الباري 45/8 وانظر البداية والنهاية لابن كثير 350/4.

وما ذلك إلا لحرص رسول الله ﷺ على حفظ الروح البشرية، وإعزازه هذه البلدة التي كانت العرب تنظر إليها بعد مكة، وكيف لا ؟! وقد توجه إليها رسول الله ﷺ وقد ضاقت شعاب مكة عن دعوته، ولم يجد في رحابها آذانا صاغية، وقلوبا واعية، وتوجه إلى بني عبد ياليل سادتها، ومعه مولاه زيد بن حارثة فما وجد منهم إلا ما وجده في مكة من إعراض واستهزاء، وأغروا به السفهاء حتى أدموه، وكرّ راجعا وهو أسيف حزين، وفي لحظات الأسى والصدّ هذه جاءه ملك من السماء، فقال : يا محمد أتريد أن أطبق الأخشبين على هذه القرية ؟ قال : لا، عسى الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده ويوحده !! فلا حقد ولا ضغينة، ولا ثأر ولا انتقام، وها هو رسول الله اليوم يرتحل راجعا ولا يتمنى لأهلها إلا الهواية والإقبال على الله، ويأسى بعض المسلمين على قتلاهم، فيطلبون من رسول الله ﷺ أن يدعو عليهم، فيعطيهم درسا في السماحة والسجاحة، ومقابلة الاساءة بالإحسان، «إدفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم» وكذلك كان.

صاحب يّس :

ولما كان رسول الله ﷺ قافلا إلى المدينة لحق بالطائف عروة بن مسعود الثقفي أحد سادتهم، وكان إبان حصارها غائبا في جرش يتعلم صنع الدبابات والعردات والمنجنيق، وكان معه غيلان بن سلمة، فلما عادا، ألقى الله تعالى في قلب عروة بن مسعود فتوجه خلف رسول الله ﷺ إلى المدينة، فأسلم وقال : يا رسول الله، إأذن لي أن آتي قومي فأدعوهم إلى الإسلام، فوالله ما رأيت مثل هذا الدين ذهب عنه ذاهب، فأقدم على

قومي وأصحابي بخير قادم، وما قدم وافد قط على قومه إلا من قدم بمثل ما قدمت به، وقد سبقت يا رسول الله في مواطن كثيرة. فقال رسول الله ﷺ : إنهم إذا قاتلوك ـ لما عرف من امتناعهم ونخوتهم ـ قال : يا رسول الله لأنا أحب إليهم من أبكارهم، وكان فيهم محببا مطاعا، ثم استأذنه الثانية، فأعاد عليه الكلام الأول، وقال ﷺ : إنهم إذا قاتلوك، قال : يا رسول الله، لو وجدوني نائما ما أيقظوني. واستأذنه الثالثة، فقال : إن شئت فاخرج، فعاد إلى الطائف، ولم يأت الربّة ـ صنمهم اللات ـ وجاء قومه إليه فحيّوه بتحية الشرك، فقال : عليكم بتحية أهل الجنة، ثم دعاهم إلى الإسلام فأنكروا عليه، وقال : يا قوم اتتهمونني ؟ ألستم تعلمون أني أوسطكم نسبا، وأكثركم مالا، وأعزكم نفرا ؟ فما حملني على الإسلام إلا أني رأيت أمرا لا يذهب عنه ذاهب فاقبلوا نصحي، ولا تعصوني فوالله ما قدم وافد على قوم بأفضل مما قدمت عليكم به، فاتهموه واستغشوه، وآذوه، ونالوا منه، وخرجوا من عنده وهم يأتمرون كيف يصنعون به ؟

حتى إذا ما طلع الفجر أوفى على غرفة له، فأذّن بالصلاة، فرماه أوس بن عوف من بني مالك، وقيل : وهب بن جابر أحد رهطه بسهم، فأصابه في أكحله فلم يرقأ حتى مات.

فحشد قومه في السلاح ليثأروا له فقال لهم : لا تقتتلوا فيّ، فإني قد تصدّقت بدمي على صاحبه، وهذه كرامة أكرمني الله بها، الشهادة، أشهد أن محمدا رسول الله خبرني عنكم هذا أنكم تقتلونني، ثم قال لرهطه : أدفنوني مع الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم فدفنوه معهم،

فلما بلغ رسول الله ﷺ مقتله قال : مثل عروة مثل صاحب يّس[4] فخرج ابنه أبو المليح، وابن أخيه قارب بن الأسود بن مسعود، فلحقا برسول الله وبقيا عنده حتى جاء وفدهم.

فترة للتفكير والتأمل :

وبعد مقتل عروة بن مسعود، انفتحت العقول في الطائف للتفكير والتدبر لهذا الدين الجديد الذي يتقدم زحفه يوما بعد يوم، ويتجه إليه عقلاء العرب ونبهاؤهم فيتعرفون عليه ويسلمون ويموتون في سبيله راضين مطمئنين، لا يرجون الحفاظ على زعاماتهم، أو الازدياد والتكثر في الدنيا، وها هو عروة بن مسعود اللبيب الفطن السيد المطاع فيهم خير مثال على

---

4) استوفاه الواقدي بدقة 960/3 ـ ومن طريقه ابن سعد 312/1 ـ وأبو نعيم في دلائل النبوة مطولا 682/2 ـ وابن هشام 194/3 ـ وموسى بن عقبة في مغازيه كما في دلائل النبوة للبيهقي 299/5 ـ كما أخرجه الطبراني عن عروة بن الزبير والزهري مرسلا ـ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد 286/9 : إسنادهما حسن.
وعند أبي يعلى الموصلي عن علي بن زيد بن جدعان مرسلا بإسناد حسن، وساق قصته وفيها أن النبي ﷺ قال : الحمد لله الذي جعل في أمتي مثل صاحب يس، مجمع الزوائد 286/9، وانظر المطالب العالية : 226/4، 252/4.
وصاحب يس هو المذكور في سورة يس الذي قال لقومه : اتبعوا المرسلين، فقتلوه وقال السهيلي في الروض الأنف 199/4، ويحتمل أنه يريد صاحب إلياس وهو اليسع، فإن يقال في اسمه : ياسين، وقال الطبري : هو إلياس بن ياسين، وفيه قال الله اليسع، فإن إلياس يقال في اسمه : ياسين، وقال الطبري : هو إلياس بن ياسين، وفيه قال الله تعالى : ﴿**سلام على إل ياسين**﴾. ومهما اختلف في تحديد شخصه، فإن ملامحه الإيمانية وأفعاله تتكرر عبر العصور نموذجا في الدعوة إلى الله والثبات على منهجه.

ذلك. وبدأت الأفكار تتجه إلى هذا الدين من أعيان ثقيف. واجتمع على هذا المتخاصمون منهم، وقال بعضهم لبعض : قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة، إنه قد كان من أمر هذا الرجل ما ترون وقد أسلمت العرب، وليس لكم بهم طاقة !! ألا ترون أنه لا يأمن لكم سِرْب، ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع فائتمروا بينهم، واتفقوا على أن يبعثوا عبد ياليل بن عمرو بن حبيب ليفاوض رسول الله ﷺ، فخاف على نفسه أن يحل به ما حل بعروة بن مسعود، واتفقوا على تكوين وفد من أعيان الطائف يضم بضعة عشر رجلا، وقيل : أربعين رجلا أو أكثر، يتزعمهم ستة، وهم : عبد ياليل ابن عمرو زعيمهم، ومعه ابناه : كنانة وربيعة، والحكم بن عمرو بن وهب بن معتب، وشرحبيل بن غيلان بن سلمة بن معتب، وهؤلاء هم الأحلاف من رهط عروة بن مسعود، وعثمان بن أبي العاص، وهو أصغر الوفد، وأوس بن عوف، ونمير بن خرشة، وهم من بني مالك[5].

ورُكِّب الوفد بهذه الكيفية ليقنع كل واحد رهطه عندما يرجع إليهم بما حدث، ويشغلهم حتى لا تتجه ثقيف كلها إلى شخص واحد فتقتله.

على مشارف المدينة :

وتوجه هذا الوفد إلى المدينة المنورة مستجمعاً كل ذكائه ودهائه، بشجاعة العشيرة، وتحصين بلدتهم، حتى وصلوا إلى وادي قناة، أحد الوديان

5) الواقدي 963/3 ـ وابن سعد من طريقه مع بعض التفصيل 313/1، ويرى موسى ابن عقبة أن القوم كانوا بضعة عشر، وزعيمهم كنانة بن ياليل، انظر دلائل النبوة للبيهقي 300/5. وابن كثير : البداية 30/5 وهو الأصح كما يبدو ذلك من خلال النصوص التي تبين وفود آخرين.

القريبة بالمدينة، فوجدوا إبلا منتشرة، فقالوا : لو سألنا صاحب الإبل لمن الإبل وخبَّرنا من خبر محمد، فأرسلوا أصغر القوم : عثمان بن أبي العاص، فإذا هو بالمغيرة بن شعبة يرعى في نوبته إبل الصدقة، فلما رآهم سلم عليهم، واتجه راكضا نحو النبي ﷺ ليبشره تاركا الإبل وراءه لما يعلمه من فرح رسول الله ﷺ بإسلامهم.

فلما وصل باب المسجد، وجد أبا بكر الصديق، فسأله عن خبره، فأخبره بقدوم وفد ثقيف، فقال أبو بكر : أقسمت عليك بالله، لا تسبقني إلى رسول الله ﷺ بخبرهم حتى أكون أنا أخبره، فبقي المغيرة واقفا بالباب، ودخل الصديق، فبشر رسول الله ﷺ، ثم دخل المغيرة وهو مسرور، فوجد وجه رسول الله ﷺ متهللا مرحبا بهم، فأخبره الخبر وقال : يا رسول الله، أنزل علي قومي أكرمهم، فإني حديث الجرم فيهم[6]، فقال : لا أمنعك أن تكرم قومك، ولكن منزلهم حيث يسمعون القرآن. فنزل من كان من الأحلاف على المغيرة، وضرب النبي ﷺ لبني مالك قبة في المسجد[7].

وقيل : إنهم نزلوا في دار المغيرة بالبقيع، وأمر النبي ﷺ بثلاث خيام من جريد، فضربت بالمسجد ليكونوا فيها، وتجري عليهم ضيافة رسول الله في دار المغيرة[8].

---

6) كان من جرمه أنه قتل بعضهم وساق بعض أموالهم إلى النبي ﷺ، فأسلم وقال : خمس المال، فقال له : إسلامك قبلناه، أما الخمس فإنا لسنا نغدر وأبى أن يخمس ما معه.

7) ابن سعد 212/1 من طريق الواقدي - وأحمد في مسنده 242/4 - وأبو داود وابن ماجة عن أوس بن حذيفة الثقفي.

8) لعل هذا هو الأصح، وهو عند الواقدي في المغازي 965/3.

وجاء ذلك عن سفيان بن عبد الله بن ربيعة التثفي قال : كنا في الوفد الذين وفدوا على رسول الله ﷺ، قال : فضرب لناقبة عند دار المغيرة بن شعبة، وكان بلال يأتينا بفطرنا، فنقول : أفطر رسول الله ﷺ ؟ فيقول : نعم، ما جئتكم حتى أفطر رسول الله ﷺ، فيضع يده فيأكل ونأكل، وكان بلال يأتينا بسحورنا[9].

في مهبط الوحي :

ودخلوا على رسول الله ﷺ بعد أن علمهم أن يحيوا رسول الله ﷺ بتحية الإسلام، فقالوا : أنعم صباحا، تحية الجاهلية، فقال : ناس يا رسول الله يدخلون المسجد وهم مشركون ؟ فقال لهم : إن الأرض لا ينجسها شيء، فحيّاهم وسرّ بهم، وقدّموا له هدية، فقال لهم : أهدية أم صدقة ؟، فإن كانت هدية، فإنما يبتغى بها وجه الله عز وجل، قالوا : لا، بل هدية، فقبلها منهم وقعد معهم يسألونه حتى صلى الظهر مع العصر[10].

واستمروا على هذا في المسجد أياما يسمعون القراءة بالليل، وتهجد النبي ﷺ، وينظرون إلى الصفوف في الصلاة المكتوبة، ويرجعون إلى دار المغيرة فيطعمون ويتوضأون ويكونون فيه ما أرادوا.

---

9) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة 305/5 ـ وابن إسحاق كما في ابن هشام 198/4 وسفيان بن عبيد الله قال : هو الذي قال بعد أن أسلم للنبي ﷺ : يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك، قال : قل آمنت بالله ثم استقم ـ أخرجه مسلم والترمذي والنسائي وغيرهم.

10) أخرجه النسائي في سننه 279/6.

وكان رسول الله ﷺ يأتيهم كل ليلة بعد صلاة العشاء، فيقف على خيمتهم في المسجد، فيحدثهم طويلا وهو قائم يراوح بين رجليه من طول القيام، قال أوس بن حذيفة الثقفي : فكان أكثر ما يحدثنا، ما لقي من قومه قريش، ثم يقول : لا آسى، وفي رواية، لا سواء، كنا مستضعفين مستذلين، فلما خرجنا إلى المدينة، كانت سجال الحرب بيننا وبينهم ندال عليهم ويدالون علينا، فمكث ليلة لم يأتنا حتى طال ذلك علينا بعد العشاء، فقالوا : ما أمكثك عنا يا رسول الله ؟ قال : طرأ علي حزبي من القرآن، فكرهت أن أجيء حتى أتمه[11].

أنوار الهداية، وبدء المفاوضات :

وخلال هذه المدة التي دامت أياما عددا يغدون على رسول الله ﷺ في مسجده، فيخرج إليهم من بيته، ويأتيهم بعد كل صلاة عشاء، ويحاولون التعرف على أكبر ما يمكن من عقائد الإسلام وآدابه وأحكامه، واتصلوا بالمسلمين وهم غير مجهولين عندهم، ورأوا كيف صنع الإسلام منهم أناسا آخرين، وكانوا في بادئ الأمر حذرين جدا حتى إنهم جعلوا بينهم وبيني الرسول ﷺ خالد بن سعيد بن العاص، وكان مما لاحظوه واستغربوه أن هذا الرسول العظيم الكريم يخطب ويتحدث ولا يذكر نفسه ويتيه بمناقبه على عادتهم الجاهلية فرادى وجماعات، فقالوا وقد أدركوا مكانة هذا النبي

---

11) أخرجه أحمد في مسنده 8/4، 343 وأبو داود وابن ماجة وغيرهم، قال أوس بن حذيفة : فسألت أصحاب رسول الله ﷺ : كيف يحزبون القرآن ؟ فقالوا : ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل وحده.

وكريم خصاله وفعاله وأيقنوا أنه رسول الله : ما له يخطب ولا يذكر نفسه في خطبته ؟ فبلغه قولهم، فقال : فإني أول من شهد أني رسول الله[12].

فقالوا : يا محمد، هل أنت مقاضينا حتى نرجع إلى أهلنا وقومنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : نعم، إن أنتم أقررتم بالإسلام قاضيتكم، وإلا فلا قضية ولا صلح بيني وبينكم، وهنا أظهروا تمسكهم ببعض عقائدهم وأفعالهم الجاهلية، وطلبوا الإعفاء منها، فقال له عبد ياليل : أرأيت الزنا ؟ فإنا قوم عزّاب نغترب لابد لنا منه، ولا يصبر أحدنا على العزبة، قال : هو مما حرّم الله على المسلمين، يقول الله تعالى : ﴿**ولا تقربوا الزنا، إنه كان فاحشة وساء سبيلا**﴾، قال : أرأيت الربا ؟ قال : الربا حرام، قال : فإن أموالنا كلها ربا، قال : لكم رؤوس أموالكم، يقول الله تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا، اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مومنين**﴾، قال : أفرأيت الخمر ؟ فإنها عصير أعنابنا، ولابد لنا منها، قال : فإن الله حرمها، ثم تلا ﷺ : ﴿**إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان، فاجتنبوه**﴾.

ثم خلا بعضهم إلى بعض للتشاور، فقال لهم زعيمهم عبد ياليل : ويحكم، نرجع إلى قومنا بتحريم هذه الخصال الثلاث !! والله لا تصبر ثقيف عن الخمر أبدا، ولا عن الزنا أبدا، فقال له سفيان بن عبد الله : أيها الرجل، إن يرد الله بها خيراً تصبر، قد كان هؤلاء الذين معه على مثل هذا، فصبروا وتركوا ما كانوا عليه... ثم عادوا مقرِّين بذلك راضين به، فقالوا له : لك

---

12) هي في رواية مغازي موسى بن عقبة، وعروة بن الزبير، والواقدي.

ما سألت، ولكن، أرأيت الربّة ـ وهي صنمهم اللاّت ـ ما ترى فيها ؟ قال : هدمها، قال : هيهات، لو تعلم الربّـة أنـا أوضعنـا في هـدمهـا، قتلت أهلنـا، فقال له عمر : ويلك يا عبد يـاليل ! إن الربّـة حجر لا يـدري من عبـده ممن لا يعبده، فقـال : يـا عمر، إنـا لم نـأتـك، فطلبوا أن يتركهـا لهم ثلاث سنين، فأبى، قالوا : سنتين، فأبى أن يتركها لهم شهرا واحدا أو أن يوقت لهم وقتا، وكان غرضهم بذلك أن يسلموا من سفهائهم وصبيانهم، فطلبوا منـه أن يعفيهم من هدمها وهدم أصنامهم الأخرى، فقبل.

وقـالوا : اعفنـا من الصـلاة، فقـال : لا خير في دين لا ركـوع فيـه، فقال : سنصلي وإن كان فيها دنـاءة، وأمـا الصيـام فسنصوم، وصـاموا بقيـة شهرهم الـذي حضروا فيــه، كما اشترطـوا على النبي ﷺ : أن لا يحشروا ولا يعشروا ولا يجبـوا ولا يستعمـل عليهم من غيرهم، فقـال لهم النبي ﷺ : لا تحشرون، ولا تعشرون ولا يستعمل عليكم من غيركم[13].

وهكذا، نجد أن رسول اللـه ﷺ لم يسـاومهم في أركان الـدين وأسس العقيدة، هذه الأركان والأسس هي التي نجد جاهليـة اليوم تقف منهـا نفس موقف جاهلية الأمس، فالصلاة عندهم دناءة، والزنا حرية وضرورة، والربـا اقتصاد وحضـارة، والخمر تقـدم وسرور، والأوثـان تغيرت أسماؤهـا وأشكالهـا، ولكن بقيت حقائقها وكان الموقف الإسلامي فيهـا حـاسما جـازمـا، لا يفرق بين قبيلة وأخرى، أو شخص وآخر، كما أنه لا يقسم الإسلام أجزاء، نعمل بما يروقنـا، ونستثني مـا لا يروق ولا يعجب، ولهــذا لم يصـالحهم إلا بقبـول

13) أخرجـه أحمـد في مسنـده، وأبـو داود، وابن الجـارود في المنتقى رقم 373 عن عثمان بن أبي العاص الثقفي، يرويه عنه الحسن البصري ولم يسمع منه لكن.

الإسلام كلاّ متكاملا، عقائد وأحكاما وآدابا وسلوكا... وعلى ذلك كتبوا الكتاب، ومدّوا أيديهم مبايعين لله ورسوله ﴿**إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله**﴾ كلهم توكيدا للعهد وتوثيقا لعرى الطاعة خلا رجل كان به جذام، فأرسل إليه رسول الله ﷺ أن قد بايعناك[14].

نص معاهدة ثقيف :

وقد ذكر نص هذا الكتاب ابن إسحق وعروة بن الزبير في مغازيه والواقدي فقال : وكان كتاب رسول الله ﷺ الذي كتب لهم : (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبي رسول الله إلى المومنين إن من وجد يفعل شيئا من ذلك، فإنه يجلد وتنزع ثيابه، فإن تعدّى ذلك فإنه يؤخذ فيبلغ به النبي محمدا وأن هذا أمر النبي محمد رسول الله ﷺ، وكتب خالد بن سعيد بأمر الرسول محمد بن عبد الله، فلا يتعده أحد فيظلم نفسه فيما أمره به محمد رسول الله ﷺ)[15] وزاد أبو عبيد في الأموال بإسناده إلى عروة بن الزبير : وشهد على نسخة هذه الصحيفة علي بن أبي طالب، وحسن بن علي، وحسين بن علي[16].

---

14) أخرجه مسلم، والنسائي 150/7، وابن ماجة رقم 2544 عن الشريد بن سويد الثقفي.

15) سيرة ابن هشام 200/4، ومغازي الواقدي 972/2.

16) الأموال ص : 251، قال أبو عبيد : (وفي هذا الحديث من الفقه، إثباته ﷺ شهادة الحسن والحسين) ولا يخفى أن سنهما كانت آنئذ نحو ست وتسع سنوات، ثم قال أبو عبيد : (وقد كان يرون مثل هذا عن بعض التابعين أن شهادة الصبيان تكتب ويستنسبون فيستحسن ذلك، فهو الآن في.

وهذا الكتاب موجَّه إلى المسلمين وليس خاصا بثقيف كما ترى يبرزونه أمام كل من أراد اقتحام وادي وجّ الذي حماه لهم رسول الله، أما كتابهم الخاص بهم، والعهد الذي ربطهم بأمّة الإسلام، وربطها بهم وأبان مكانهم من هذه الأمة وما لهم وما عليهم، فقد ذكره أبو عبيد عن عثمان بن صالح عن عبد الله بن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير قال :

(هذا كتاب رسول الله ﷺ لثقيف : بسم الله الرحمن الرحيم، كتب :

أن لهم ذمة الله الذي لا إله إلا هو، وذمة محمد بن عبد الله النبي على ما كتب عليهم في هذه الصحيفة.

أن واديهم حرام محرّم لله كلّه عضاهه، وصيده، وظلم فيه، وسرق فيه أو إساءة.

وثقيف أحق الناس بوجّ.

ولا يعبر طائفهم، ولا يدخله عليهم أحد من المسلمين يغلبهم عليه.

وما شاءوا أحدثوا في طائفهم من بنيان أو سواه بواديهم.

لا يحشرون ولا يعشّرون.

ولا يستكرهون بمال ولا نفس. وهم أمة من المسلمين يتولجون من المسلمين حيث ما شاءوا، وأين تولجوا ولجوا. وما كان لهم من أسير فهو لهم، هم أحق الناس به حتى يفعلوا به ما شاءوا، وما كان لهم من دَيْن في رهن

فبلغ أجله فإنه لواط مبرأ من الله، وفي حديث يروى عن ابن إسحق، فإنه لياط مبرأ من الله[17].

وما كان في رهن وراء عكاظ، فإنه يقضى إلى عكاظ برأسه.

وما كان لثقيف من نفس غائبة أو مال، فإن له من الأمن ما لشاهدهم.

وما كان لهم من مال بليّة، فإن له من الأمن ما لهم بوج.

وما كان لثقيف من حليف أو تاجر، فأسلم، فإن له مثل قضية أمر ثقيف.

وإن طعن طاعن على ثقيف، أو ظلمهم ظالم، فإنه لا يطاع فيهم في مال ولا نفس، وإن الرسول ينصرهم على من ظلمهم والمومنون.

ومن كرهوا أن يلج عليهم من الناس فإنه لا يلج عليهم.

وإن السوق والبيع بأفنية البيوت.

وأن لا يؤمَّر عليهم إلا بعضهم على بعض.

على بني مالك أميرهم، وعلى الأحلاف أميرهم.

وما سقت ثقيف من أعناب قريش، فإن شطرها لمن سقاها.

وما كان لهم من دَيْن في رهن لم يلط فإن وجد أهله قضاء قضوا، وإن لم يجدوا قضاء فإنه إلى جمادى الأولى من عام قابل، من بلغ أجله فلم يقضه فإنه قد لاطه.

---

17) يتبين من هذا أن أبا عبيد قد قابل هذا النص عن عروة برواية عن ابن اسحق، وأثبت هذا الاختلاف الطفيف.

ومن كان لهم في الناس من دين فليس عليهم إلا رأسه.

وما كان لهم من أسير باعه ربه فإن له بيعه، وما لم يبع فإن فيه ست قلائص نصفين.

قال أبو عبيد : في الكتاب نصفان[18]، حقاق، وبنات لبون كرام سمان.

ومن كان له بيع اشتراه، فإن له بيعه[19].

---

18) وهذا يؤكد أن أبا عبيد المتوفى 224 قد انتسخه من أصل مكتوب، وهكذا كان يفعل في بقية كتب النبي ﷺ.

19) هو في الأموال ص : 247، وقال أبو عبيد في تفسير هذا العهد : قوله : عضاهه : العضاه هو كل شجر ذي شوك.

وقوله : ولا يحشرون : أي تؤخذ منهم صدقات المواشي بأفنيتهم، يأتيهم المصدّق هناك ولا يأمرهم أن يجلبوها إليه.

وقوله : لا يعشرون : لا يؤخذ منهم عشر أموالهم، أي عليهم الصدقة في كل مائتين خمسة دراهم.

وقوله : وما كان لهم من أسير فهو لهم : من أسروا في الجاهلية، ثم أسلموا وهو في أيديهم، فهو لهم حتى يأخذوا فديته.

وقوله : وما كان لهم من دين في رهن فبلغ أحله فإنه لواط مبرأ من الله تبارك وتعالى : يعني الربا يسمى لواطا أولياطا لأنه ربا ألصق ببيع، وكل شيء ألصقته بشيء فقد لطته.

ومما يبين لك أنه أراد باللواط الربا قوله : وما كان لهم من دين في رهن وراء عكاظ - أي موسم سوق عكاظ - فإنه يقضى إلى عكاظ برأسه، يعني رأس المال، ويبطل الربا، ألم تسمع إلى قوله تبارك وتعالى : ﴿**فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون**﴾، ويروى أن هذه الآية إنما نزلت في ثقيف ثم صارت عامة للمسلمين.

وقوله : وما كان لهم من دين في رهن لم يلط، يعني لم يجعل عليه ربا، فإن وجد أهله قضاء قضوا، فهذا هو الدين الذي لا ربا فيه، ألا تراهم قد أمرهم بقضائه إن وجدوا، فإن لم يجدوا، أخروا إلى جمادى قابل. =

وتذكر المصادر أن كاتب هذا الكتاب هو خالد بن سعيد بن العاص الذي رضوه وسيطا بينهم وبين الرسول ﷺ، ووضعوا فيه كامل ثقتهم، وقد كانت أمُّه ثقفية، وهي أم خالد بنت حباب الثقفية، وهو من السابقين الأولين للإسلام، ومن مهاجرة الحبشة هو وزوجته.

وإذا أمعنت النظر أيها القارئ الكريم في هذا الكتاب، لما وجدت فيه شيئا من الشروط المجحفة التي تمليها نشوة النصر وعزة الظفر فتكبل المغلوبين بالذلة والعار، وتفرض عليهم إتاوات دائمة، وتنتقص من كراماتهم، بل وجدت عكس ذلك، وجدت التكريم والرفعة والعزة لهم، وهذا ما جاء به الإسلام.

أمير القوم :

ولما كتب الكتاب، وأشرقت أنوار الهداية في قلوبهم بعد تفكر وتدبر قالوا : يا رسول الله، أمّر علينا رجلا منا يؤمنا، فأمر عليهم عثمان بن أبي

= وفيه أنه شرط لهم شروطا عند إسلامهم خاصة لهم دون الناس مثل تحريمه واديهم، وأن لا يعبر طائفهم، ولا يدخله أحد يغلبهم عليه، وأن لا يؤمر عليهم إلا بعضهم.

وهذا مما قلت لك : إن الإمام ناظر للإسلام وأهله، فإن خاف من عدو غلبة لا يقدر على دفعهم إلا بعطية يردهم بها، فعل كالذي صنع النبي ﷺ بالأحزاب يوم الخندق، وكذلك لو أبوا أن يسلموا إلا على شيء يجعله لهم، وكان في إسلامهم عز للإسلام، ولم يأمن معرتهم وبأسهم، أعطاهم ذلك ليتألفهم به، كما فعل ذلك رسول الله ﷺ، إلى أن يرغبوا في الإسلام وتحسن فيه نيتهم.

وإنما يجوز من هذا ما لم يكن فيه نقض للكتاب ولا للسنة، ويبين ذلك أن رسول الله ﷺ لم يجعل لهم فيما أعطاهم تحليل الربا، وأبى عليهم أن يسلموا على تحليل الزنا والخمر.

العـاص، وهـو أصغر القـوم، فلمـاذا كان ذلـك ؟ هـل هـو إذلال للكبراء كما يفعل الفـاتحون المنتصرون في عصور الجـاهليـة ؟ أم لمصلحـة شخصيـة تعود على هذا القائد المنتصر ؟ أم لنفع متوقع منه ؟ أم دفعا لمضرّة ؟

كل ذلك لم يكن، بل كانت الإمارة لهـذا الشـاب النـابـه لأنـه استوفى مقومـاتهـا وهي في ميزان الإسـلام شيئـان إثنـان همـا (التقـوى والعلم)، وقـد جمعهما، وكان نصيبه فيها أوفى من نصيب غيره.

فقد ذكر موسى بن عقبة وعروة بن الزبير في مغازيهما أن القوم عندما كانوا يفـدون على رسول اللـه ﷺ كل يوم يخلفون عثمان بن أبي العـاص في رحالهم لأنه أصغرهم، فكان عثمان كلما رجع الوفد إليه وقالوا بالهـاجرة، عمـد إلى رسول الله ﷺ، فسأله عن الدين، واستقرأه القرآن، فاختلف إليـه عثمان مرارا حتى فقه في الدين وعلم، وكان إذا وجد رسول الله ﷺ نائما، عمـد إلى أبي بكر وأبي بن كعب وغيرهما من الصحابة، وكان يكتم ذلك عن أصحابـه، فأعجب ذلك رسول الله ﷺ وأحبه[20].

ونقل الواقدي بأسانيده أنـه أخـذ سورا من القرآن من فيّ رسول اللـه ﷺ، فبـايعـه على الإسلام قبل أن يسلم الوفـد، وقبـل أن يكتب الكتـاب بينهم[21].

وقد أرشده النبي ﷺ بعد أن ولاّه إمـامـة قومـه إلى أخص خصـائص الإمـارة، وأهم الأمور التي يحتـاجهـا الأمير، ألا وهي الرفق بمن تـأمر عليهم،

20) انظره في دلائل النبوة للبيهقي 300/5.

21) المغازي : 966/2.

والشفقة والرحمة لهم وأن يأخذهم بمستوى أضعفهم حتى لا يعنتهم أو يحرجهم، أو يكلفهم ما لا يطيقون، وهل جاءت الشريعة كلها إلا لرحمة الخلق وتحقيق مصالح العباد، فكان يقول عثمان : كان من آخر ما عهد إلى رسول الله ﷺ حين بعثني إلى ثقيف قال : يا عثمان، تجوز في الصلاة، واقدر الناس بأضعفهم، فإن فيهم الكبير والضعيف وذا الحاجة.

ووقّت لي أن أقرأ باسم ربك الذي خلق وأشباهها من القرآن الكريم.

كما أمره أن يجعل مسجد الطائف حيث كانت طاغيتهم[22] وأن يتخذ مؤذنا محتسبا لوجه الله، لا يأخذ على أذانه أجرا[23].

كما أن رسول الله ﷺ قد علمه أمورا أخرى منها أنه شكا له وجعا يجده في جسده كاد يهلكه، فقال له النبي ﷺ : ضع يدك على الذي يألم من جسدك وقل : بسم الله (ثلاثا)، وقل سبع مرات : أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر[24]، ففعلت ذلك، فأذهب الله ما كان بي، فلم أزل آمر به أهلي وغيرهم.

كما شكا إليه الوسواس، فقال له : يا رسول الله، إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي، فقال له : ذلك شيطان يقال له : خنزب فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه، واتفل عن يسارك ثلاثا، قال : ففعلت ذلك، فأذهبه الله عني[25].

---

22 ـ 23) أخرجه أبو داود وغيره.

24) أخرجه مالك وأحمد ومسلم، وأصحاب السنن وغيرهم.

25) أخرجه أحمد في مسنده ومسلم في صحيحه وغيرهما.

رحلة العودة، وإزالة معالم الشرك من الطائف :

ولما قضى الوفد من المدينة كل حاجة، وأزمعوا العودة إلى أهلهم وديارهم التي ازداد حنينهم إليها وشوقهم لإبلاغ هذا الدين لقومهم، أكرمهم رسول الله ﷺ وحباهم[26] كما كان يفعل بالوفود جميعا، فقال الوفد لرسول الله ﷺ : يا رسول الله، ائذن لنا أن نعود إلى الطائف قبل رسلك، ثم ابعثهم في أثرنا، فإن قومنا لهم أنفة، فانطلقوا عائدين، حتى وصلوا إلى قومهم، فتلطفوا لهم وخوفوهم بادئ الأمر، ثم أعلنوا لهم عن إسلامهم، وعن إعزاز الله لهم بالإسلام.

ثم قدم رسل النبي ﷺ كما تم الاتفاق على ذلك، لهدم اللات ـ وهي حجرة بيضاء عليها بيت يستر، وتعبد ويهدى لها كما يهدى للكعبة، ويذبح عندها ـ وهم : خالد بن الوليد، والمغيرة بن شعبة، وأبو سفيان بن حرب، فعلاها المغيرة بن شعبة وخالد هدما وضربا بالمعاول والفؤوس، والنساء والصبيان والرعاع ينظرون إليهم ويعتقدون أنها ستمتنع ويقولون : ستفعل بهم وتقتلهم وتميتهم والمغيرة يقول لهم : ويحكم يا معشر ثقيف، إنما هي لكاع حجارة ومدر، فاقبلوا عافية الله واعبدوه. وحفروها حتى الأساس، وأخذوا حليتها وكسوتها وما فيها من طيب وذهب وفضة، فسأله أبو مليح بن عروة بن مسعود أن يقضي عن أبيه دينا عليه من مال هذه الطاغية، فقال له رسول الله ﷺ : نعم وسأله مثله قارب بن الأسود أن يقضي عن أبيه الأسود، وهو أخو عروة، فقال له رسول الله ﷺ : إن الأسود مات مشركا،

26) مغازي موسى بن عقبة، انظر دلائل النبوة للبيهقي 302/5.

فقال قارب : يا رسول اللـه، لكن تصل مسلما ذا قرابـة، يعني نفسـه، وإن الدّين علي، وأنا أطلب به، فأمر النبي ﷺ أبا سفيـان أن يقضي الـدين من مال الطاغية ففعل وقسّم رسول اللـه ﷺ بـاقيـه وأعطى لأبي سفيـان قسما كبيرا منه يتألفه على الإسلام[27].

وبـذلـك، انتهت الـوثنيـة إلى غير رجعـة من أعـز مـدينتين في بـلاد العرب وهما المدينتان اللتـان ذكرهمـا القرآن، وكانتـا مركز القوة والمنعـة في هذه البلاد في قوله تعالى :﴿**وقـالوا : لولا نزل هـذا القرآن على رجل من القريتين عظيم**﴾، الزخرف 31.

ودخل هذا الوفد على رسول اللـه ﷺ، وهو أبغض الخلق إليهم، لأنهم كانوا يعتقدون أن مجـد هـذه القريـة العظيـة الطـائف سيزول، وأن ذكرهم سيخمل ومكانتهم في العرب ستندمل، فلما وجدوا رحمة الله بهم قـد أعطتهم أكثر ممـا عنـدهم، خرجوا من عنـد رسول اللـه ﷺ وهو أحب الخلـق إليهم، وأعزه عندهم.

قـال عبـد الرحمن بن أبي عقيل الثقفي : انطلقت في وفـد إلى رسـول الله ﷺ، فأتيناه فأنخنا بالباب، وما في الناس رجل أبغض إلينـا من رجل نلج عليه، فلما دخلنـا وخرجنـا، فمـا في النـاس رجل أحب إلينـا من رجل دخلنـا عليـه، فقـال قـائل : يـا رسول اللـه، ألا سـألت ربـك ملكا كملـك سليمان، قال : فضحك رسول الله ﷺ، ثم قال : فلعل صاحبك أفضل عنـد اللـه من ملـك سليمـان، إن اللـه عز وجل، لم يبعث نبيـا إلا أعطـاه دعوة،

---

27) زاد المعاد. 507/3.

فمنهم من اتخذها دينا فأعطيها، ومنهم من دعا بها على قومه، إذ عصوه فأهلكوا بها، وإن الله أعطاني دعوة، فاختبأتها عند ربي شفاعة لأمتي يوم القيامة[28].

فبقيت هذه القلعة الحصينة مؤمنة كأشد ما يكون الإيمان، مدافعة عن رسالة النبي بشجاعتها المعهودة وبطولاتها المشهورة، وبقيت مدى الدهر كلمة المغيرة بن شعبة فيهم : فدخلوا في الإسلام، فلا أعلم قوما من العرب بني أب، ولا قبيلة، كانوا أصح إسلاما، ولا أبعد أن يوجد فيهم غش لله ولكتابه منهم[29]، وعندما أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالحج بعد أشهر قليلة من إسلام أهل الطائف، لم يبق أحد منهم إلا حضر حجة الوداع مع رسول الله ﷺ[30].

وبهذا،يتبين لك أيها المتأمل المنصف مدى التهافت ومجانبة الصواب الذي يقع فيه نفر من الكتاب حين يحللون السيرة النبوية بعيدا عن سياقها وروحها، ويتخيلون أشياء هي من صنع وساوسهم وأذهانهم وليس لها أي وجود في الواقع، وهم بهذا، يزيفون التاريخ، ويشوهون حقائق الإسلام، ومن ذلك ما قاله هيكل في كتابه «حياة محمد» :[31] ولئن كان المسلمون الذين صحبوا محمدا في مسيره إلى الشام، وكابدوا من خوف المشاق، واحتملوا من القيظ والظمأ أهوالا، قد عادوا وفي نفوسهم شيء من السخط إذ لم يقاتلوا

---

28) أخرجه يعقوب الفسوي في تاريخه 288/1، والبيهقي كما في البداية لابن كثير 85/5.

29) طبقات ابن سعد : 314/1.

30) انظر الإصابة 9/1.

31) ص : 265 ط 9.

ولم يغنموا[32] بسبب انسحاب الروم إلى داخل الشام ليتحصنوا بمعاقلهم فيها، لقد ترك هذا الانسحاب في نفوس قبائل العرب المختلفة بكيانها وبدينها أثرا عميقاً، وترك في نفوس قبائل الجنوب باليمن وحضرموت وعمان أثراً أشد عمقا؛ أليس الروم هؤلاء هم الذين غلبوا الفرس واستردوا منهم الصليب، وجاءوا به إلى بيت المقدس في حفل عظيم، وفارس كانت صاحبة السلطان على اليمن وعلى البلاد المجاورة لها أزمانا طويلة، فإذا كان المسلمون على مقربة من اليمن ومن غيرها من البلاد العربية جمعاء، فما أجدر هذه البلاد بأن تتضامّ كلها في تلك الوحدة التي تستظل بعلم محمد، علم الإسلام لتكون بمنجاة من تحكم الروم والفرس جميعا !(33) وماذا يضرّ أمراء القبائل والبلاد أن يفعلوا وهم يرون محمدا يثبت من جاءه معلنا الإسلام والطاعة في إمارته على قبيلته ؟!(34).

وأمثال هذا الكلام عند آخرين نزعوا هذا المنزع الذي هو إلى شطحات الخيال وسجحات الأدب أقرب منه إلى حقائق التاريخ وروح الإسلام[35]، وحقائق السيرة النبوية العطرة التي حررت الإنسان !!! ليكون عبدا لله وحده.

32) لا أدري أين وجد ما عبروا به عن سخطهم ؟! ولعل ذلك في مخيلة الكاتب عفا الله عنه !! بل ربحوا وكسبوا دون حرب بصلحهم لعديد من القبائل في تلك الربوع وانظر أحداث تبوك تر ذلك.

33) مدلول هذا النص أن العرب جعلوا من الإسلام درعا تجاه الفرس والروم وليس دينا ينشرونه في الفرس والروم والعالمين، فهل هذا صحيح أيها المنصف ؟!

34) فهم إذا لم يدخلوا في الدين عن رغبة فيه، بل اتقاءً لشره..

35) وفي هذا الكتاب زلات كبيرة عرضنا لخطوط منها في كتابنا مصادر السيرة النبوية وتقويمها، فانظره.

6 ـ وفد نجران، وبداية العلاقات الإسلامية المسيحية :

ونجران مخلف من مخاليف اليمن، واسم للقرية الجامعة فيه، دخل أهلها النصرانية قبل الإسلام في خبر ذكره ابن اسحق وغيره من أصحاب التاريخ القديم، وقد قيل إن سبب دخولهم في النصرانية ما أشارت إليه الآيات القرآنية في سورة البروج : ﴿**قتل أصحاب الأخدود، النار ذات الوقود، إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود...**﴾ ولم يأت ذلك صريحا في الكتب الستة أنهم أهل نجران، وجاء في غيرها عند ابن اسحق وغيره(36).

وكان فيها كعبة عظيمة بناها بنو عبد المدان بن الديان الحارثي، على بناء الكعبة وعظموها مضاهاة للكعبة وسموها (كعبة نجران)، وكان لها سدنة وأساقفة، ولأهل نجران عموما قبيل الإسلام مجد وسيادة في ربوع اليمن وجنوب الجزيرة العربية وقد تغنى الشعراء قبل الإسلام بكعبة نجران وبمجد أهلها(37).

قال ابن إسحاق : وقدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلا منهم أو قريب من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد فكلموه وجلسوا إليه وسألوه، ورجال قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عما أرادوا دعاهم رسول الله ﷺ وتلا عليهم القرآن فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم

36) انظر تفسير ابن كثير (سورة البروج).

37) انظر معجم البلدان 268/5.

من أمره، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش فقال لهم : خيبكم الله من ركب بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوا بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال، ما نعلم ركباً أحمق منكم، فقالوا لهم : سلام عليكم لا نجاهلم لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه لم نأل من أنفسنا خيرا.

ويقال : إن النفر من النصارى من أهل نجران، وفيهم نزلت الآيات **﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون، وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به أنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين، أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون، وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾** سورة القصص 52 ـ 55.

وعند ابن إسحاق : ان لهم وفادة ثانية إلى رسول الله ﷺ في المدينة المنورة بعد الهجرة قال ابن إسحاق : وكانوا ستين راكباً فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم، وفي الأربعة عشر ثلاثة يؤول إليهم أمرهم وهم العاقب أمير القوم وذو رأيهم وصاحب شؤونهم والذي لا يصدرون إلا عن رأيه، واسمه (عبد المسيح)، والسيد ثمالهم[38] وصاحب رحلهم ومجتمعهم، واسمه (الأيهم)، (وأبو حارثة بن علقمة) أحد بني بكر بن وائل، أسقفهم وحبرهم وامامهم وصاحب مدراسهم، وكان أبو حارثة قد شرف فيهم ودرس كتبهم حتى حسن علمه في دينهم، فكانت ملوك الروم أهل النصرانية قد شرفوه

---

38) ثمالهم : أي مرجعهم.

ومولوه وأخدموه وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات ما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم، فلما وجهوا إلى رسول الله ﷺ من نجران، جلس أبو حارثة على بغلة له موجها إلى رسول الله ﷺ وإلى جانبه أخ له يقال له : كوز بن علقمة، فعثرت بغلة أبي حارثة، فقال كوز : تعس الأبعد يريد رسول الله ﷺ، فقال أبو حارثة : بل أنت تعست قال : ولم يأ أخي ؟ قال : والله إنه للنبي الذي كنا ننتظر، فقال له كوز : وما يمنعك منه وأنت تعلم هذا ؟ قال : ما صنع بنا هؤلاء القوم شرفونا ومولونا وأكرمونا وقد أبو الا خلافه، فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى، فاضمر عليها منه أخوه كوز بن علقمة حتى أسلم بعد ذلك، فكان يحدث عنه هذا الحديث فيما بلغني.

وكانوا لما قدموا على رسول الله ﷺ المدينة فدخلوا عليه في مسجده حين صلاة العصر وعليهم ثياب الحبرات، وجبب وأردية في جمال رجال بني الحارث بن كعب يقول بعض من رآهم من أصحاب النبي ﷺ يومئذ : ما رأينا وفداً مثلهم، فحانت صلاتهم، فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ يصلّون، فقال رسول الله ﷺ : دعوهم، فصلوا إلى المشرق.

فكلّم رسول الله ﷺ منهم : أبو حارثة بن علقمة والعاقب عبد المسيح، والأيهم السيد، وهم من النصرانية على دين الملك مع اختلاف في أمرهم يقولون : هو الله، ويقولون هو ولد الله، ويقولون هو ثالث ثلاثة.

فلما كلمه الحبران قال لهما : اسلما، قالا : قد أسلمنا، قال : أنكما لم تسلما، قالا : بلى قد أسلمنا قبلك، قال : كذبتما يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولدا وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير، قالا : فمن أبوه يا محمد ؟

فصمت عنهما رسول الله ﷺ فلم يجبهما فنزل في ذلك قوله تعالى، مبينا هذه القضية في صدر سورة مريم إلى بضع وثمانين آية منها، وفيها بيان حقيقة عيسى ودحض لافتراءاتهم وأقوالهم وتعريتها من الباطل، ونزل في هذه الآيات قوله تعالى : ﴿**فمن حاجك فيه من بعدما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين، إن هذا لهو القصص الحق، وما من إله إلا الله، وإن الله لهو العزيز الحكيم**﴾ آل عمران 61 ـ 62.

فطلب رسول الله ﷺ منهم المباهلة ـ وهي الدعاء باللعنة على الكاذب، فقالوا : يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه.

فانصرفوا عنه ثم خلوا بالعاقب، وكان ذا رأيهم فقالوا : ياعبد المسيح ما ترى ؟ قال : والله يا معشر النصارى لقد علمتم أن محمدا نبي مرسل، ولقد جاءكم من خبر صاحبكم بالحق، ولقد علمتم ما لا عن قوم نبيا قط فبقي كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، وأنه للاستئصال منكم أن فعلتم، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم[39].

---

39) قال الحافظ في الفتح 95/8 : وفيها ـ أي في قصة أهل نجران ـ مشروعية مباهلة المخالف إذا أصرّ بعد ظهور الحجة، وقد دعا ابن عباس إلى ذلك، ثم الأوزاعي، ووقع ذلك لجماعة من العلماء.

وبما عرف بالتجربة أن من باهل وكان مبطلا لا تمضي عليه سنة من يوم المباهلة.

فاتوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا أبا القاسم قد رأينا أن لا نلاعنك وأن نتركك على دينك ونرجع إلى ديننا، ولكن أبعث معنا رجلا من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا، فأنكم عندنا رضى.

فقال لهم رسول الله ﷺ : أئتوني العشية ابعث معكم القوي الأمين.

فكان عمر رضي الله عنه يقول : ما أحببت الامارة قط حبّي إياها يومئذ رجاء أن أكون صاحبها فرحت إلى الظهر مهجِّراً فلما صلى بنا رسول الله ﷺ الظهر سلم ثم نظر عن يمينه ويساره فجعلت أتطاول له ليراني، فلم يزل يلتمس ببصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح فدعاه فقال : اخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه، قال عمر : فذهب أبو عبيدة(40).

ويبدو لي والله أعلم أن وفادة أهل نجران تكررت إلى المدينة المنورة كما يظهر ذلك من خلال النصوص ومن المعروف أنهم قدموا إلى رسول الله ﷺ وصالحوه وكتبوا بذلك كتابا يحدد فيه الجزية وقد روى الحاكم النيسابوري عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس عن بكير عن سلمة بن عبد يوشع عن أبيه عن جده - وكان نصرانيا فأسلم - قال : كتب رسول الله ﷺ إلى أهل نجران :

(باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، أما بعد، فأني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد. فإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب والسلام)(41).

---

40) أخرج هذه القصة ابن إسحاق انظر ابن هشام 204/2 وما بعدها، وابن جرير وابن المنذر وآخرون وقصة ذهاب أبي عبيدة معهم هي في الصحاح وغيرها.

41) انظر دلائل النبوة للبيهقي 385/5.

فلما أتى الأسقف الكتاب فقرأه فقطع به وذعره ذعرا شديدا فبعث إلى رجل من أهل نجران يقال له : شرحبيل بن وداعة وكان من همدان ولم يكن أحد يدعى إلى معضلة قبله لا الأيهم ولا السيد ولا العاقب فدفع الأسقف كتاب رسول الله ﷺ فقرأه فقال : يا أبا مريم ما رأيك ؟ فقال شرحبيل : قد علمت ما وعد الله إبراهيم في ذرية إسماعيل من النبوة فما يؤمن أن يكون هذا هو ذلك الرجل، ليس لي في النبوة رأي، لو كان من أمر الدنيا أشرت عليك فيه برأي وجهدت لك فيه، فقال الأسقف : تنح فاجلس، فتنحى شرحبيل فجلس ناحية فبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران يقال له : عبد الله بن شرحبيل وهو من ذي أصبح من حمير، فاقرأه الكتاب وسأله عن الرأي فيه فقال له مثل قول شرحبيل فقال له الأسقف تنح فاجلس فجلس فتنحى ناحية فبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران يقال له : جبار بن فيض من بني الحارث، فأقرأه الكتاب وسأله عن الرأي، فقال له مثل مقالة شرحبيل وعبد الله فأمر الأسقف بالناقوس فضرب به ورفعت المسوح في الصوامع وكذلك كانوا يفعلون إذا فزعوا بالنهار، وإذا كان فزعهم بالليل ضرب الناقوس ورفعت النيران في الصوامع، فاجتمع حين ضرب بالناقوس ورفعت المسوح أهل الوادي أعلاه وأسفله بطول الوادي مسيرة يوم للراكب السريع، وفيه ثلاثة وسبعون قرية، وعشرون ومائة ألف مقاتل، فقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ وسألهم عن الرأي فيه، فاجتمع رأي أهل الوادي منهم على أن يبعثوا شرحبيل بن وداعة الهمداني، وعبد الله بن شرحبيل، وجبار بن فيض الحارثي فيأتونهم بخبر رسول الله ﷺ، فانطلق الوفد حتى إذا كانوا بالمدينة وضعوا ثياب السفر عنهم ولبسوا حللا لهم يجرونها من الحبرة وخواتيم الذهب ثم انطلقوا حتى أتوا رسول الله ﷺ،

فسلموا عليه فلم يرد عليهم السلام، وتصدوا لكلامه نهارا طويلا فلم يكلمهم وعليهم تلك الحلل والخواتيم، فانطلقوا يتبعون عثمان بن عفان رضي الله عنه، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وكانا معرفة لهم كانا يخرجان العير في الجاهلية إلى نجران، فيشتري لهما من برها وثمرها وذرتها فوجدوهما في ناس من الأنصار والمهاجرين في مجلس عثمان فقالوا : يا عثمان ويا عبد الرحمن بن عوف إن نبيكم كتب إلينا كتابا فأقبلنا مجيبين له فأتيناه فسلمنا عليه فلم يرد سلامنا، وتصدينا لكلامه نهارا طويلا فأعيانا أن يكلمنا فما الرأي منكما ؟ أنعود ؟ فقالا لعلي بن أبي طالب وهو في القوم، ما ترى يا أبا الحسن رضي الله عنك في هؤلاء القوم ؟ فقال علي رضي الله عنه لعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما : أرى أن يضعوا حللهم هذه وخواتيمهم، ويلبسون ثياب سفرهم، ثم يأتون إليه ففعل الوفد ذلك فوضعوا حللهم وخواتيمهم، ثم عادوا إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه فرد سلامهم ثم سألهم وسألوه، فلم تزل به وبهم المسألة حتى قالوا، ما تقول في عيسى فأنا نرجع إلى قومنا ونحن نصارى فيسرنا أن كنت نبيا أن تعلم ما تقول فيه ؟ فقال رسول الله ﷺ ما عندي فيه شيء يومي هذا فأقيموا حتى أخبركم بما يقال لي في عيسى عليه السلام فأصبح الغد وقد نزل قول الله عز وجل : ﴿**إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون، الحق من ربك فلا تكن من الممترين فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين**﴾ آل عمران 60 ـ 61.

فأبوا أن يقروا بذلك فلما أصبح رسول الله ﷺ الغد بعد ما أخبرهم الخبر أقبل مشتملا على الحسن والحسين رضي الله عنهما في خميل له، وفاطمة تمشي عند ظهره للمباهلة، وله يومئذ عدة نسوة.

فقال شرحبيل لصاحبيه : يا عبد الله بن شرحبيل، ويا جبار بن فيض قد علمتما أن الوادي إذا اجتمع أعلاه وأسفله لم يردوا ولم يصدروا إلا عن رأيي وأني والله أرى أمرا مقبلا وأرى والله إن كان هذا الرجل ملكا مبعوثا فكنا أول العرب طعن في عينه ورد عليه أمره لا يذهب لنا من صدره ولا صدور قومه حتى يصيبونا بجائحة، وأني لأرى القربى منهم جوارا وإن كان هذا الرجل نبيا مرسلا فلا عناه فلا يبقى على وجه الأرض شعرة منا ولا ظفر إلا هلك، فقال له صاحباه : فما الرأي ؟ فقد وضعتك الأمور على ذراع فهات رأيك ؟ فقال : رأيي أن أحكمه، فأني أرى رجلا لا يحكم شططا أبدا، فقالا له : أنت وذاك، فلقي شرحبيل رسول الله ﷺ فقال : أني رأيت خيرا من ملاعنتك فقال : وما هو ؟ قال شرحبيل : أحكمك اليوم إلى الليل وليلته إلى الصباح، فمهما حكمت فينا فهو جائز فقال رسول الله ﷺ : لعل وراءك أحدا يثّرب عليك ؟ فقال له شرحبيل : سل صاحبي فسألهما فقالا : ما يرد الوادي ولا يصدر إلا عن رأي شرحبيل، فقال رسول الله ﷺ، كافر أو قال : جاحد موفق، فرجع رسول الله ﷺ ولم يلاعنهم حتى إذا كان من الغد أتوه فكتب لهم في الكتاب :

(بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما كتب محمد النبي رسول الله لنجران إذ كان عليهم حكمه في كل ثمرة وفي كل صفراء وبيضاء وسوداء ورقيق،

فأفضل عليهم وترك ذلك كله على ألفي حلة، في كل رجب ألف حلـة، وفي كل صفر ألف حلـة، وكل حلـة أوقيـة مـا زادت على الخراج أو نقصت على الأواقي فبحساب، ومـا قضـوا من دروع أو خيـل أو ركاب أو عرض أخـذ منهم بحساب وعلى نجران مثـواة رسلي، ومتعتهم بهـا، عشرين فـدونـه ولا يحبس رسول فوق شهر وعليهم عاريـة ثلاثين درعـا وثلاثين فرسـا، وثلاثين بعيرا إذا كان كيد باليمن ومَغْدرة وما هلـك ممـا أعـاروا رسولي من دروع أو خيل أو ركاب فهـو ضمان على رسـولي حتى يـؤديـه إليهم ولنجران وحسبهـا جـوار اللـه وذمـة محمـد النبي على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأمـوالهم، وغـائبهم وشاهـدهم وعشيرتهم وتبعهم وأن لا يغيروا ممـا كانوا عليـه، ولا يغير حق من حقوقهم ولا ملتهم، ولا يغير أسقفٌ من أسقفيته ولا راهب من رهبانيـة ولا وافه[42] وفهيتّه وكل مـا تحت أيـديهم من قليل أو كثير وليس عليهم ريبـة ولا دم جاهلية ولا يحشرون ولا يعشرون ولا يطأ أرضهم جيش، ومن سأل منهم حقـا فبينهم النصف غير ظـالمين ولا مظلـومين ومن أكل ربـا من ذي قبل فذمتي منه بريئـة، ولا يؤخـذ رجل منهم بظلم آخر وعلى مـا في هـذه الصحيفة جوار الله وذمـة محمـد النبي رسول اللـه حتى يـاتي اللـه بـأمره مـا نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير منقلبين بظلم.

شهـد أبـو سفيـان وغيـلان بن عمرو، ومـالـك بن عـوف، والأقرع بن حابس الحنظلي، والمغيرة بن شعبة وكتب)[43].

---

42) الوافه هو القيم على البيت الذي فيه صليب النصارى.

43) انظر نص الكتاب في الأموال لأبي عبيد ص 245 وفيه : شهد بذلك عثمان بن عفان وكتب معيقيب.

حتى إذا قضوا كتابهم انصرفوا إلى نجران فتلقاهم الأسقف ووجوه نجران على مسيرة ليلة ومع الأسقف أخ له من أمه، وهو ابن عمه من النسب يقال له بشر بن معاوية وكنيته أبو علقمة، فدفع الوفد كتاب رسول الله ﷺ إلى الأسقف فبينا هو يقرؤه وأبو علقمة معه وهما يسيران إذ كبت ببشر ناقته فتعس بشر غير أنه لا يكنى عن رسول الله ﷺ فقال له الأسقف عند ذلك : قد تعست والله نبيا مرسلا، فقال بشر لا جرم والله لا أحل عنها عقدا حتى آتيه، فضرب وجه ناقته نحو المدينة وثنى الأسقف ناقته عليه فقال له : أفهم عني، إنما قلت هذا لتبلغ عني العرب مخافة أن يقولوا : إنا أخذنا حمقة أو نجعنا بهذا الرجل بما لم تنجع به العرب ونحن أعزهم وأجمعهم دارا فقال له بشر : لا والله أقيلك ما خرج من رأسك أبدا فضرب بشر ناقته وهو مولٍ ظهره للأسقف وهو يقول :

إليك تعدو قلقا وضينها معترضا في بطنها جنينها
مخالفا دين النصارى دينها

حتى أتى النبي ﷺ ولم يزل مع النبي ﷺ فحسن إسلامه[44].

قلت : وهذا النص يؤكد أن قدوم وفد نجران هذا إنما كان بعد الفتح وذلك في الوقت الذي أرسل فيه رسائل للتجمعات العقائدية المحيطة بالجزيرة في داخلها.

---

44) انظر زاد المعاد 40/3. والوضين : بطان يشد به الرحل على البعير، ويكنى بهذا البيت عن هزال الراحلة لطول السفر وقد تمثل به رسول الله ﷺ حين أفاض من عرفات.

وقد روى البيهقي بإسناد صحيح إلى ابن مسعود أن السيد والعاقب اتيا رسول الله ﷺ فأرادا أن يلاعنها فقال أحدهما لصاحبه، لا تلاعنه فوالله إن كان نبيا فلاعنته لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا قالوا له : يعطيك ما سألت فابعث معنا رجلا أمينا ولا تبعث معنا إلا أمينا، فقال رسول الله ﷺ : لأبعثن معكم رجلا أمينا حق أمين فاستشرف لها أصحابه فقال : قم يا أبا عبيدة بن الجراح فلما قام قال : هذا أمين هذه الأمة، وجاء بعضه في الصحيحين من طرق[45]. وقد أرسل رسول الله ﷺ في آخر حياته عليا إلى اليمن وإلى نجران وجاءه في حجة الوداع يسوق هديه كما جاء ذلك في الصحيح.

واستمروا في بلادهم وعلى شرطهم بقية حياة رسول الله ﷺ، وخلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكانوا قد أتوه فوفى لهم بعهدهم وكتب لهم كتابا نحوا من كتاب رسول الله ﷺ فلما ولي عمر بن الخطاب أصابوا الربا في زمانه، فاجلاهم وكتب لهم : (أما بعد فمن وقعوا به من أمراء الشام أو العراق فليوسعهم من خريب الأرض، وما اعتملوا من شيء فهولهم لوجه الله، وعقبى من أرضهم) فاتوا العراق، فاتوا النجرانية وهي قرية بالكوفة[46].

---

45) انظر البخاري مع الفتح 93/8 وهو من رواية حذيفة، وانظر دلائل النبوة للبيهقي 392/5.

46) انظر الأموال لأبي عبيد ص 245.

وقد كان شأن عمر بن الخطاب في هذا الأمر أن رسول الله ﷺ أوصى وهو يجود بنفسه الشريفة (أن لا يبقى في جزيرة العرب دينان) وكان منهم أن خالفوا نص العهد المكتوب فأكلوا لربا، فأجلاهم عمر جراء ما جنت أيديهم).

يتبع

د. فاروق حمادة

حوار الشّجرة

للشاعر والمفكر الفرنسي: بول فاليري
ترجمة: مصطفى القصري

تقديم

هذا الحوار تحت الشجرة قد يفسده التعليق عليه. فكلا المتحاورين يعرب عن أفكاره ومذهبه في الحياة ووجدانه وشكه ويقينه وضلاله وهداه وإحساساته وخلجات ضميره بالبلاغة التي أوتيها، أو بعبارة أوضح بالبلاغة التي أطلقها على لسانه بول فاليري الذي نترجم له اليوم هذا الحوار محاولين جهد المستطاع أن نضفي عليه الطابع العربي، ونلبسه البردة والعمامة والخف، ونقلده سيفاً صقلته لغة الضاد، ونركبه جوادا عربيا يتفسح به في حلباتها الواسعة الارجاء.

وقد خطر ببالنا ونحن نترجم «حوار الشجرة» أن أصدق قول عن الشجرة هو ما ذكره تعالى في كتابه الكريم :

شجرة آدم وحواء اللذين بدت لهما سوآتهما عندما أكلا منها فطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، تلك الشجرة التي قال الشيطان لآدم فيها : «هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟» والشجر الأخضر الذي جعل الله لنا منه نارا نوقد به، وشجرة الزيتون التي يوقد منها الكوكب الدري، هذه الشجرة المباركة التي يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار. وكل ما في الأرض من شجرة لو صنعت منها الأقلام وكتبت بها كلمات الله لما نفدت كلماته ولو كان البحر مداداً يمده من بعده سبعة أبحر.

وأخيرا وبالخصوص تلك الشجرة التي ضرب الله بها المثل للناس ليميزوا بفضلها خبيث الكلم من طيبه والتي لو كان اطلع فاليري على نصها القرآني (لقد كان يجهل العربية، وقد لا يكون اطلع على ترجمة معاني القرآن كلها) لما تردد في تصدير حواره بها وتتويج جبين قوله بتاجها : ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء توتي أكلها كل حين بإذن ربها. ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون. ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار. يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ويضل الله الظالمين، ويفعل الله ما يشاء﴾. ومن القول الثابت، الشعر الصادق، هذا النبراس الذي ينير طريق الإنسان الغارق وسط غياهب ظلمات الكون الغارق بنفسه في الظلمات.

م - ق

لوكريس : ماذا تصنع هنا ياتيتير، يا عاشق الظل، ناشدا راحتك تحت شجرة الزان هذه، مسرّحا ببصرك في مسارح الهواء الذي نسجته الأوراق ؟

تيتير : أحي، أنتظر، نايي بين أصابعي مهيأ للنشيد، وأنا أهيّء نفسي لأصبح شبيها بهذه اللحظة الرائعة. أُريد أن أكون أداة للسعادة وهي تعم الكائنات. وها أنذا أتخلى للأرض عن ثقل ذاتي كله. عيناي تسبحان في كتلة النور المرتعش بأعالي الأجواء. انظرْ إلى الشجرة كيف تستمتع فوقنا بذلك اللظى المقدس الذي تحميني من وهجه. كيانها المليئ بالنزوات - كيان من جوهر الأنثى - يناشدني بأن أتغزل فيه وأشيد باسمه بإضفاء صورة موسيقية على النسيم الذي يتخلله، وبلطف وأناة يدغدغه. أنا في انتظار روحي. وللانتظار قيمة رفيعة يالوكريس. سأشعر بمجيء الفعل المجرد صادراً

عن شفتيّ، وسيرتعش كل مـالا أزال أجهلـه عن نفسي التي تيمتهـا شجرة الزان. أليس من المعجز الرائع يـا لوكريس أن يتمكن راع من الرعـاة سهـا عن قطيعـه من سكب تلـك الصورة الواهيـة الواهنـة إلى السماوات، صـورة مـا يشبـه من الشجرة ومن اللحظة مثالهما المجرد.

لوكريس : ليس هناك معجزة ولا روعـة. إنـه يستحيل على الفكر ـ إذا فقـد العـزم ـ أن يقلص الشجرة إلى حجم رمـزه البرئ. أنـا أتصور شجرتك وأمتلكها على الشكل الذي أراه أنا.

تيتير : ولكنك تتباهى بأنك تـدرك معـاني الأشيـاء، وتحلم بخصوص هذا الزان أنك تعلم عنه أكثر مما يعلمه هو عن نفسه لو أن له فكرا يعتقد بفضله أنه يعرف نفسه ويدرك حقيقته. أما أنا، فـلا أريـد أن أتعرف إلا على لحظـاتي السعيـدة. روحي في يومي هـذا تلخص نفسهـا في صورة شجرة، وكنت في أمسي أتصورها عينا جارية، فماذا عن غدي ؟ هل أرتفع في غـدي متصاعدا مع بخور معبد من المعابـد، أم عسـاي أمكث محلقـا فوق السهول ونفسي طـافحـة بـالشعـور بقـوة النسـور وهي تحرك بتؤدة أجنحتها ؟

لوكريس : لستَ إذن سوى تحوّل مستمر.

تيتير : أنت بذلك أدرى. إني أترك لك الغوص في الأعماق. وبمـا أن هـذا الحجم الضخم من الظل الظليل يجـذبـك إليـه كجزيرة عليلـة النسيم تحت وهـج هـذا اليـوم، فتعـال نقف ونقطف اللحظة. لنقتسم هذه النعمة ولنتبادل معرفتك لهـذه الشجرة

مشفوعة بـالحب والحمـد اللـذين تلهمهما إيـاي. أيتهـا الشجرة السـامقـة، تيّمني جمـالـك، وشغفتني أعضـاؤك. فلا زهرة ولا امرأة أطرب لها مثل مـا أطرب لـك أيتهـا الكائنـة العظيمـة ذات الأذرع المتضـاعفـات. لا زهرة ولا امرأة تستخرج من قلبي ـ مثل ما تفعلين ـ هـذا الجنون الممتزج بـالحنـان. إنـك تعلمين يا شجرتي أنني أصلك عند لحظة الفجر لأقبّلك فيهـا. شفتاي تقبلان قشرتك المرة ولحـاءك الأملس، فـأشعر بنفسي أنني ابن نفس الأرض، ابن أرضنا نحن الإثنين. أعلق حزامي وجرابي على أقرب غصن من أغصانـك. ومن ظلالـك الملتفـة يرفرف فجأة طائر كبير، يرفرف بجناحيـه ويفر أمـامي من بين أوراقـك فـزِعـاً مفـزعـاً. ولكن السنجـاب الجريء ينزل ويسرع نحوي ليتعرف عليّ، وأشهـد ميـلاد الفجر في حنـان. كل شيء حينئذ يعلن عن نفسه ويكشف عن ذاتـه لأن نـار اليوم الجديـد تستنهضـه للإفـاقـة من نومـه. والنسيم المستهل يهب على هذه الدوحـة التي يضع بهـا عينـا جـاريـة وأنصت فيها إلى الهواء المنعش، بل أنصت إليك أيتهـا الـدوحـة. أيهـا الحديث المختلط، أيها الحديث الهائج الأهوج، أريـد أن أمزج جميع أصواتك مزجـا. فئـات الورقـات، بل آلاف الورقـات تتحرك لتصنـع مـا يهمس بـه الحـالم إلى قـوى الرؤيـا. إنني أحيّيك أيتها الشجرة وأتحدث إليك بنواياي. إنك تعلمين كل شيء عن حقيقتي وعن آمـالي الريفيـة، تعرفين كل شيء عني وتعلمين ما يزعج حياة بسيطة كحيـاتي من مزعجـات الفِكَر

البريئة، حياة أقرب ما تكون من حياتك أيتها الدوحة. أنظر من حولي لأرى هل نحن حقا وحدنا وأسر إليك بمن أنا. فأحيانا أعترف لك بأنني أبغض الإلهة جالاتيا(☆). وأحيانا أستعرض ذكرى من الذكريات فأهذي هذيانا وأتهمك أنك الذكرى ذاتها. وأخرج عن طوري خروجا يريد فقط أن يزوّر الأمور تزويراً ويمسك بمخالبه على شيء آخر غير الحلم، على شيء يحيا ويعيش بعد أن يلتحق بالحلم التحاقاً. ولكنني في بعض الأحايين أصنع منك إلها فأقيم يا شجرة معبودة في محرابك صلواتي. ولم لا أصلي لك ؟ فأريافنا ملأى بآلهة ما أسخف أكثرها ! أما أنت فحينما تهدأ الريح، وحينما ترهق عظمة الشمس المطمئنة بنارها كل ما هو موجود في الفضاء والأرجاء وتشمله بنورها، فإنك تحملين فوق أعضائك المترامية المتخالفة وعلى أوراقك التي لا تحصى ثقل وهج الضحى الغامض. والزمن النائم بين أحضانك لا يمتد إلا بفضل الضجيج المزعج الذي يحدثه فيك جمهور الحشرات. إذ ذاك أتصورك معبدا من المعابد، ولا يوجد ألم أو فرح إلا وأكون قد قدمته قربانا لبساطتك الرائعة.

لوكريس : يا للبراعة ! إن الطرب يأخذك أخذا. إني أنصت إليك معجبا بقولك.

تيتير : لا، لن تعرف حقيقة الأمر. إنك تبتسم ضاحكا من شجرتي ولا تحلم في الواقع إلا بشجرتك. ليس الناي الذي تمسكه أناملي سوى لعبة تلهو بها أصابع النسيم حينما يطبع النسيم

☆) من العرائس البحرية الأسطورية. ذات جسم بض كانت تحب الراعي الصقلي آسيس وتفضله على الوحش المفرد العين الذي كان يحاول مغازلتها.

نفسه على شفاه الهالكين فيحدث في اللحظة تجعيدا يخددها وفي السمع لهوا يلهيه. ولكن هذا الناي، ماذا عساه يكون في نظر الروح القوية العميقة ؟ إنه ليس أكثر من عطر لا يكاد يشمّ أريجه. إن صوتي لا يتتبع سوى أثر ظل فكرة من الأفكار. أما في عينك أنت يا لوكريس العظيم وفي عين ظمئك المكنون، فإنه يعني الكلِمَ حين يتغنى الكلِمُ وينشد النشيد. إن الكلم يتيه في متاهات الحقيقة التي ينشدها. حقا، إني أدرك قيمة ما تلقنني الشجرة إياه : إنها تحدثني بما تريد أن أريد أن أشعر به من إحساس. إنني أحول ما أحب إلى ثوان من الزمن أنعم بها وأكتفي بأن أترك للهواء ما أتاني به من السماء. سر على بركة الله، فإنني أجدني من البساطة بما لا آمل معه أن تستنفد متعتي شيئا آخر غيري. أما أنت فإنك كلك أمل تعقده وجبينك مثقل بالظلال التي تكونها في نفسك طمعا في هبوب صاعقة تضرب الآلهة، وعيناك المغمضتان تبحثان في نفسك عن شخص ما هو كائن. إن عقلك لا يعنيه ما يلوح جليا تحت ضوء النهار، كما لا يعنيك ما تهمسه شجرتنا للنسيم العليل، ولا رعشة القمة الملموسة بلطف، ولا التردد الواسع العريض الذي تحدثه الأغصان ويحدثه كل جمهورها المجنح المزقزق اللامبالي. إنك تريد الوصول إلى جوهر الأشياء.

لوكريس : ليست هذه الشجرة سوى وليدة خيالك الأحمق المبدع. إنك تظن أنك تحبها بينما لا ترى فيها أزيد من نزوتك الجميلة

التي تكسوها بالأوراق. إنك لا تحب إلا نشيدك الذي تنشده. وفي الواقع، هكذا أحبك أن تكون : تأخذ من الزان الفاخر في أبهته ما يمكن أن ترفع به عقيرتك بالغناء، تأخذ تقلبات هيأته وطيوره الرنانة وظله الذي يستقبلك في كبد النهار المتوهج، ثم تشيد بمحاسن هذا العملاق على نغم نايك الرقيق، تلهمك في ذلك عرائس الشعر إلهاما.

تيتير : فلتغنّ أنت، ولتُملِ نشيدك على الطبيعة والأرض، وعلى الشلال والصخر والبحر. اكسُ الموج شرائع وقوانين، والزهر أشكالا وألوانا، فكِّرْ عوض الكون أيها الوحش المحروم من الرأس، الذي يبحث لنفسه في الإنسان عن حلم عقلي؛ ولكن لا تحتقر الكائن البسيط الذي ينصت إليك. افتح له كنوز ظلمات الحقيقة. فماذا عساك تعلم عن الزان أكثر مما نعلمه نحن ؟

لوكريس : عليك أولا بالتحديق جيدا في هذه القوات الخاصة وفي العود المتين لهذه الأعضاء المتمددة. لقد ملأت الحياة هذه المادة بما يجعلها قادرة على تحمل رياح الشمال وعلى الوقوف صامدة أمام صدمة الإعصار. ماء الأرض الكثيفة المطبوعة بروح الأمومة، هذا الماء المستخرج عبر الأحقاب من الأعماق هو الذي أظهر للعيان هذه المادة المتينة الجوهر.

تيتير : إن لها متانة الصخر وقابلية النحت فيه.

لوكريس : وهي تنتهي بأغصان تنتهي بالأوراق، وستبعث ثمراتها الحياة بعد أن ترسلها لواقحُ الرياح.

تيتير : لقد أدركت ما أنت قائله.

لوكريس : أنا أبصرُ في هذا الكائن العظيم صورة نهر من الأنهر.

تيتير : صورة نهر ؟

لوكريس : صورة نهر مليئ بالحياة حافل بالنشاط. عيونه تغرق في كتلة الأرض الغامضة مسالك ظمئها الذي لا يسبر غوره. إنه تنين خرافي يصارع الصخر وينمو وينقسم على نفسه ليضم الصخر إلى درجة الخنق. إنه يرق ثم يرق ثم يرق، ويحركه العنصر الرطب ويبعثر شعره لشرب أقل جرعة من الماء الذي يطبع ليلا كثيفا امّحت في أحضانه كل الأشياء التي عاشت قبل امّحائها. ولا وجود لأي وحش بحري كريه أكثر جشعا وأقوى تضاعفا من هذه الخصلة من الجذور العشواء المتأكدة من السير قدما نحو أحشاء الأرض وأخلاطها. ولكن هذا التقدم يسير منتصراً مستظهرا لايقاوم، يسير ببطء يجعله مصيرا محتوما كالزمن نفسه. إن عمل الشجرة هذا يدرج قوات إرادية أرضية عبر مملكة الموتى والجرد والديدان والهوام.

تيتير : ما أعجب ما تحكيه يالوكريس ! ولكن أتريد أن أقول لك ماذا أحلم وفي أي شيء أفكر : تذكرني شجرتك الخاتلة التي تنساب في الظلام مادتها النشيطة في صورة مئات من الخيوط والشّعَيْرات تستقي من الأرض النائمة عُصارتها، إنها تذكرني بـ...

لوكريس : بأي شيء تذكرك ؟

تيتير : تذكرني بالحب.

لوكريس : ولم لا ؟ إن ما أحدثك به يتسرب إلى روحك الريفية ويجد له صدى في منطقك الرعوي. إن قولي إذن وصل إلى هذه الغاية، إلى هذه العقدة العميقة من الإنسان التي تستقر الوحدة فيها والتي يلمع في نفوسنا منها كنز المحاكاة والمشابهات الغامض، مضيئا جوانب كون تكوّنه فكرة واحدة.

تيتير : لم أفهم كلامك المبهم.

لوكريس : كفاني أن أفهم نفسي ولتتحدث أنت كما تشاء. حدثني عن الحب إن شئت، ولكن أفضل أن تغني لي أُنشودة هذا التحول... كيف أن نبتة نامية تحلم بالحب وبهذه الحاجة إلى اللذة.

تيتير : اللذة ؟ ليس الحب من جنس هذه المادة البسيطة.

لوكريس : أتريد أن يكون أحسن من غريزة كونية ؟ ليس الحب سوى شوكة براها القدر.

تيتير : شوكة ؟ وتدّعي أنت بأنني من الرعاع. شوكة ! أنت لا تصنع من الحب سوى ضمة عناق راع فظ غليظ. الحب الذي تتصوره ليس أكثر من حب التيوس ووحوش الغاب التي تسكرها أمشاجها وتطغى عليها فتبحث في فظاعة عند موسمها المتوهج عن تحرير ذاتها المادية من ذلك السم اليقظ. وأنا كراع يختلط أحيانا بالأنعام أعلم ذلك حق العلم، فأتخير

كما أريـد، أتخير الـذكر والأنثى وأجمع بينهما في النزو والضراب عندما أُريد منهما نوعا ما من اللقاح.

لوكريس : ها هو تيتير يقتحم القدر. إنـك تضع يـدك في الظل الـذي تتلمسه المشيئة، إنك تغش غشا !

تيتير : أليس ذلك من همّ البشر الـذين تزعج الطبيعـة عقلهم المـدبر وتربك عيشهم ويريدون مغالطة الموت ؟

لوكريس : لا تلق بنفسك في متاهـات عرائش كرومي المجردة. اترك لي أمثال الحكمـاء وأقوال البلغـاء. أنـا في انتظـار الشجرة والحب اللـذين تريـد اللحـاق بهما. غنّ لي إذا شئت أنـاشيـد من صنعك، إنني وأنا أصغي إلى أنـاشيـدك بكل سمعي أخشى ألا أجد مذاقا لفلسفتك.

تيتير : أنصت إذن، هاك ما جادت به القريحة :

«الحب ليس شيئا إذا لم ينمُ إلى نهاية النمو.

النمو قانونـه وشرعتـه، فهو يموت إذا هو بقي كما كان من غير تغيير.

يموت في من لا يموت حبا.

إنه يعيش بظمإ لا يفنى أبد الدهر.

هو شجرة في الروح ذات جذور مادية

شجرة تحيا بأنها تحيا في صميم الحياة.

إنه يعيش بكل شيء

بالحلو وبالمر، وبالرطب يعيش، وباليابس أكثر.

ياشجرة عظيمة هي الحب

إنك لا تفتئين تبعثين في ضعفي حيوية غريبة.
مئات اللحظات يحتفظ بها الفؤاد لنفسه
كلها ورقات لديك ونبال نور.
ولكن بينما تتفتح بشائر فرحتك في لجين النهار
فإن ظمأك الذي يهبط إلى الأعماق
يستسقي في الظلام من منبع الدموع».

لوكريس : ليس هذا النشيد أبيات شعر نظمتها، وإنما هو من نوع المعميات.

تيتير : إنّما كنت أرتجله ارتجالا، ليس هذا الكلام سوى قصيدة مستقبلة. ما سبق لك أن قلته عن هذه الشجرة جعلني أحلم الحب حلما. ويمكن للشجرة والحب أن يلحق أحدهما بالآخر في أفكارنا ليصبحا فكرة واحدة. فكلاهما ولد من جرثومة ضئيلة غير ملموسة فكبر وقوي وانتشر واغتضن. ولكن هذا الشيء بقدر ما يرتقي إلى عليـاء السماء (أو إلى السعادة) بقدر ما يكون عليه أن ينزل إلى المادة الغامضة التي هي «نحن» من دون أن نعلم أننا نحن هي.

لوكريس : أتعني بها الأرض ؟

تيتير : نعم. وهناك في أحضان الغياهب التي يمتزج فيها ويختلط بها ما هو من جنسنا وعودنا، وما هو من مادتنا الحية، وذكرياتنا وأقوالنا الخفية ـ القوية منها والضعيفة ـ وما هو من شعور لا صورة له فيشكل بها، شعورٍ بأننا لم نسبق أن كنا كائنين وأن علينا أن ننتهي من كوننا كائنين، يوجد ما

أسميته بمنبع الدموع اللاموصوف. ذلك أن دموعنا في نظري تعبير عن عجزنا عن التعبير، أي عن عجزنا عن التحرر بواسطة الكلم من الضغط الذي يمارسه علينا ما أننا به «نحن» بالضبط.

لوكريس : إنك لتتجاوز حد الراعي ! أأنت تبكي باستمرار ؟

تيتير : قد يمكن لي ذلك. ومهما كنت راعيا، فإنني لاحظت أنه ليس هناك من فكرة تتبّعنا خطاها إلى أقرب مكان من الروح إلا وتؤدي بنا إلى ضفاف الكلم بعينه، تلك الضفاف البكماء التي لا يمكث في ربوعها سوى الشفقة والحنان ونوع من المرارة يلهمنا إياه ذلك المزيج من البقاء والفناء والعرَض، وأعني به مصيرنا.

لوكريس : أهذا ما يشغل بالك عندما تقضي ليالي الصيف في رعاية قطيعك الذي ينام، بينما وكأن قطيعا من النجوم أزعجه البرق الصامت من هنا وهناك بساحة الأفق أو تخلله سرب مفاجيء من الشهب يرعى الزمن رعيا ويقضم المستقبل كقطيع يقضم خط خطاه قدما بقدم ؟

تيتير : وما العمل ؟ فكأن الشجرة تتأمل في هذا المزيع من الليل. لقد أصبحتْ شخصا من الظلمة تتركها الطيور النائمة مستيقظة في عزلتها، وترتعش في نفسها وكأنها تتحدث مع نفسها. الخوف يسكن كيانها كما يفعل بنا عندما نكون وحدنا في ظلام الليل البهيم ومع حقيقتنا ساعة محاسبة الضمير.

لوكريس : حقا، ليس لنا ما نخافه سوى أنفسنا : فالأقدار والآلهة لا تقتحمنا إلا عن طريق أوتارنا الحساسة. إن الآلهة والأقدار تسيطر على الروح السفلية عن طريق الغدر والخيانة. ليست قوتها من عمل الحكمة، ولكن الألوهية تجد في الأجسام الضعيفة برهانها القاطع لتعذيب من هذبته الحكمة.

تيتير : ولكن، أليست النار حقا هي نهاية الشجرة ؟ فعندما يصبح كيانها كله عذابا أليما، فإنه يتلوى ثم يتحول كله رمادا محضا عوض أن ينتن من جراء ما قد يحدث الماء الآسن فيه من تآكل، وما تباشره الأرضة من قرض والدود من قضم.

لوكريس : اختر ياتيتير ـ إن أمكن الاختيار ـ داء من بين الأدواء. والأفضل ألا تختار لآن التفكير في ذلك عبث، ولأن الأدواء تكون ـ حيثما تكون ـ واضحة بنفسها كل الوضوح ولا تحتاج إلى غيرها لتتضح، ولكن، لو كنتُ رفيقك في لياليك، وكنا محجوبين معا عن الأبصار وراء ستار الظلام، وكنا سميرين على سفح الشجرة واختزلنا في صوتينا واقتُصِدْنا في شخص واحد ينوء كاهله بكل هذه الكواكب والنجوم لقلتُ لك ما تقوله لي وتفرضه على روحي وما تغنّي به على مسمعي مشاهدتي الداخلية لمثال الشجرة.

تيتير : إني أنصت إليك في ظلام الليل معتكفا، وسأفقد الشعور بجهلي. لن أدرك مغزى ما ستذكره، ولكنني سأحبه حبا مصحوبا برغبة فائقة في أن هذا هو عين الحقيقة، وقد سحر

فكري لدرجة أنه أصبح عاجزا عن تصور سعادة أكثر صدقا ولحظات أكثر دواما.

لوكريس : إن الإنسان الذي ينبهر لجميل كالزهرة.

تيتير : معذرة، فإنني لم أمسك نفسي عن حبسك عن الكلام وأنت تتحدث عن المثال الذي تكونه الشجرة.

لوكريس : ألا ترى أن كل نبت هو نوع من الصنع، وأنه ليس هنالك صنع بدون تصوره ؟

تيتير : ولكنني لا أرى صانعا...

لوكريس : الصانع جزئية تكاد تكون تافهة.

تيتير : إنك لتدهشني، أو تعتبر تيتير أنشوطة يتلهى بها ؟ إنني حيوان عاقل، وأعلم كما تعلم أنت أن كل حدث يقتضي سببا. كل ما هو كائن قد صنُع فكان. كل شيء يفترض وجود ما قبله : إنسانا كان أو إلها أو سببا أو نزوة أو قدرةَ فعل.

لوكريس : أإنك متيقن من أنه لا شيء يمكن أن ينشأ من نفسه وبلا سبب وعبثا وبلا نهاية تأتي قبله ؟

تيتير : بالتأكيـــد.

لوكريس : أتحلم في بعض الأوقات ؟

تيتير : نعم، قبل كل مطلع فجر.

لوكريس : فكما يؤثر الصباح الوليد في صخر التمثال الشهير ويجعله يرن رنينا فكذلك حال مينون ـ تيتير(☆) : يرتجل أحسن

☆) مينون : أحد الصنمين في وادي الملوك بمصر يقال إنه يسمع رنينه عند كل مشرق شمس.

القصص عنـد طلـوع الفجر في نفسـه ولنفسـه. ولكن هـل لأحلامـك بعض الثمن ياتيتير ؟ هـل أحـلامـك تسـاوي في يقظتك أنك رأيتها في منامك.

تيتير : هناك أحلام ما أجملها ورؤى ما أصـدقهـا ! رؤى نزلت من السماء ورؤى ألهمهـا الشيطـان. إنهـا من الغرابـة إلى حـد أني أعتقـد أنهـا تكـونت من أجـل نـائم آخر غيري كما لـو أنهـا أخطأت في الليل غـائبهـا العـاطل. وهنـاك من الأحلام مـا هي قاسية بسبب أنهـا كانت أحلامـا لـذيـذة. فهـذه سعـادة تتمـزق سـاعـة تغمرني وتتركني على ضفـة الحقيقـة في قبضـة النهـار. كل كيـاني لا يـزال يرتعش من الحب ولكن الفكر يرفض نفسـه ويلحـظ ببرودة رعـدة جسمـه الفـانيـة، كما لـو كنت قطعت أحد الزواحف شطرين صارا يلتويان.

لوكريس : لم تكن إذن سوى متفرج اظطر إلى معاناة مشاهدة الفرجـة، ولكن قـل لي بربـك قـل لي من قـد يكـون صـانـع هـذه المأساة ؟

تيتير : صانعها ؟ لا أعلم ! ولا أجد أحداً.

لوكريس : أأنت صانعها ؟

تيتير : لست أنا بالتأكيد. ذلك لأن مشاهد النوم هـذه لاتتكون إلا وأنا مطرود من حظيرتها. ولو لم يكن ذلـك هكـذا، لما كان هناك هلع ولا فزع ولا مفاجأة ولا افتتان.

لوكريس : إذن، ليس هناك صـانع. إنـك ترى بنفسـك عـدم استحـالـة صنع شيء مـا من غير صـانع أيٌّ من الشعراء نظم لـك هـذه

الهواجس الهوساء ؟ لا أحد ! وأنت نفسك ما كنت بقادر على أن تستنبط هذه النعم من نفسك وتستخرج هذه الأغوار من أحلامك. لا صانع هناك، بل هناك أشياء تتكون من نفسها دونما سبب، وتصنع مصيرها بنفسها. ولذلك فإنني أنسب إلى الضرورات الصبيانية الموجودة عند أهل الدنيا سذاجة المنطق الذي يريد أن يرى وراء كل شيء فنانا ومقصدا منفصلين عن الصنع نفسه. إن الإنسان لساذج أمام كل ما في السماوات من أجرام وما في الأرض من مواسم ومن أنعام، ومن مظاهر السنن والقوانين وملامح التحسب والاستواء. أقول، إن الإنسان أمام كل ذلك يسأل : من صنع هذا ؟ ومن أراد هذا ؟ وهو يعتقد أن عليه أن يقارن كل شيء بهذه الأشياءالتي تصنعها أيدينا : مزهرياتنا وأدواتنا وآلاتنا وبيوتنا وأسلحتنا وجميع هذه المركبات من الجسم والروح التي تولدها حاجاتنا.

تيتير : وهل تعتقد أنك بهذا المنطق ستبلغ جوهر الأشياء بأحسن مما قيل ؟

لوكريس : إنني أُحاول تقليد الكون الفرد. إنني أعتقد يا تيتير، أنه وجد في جوهر مادتنا ـ ودون أن نغوص بعيدا على ذلك ـ نفس القدرة التي تولد الحياة كلها في صورتها المتشابهة. كل ما يتولد في الروح هو الطبيعة نفسها...

تيتير : ماذا تقول ؟ أتعني أن كل ما يأتي إلينا يأتي إلينا في كنهه ؟

لوكريس : لا ما يأتي، بل الإتيان نفسه. أؤكد لك يا تيتير أن لكل ما يحي ويعيش رابطة سرية وشبها يتولد عنه الحب والبغض على السواء. الذئب لا يمكنه إلا أن يصنع الذئب أو يعيد صعنه، سواء أفترس خروفه أو احتضن أنثاه ؟.

تيتير : ولكن أفي إمكانك أن تصنع مادة الشجرة أو تعيد صنعها ؟

لوكريس : قلت لك إنني أشعر بميلاد ونمو خصوصية النبات في نفسي، وأعرف كيف أمزجني بظمإ الوجود الموجود عند الجرثومة التي تجهد نفسها محاولة لحاق ما لا يحصى من الجراثيم الأُخرى من خلال حياة نباتية مكتملة الحلقات.

تيتير : اسمح لي بمقاطعتك، سؤال خطر ببالي...

لوكريس : إن ما كنت سأقوله لك (وربما كنت سأنشدك إياه) كان من شأنه أن تجف له مناهل الكلم الصادر فجأة من أعماق فكرك، ولكن تكلمْ..! فلو أنني سألتك الانتظار لصرت تصغي إلى دخائلك بنفس راضية متساهلة عوض أن تصغي إلى حديثي.

تيتير : نعم، ألا تعتقد يا من هذبته الحكمة بأن إدراكنا لأي شيء من الأشياء إدراك ناقص إذا ما اختصر حجمه إلى مفهوم هذا الشيء وحده، ولم يتجاوز ذلك المعنى، واكتفى بحقيقة الشيء، واستطاع تحويل النظرة الساذجة إلى مثال مجرد يتسم بالدقة والوضوح في تحليلاته المختبرية وملاحظة دقة الصور والأشكال التي تأتي على كل غلط أو توهم، مقتصراً على صورة هذا المثال.

لوكريس : ماذا تريد أكثر مما هو كائن، أليست الحقيقة هي الحد الطبيعي الذي يقف دونه العقل المفكر ؟

تيتير : أعتقد فيما يخصني أن الحقيقة أغنى من الصواب بكثير، وأنها ـ بخصوص كل موضوع وكل مادة ـ تحتوي على جملة من الأخطاء والأساطير والخرافات والعقائد الصبيانية التافهة التي يصدقها فكر البشر.

لوكريس : ومع هذا، فأنت لا تريد أن يحرق الحكماء هذا العشب الرديء ليجعلوا منه بخورا يتصاعد في الأجواء قربانا مرفوعا إلى الإلهة مينرفا ؟(☆)

تيتير : ولكنك إذا أنت غرست هذا النبت من جديد وتعهدته في مكان معين، فلن يبقى رديئا، ويمكن أن يوجد له بعض الاستعمال. ولكن، أنصت إلى حديثي، أنصت إلى كلام أُمِّيّ بسيط ! إننا إذا نحن أمسكنا مقاليد الصواب بحزم، ولم نعد نخشى الضلال في متاهات الأهواء والنزوات، فلا بد للحكمة أن تعود وأن تستعيد وتجمع في ساحتها كل ما خُلِق ونُحت وصوِّر ورُئِي واعتُقِد، أي جميع روائع بنات الفكر الذي هو فكرنا وجميع هذه القصص السحرية والفظيعة التي تتولد منا بصفة عفوية.

☆) في الأساطير الرومانية هي إلهة الحكمة الفنون وشؤون الفكر.

لوكريس : من المؤكد (ومن الغريب فعلا) أنه لا يمكن لنا أن نتعرف على الصواب باستعمال شتى المموِّهات، وهذا بعيد عن الطبيعة كل البعد.

تيتير : لقد لاحظت أنه ليس في العالم شيء لم تكسه بُردةُ الأَحلام، ولم يُعتَبر رمزا من الرموز، ولم يفسَّر عن طريق معجزة من المعجزات، خصوصا وأن العناية بمعرفة الأُصول والظروف الأُولى تمتاز بالقوة والسذاجة، ولذلك ولا شك نسمع أحد الفلاسفة الذي سهوت عن اسمه يلقى بهذه الحكمة : «في البدء كانت الخرافة».

لوكريس : ألست أنا بصاحبها ؟ ولكن ما أكثر ما نطقتُ به من حكم حتى إن هذه الحكمة قد تكون من صنعي كما قد لا تكون.

تيتير : ألا ما أغنى فكرك ! ولكنني سأعود إلى حديثي ومنه إلى شجرتنا. أتعرف «القصة الرائعة لشجرة الخلد» ؟

لوكريس : لا.

تيتير : وقصة شجرة الأرز المتَّيمة ؟ في جزيرة اكسيفوس ؟ ألا تعرفها ؟

لوكريس : أجهل كل شيء عن الأرز ولا أعرف أي شيء عن الجزيرة.

تيتير : وهل تعرف أعجب هذه القصص ؟

لوكريس : أجهل أيضا أعجبها.

تيتير : إن أعجب قصص الشجر هي حقا قصة أشجار التفاح العملاقة التي تَهَب فاكهةُ إحداها حياة خالدة لمن تناول لبابها، بينما تحدث فاكهة الشجرةِ الأُخرى إثر تناولها ضياء

غريبا في عقل آكلها يجعله يشعر بخجل يغمر نفسه، بخجل يتعلق بأمور الحب وقضاياه، وتشرع تحيط بكل جسمه حمرة مفاجئة ويشعر بسوءته وقد أصبحت إثما ولهيبا.

لوكريس : ما اكثر ما في ذاكرتك من تراكيب غريبة تسرح أنت بارتياح في ربوعها !

تيتير : أحب ما يثير الدهشة في نفسي، ولا أحتفظ إلا بما لا يمكن أن يثير إلا النسيان في فكر شخص ينتسب للحكمة.

لوكريس : وما قصة شجرة الخلد هذه ؟

تيتير : لقد كانت موجودة في غابر الأزمان عندما كانت الأرض لا تزال محتفظة ببكرتها، وكان الإنسان ـ كجميع الحيوان ـ ما زال لم يكن. وكانت الأعشاب تعم الدنيا، وكان في الإمكان أن تبقى هذه النباتات هي نوع الحياة الوحيد السائد، مقدمة لعيون الآلهة بهجة ألوانها التي تطبع المواسم والفصول. وكان هذا النبات جامدا لايتحرك بسبب طبيعة كل نبتة منه، ولم يكن ينتقل إلا بصفته أجناسا وفصائل ويتقدم من مكان لمكان ليحتل السعة بأكملها. وكان يباشر عمله هذا عن طريق عدد من الجراثيم التي كانت تحملها الرياح بسخاء أخرق، ويتسع في الأرض كما يتسع الحريق الذي يلتهم كل شيء أمامه. وهذا ما كانت الأعشاب والشُّجيْرات لا تزال تصنعه لولا وجود الإنسان وأعمال الإنسان. ولكنَّ ما نشاهده الآن ليس شيئا بالنسبة لما كانت عليه تلك القدرة العارمة التي تحتل الأرض احتلالا بقفزات من بذورها

المجنحة في ذلك العصر المقدام الذي تميز بحيوية النبت. ثم وقع أن إحدى هذه الجرثومات (استمع لهذا الشيء يا لوكريس) كبر بزرها ونما أكثر من أي شيء آخر، إما بسبب جودة التربة التي نزلت بها أو بسبب جود الشمس عليها بالدفء، ثم تحولت من حشيشة إلى شجرة ومن شجرة إلى آية في الروعة. نعم يظهر أن نوعا من التفكير والإرادة تكوّن في تلك الشجرة فأصبحت أكبر وأجمل حي في الورى، وقد تكون شعرت بأن حياتها ـ كشجرة ـ لا تقوم إلا على نموها، وأنها لا تحي وتعيش إلا بصيرورتها إلى التضخم والكبر، وبذلك أصابها نوع من حمق الشجر فقدت معه التوازن بين الإفراط والتفريط.

لوكريس : لقد كانت تلك الشجرة بسبب ذلك نوعا من العقل المفكر، فإن قمة الفكر لا تعيش إلا بالنمو.

تيتير : وكما أن رياضيا مفتول العضلات يفرق رجليه فيؤثر في الأعمدة التي يقف بينها ويدفعها بقدر الطاقة التي تنفخ زندية، كذلك أصبحت هذه الشجرة مركزا لأقوى دفع ممكن في الكون وصورة لأكبر قوة متوترة سبق للحياة أن أنجبتها، ولكنها قوة غير واعية بكل لحظة وقادرة على أن تدفع شيئا فشيئا صخرة في حجم الرابية أو تحطم جدار قلعة من القلع، حتى ليحكى بأنه بعد مضي أكثر من ألف قرن من الزمان كان ظل الشجرة يغطي آسيا بأكملها.

لوكريس : ما أعظم السيطرة الفانية التي مارستها هذه الشجرة !

تيتير : نعم، كانت هـذه السيطرة تصنع الليل تحتها ولم يكن في إمكان أي شعاع من الشمس أن يخترق غصونها المورقة التي كانت جميع الرياح تتيه في كثافتها، بينما كان جبينها يهز العواصف المناوئة هزا كما يفعل ثقيل الثيران بضعيف الذباب. وقد انعدمت الأنهر لكثرة ما استسقى السماء والأرض نسغها. وكانت وحدتها العزيزة المنتصبة في الأفق الأزرق الجاف تجعل منها «الشجرة ـ الإله».

لوكريس : إنها مغامرة رائعة ياتيتير !.

تيتير : معذرة إذا كنت وضعت هذه القصة من غير قصد في غضون ما كنت ستحدثني به حول موضوعنا الذي هو أكثر حكمة وعمقا.

لوكريس : لا أعلم أني إمكاني أن أتحدث بأحسن من رواية هذه القصة.

لوكريس : أجهل إذا كنت أستطيع أن أتحدث بأحسن من خرافة. كنت أريد أن أحدثك عن الشعور الذي أشعر به أحيانا، شعور بأنني أنا، بأنني نبتة تفكر، ولكنها لا تفرق بين قدراتها المختلفة ولا تميز شكلها من قواتها ولا هيأتها من موقعها. وليست القوات والهيآت وليس الطول والحجم والمدة سوى نهر للوجود واحد، ومد ينتهي سيله إلى جماد جامد، بينما الإرادة الغامضة للنمو ترتفع وتتفجر وتريد أن تصبح إرادة جديدة تحت فعل جنس البزر الخفيف الذي لا حصر له. وهكذا أشعر بنفسي أعيش هذه المغامرة المهولة، مغامرة النوع النباتي، مقتحما الفضاء الواسع، مرتجلا حلما من

الأغصان، منغمسا بتدرج في قلب الوحل، منتشيا من أملاح الأرض، بينما يفتّح النبات آلافا من الشفاه الخضراء للهواء الطلق المعطاء. فبقدر ما يغرق في الأرض يرتفع في السماء ويمسك في القيد مالا شكل له ويهجم على الفراغ ويصارع من أجل تغيير كل شيء في نفسه. ذلك هو مثاله المجرد !... يا تيتير، يلوح لي أنني أساهم بكل كياني في هذا التأمل الجبار الفعال المتبع بدقة صارمة في مصيره، والذي يمليه عليّ هذا النبات.

تيتير : تقول إن النبات يتأمل ؟

لوكريس : أقول إنه إذا كان هناك في العالم شيء يتأمل فهو النبات.

تيتير : يتأمل ؟ لربما يكون معنى هذه اللفظة غامضا في ذهني ؟

لوكريس : لا تنزعج لذلك، فإن غياب لفظة واحدة يجعل الكلم يحيي حياة أفضل، فهو يتفتح بسعة أكثر ويقترح على الفكر أن يكون أكثر تفكيرا لسد الثغرة.

تيتير : لست ذكيا لهذه الدرجة... ولا أتصور كيف أن النبات يتأمل.

لوكريس : أيها الراعي ! إن ما تشاهده من شجرة كبيرةً كانت أو صغيرة فهو ليس سوى مظهرها الخارجي ولحظتها الزمنية المقدمين للبصر اللامبالي الذي لا يزيد على أن يسرح بإهمال على سطح العالم. ولكن النبات يعرض على البصيرة إمكان متن كوني، لا شيئا بسيطا لحياة تافهة سلبية.

تيتير : لست سوى راع من الرعاة يا لوكريس، فلا تجهز عليه !

أليس للتـأمل معنى التعمق داخـل النظـام. انظر كيف تنمـو حولي هذه الشجرة العشواء، ذات الأغصان المتخـالفـة حسب مقاييس التناسق، فـالحيـاة فيهـا تحسب الحسـاب وتستجيب لبنية معينة وتنير ظلمتها بواسطة الأغصان وغرائسهـا، ولكل غريسة ورقتها بالمواقع المسجلة في المستقبل المستهل.

تيتير : هيهات ! كيف أقدر على تتبعك.

لوكريس : لا تخف وأنصت؛ عنـدمـا يـداعب روحَـك لحن من الألحـان وعنـدمـا تخنـق أنفـاسـك رغبـة في الخلـق ألا تشعر إذ ذاك بصوتـك ينتفـخ بـالنغم المجرد ؟ ألا تشعر بحيـاة النغم تخرج برغبتـك نحو الرنـة المحبوبـة التي يرقى بـك موجهـا ؟ آه يـا تيتير، إن النبات نشيد ينشر إيقاعه هيـأة مؤكـدة، ويعرض في الفضـاء سرا من الزمـان. وفي كل يوم يمضي يرفع النبـات في الهواء شيئا فشيئا حمولـة هيكلـه المتلوي ويسلم أوراقـه إلى الشمس بالمئـات والآلاف، هـذه الأوراق المنتشيـة في محطتهـا من الهواء حسبا يصلها من نسيم وبقدر ما تومن بأن وحيهـا وحي مقدس واحد.

تيتير : إنك أصبحت بنفسك شجرة من الكلم.

لوكريس : نعم إن التـأمـل الـلامـع يسكرني وأشعر بجميـع الكلمـات ترتعش في روحي.

تيتير : أتركـك في هـذه الحـال الرائعـة، فقـد آن الأوان أن أجمع قطيعي، احذر يا لوكريس من برد المساء المفاجيء.

الرباط مصطفى القصري

لافونتين
في الأدب العربي الحديث

د. مجدي محمد شمس الدين ابراهيم
كلية التربية / جامعة عين شمس

إن الباحث في الخرافات في الأدب العربي الحديث يدرك أنها تـأثرت بخرافات الشـاعر الفرنسي لافونتين 1621 ـ 1695[1] والتي تـأثرت بـدورها من قبل بخرافـات كليلـة ودمنـة فقـد اقتبس لافـونتين عشرين فـابـولا من فابولات كليلة ودمنة وضمنها الجزء الثاني من خرافـاتـه على مـا صرح بـه في مقدمة هذا الجزء وكان كتاب كليلة ودمنـة قـد ترجم إلى الفرنسيـة في عهد الامبراطور لويس الرابع عشر واستقطب اهتمام الدارسين والأدباء والنقاد في

1) من أسرة فرنسية أورستقراطية وقد أراد أن يدرس الدين في أول الأمر ولكنـه عـدل عنـه إلى دراسة القانون ثم بدأ الكتابة بعد الثلاثين وبدأ كتابه الخرافات بعد ذلك.

فرنسا وصار مدار أحاديث ومناقشات ومحاورات تدور بينهم في الأندية الأدبية وفي أحد هذه الأندية وقف الشاعر الفرنسي لافونتين على هذا الكتاب وكان يتردد على نادى مدام دى لاسابلير[2] Mme de lasabliere وهناك تقابل بالطبيب الرحالة برنير Bernir الذي عرفه بكتاب كليلة ودمنة ولفت نظره إليه[3].

ومعنى هذا أن ابن المقفع وخرافاته كان المصدر الأول لكل من جاءوا بعده من مؤلفى الخرافات سواء في الشرق أو الغرب.

ويعتبر لافونتين أعظم من برع في فن الخرافة الحيوانية أو فابولا الحيوان وبلغ في هذا الفن أقصى ما قدر له من رقي واكتمال حتى اليوم. ويعنى مصطلح الخرافة الحيوانية أو فابولا الحيوان تلك القصة الرمزية أو الخلقية التي يمثل الحيوان فيها، ويتكلم كالإنسان مع اشتمالها على المغزى الخلقي وبعض المبادئ الفلسفية وقد نشأ هذا الفن منذ أقدم العصور ومنه مجموعات الحكايات الهندية التي تجري على لسان الحيوان في كتاب الهند الشهير البنشاتنترا PANCHATANTRA أي صناديق الحكمة الخمسة أو الأسفار الخمسة هذا الكتاب الذي يرجح العلماء[4] أنه كان موجودا في أصله السنسكريتي في القرن الخامس الميلادي لأنه ترجم إلى البهلوية بتحريف يسير في القرن السادس وقد وصل العلماء إلى هذه النتيجة عندما وجدوا أنه اعتمد على كتاب «كوطيلة ارثاشاسترة» ونقل فقرات متعددة منه

---

2) الأدب المقارن د. محمد غنيمي هلال ط. نهضة مصر - ص 188.

3) السابق ص 188.

4) الأسفار الخمسة ترجمة الدكتور عبد الحميد يونس ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ص 9.

وبذلك يكون كتاب البنشاتنترا قد ظهر بعد كتاب «كوطيلة ارثاشاسترة» وان لم يقطع العلماء بتاريخ محدد لظهوره بل اعتمدوا على الظن والترجيح ومهما يكن من امر فقد وضع كتاب «البنشاتنترا» فيما بين سنتي 100 ق. م، 500 م كما يؤكد د. عبد الحميد يونس[5]. وقد قام عبد الله بن المقفع في القرن الثاني الهجري بنقل البنشا تنترا إلى العربية في ثوبها العربي الجديد في كتاب كليلة ودمنة.

كما قام أستاذنا الجليل الدكتور عبد الحميد يونس في العصر الحديث بترجمة البشاتنترا إلى العربية تحت عنوان الأسفار الخمسة عن الترجمة الانجليزة للبشاتنترا والتي قام بها من قبل فرانكلين أوجرتون Franklin Edgerton أستاذ الأدب السنسكريتي وفقه اللغة المقارن بجامعة بيل[6].

إذن فخرافة الحيوان أي القصة على لسان الحيوان فن قديم للغاية إلا أنه ارتقى على يد لافونتين وسارت له خصائصه الفنية وبناؤه الدرامي وتركيبه الأسلوبي وسماته الخاصة التي تميزه عن سائر الفنون الأدبية الأخرى، وكانت نفس لافونتين ميالة بطبعها إلى التأمل والاستغراق في ملاحظة الحيوان ومراقبة سلوكه وكان يجد متعة عظيمة في النزهة الخلوية التي تتيح له الفرصة لمشاهدة الحيوان وملاحظة سلوكه، وبلغ لافونتين من الاهتمام بعالم الحيوان والانشغال بتأمله الحد الذي أنساه أمورا تتعلق به نفسه فيحكى أن صديقا له دعاه إلى الغذاء يوما فتخلف ثم اعتذر بعد ذلك إلى هذا

---

5) السابق ص 9.

6) السابق ص 5.

الصديق بأنه كان منشغلا بحضور جنازة نملة وأنه صحبها إلى القبر ثم عاد بعد ذلك مع الأسرة الحزينة(7).

وكان لافونتين شاعرا مرهف الحس محبا للطبيعة وأن حبه للطبيعة وما نراه عنده من رقة وعاطفة وإرهاف في الحس وفكاهة نادرة ونكتة رقيقة ليذكرنا بفرجيل كما يلتقى لافونتين مع هوراس في أن كلا منهما يتهكم من غير أن يحرج(8).

وتمتاز خرافات لافونتين ببساطتها وقصرها ورقة شعرها وتنوعها والدقة الكبيرة في رسم شخوصها الحيوانية وتشتمل كل منها على مغزى خلقي يتضح من خلال المواقف والمحاورات التي تجري على لسان الحيوان.

وقبل أن أتناول الخرافات في الأدب العربي الحديث وأبين مدى تأثرها بخرافات الشاعر الفرنسي لافونتين أرى لزاما على أن أعرض لخرافات لافونتين ليتسنى لى بعد ذلك أن أقيم مقارنة بين هذه وتلك وأن أحدد أوجه الالتقاء والاختلاف بينهما. وقد ألف لافونتين مائة وأربعين خرافة ظهرت في اثنى عشر كتابا على ثلاث دفعات ظهرت الأولى منها سنة 1668م وتشتمل على ستة كتب، تتبعها ترجمة لحياة إيسوب Esope وكانت تحمل هذا العنوان المتواضع خرافات إيسوب نظمها السيد «دولافونتين».

---

7) مقدمة تارفر TARVER عن لافونتين ص 18.

8) قصص الحيوان، عبد الرزاق حميدة ص 201.

والثـانيـة فيما بين سنتي 1678م ـ 1679م وتشتمـل على خمسـة كتب مهداة إلى مـدام دو مونتسبـان[9] Mme de Montespan وفي هـذا الجزء كثير من الروائع منها الخرافات التي اقتبسها من كليلة ودمنة.

الثالثة سنة 1694 وتشتمل على الكتاب الثاني عشر مهدى إلى الـدوق بورجونى حفيـد لويس الرابع عشر وتلميـذ فينيلون وهـذا الكتـاب أضعفهـا جميعا[10].

ومعنى هذا أن الكتب الاثنى عشر كانت جهد ثلاثين عـامـا وهي فترة طويلة نسبيا ولكنها تتلاءم مع درجـة الإجـادة الكبيرة التي تميزت بهـا عـدا الكتاب الثاني عشر ولم يكن غرض لافونتين من خرافاته غرضا تعليميا فقط وإنما كان يهدف إلى الاثارة والإمتـاع وعنـده «أن العمل الفني لا ينبغي أن يقتصر دوره على إمتـاع العقل فقـط بـل ينبغي أن يرضى العـاطفـة أيضـا «وهو يتفق في هذا مع بوالو حيث يقول «ذلـك مـا نبحث عنـه في أيـامنـا هذه إننا نبحث عن الجدة والبهجة ولست أعنى بالبهجة كل ما يثير الضحك بل أعني سحرا معينا وروحا راضيـا يمكن إدخـالـه في كل المواضيع حتى فيما كان منها في قمة المجد[11].

ويرى لافونتين أن فابولا الحيوان الخلقية تشتمل على عنصرين أحدهما الروح والثـاني الجسم، أمـا الجسم فهـو الحكايـة وأمـا الروح فتتمثـل في المعنى

---

9) تاريخ الأدب الفرنسي جوستاف لانسون ترجمة الدكتور محمد، محمد القصـاص ج 1، ص 333 ط 1 المؤسسة العربية الحديثة.

10) السابق ج 1 ص 334.

11) السابق ج 1 ص 272.

الخلقي والمعنى الرمـزي للحكايـة ولكي يشف الجسم عن الروح لابـد من تصويره تصويرا يبرز كل ما للروح من خصائص[12].

وقد تأثر لافونتين في خرافاته بابن المقفع في المقام الأول وأيضا تـأثر بقيدر ومارو، ورابليه وغيرهم من مؤلفى الخرافات إلا أنه في تـأثره بهؤلاء لم يكن مجرد ناقل أو مقتبس وإنما كان يأخذ الخرافة فيبسطهـا أو يحورهـا أو يختصرهـا، وفي كل هـذا كان يضفى عليها من حسـه وذوقـه حتى تبـدو في ثوب جديد كل الجدة وإذا بالخرافة تبتعد عن سدرها الأصلي الذي أخذت عنه وإذا بها تبدو وكأنها خرافـة أخرى تختلف كل الاختلاف عن أصلهـا[13] وأضرب مثلا على هذا بخرافة لافونتين المسماة «الحيوانات المرضى بـالطـاعون» وفيها يصيب الوحوش الطاعون الملعون فيعقد الأسد مؤتمرا عاما يدعوا إليـه جميع الحيوانـات ويطلب منهم أن يعترفوا بـذنوبهم التي اقترفـوهـا والتي نجم عنها لعنة السماء وارسال هـذا البلاء عليهم ومن عظمت ذنوبـه وفـاقت على ذنوب الآخرين يقتل كفداء للتكفير عن ذنوب الحيوانات جميعا. هنا تتقدم الحيوانـات وتعترف بـذنوبهـا. ورغم أن الحمـار كان أقل أعضـاء المؤتمر اقترافـا للذنوب والآثام ورغم أنـه لم يرتكب مـا ارتكبوه من جرائم وآثـام فقـد قرر أعضاء المؤتمر صلب الحمار وقتله وأن يكون هو هذا الفداء[14].

وأرى أن الشاعر الفرنسي قـد اقتبس خرافتـه هـذه من خرافـات ابن المقفـع وأرى أنهـا اقتبـاس من قصـة «الأسـد والـذئب والثعلب والغراب

---

(12) La Fontaine : Fables, éd. des Belles-lettres, Préface, P.12.

13) جوستاف لانسون تاريخ الأدب الفرنسي ترجمة د. محمد محمد القصاص ج 1 ص 342.

14) ارجع إلى القصـة كاملـة في الأدب الفرنسي في عصره الـذهبي د. حسيب الحلوى ص ٩٩ هـ 602 ط. حلب سنة 1952 الأولى.

والجمل»[15] وفيها يمرض الأسد ويلزم الفراش فيعجز عن الصيد فيصيبه الهزل والجوع ويجوع من حوله الذئب والغراب والثعلب لأنهم كانوا جميعا يأكلون من فضل طعامه لذا يعقدون مؤتمرا ويعرض كل واحد منهم على الأسد أن يأكله فيرفض الآخرون إلى أن يأتي دور الجمل فيعرض نفسه على الأسد ليأكله معتقدا أن أعضاء المؤتمر سيرفضون أكله كما فعلوا مع أنفسهم ولكن ما كاد الجمل ينتهي من حديثه حتى انقضوا عليه جميعا ومزقوه بلا رحمة ولا شفقة وتلتقى الخرافتان في الكارثة التي تحل بالجماعة وهي الطاعون في خرافة لافونتين ومرض الأسد وعجزه عن الصيد في خرافة ابن المقفع ويلزم التضحية بفرد واحد من أجل انقاذ الجماعة وخلاصها وهذا الفرد يكون أضعف أعضاء المؤتمر وهو الحمار في خرافة لافونتين والجمل في خرافة ابن المقفع وهذه نقاط الالتقاء بين الخرافتين وبعد هذا غير لافونتين من القصة الأصلية وصبغها بطابع مسيحي يتمثل في قدرة الفداء والتضحية بفرد للتكفير عن ذنوب وآثام الغير وخلاص الجماعة وهذا الفرد لا يرتكب إثما أو ذنبا وهو من أجل ذلك يتصف بالطهر والنقاء ولذا يكون صالحا ليكون الفداء الذي يمحو الآثام والخطايا وقد كان المسيح عليه السلام فيما يقولون الفداء لخطيئة آدم وحواء وكان المسيح - في رأيهم - الضحية وهو ابن الله وحبيبه وبهذا عللوا رأيهم في صلبه بصورة تتنافى مع ما يذهب إليه المسلمون «وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم»[16].

وهكذا يقتبس لافونتين الخرافة ويدخل عليها من التغيير ما يبعدها

---

15) هذه القصة احدى القصص الفرعية في باب الأسد والثور.

16) سورة النساء الاية 157.

عن الأصل الأول الذي أخذت عنه حتى تختفي ملامح هذا الأصل فيها وتصبح لافوتينية خالصة حسا وذوقا وهو ما كان يشير إليه دائما[17].

والذي يهمنا هو الإطار الفني الذي حدده لافونتين لخرافاته فقد استهوى هذا الإطار شعراءنا وأدباءنا فراحوا يقلدونه وينسجون على منواله ويقتنون أثره في خرافاتهم كما سأوضح فيما بعد.

ويتميز الإطار الفني لخرافات لافونتين بما يأتي :

أ ـ وحدة الحكاية واستقلالها وهذا يختلف تماما عن طريقة ابن المقفع في تداخل الحكايات والاستطراد من حكاية إلى أخرى.

ب ـ تجنب أسلوب ابن المقفع في التمهيد للحكاية بالاستفهام والتساؤل كيف كان ذلك ؟ وكيف ذلك ؟.

ج ـ يراعى لافونتين أن تتشابه الشخصيات الرمزية في الحكايات «الحيوانات» مع الشخصيات الحقيقية التي ترمز إليها هذه الحيوانات كأن يجعل القط رمزا للغدر والخداع، والأرنب رمزا للوداعة والاستسلام وهذا شأن كل من الأرنب والقط في الواقع وهو يختلف في هذا عن ابن المقفع الذي يقدم لنا ابن آوى كرمز للرحمة والشفقة وعدم الاعتداء على من هو دونه[18] وما أبعد ابن آوى في واقعه عن هده الصفات.

---

17) جوستاف لانسون تاريخ الأدب الفرنسي ج 1 ص 342 ترجمة د. محمد محمد القصاص ط المؤسسة العربية الحديثة.

18) باب الأسد والشغبر الناسك في كليلة ودمنة.

وقد نشر هنرى تين[19] كتابا طريفا عن خرافات لافونتين بين فيه التشابه الكبير بين الرموز الحيوانية في خرافات لافونتين ما ترمز إليه من النماذج البشرية ومن ذلك الأسد فهو عظيم وقور دائما وهي يعى ويدرك كل ما يليق بعظمته من سلوك وما لا يليق ولذا ترفعت مخالبه عن افتراس الوعل عندما امتنع عن البكاء على اللبؤة حين ماتت ومع هذا فلم يعفه من العقاب ولكنه دعا الوحوش أن تقدمه قربانا لروحها الطاهرة.

كما جاء تين بموازنات كثيرة بين حيوانات أخرى واشباهها من طبقات المجتمع في العصر الذي كان يعيش فيه لافونتين كالموازنة بين الثعلب والذئب والكلب ومن يشبهها من أفراد حاشية السلطان والموازنة بين الرجل العادي والنسناس ويرى تين أن الشاعر الفرنسي لافونتين قد استطاع بملاحظته الدقيقة أن يرسم طبقات المجتمع الفرنسي في القرن السابع عشر بدقة كبيرة وأن يشمل كل ما يعيد إليها الحياة بعظمتها ونقاط الضعف فيها ومن ترفها المفرط إلى فقرها المضجع ومن الحاكم إلى الرجل العادي أو قل من الأسد إلى النسناس.

د ـ التذكر الدائمة بالرمز والمرموز إليه معا فهو لا يسترسل في وصف الرموز بحيث ينسى القارئ صفات الشخصيات الحقيقية ولا يسترسل في وصف الشخصيات الحقيقية بحيث ينسى القارئ صفات الرموز.

وفي هذا يختلف لافونتين عن ابن المقفع الذي كان يسترسل في الحديث عن الشخصية المرموز إليها ويسهب في وصفها حتى ينسى القارئ

---

19) فيلسوف ناقد مؤرخ فرنسي 1828 ـ 1893 قصص الحيوان في الأدب العربي د. عبد الرزاق حميدة ص 201.

الرمز الحيواني في الحكاية فمثلا نرى في باب الحمامة المطوقة أن المال يشد من عـزم الفـأر وحينمـا يفقـده ويصبـح فقيرا وتضيـع دنـانييره وينصرف عنـه أصدقاؤه وينفض عنـه أعوانـه فيقعـد حزينـا ملأ الهم قلبـه ثم يقول بنغمـة بائسة حزينة تمتلىء بالألم والمرارة «مـا الاخوان ولا الاعوان ولا الاصـدقـاء الا بالمال ووجدت من لا مال لـه إذا أراد أمرا قعـد بـه العـدم عمـا يريـده ووجـدت من لا اخوان لـه لا أهل لـه ومن لا ولـد لـه لا ذكر لـه ومن لا مال له لا عقل له ولا دنيا ولا آخرة له لأن الرجل إذا افتقر قطعه اقـاربـه واخوانه فإن الشجرة التابتة في السباخ المأكولة من كل جانب كحـال الفقير المحتاج إلى مـا في أيـدي النـاس. ووجـدت الفقر رأس كل بلاء وجـالبـا إلى صاحبه كل مقت، ومعدن النمية، وجدت الرجل اذا افتقر اتهمه من كان لـه مؤتمنـا وأسـاء بـه الظن من كان يظن فيـه حسنـا فـإن اذنب غيره كان هو للتهمـة موضعـا وليس من خلـة هي للغنى مـدح الا وهي للفقير ذنب فـإن كان شجـاعـا قيل اهوج وإن كان جـوادا سمي مبـذرا وإن كان حليمـا سمى ضعيفـا وإن كان وقورا سمى بليـدا فـالمـوت أهـون من الحـاجـة التي تحـوج صاحبها الى المسألة ولاسيا مسألـة الاشحـاء واللئـام فـإن الكريم لو كلف أن يـدخل يـده في فم الأفعى فيخرج منـه سما فيبتلعـه، كان ذلـك أهون عليـه وأحب إليه من مسألة البخيل اللئيم «فقد تناسى المؤلف شخصية الفأر تمـامـا وهي رمز لصاحب المال الذي يفقده فينصرف عنه إخوانـه وأخـذ يسهب في الاحـداث التي تتصل بنماذج بشريـة مغفلا الرمـز الحيـواني على الرغم من أن الحوار يجرى على لسان الحيوان.

هـ ـ تصوير الشخصيـات حيـة قـويـة في أدق صفـاتهـا المثيرة للفكرة وتطـوير هـذه الشخصيـات دراميـا في ضـوء الأحـداث ويهيء لافـونتين

للحدث بالوصف المحكم الاتصال به بحيث يمكن أن يقال إنه راعى في حكاياته قواعد للتصوير الفني. هي صورة تقريبية لقواعد المسرحية كما نبه إليها ارسطو[20].

و ـ مراعاة الواقع في رسم الصور الخلقية بحيث تطابق الواقع المألوف في حياتنا البشرية لا أن تكون مجرد تصوير للخلق المثالي الذي يعز وجوده[21] في الواقع ويختلف لافونتين في هذا عن ابن المقفع الذي يصدر في كل ما يقدمه عن مثالية يعز وجودها في واقعنا وهي مثالية مفرطة قد لا تتحقق في الواقع.

هذه أهم الخصائص الفنية لخرافات لافونتين ولبيانها وتوضيحها أستشهد بخرافة من خرافاته وهي «القط وبنت عرس والأرنب الصغير»[22].

فالسيدة بنت عرس تستولى على قصر الأرنب الصغير وهذا هو العرض أما أول تطور في الموقف المعروض فيتمثل في وصول الأرنب جانو هذا الوصول الذي يتبعه جدل حول الملكية ثم اتفاق على الاحتكام الى رامينا جروبس (القط). أما التطور الثاني فيتمثل في وصول المتخاصمين لدى الحكم واستقباله المعسول لهما، أما التطور الثالث فيتمثل في نجاح الحكم في خداعهما والتهامهما معا.

وهكذا يتطور لافونتين في خرافته بالحدث دراميا ويخضعها لقواعده الفنية فترى في قصته تطورا للحدث إلى الذروة ثم الحل في النهاية، كذلك

---

20) الأدب المقارن. د. محمد غنيمي هلال ص 187.

21) أنظر .suberville : Théorie de l'Artet des Genres littéraires. pp. 332 – 333

22) تاريخ الأدب الفرنسي ج 1 ص 347.

فإن الرموز الحيوانية في القصة تدل على الشخصيات الحقيقية المرموز اليها. فالقط رمز للغدر والخداع والافتراس والأرنب رمز للوداعة ولذا تستولى بنت عرس على قصره ثم إن الثلاثة معا رمز إلى الصراع الذي تعاني منه البشرية واستبداد القوي بالضعيف ثم استبداد الأقوى به ومن الشخصيات والمواقف تتكون الرابطة الداخلية للقصة وتتمثل في[23] هذا المزيج الذي ينشأ من النمو المستمر للحدث ومن تفاعل المواقف بعضها ببعض ثم من تفاعل الشخصيات وامتزاج هذه بتلك كما يتوفر للقصة عامل التنوع والاختلاف في المواقف والأحداث في حدود ما تسمح به الخرافة وشخصياتها ومواقفها المحدودة ومع أن شخصيات القصة لا تخرج عن هذه النماذج الثلاثة فإنها تتميز بالتنوع حيث تقدم إلينا ثلاثة نماذج متنوعة ومختلفة وكذا الحال بالنسبة للمواقف والأحداث والقصة دعوى إلى العدل وعدم الاعتداء على حقوق آلاخرين، وكأنها تريد أن تقول اعدلوا أيها البشر فيما بينكم وليذكر كل فرد عندما تسول له نفسه الاستبداد بمن هو دونه أن هناك من هو أقوى منه ومن هو قادر على أن يستبد به كما استبد هو بغيره.

وهكذا يظهر لافونتين في هذه الخرافة وفي معظم خرافاته مصلحا اجتماعيا فهو يحاول أن يفسر الفضيلة والقيم الخلقية النبيلة مراعيا في ذلك الواقع المألوف فهو لا يحاول تقديم القيم الخلقية المثالية التي لاتتحقق في واقعنا أو التي يعزو وجودها في عالمنا.

---

23) تطور الرواية العربية الحديثة في مصر 1870 ـ 1938. عبد المحسن طه بدر ـ مكتب الدراسات الأدبية دار المعارف ص 304.

كان هذا عرضا موجزا لأهم الخصائص الفنية لخرافات لافونتين وسنرى فيما يلي إلى أي حد تأثر أدباؤنا وشعراؤنا في العصر الحديث بهذه الخصائص بل عمد بعضهم إلى اقتباس مضامين خرافاته إلى جانب خصائصه الفنية وسنرى أن هؤلاء الأدباء لم يحاولوا أن يقلدوا كتاب كليلة ودمنة وإنما راحوا ينسجون على منوال لافونتين الذي تطور بفن الخرافة الحيوانية وصار يمثل في نظر هؤلاء الأدباء التطور والتجديد في هذا الفن في مقابل ابن المقفع الذي يمثل أسلوبا قديما ونمطا عتيقا لم يعد يستساغ في العصر الحديث والذوق دائماً تواق إلى الجديد ثائر على القديم.

أولا ـ خرافات محمد عثمان جلال 1829 ـ 1898

نظم محمد عثمان جلال مائتي خرافة ضمنها كتابه الذي أسماه «العيون اليواقظ في الامثال والمواعظ».

اقتبس العديد منها من خرافات الشاعر الفرنسي لافونتين وإن كان ما ذكره عثمان جلال في مقدمة كتابه يوحى بأنه اقتبس خرافاته من إيسوب حيث يقول «اعلم أن الواضع لهذه الحكايات في الاصل رجل من رجال اليونان يقال له إيسوب من قرية تسمى امرتوم وكانت ولادته بعد تأسيس مدينة روما بمائة سنة وكان له عقل من العقول الاولى غير أنه كان من سقط المتاع في الجسم، مشوه الوجه، معقود اللسان، قد بيع باسم عبد. وأول من اشتراه أرسله إلى أرضه للفلاحة لما رأى فيه من عدم اللياقة لأي خدمة وليريح الناس من قبح منظره. لكنه كان ذا حيل مخترعة لم يسبق إليها، ونوادره كثيرة لا تحصيها هذه المقدمة.

وإذا كان عثمان جلال يصرح في الفقرة السابقة بأن ايسوب هو أول من ألف الخرافات الحيوانية فما ذلك إلا تماشيا منه مع ما كان شائعا في عصره من أن أصل الخرافات الحيوانية يوناني يرجع إلى «ايسوب» وهذه مسألة فيها نظر فهناك من الباحثين من ذهب إلى أن الهند هي الموطن الأول لهذه الخرافات، وأن خرافات «ايسوب» نفسها ترجع إلى أصل هندي[24] ولم يشر عثمان جلال في كتابه إلى معرفته باللغة اليونانية حتى يقرأ بها خرافات «ايسوب» ليتأثر بها في خرافاته، والراجح عندي أن عثمان جلال قد تأثر بلافونتين واقتبس منه معظم خرافاته ثم قام بتمصيرها وتعريبها واضفاء الطابع القاهرى عليها هذا الطابع الذي تنبض به خرافات عثمان جلال مثل قوله في حرافة السبع والأرنب[25].

السبع والأرنب في عبارة   يعلمان المكر والبصارة

وكذا قوله في نفس الخرافة :

فأسرع الأرنب في الجواب   واخرج المكر من الجراب

وهذا يشير إلى انتشار ظاهرتي الضرب بالودع وقراءة الكف وغيرهما من أساليب قراءة المستقبل.

وقد يضيف الخرافة إلى اسم حي من أحياء القاهرة مثل قوله في الخرافة السابقة.

(24 The wisedom of India p 245

(25 حكاية رقم 24 من العيون اليواقظ.

كان في طلـــوع الشمس   في بلـــده تسمى بعين شمس

وقوله : تشاحنت ذبابة مع نملة   مـا بين بـولاق والرملـة[26]

وقوله : حمـار بولاق لـه حمير   وفي البـلاد شغلـه كثير[27]

ويقول في حكاية الكلب والذئب[28] :

ذئب ضعيف مر بعـــد العصر   يسعى على القـوت بجنب القصر

وقد يضيف الحكاية إلى بلد شرقي كما نرى في حكاية الذئب الذي لبس ملابس الراعي[29].

انى سمعت حكايـــة في المشرق   عمـا جرى للـذئب وهـو يحلـق

وفي حكاية الدارفيل والقرد[30] أن الأول أنقذ الثاني من الغرق بعد أن انكسرت به السفينة وحمله على ظهره إلى الشاطىء وقال له :

ذى دمشـــق، أنت منهـــا ؟   قـال : نعم سل مـا تشـاء عنهـا

قـال لـه جـزيت خيرا، قـل لي   وحمص هـل رأيت فيهـا مثلى ؟

قـال لـه حمص حبيبي.. ولـه   في عشرتي بين رجـال ولـه

وظن ان حمص كان رجـــلا   فقـال مـا قـال، ومـا تعقـلا

فضحـك الـدرفيـل مما قـالا   وظنـه مـا فهم السـؤالا

والتفت الـدرفيـل للنـديم   رآه قرد اجـــاء من ابريم

قـال لـه خيبت فيـك ظني   رح وانصرف يـا ابن القرود عني

---

26) حكاية رقم 75.

27) حكاية رقم 45 ـ الحمار حامل الملح والحمار حامل الاسفنج.

28) حكاية رقم 5.

29) حكاية رقم 67.

30) حكاية رقم 65.

وتمتلأ القصة بالفكاهة والدعابة والسخرية اللاذعة من جهل القرد وتحدثه بما لا يعلم وفي حكاية شجرة البلوط والسنبلة[31] يضيفها إلى الأمام السيوطى فيقول :

حكايـــــة عن شجر البلـــوط نقلتهـــا عن شيخنـــا السيـوطي

وهي اقتبـاس من الخرافـة الثـانيـة والعشرين من الكتـاب الأول من خرافات لافونتين. ومما يصطبغ بالطابع المصري الصميم ما نراه في قصـة مـأتم السبع من حرس الأسد على أن يكون الاعزاء في اللبؤة في يوم الخميس ونهار الجمعة تمشيا مع العرف المتبع في مصر للترحم والتعزية :

أمرتكم أن تحضروا في القلعـــــــة يـوم الخميس مـع نهـار الجمعـة[32]

كما استخدم عثمان جلال بعض التعبيرات الشعبية الشائعة في مصر مثل قوله :

أمن ذا النصيب المتفـــــــــــق مـاشفت منكم غير حبر في الـورق

وكل هـذا لتلائم خرافـاتـه الـذوق المصري ولكي لا تكون غـريبـة على المصريين، اذن لم يكن عثمان جـلال مجرد مترجم لخرافـات لافـونتين وإنمـا اطلع عليها واستوعبها استيعابا واعيا ثم قام بتقـديمهـا إلى مواطنيـه بعـد أن ألبسها الزي المصري العربي. يقول الأستاذ عباس محمود العقاد :

أما شاعرنا «عثمان جلال» اليوم فلم يخرج قط عن سبغتـه الوطنيـة ولم يتحول قط عن تفكيره وذوقه بل هو قـد مصر موليير ولافونتين حين ترجم

31) حكاية رقم 55.

32) حكاية رقم 77.

لهذا امثاله ولذلك رواياته وهو لم يترجم الأمثال الوعظية والروايات الفكاهية إلا أنه كان مطبوعا على ضرب الامثال والتنكيت أو على التنكيت في سياق ضرب الأمثال فلم يخرج عن مصريته حين ترجم واقتبس ولكنه بقى مصريا وبقى كما هو على طبيعته ونقل موليير ولافونتين إلى تلك البيئة المصرية وإلى تلك الطبيعة الشخصية[33] والحق أن خرافات عثمان جلال تتميز بالخصائص الفنية لخرافات لافونتين من تجنب للاستطراد وابراز المعنى الخلقي حيا مجسما وتصوير الشخصيات تصويرا محكما ويبدو أن هذا الاتفاق قد نشأ من تشبع الشاعر المصرى بخصائص لافونتين الفنية في الخرافة ومحاولته تطبيقها في خرافاته وهو أول الأدباء العرب الذين تأثروا بلافونتين فيما أعلم عن حيث استقلال الخرافة وقصرها وايجازها. وذلك من أهم ما يميز الخرافة عند لافونتين، وقد أشار عثمان جلال في حكاية النسور والحمام[34] إلى السبب الذي دفعه إلى الاختصار والايجاز فقال :

فلا تسل يا صاحبي عما جرى		بحر دم بين النسور قد جرى
وباختصار لم أطق تفصيلا		ولم أرد لشرحها تطويلا
فالطرس لا يقوى على ترك العلم		كذا من التحليل كلت الهمم

كما يقول في حكاية العجوز وصبيانها والديك[35] :

عنى اسمعوا حكاية العجوز		واصغوا إلى كلامها الوجيز

33) شعراء مصر وبيئاتهم «عباس محمود العقاد» ص 101 ط دار نهضة مصر للطبع والنشر.
34) حكاية رقم 113.
35) حكاية رقم 132.

ومن الخرافات التي اقتبسها عثمان جلال من لافونتين حكاية «السلحفاة والأرنب»[36] والتي يقول فيها عثمان جلال :

حكاية ترجمتها بالعربي	في سلحفاء تسابقت مع أرنب
وحددا حدا على صفح الجبل	وجعلا جعلا لأول وصل
فاستغرق الأرنب نوما واتكل	على قوى سرعته فما اتصل
والسلحفاة داومت في الجد	فوصلت إلى أصول الحد
ومذ ضحا الأرنب جاء يسعى	رأى هناك السلحفاة ترعى
قال : لك الجعل وكل الأجر	كم غافل عن رحمة ولا يدري
سعيت يا أختاه في أعظم كد	وهكذا في السعى«من جد وجد» !

والقصة دعوى إلى بذل الجهد ومواصلة العمل من أجل تحقيق الهدف أو الغاية وعدم الركون إلى المهارات أو القدرات المتفوقة فإنها ربما لا تجدى ولا تثمر مع التواني والتكامل في العمل.

وعلى المرء إذا أراد أن يحقق نجاحا أو تفوقا أن يضع في اعتباره جميع الاحتمالات فقد يعوقه شيء تافه لم يكن يلتفت إليه إطلاقا وتقدم القصة نموذجا حيا متمثلا في «السلحفاء» لطبقة البسطاء الذين يمتلكون في أنفسهم مواهب كثيرة وقدرات فائقة لم يكتشفها أحد فيهم وربما لم يكتشفوها هم في أنفسهم وتحذر القصة من الغرور فإنه ربما كان سببا في الفشل والاخفاق كما كان سببا في اخفاق الأرنب وتفوق السلحفاة عليه.

(36) حكاية رقم 21.

كما اقتبس عثمان جلال خرافة لافونتين «اليمامة والنملة»[37] وأوردها تحت عنوان الحمامة والنملة[38] وفيها يقول :

حمامة، كانت بنهر تشرب	ونملة مرت عليها تلعب
فوقعت في الماء تلك النملة	ولم تجد مخلصا من دجلة
بل نظرتها هذه الحمامة	وهي بوجه الماء في ندامة
فأوقعت عودا لها من حطب	وقالت : اطلعي عليه واركبي
وأقبلت فركبت للسير	وخلصت من عظم هذا الشر
وبعد ذاك أقبل الصياد	له وإلى سفك الدما انقياذ
وجاء فورا يقصد الحمامة	وجعل السنبل على استقامة
وبينما الصياد في التحرى	مراقب لها وقوع الضر
إذا قرصت بالكعب منه النملة	وضيعت نشانه بالجملة
فالتفت الصياد للذى قرص	وخلصها في لفته عن القنص
وسلمت من يده الحمامة	ورجعت للغش بالسلامة

والمغزى في الحكاية واضح جلي ويدور حول ما يكون بين الأصدقاء من تضامن وتعاون وتآلف وتحاب في الأزمنة المختلفة، وتلتقى هذه القصة مع نظيرتها عند لافونتين تماما سواء من حيث المضمون أو من حيث الخصائص الفنية اللافونتية ومما لفت نظري في خرافات عثمان جلال حكاية القوقعة والمدعيان[39] ويبدأها بقوله :

37) وردت في الجزء الثاني من خرافات لافونتين راجع تاريخ الأدب الفرنسي ص 616، ص 617.

38) حكاية رقم 53.

39) حكاية رقم 148.

شخصـــان أقبــلا من الحـــج معى   قــد لقيــا قــوقعــة.. في ينبــع !

وفوق هذا البيت وضع عثمان جلال صورة قسيس وبجـانبـه شخصـان يرتـديـان مـلابس القرون الـوسطى ويمسـك كل منهما قبعـة في يـده وهي اقتباس من خرافات لافونتين.

ولكن مما يميز خرافات عثمان جلال عن خرافات لافونتين أنـه ختم كل حكاية بمغزى خلقى قد يكون من نظمه وقد يكون بيتا عربيـا كاملا فقـد ختم حكاية «الحمامة والنملة» بقول أبي العتاهية :

ومن اغــاث البـــائس الملهــوفــا   اغـــاثـــه اللـــه إذا أخيفـــا(40)

وفي حكاية«الحكيمان» يختتمها بقول معد بن أوس :

لعمرك مـــا أدري واني لأوجــل   على أينـــا تعـــدو المنيـــة أول(41)

وفي حكاية «الكنز والرجلان» يختتمها بقول ابن الهبارية :

والعيش بـــــالرزق والتقـــــدير   وليس بـــالرأي ولا التـــدبير(42)

وقد يقتبس شطر بيت مشهور ويأتي بـالشطر الثـاني من عنـده مثل قوله في حكاية «سيء البخت» حيث يختتمها بهذا البيت :

سمعتــه يشتكي يــومــا فقلت لــه   تأتى الرياح بمـالاتشتهي السفن(43)

---

40) حكاية رقم 53.

41) حكاية رقم 134.

42) حكاية رقم 164.

43) حكاية رقم 183.

وقد يختتم الحكاية بمثل مصرى عامى كامل أو مختصر أو معدل كما نرى في ختام حكاية البنت المعجبة بنفسها التي رضيت آخر الأمر بزوج قبيح حيث يقول :

ولقـــد صـح هــا هنــا قـول من قـــال في النكت[44]
خطبـــوهـــا تعــززت تركـــوهـــا انتـــدمت

وقد يقتبس هذا المغزى من الحديث النبوي الشريف مثل قوله في نهاية حكاية «قبيح الزوجة»[45].

وصـــدق القـــائــل في أفكاره قـــد حفت الجنـــة بـــالمكاره

ويقول في حكاية النهى عن الاسراف[46] خير الأمور من حديث المصطفى.. والله ربى فهو حسبى وكفى.

ويوصى التاجر أولاده في حكاية وصية التاجر لأولاده[47]، فيقول لهم :

أوصيكم في العيش أن تتحـــدوا من ينفرد فشملـــه مبـــدد
واشتركـوا في الرأي والبضـاعـة إن يـد اللـه مـع الجمـاعـة

أما اللغة التي استخدمها عثمان جلال في خرافاته فكانت خليطا من الفصيح الراقى والعامى المعرب وغير المعرب وفي هذا وذاك كان يحرص على أن تكون العبارة قوية الاداء للمعنى.

---

44) حكاية رقم 72.
45) حكاية رقم 197.
46) حكاية رقم 147.
47) حكاية رقم 68.

وكانت عباراته وألفاظه العامية خفيفة لطيفة تضفى على القصة روح المرح وخاصة إذا عربها كما نجد في حكاية الثعلب مقطوع الذنب وفيها يقول[48] :

حكايـة في ذكرها ترى العجب ... عن ثعلب رأيت من غير ذنب
وذاك انـه بفـخ وقعـا ... وفـات فيـه ذيلـه وطلعـا
ثم انـزوى في خـزيـه وانكسفـا ... ومـال بين قـومـه وانعطفـا
وقـال : لابـد اذيـع المكرا ... وأن يكـون الكل مثلى ذعرا
شـاهـدتـه جـاء إلى الثعـالب ... وكان ذا بعـد آذان المغرب
وابتـدأ الازعر في المقـال ... قص عليهم قصـة الاذيـال
وقـال مـا منفعـة الـذيـول ... بـارده، بـاسلـة في الطـول
تكنس من ورائنـا الأراضي ... من منكم بطـولهن راضي ؟
نقطعهـا، ونستريـح منهـا ... فصـدقـوا مـا قـد ذكرت عنهـا
قـال لـه أحـدهم : سمعنـا ... ولكـلام قلتـه اطعنـا
لكن نريـد أن نراك من ورا ... كيف تكـون إن غـدوت ازعرا
فـاحمر حـالا وجهـه من الخجـل ... وراح مكسـوفـا، وولى بـالعجـل
قـال : فردوا مكره اليـه ... وهلكـوا من ضحـك عليـه
وصممـوا جـزمـا على اجتنـابـه ... والمكر لا يطلى على أربـابـه

وتعطى القصة مثالا للشخص الذى يفقد الشيء فيتمنى أن يفقده الآخرون مثله والقصة ظريفة خفيفة على النفس تمتلئ بالفكاهة النادرة والدعابة المرحة وتمتاز بقوة التصوير وتوضيح الشخصيات والمواقف من

48) حكاية رقم 79.

خلال هـذا التصوير الرائع حتى يكاد القـارئ يلمس هـذه الصور لمسـا مثل صورة الثعلب الـذي قطع ذنبـه وهـو يحـاول أن يمكر بـالثعـالب ليقطعـوا أذنابهم مثله وقد وفق الشاعر فيما استخدمه من ألفاظ عامية في هذه الحكايـة للغاية وأظن أنه لو أتى بهذه الألفاظ بـالفصحى لمـا أدت إلى الامتـاع الـذي تؤديه هذه الألفاظ العامية.

وللشاعر حكايات قليلة بالعامية الخالصة استشهد منهـا بقصـة القطـة التي قلبت امرأة[49] وتدور حول معنى عـام يشيع في الفولكور العـالمي وهو أن الطبع يغلب التطبع وفيها يقول عثمان جلال :

زي القصـــة دي مـــا يمكنشى عن راجـــل، ويبيـــع الطرشى
كان لـــه قطـــة جـوا بيتـــه مطرح مـــــا كان يمشى تمشى
من حبـــة فيهـــا يطعمهـــا روس الضـــــانى ولحم الكرشى
قـــال : يـــارب تبـــدلهـــا لى جـــاريـــة من نســوان الحبشى
حبـــة ربـــه.. غيرهـــا لـــه جـــاريـــة تسـوى الفين قرشى
راح الســوق جـــاب نمـوسيـــة قبـل المغرب مـــا اتـــأخرشى
بعـــد المغرب جـــاب يتعشى ويـــاهـــا بـــالقرع المحشى
همـــا على السفرة يتعشـــوا إلا وفـــار في القـــاعـــة يمشي
نطت دى الست اللى بتـــأكل مسكت دى الفـــــار اللى بيمشى
لمـا شـافهـا سيـدهـا تـأكلـه حتى جلـــده.. مـــا ترمهشى
قـال : يـارب اسخطهـا قطـة دا اللى فهشي.. مـــــا يخلهشي

(49) حكاية رقم 95.

ويبدو أن الشاعر عثمان جلال في استخدامه للعامية على هذا النحو كان يساير طبيعة عصره وذوق مواطنيه الذين انصرفوا عن الشعر إلى الزجل فحاول الأدباء أن يقدموا اليهم ما يتفق وأذواقهم من زجل وأشعار يختلط فيها العامي بالفصيح كما نجد عند عثمان جلال وكما نجد عند كل من معاصريه عبد الله النديم وعلى الليثي مات سنة 1896م ولهما أشعار وأزجال كثيرة تمتلىء بالفكاهة والدعابة والنقد والسخرية في نفس الوقت[50] وهي خليط من الفصيح والعامى.

وقد ذاعت خرافات عثمان جلال ذيوعا عظيما ورددها المصريون صغارا وكبارا وعرفت طريقها إلى كتب الأطفال بعد أن أدرك مؤلفوها قيمة حكايات الحيوان ودورها التربوي التعليمي بالنسبة للطفل فقاموا بنشر خرافات عثمان جلال أو نظمها شعرا مبسطا ليلائم عقلية الطفل.

ثانيا : خرافات أحمد شوقي 1868 ـ 1932م

ومن الذين تأثروا بالشاعر الفرنسي لافونتين أمير الشعراء أحمد شوقي 1868 ـ 1932 ـ فقد ألف أحمد شوقي اثنتين وخمسين خرافة ضمنها الجزء الرابع من الشوقيات نسج فيها على منوال الشاعر الفرنسي لافونتين حيث أجراها على لسان الحيوان وأخضعها للخصائص الفنية والبناء الدرامي لخرافات لافونتين والتي سبق أن أشرنا إليها في صدر هذا البحث وقد شاعت خرافات أمير الشعراء شيوعا عظيما بين المصريين وخاصة أحداثهم كما

50) قصص الحيوان ـ عبد الرزاق حميدة ص 210.

تنـاولتهـا كتب التلاميـذ في المراحل التعليميـة الاولى كالثعلب الـذي برز في ثيـاب الـواعظين وأراد أن يخـدع الـديـك لـولا فطنــة الأخير إلى حيلتــه والأرانب التي استطاعت بذكائها وحسن تدبيرها أن تتخلص من الفيل الذي كان ينغص عليها حياتها ويهددها من وقت لآخر.

وقد صرح أحمد شوقي بتـأثره في خرافـاتـه بـالشـاعر الفرنسي لافونتين حيث يقول : «وجربت خـاطرى في نظم الحكايـات على أسلـوب لافـونتين الشهير وفي هذه المجموعة شيء من ذلك»[51].

على أن تـأثر أحمـد شوقي بلافـونتين كان تـأثر الأديب الـواعي الـذي يخضع في كل ما يبدعه وما يقدمه لجمهوره لـذوق مواطنيـه وظروف مجتمعـه وأحوال بلاده ولـذا لم يعمـد أحمـد شوقي إلى نقل خرافـات لافـونتين كما هي وإنما قام باقتباس الفكرة العامة للحكاية وتقديمها في ثوب جديد كل الجـدة يختلف تماما عن هذا الذي كانت تلبسه عند لافونتين ثوب يصطبغ بالطـابع المصرى ويتلائم مع الظروف التي كانت تمر بهـا الأمـة المصريـة آنـذاك ولـذا تمكنت خرافــات أمير الشعراء من نفــوس المصريين وتغلغلت في أعمــاقهم واستزجت بعواطفهم ومشـاعرهم وأحـاسيسهم وهـذا مـا يـذكره أحمـد شـوقي حيث يقول «.. فكنت إذا فرغت من أسطورتين أو ثلاث اجتمـع بـأحـداث المصريين واقرأ عليهم شيئـا منهـا فيفهمـونـه لأول وهلـة ويـأنسـون إليــه ويضحكون من أكثره»[52].

51) الدكتور محمد صبرى الشوقيات المجهولة ص 33 (ط دار الكتب بالقاهرة سنة 1961).

52) السابق ص 33.

ومن حكايات أحمد شوقي التي تصور واقع الأمة المصرية في ذلك الوقت حكاية «أمة الأرانب» والتي يبدأها أحمد شوقي بقوله :

يحكون أن أمة الأرانب	قد أخذت من الثرى بجانب
وابتهجت بالوطن الكريم	وموئل العيال والحريم
فاختاره الفيل له طريقا	ممزقا أصحابنا تمزيقا
وكان فيهم أرنب لبيب	اذهب جل صوفه التجريب
نادى بهم يا معشر الأرانب	من عالم وشاعر وكاتب
اتحدوا ضد العدو الجافي	فالاتحاد قوة الضعاف
فأقبلوا مستصوبين رايه	وعقدوا للاجتماع رايه

ثم تمضي القصة فتروى أن الأرانب قد انتهت إلى خطة محكمة استطاعت عن طريقها أن تتخلص من الفيل وجبروته إلى الأبد وأن تنعم بعد ذلك بالأمن والسلام.

وقد أبدع أحمد شوقي في وصف واقع الأمة المصرية في هذه القصة عن طريق الرمز الموحى تلك الأمة التي كانت تعيش مطمئنة قانعة بأرضها مغتبطة بوطنها وإذا عدو غاشم اثيم يغتصب أرضها ويستهين بها وبحقوقها ويعبث بها وبإرادتها وقد كان هذا ناقوس الخطر الذي أيقظها من غفوتها وانهضها من سباتها العميق وإذا بأبنائها يجتمعون تحت راية واحدة ويقفون وقفة رجل واحد في مواجهة المستعمر الغاشم الاثيم.

وقد أبدع أحمد شوقي في الوصف العبقري لما دار في هذا الاجتماع حيث يدلى كل عضو من الأعضاء المجتمعين برأيه ويتخذ الشاعر من المحاورات التي دارت بين هؤلاء الأعضاء وسيلة لتنبيه الأمة للخطر الذي

يداهمها ولم يغفل الشاعر أن يحذر المصريين من الاستسلام للمستعمر الغاصب وذلك حين دعى أحد أعضاء المؤتمر إلى الاستسلام للفيل وترك الأرض له فتصيح الأرانب في صوت واحد «هذا أضر من أبي الأهوال».

كذلك لم يغفل شوقي أن يحذر المصريين من خطر الاستعانة بالعدو في مواجهة العدو القريب وذلك حين رأى العضو الثاني الاستعانة بالثعلب في مواجهة الفيل فيرد عليه صوت الجماعة المؤتمرين الذين يمثلون رأي الشعب بأثره :

فقيل : لا يا صاحب السمو　　　لا يدفع العدو بالعدو

وهذا إدراك ذكي من الشاعر لما يدور بين الشعب من الأحاديث والآراء وما يدب في نفوس أفراد هذا الشعب من يأس أحيانا يدفعه إلى الاستعانة بعدو ليخلصه من العدو المحتل لأرضه ولكن إرادة الشعب تنتصر في النهاية وتتحقق الحرية على أيدي أبنائه العقلاء المخلصين الذين يجمعون الرأي على القيام بعمل جماعي يخلصهم مما حل بهم حيث حفرت الأرانب حفرة في طريق الفيل فسقط أثناء مروره عليها ثم عاشت الأرانب بعد ذلك في أمان وسلام.

وفي القصة تلميح إلى أن الأمة إذا اتحدت واجتمعت تحت راية واحدة استطاعت أن تحقق آمالها ويبدو شوقي في هذه القصة مصلحا اجتماعيا من طراز منقطع النظير فهو يجسد لمواطنيه الخطر الذي يحدق بهم والذي يتمثل في المستعمر المستبد ثم هو يرشدهم إلى طريق الخلاص وهو الاتحاد ضد هذا العدو وهل فعل روسو وفولتير وديدور في فرنسا أكثر من أنهم وضعوا أيديهم على مواطن الداء وبالغوا للفرنسيين في تصوير البلاء حتى أحس

النـاس يومئـذ أنهم مظلومـون ثم كان إحسـاسهم بـالظلم هـو وحـده السبب الحقيقي في قيام الثورة الفرنسية[53].

ولشوقي العديد من الحكايات التي يبدو فيها مصلحا اجتماعيا على هـذا النحو يدعو إلى الاصلاح الاجتماعي الـذي لا يتحقق الا بـاتحـاد الشعب في مواجهة الاستعمار وأن تتولى الأمة بنفسهـا اختيـار القـائمين على أمورهـا ممن تثق بوطنيتهم وتفانيهم في حب مصر كي لا يكون شأنها شأن الأسد الذي لم يحسن اختيار وزيره الحمار فأثار الأمة كلها عليـه وفقـد هيبتـه ووقـاره بين شعبه واستخفت به رعيته :

اللیث ملـــك القفــار — ومــا تضم الصحــاری
سعت اليـــه الرعـــايـــا — يـــومـــا بكل انكســـار
قـــالت تعیش وتبقی — يـــا دامی الاظفـــار
مـــات الـــوزير فمن ذا — يســوس أمر الضــواری ؟
قـــال الحمـــار وزيري — قضى بهـــذا اختيـــاری
فـــاستضحكت ثم قـــالت — «مـــاذا رأى في الحمـــار ؟»
وخلفتـــه وطـــارت — بمضحـــك الاخبـــار
حتـــی إذا الشهـــر ولـــی — كليلـــة أو نهـــار
لـــم يشعـــر الليـــث إلا — وملكـــه في دمـــار
القرد عنـــد اليمين — والكلب عنـــد اليســـار
والقـــط بين يـــديـــه — يلهـــو بعظمـــة فـــأر !

---

(53) التاج في أخلاق الملوك ص 26 لأحمد زكى باشا.

فقـــــال من في جـــــــدودى مثلي عـــــديم الـــوقـــــار !
أين اقتـــــــــــداری وبطشي وهيبتي واعتبـــــــــاري ؟!
فجـــــــــــاءه القرد سرا وقـــــال بعـــــد اعتـــــذار
يـــا عـــالي الجـــاه فينـــا كن عـــــالى الأنظـــــار
رأى الرعيـــــــــــــة فيكم من رأيكم في الحمــــــــــار

ويعكس شوقي في خرافاته صورة من الزيف والنفاق اللذين يؤديان بالأعداء أحيانا إلى التصافى والتحاب لمواجهة العدو المشترك ولكن هذا التصافى لا يلبث أن يزول بمجرد زوال السبب الذي أدى إليه كما نجد في قصة «الكلب والقط والفأر» وفيها يقول شوقي :

فـــأر رأى القـــط على الجـــدار معـــذبـــا في أضيـــق الحصـــار
والكلب في حـــالتـــه المعهـودة مستجمعـــا للـــوثبـــة المـــوعـودة
فحـاول الفـأر اغتنـام الفرصـة وقـال اكفى القـط هـذى الغصبـة
لعلـــه يكتب بـــالامـــان لي ولأصحـــــابي من الجيران
فســـار للكلب على يـــديـــه ومكن التراب من عينيـــــه
فـــاشتغـل الراعي عن الجـــدار ونـــزل القـــط على بـــدار

ثم تمضى القصة فتحدثنا أن القط ما لبث أن تخلص من مأزقه حتى انقض على الفأر فالتهمه التهاما دون رحمة أو شفقة :

وانقض في الحـــال على الضعيف يـــأكلـــه بـــالملـح والرغيف
فقلت في المقـــام قـولا شـــاعـــا «من حفـظ الأعـداء يومـا ضـاعـا»

وهناك من الباحثين من يرى أن شوقي قد تأثر في خرافاته بكتاب كليلة ودمنة لا بخرافات لافونتين بينما يرى فريق آخر أن تأثر شوقي إنما كان في المقام الأول بخرافات لافونتين لا بكتاب كليلة ودمنة[54].

ونحن مع الفريق الثاني ودليلنا على ذلك، ماصرح به أحمد شوقي في مقدمة ديوانه الشوقيات كما سبق أن أشرنا وكان شوقي يتقن الفرنسية وقد سافر إلى فرنسا واطلع فيها على روائع الأدب الفرنسي وكانت خرافات لافونتين آنذاك عظيمة الشيوع لدى الأوساط الأدبية الفرنسية والمرجح عندي أنه اطلع عليها وتأثر بها ونسج على منوالها في خرافاته.

وأما ما يحتج به أنصار الرأي الأول من وجود حكايات تتحد في فكرتها العامة بل وفي شخوصها الحيوانية أحيانا عند كل من شوقي وابن المقفع مثل قصة «أمة الأرانب» عند شوقي و«الفيل والقبرة» في كتاب كليلة ودمنة فلا ينهض أن يكون دليلا على تأثر شوقي بابن المقفع فإن هذه الحكايات قليلة جدا ولا تمثل الا قدرا قليلا من خرافات أحمد شوقي بالاضافة إلى أن الأفكار التي اشتملت عليها أفكار عامة وجدت عند ابن المقفع كما وجدت عند غيره بل بلغت من الشيوع والشهرة ما جعلها تتردد على الألسنة في كل زمان ومكان. ومن هنا من لا يردد مثل هذه الأفكار العامة عن الظالم الذي يستبد بمن هو دونه فلا تمكنه السماء من ذلك بل تنتقم منه شر انتقام ولا يلبث أن يلقى مصيره المؤلم على يديها.

---

54) دور الأدب المقارن في توجيه دراسات الأدب المعاصر ص 79 ط جامعة الدول العربية سنة 1963. للدكتور محمد غنيمي هلال.

بالاضافة إلى أن تأثر شوقي بلافونتين يبدو واضحا جليا في هذه الحكايات نفسها من حيث التأثر بالإطار الفني والخصائص الفنية والبناء الدرامى عند لافونتين حيث يتطور أمير الشعراء بالحدث دراميا ولا يقفز إليه فجأة كما يفعل ابن المقفع في خرافاته ونحن نجد في قصة شوقي «أمة الأرانب» أن الشاعر يتطور بالحدث دراميا حيث يبدأ الحدث بالخطر الذي يحيط بالأرانب ثم يتطور الحدث إلى المرحلة الثانية وتتمثل في المؤتمر الذي بدأ فيه كل عضو برأي وبعد ذلك يتطور الحدث إلى المرحلة الثالثة وتتمثل في تنفيذ الخطة التي اقرها المؤتمر والتي خلصت الجماعة من ظلم الفيل وطغيانه.

وقد رأينا مثل هذا التطور الدرامي للحدث في قصة «طاعون الوحوش» عند لافونتين حيث يبدأ الحدث بهذا الخطر الذي يداهم الجماعة ثم بعد ذلك يتطور إلى المؤتمر الذي يدلي فيه كل عضو برأيه وأخيرا يتطور الحدث إلى المرحلة الثالثة وتتمثل في الحل وهو افتراس الحمار.

وأما عن قصة الفيل والقبرة التي تدور حول نفس فكرة قصة «أمة الأرانب» فإنها تختلف في بنائها الدرامي اختلافا بينا عن قصة شوقي فنجد فيها الانتقال الفجائي للحدث دون التمهيد له فهناك الخطر الذي يداهم القبرة من الفيل ولكنها لا تلبث أن تجد الحل الذي يخلصها من الخطر الذي يداهمها ويريحها من العدو الذي يستبد بها وهذا الحل سرعان ما تحصل عليه القبرة دون أي مجهود ودون أن تبذل في سبيله حتى مجرد التفكير بل قل دون أن تبحث عنه ولم يكن عليها سوى أن تنفذه بمساعدة صاحباتها.

وهكـذا يقفز ابن المقفع من المشكلـة إلى حلهـا دون تمهيـد ومن جهـة أخرى فـإن أمير الشعراء يصـدر في خرافـاتـه من واقع مـألوف عمـا يقـع في الحياة العادية حقيقة شأنه في ذلـك شـأن لافونتين وكلاهمـا يختلف عن ابن المقفع الذي كان يصدر في خرافاته عن مثالية يعز وجودها بل قد يستحيل في كثير من الأحيان أنظر إلى «الحمامة المطوقة»[55] في كتـاب كليلـة ودمنـة تؤثر صاحباتها على نفسهـا وتطلب من صـديقهـا الجرذ أن يخلصهن قبل أن يخلصها وانظر بعد ذلك إلى «الجرذ والظبي والغراب» كيف تضحى بـأنفسهـا في سبيل انقاذ صديقتها السلحفاء.

وهـذه مثـاليـة يعز وجودهـا بل يستحيل إلا عنـد حيوان ابن المقفع وأما حيوان شوقي فإنه يعبر عن الواقع المألوف وينطق بما يتحقق في الحيـاة العادية.

وإذا بـالثعلب شيخ الغش والخـداع يبـدو في مظهره المزيف ليخـدع الديك :

برز الثعلب يــــــومـــــــا	في شعـــــار الـــواعظينـــــا
فمشى في الأرض يهـــــــذى	ويسب المــــــاكرينــــــا
ويقـــول الحمـــــد للـــــه	الـــــه العـــــالمينـــا
يـــا عبـــاد اللـــه تـــوبـــوا	فهـــو كهف التـــائبينـــا
وازهـــــــــــدوا في الطير	إن العيش عيش الـزاهـــدينـــا
واطلبـوا الـــديـــك يـــؤذن	لصـــلاة الصبـــح فينــــا

---

55) أنظر باب الحمامة المطوقة.

وما أجمل أن يطابق شوقي بين الرمز الحيواني والمرموز اليه في القصة السابقة فالثعلب هنا رمز للغش والمكر والخداع وهذا هو شأن الثعلب في الواقع وشوقي حين يطابق بين الرمز والمرموز اليه على النحو يتفق تماما مع لافونتين كما سبق أن أشرنا ويختلف عن ابن المقفع الذي تبتعد رموزه الحيوانية عن مرموزها في كثير من الأحيان انظر إلى اللبؤة يقدمها الينا ابن المقفع كرمز للشفقة والرحمة والعطف والحنان حتى أنها تحرم على نفسها أكل اللحوم وتتمنع عن افتراس الحيوانات رحمة بها واشفاقا عليها وما أبعد اللبؤة في واقعها عن هذه الصفات.

وأخيرا فإن شوقي لا يعمد إلى أسلوب ابن المقفع في الاستطراد من قصة إلى أخرى وبدء القصة بالتساؤل والاستفهام كيف ذلك ؟ وكيف كان ذلك إنما يتبع شوقي أسلوب لافونتين وخصائصه الفنية في الخرافة حيث يقدم إلينا شوقي خرافاته بإطارها الفني الذي عرفت به عند لافونتين وقد أعطى فيها شوقي كل خرافة من خرافاته وحده مستقلة بعيدا عن تداخل هذه الخرافات وبدئها بالتساؤل والاستفهام الذي عرفت به في كتاب كليلة ودمنة.

ومن الخرافات التي اقتبسها شوقي من لافونتين حكاية الغزال والكلب وفيها يقول أمير الشعراء :

كان فيما مضى من الدهر بيت ... من بيوت الكرام فيه غزال
يطعم اللوز والفطير ويسقى ... علا لم يشبه إلا الزلال
فأتى الكلب ذات يوم يناجيه ... وفي النفس ترحه وملال
قال : يا صاحب الأمانة قل لي ... كيف حال الورى وكيف الرجال؟

فأجاب الأمين وهو القئول الصادق الكامــــل النهى المفضـــــــال
سائلي عن حقيقة النـاس عـذرا ليس فيهم حقيقـــة فتقــــال
إنمـــا هم حقـــــد وغش وبغض وأذاه وغيبــــــة وانتحـــــال
ليت شعري هل يستريح فؤادي ؟ كم اداريهم او كم احتـــــــال
فرضـا البعض فيه للبعض سخـط ورعـــا الكل مطلب لا ينـــال
ورضـــا اللـــه نرتجيـــه ولكن لا يـؤدي إليـــه إلا الكمـــال
لا يغرنـك يـا أخـا البيـد من مـو لاك ذاك القبـــول والاقبـــال
أنت في الاسر ما سلمت فإن تمرض تقطــع من جسمـــك الأوصـــال
فاطلب البيد وارض بالعشب قوتـا فهنــــاك العيش الهنى الحـــلال
أنـا لـولا العظـام وهي حيـــاتي لم تطلب لي مـع ابن آدم حـــال

والقصة اقتباس من الحكاية الخامسة من الكتـاب الأول من خرافـات لافـونتين وهي تلتقي معهـا تمـامـا سـواء من حيث المضمون أو من حيث الخصائص الفنية اللافونتينية.

ثالثا : خرافات الشاعر جبران النحاس :

ألف جبران النحـاس ستـا وتسعين خرافـة ضمنهـا كتـابـه تطريب العندليب من بينها سبعا وخمسين فابولا حيوانية.

ويشيد جبران النحاس في مقدمـة كتـابـه بـالشـاعر الفرنسي لافونتين وببراعته في تأليف الخرافات الحيوانية وتفوقـه في هـذا الفن على «ايسو يس» فيقول :

ولعل أبرع من اشتهروا بنظم هذه الأساطير وأطرفهم من الغربيين الشاعر الفرنسي لافونتين وقد أفرغها في ألطف قالب من شعره الفرنسوى الذي لا يؤدي رشاقته إلى نقل أو تعريف وكساها من براعته وحسن ديباجته ما ضرب به على المتقدمين وأعجز المتأخرين حتى أصبحت بحق منسوبة اليوم إليه فإن «ايسويس» مثلا يذكر الواقعة بكلمتين هي بمقدمتي القياس أشبه منها بالقصة ثم يستخرج منها نتيجة منطقية هي المغزى وأما لافونتين فإنه يبرزها في قالب روائي[56].

ويذكر جبران النحاس فضل كل من لافونتين وابن المقفع عليه في تأليف خرافاته فيقول :

ولا أرى مندوحة أن أثني — على فتى كان أمام الفن
ابن المقفع البليغ من خلص — لفضله الابداع في حسن القصص
وهو الذي جاز مدى اشكاله — فلا فتى حاك على منواله
فكان من طرازه تطريزى — كالصفر جنب الذهب الا بريز
ثم لفنتين نسيج وحده — من لم يدان شأوه من بعده
لأنني من جوده استقيت — وسنا نبراسه اهتديت

ومع أن الشاعر ينص في الأبيات السابقة على أنه قد استقى خرافاته من كل من ابن المقفع ولافونتين فلا أرى في خرافاته أي أثر لحيوان ابن المقفع لا من حيث المضمون ولا من حيث الخصائص الفنية في حين أراه متأثرا في هذا وذاك بلافونتين، فهناك العديد من خرافات جبران النحاس

---

56) تطريب العندليب لجبران النحاس ص 10 ـ 11 ط البصرة ـ الاسكندرية سنة 1950.

قد وردت بمضمونها من قبل عند لافونتين بالاضافة إلى الخصائص الفنية اللافونتينية للخرافة التي نسج على منوالها جبران النحاس وغيره من الادباء والشعراء العرب.

ومن خرافات الشاعر جبران النحاس استشهد بقصة شورى الجرذان التي يقول فيها :

يحكون عن هر خبيث كانا ديدنه أن يخنق الجرذانا
فالتأمت منهن يوما زمرة تحتال حيلة تقيها شره
وبعدما نظم سلك المؤتمر وسدد الآراء أنعام النظر
قلن السبيل لاتقاء رهقه أنا نشد جلجلا في عنقه
حتى إذا دنا من المنازل أيقظ بالطنين كل عاقل
فطارت الهيعة في الخيار ولاذت الجرذان بالسفرار
فاحضروا الجلجل والخيط معا وفاق ما الرأي عليه اجمعا
وصاح في الحشد كبير المحفل الا فتى يعقد خيط الجلجل
فقلن له لقد بقى أشده فإنما المعضل في عقده[57]

وتتحقق في القصة الخصائص الفنية للخرافة عند لافونتين حيث يطابق جبران بين الرمز الحيواني والمرموز إليه فالقط في القصة رمز للخبث والغدر والافتراس وهذا هو شأن القط في الواقع والجرذان رمز لتلك الطبقة المستضعفة المستذلة التي تستبد بها القوى الباغية وهذا أيضا هو شأن الجرذان في الواقع كما يقدم إلينا الشاعر خرافته مستقلة ومجردة عن أسلوب ابن المقفع

57) السابق ص 67 ـ 68.

في تداخل الحكايات والاستطراد من قصة إلى أخرى وبدء القصة بالتساؤل والاستفهام كيف ذلك وكيف كان ذلك ؟

ومن جهة أخرى يتطور جبران النحاس في قصته بالحدث دراميا شأنه في ذلك شأن لافونتين فداء القط منذ بدأ الخليقة وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها هو افتراس الجرذان والتهامها دون شفقة أو رحمة وهذا هو الغرض ثم اجتماع الجرذان للتشاور في أمر القط الشرس وهذا التطور الأول للموقف المعروض ثم المناقشات والمحاورات التي تدور بين الجرذان في الاجتماع وهو التطور الثاني ثم التطور الاخير وهو النهاية أي انصراف الجرذان دون الوصول إلى حل مقنع للمشكلة المزمنة لأن أحدا منها لم يستطع أن يدنو من القط ليعلق الجلجل في عنقه.

ومن قبل جبران النحاس أورد عثمان جلال القصة نفسها تحت عنوان جماعة الفيران(58) ويبدأها بقوله :

اجتمع الفيران في جمعية واتحدوا مع بعضهم سوية
واكثروا من جريهم والنط يخترعون حيلة للقط

والقصة اقتباس من الحكاية الرابعة والثلاثين من الكتاب الثاني من خرافات لافونتين.

وبالمقارنة بين خرافات كل من لافونتين وعثمان جلال وأحمد شوقي وجبران النحاس وجدت أن عددا كبيرا من خرافات الأخير وردت من قبله

58) العيون اليواقظ محمد عثمان جلال حكاية رقم 35.

عند عثمان جلال وبعضا منها ورد عند شوقي ومعظمها ورد قبلهم جميعا عند لافونتين.

وقد رأينا في القصة السابقة شورى الجرذان أنها جاءت قبل جبران النحاس عند عثمان جلال وقبل هذا وذاك عند لافونتين، ونجد مثل هذا في قصة الكلب والذئب التي يبدأها جبران النحاس بقوله :

ذئب غـــدا كأنـــه من الطـوى   شـــد ازار ضمره على الحشــــا

وقد وردت هذه القصة عند شوقي بعنوان الكلب والغزال كما نظمها لافونتين في الحكاية الخامسة من الكتاب الأول.

ولم أجد عند جبران النحاس قصة واحدة مقتبسة من لافونتين غير واردة عند أي من عثمان جلال أو أحمد شوقي مما يجعلنا نعيد النظر فيما صرح به جبران النحاس في مقدمة كتابه من اقتباسه من لافونتين فلم لايكون جبران النحاس قد اقتبس خرافاته من عثمان جلال وأحمد شوقي وتأثر بهما وإذا كانت خرافاته تصطبغ بالصبغة اللافونتينية من حيث المضمون ومن حيث الخصائص الفنية كما سبق أن أشرنا فلأن خرافات هذين الشاعرين المصريين قد اصطبغت من قبل بهذه الصبغة إلى جانب الطابع المصرى الذى اطغاه كل منهما على خرافاته، وهذا يعنى أن تأثر جبران النحاس بلافونتين لم يكن بطريق مباشر إنما تم بواسطة هذين الشاعرين المصريين.

ومما يؤيد هذا الظن ما نراه عند جبران النحاس من خرافات لاتوجد عند لافونتين في حين أنها توجد عند عثمان جلال مثل قصة «الحمار في جلد السبع» وفيها يلبس الحمار جلد السبع وينتحل شخصيته فيثير الذعر

والرعب في الناس ويفرون منه ولكن سرعان ما ينكشف أمره لديهم فينتقمون منه شر انتقام.

وقد نظم عثمان جلال هذه الخرافة في الحكاية التاسعة والثلاثين من العيون اليواقظ ويبدأها بقوله :

قد لبس الحمار جلد السبع   فانتفخت أجنابه بالطبع
وراح في أزقة المدينة   يزأر مثل الليث في العرينة
فنظرته من خباها الناس   وغرها الهيئة واللباس
وفزعوا منه وسدوا الدورا   وأغلقوا في وجهه القصورا

ويروى جبران النحاس هذه الخرافة فيقول :

رأى الحمار مرة أن يرتدي   لكي يهابوه بجلد الأسد
فخافه الناس حيث دبا   طار بقلوب الناظرين رعبا

وتحذر القصة من الزيف والخداع كما تحذر من هؤلاء المزيفين المخادعين اللذين يحاولون أن يغشوا الآخرين بمظهرهم المزيف كما تشير القصة إلى أن الحقيقة لابد أن تظهر وتنكشف يوما مهما طال انتظار هذا اليوم ومهما حاول البعض التكتم عليها.

ولا ترد هذه القصة في خرافات لافونتين في حين وردت عند كل من عثمان جلال وجبران النحاس مما يجعلنا نرجح تأثر جبران النحاس بعثمان جلال في المقام الأول.

ومن خرافات لافونتين التي أراها عند كل من جبران النحاس وعثمان جلال والتي تنتشر انتشارا كبيرا عند غيرهما من مؤلفي الخرافات في أدبنا

العربي الحديث خرافة طاعون الوحوش التي أشرنا إليها من قبل وفيها يقول جبران النحاس :

الأرض إذا أغضبت السماء استمطرت من سخطهـا بـلاء
يهلـك مـا لا تهلـك القرون وكيف لا وإنـه الطـاعـون

ومن قبل جبران النحاس قال عثمان جلال في هذه الخرافة نفسها[59].

قد وقع الطاعون في الوحوش وجمع السبـاع بـالكبـوش
حتى أصيب كل من بـالغـابـة بما جناه غـايـة الاصـابـة

والذي يقرأ الخرافة عند الشعراء الثلاثة يدرك لأول وهلة أن عثمان جلال كان أقرب إلى لافونتين من جبران النحاس وأن خرافته تتشابه إلى درجة كبيرة مع شقيقها اللافونتينية.

وإذا صح ظننا في أن تأثر جبران النحاس بلافونتين كان من خلال عثمان جلال فإن الأمر حينئذ يكون طبيعيا إذ أن درجة التأثر تكون عادة أقل وأضعف إذا تم التأثر بطريق غير مباشر بل بواسطة أديب آخر.

وسواء تأثر جبران النحاس في مثل هذه الخرافة بلافونتين أو بعثمان جلال فالنتيجة النهائية واحدة وهي اان بصمات لافونتين ستظل واضحة جلية على الخرافات الحيوانية في أدبنا العربي الحديث وأن أدباءنا وشعراءنا قد تأثروا بلافونتين سواء كان هذا التأثر بطريق مباشر أو بواسطة أديب تأثر أولا بلافونتين ثم أثر بدوره في أديب آخر فالنتيجة النهائية واحدة وهي اصطباغ هذا وذاك بطابع لافونتين وبخصائصه الفنية في الخرافة.

---

59) حكاية رقم 37 من العيون اليواقظ.

رابعا : أدباء آخرون :

وإلى جانب ما ذكرنا هناك عدد كبير من الأدباء والشعراء العرب ساهموا في نقل لافونتين إلى أدبنا العربي الحديث.

ومن هؤلاء الأدباء الشاعر ابراهيم العرب الذي نظم تسعا وتسعين خرافة ضمنها كتابه (آداب العرب) حاكى فيها خرافات لافونتين في الخصائص الفنية وكذا في المضمون وشعره بصفة عامة جيد فيما عدا القليل منه وهو يختم كل خرافة بالمغزى الخلقي الذي تدور حوله الحكاية على نحو ما نجد عند عثمان جلال وهو يحسن التمهيد للمغزى حتى يتلائم مع الحكاية ولا يبدو منفصلا عنها ومعظم هذه النهايات اقتباسات من أشعار العرب والقليل منها من تأليفه ويغلب عليه الركاكة وقد ختم ابراهيم العرب كتابه بخاتمة جمع فيها حكما وأمثالا ومواعظ وضمنها نماذج بشرية وشعر هذه الخاتمة رهين قوى.

ومن خرافات الشاعر ابراهيم العرب استشهد بخرافة الطاووس الذي أظهر إعجابه واختال بين الورد والآس، فتصدى له عصفور يختال ويزهو مثله :

فقام من حولها طائر	يرميها بالمنطق القاسى
فقال : كل منكما معجب	وغافل عن عيبه ناس
لو نظر الناس إلى عيبهم	ما عاب إنسان على الناس

ومن هـؤلاء الشعراء أيضـا رزق اللـه حسـون[60] الـذي نظم احـدى وأربعين خرافة ضمنها كتـاب النفـاثـات[61] حـاكى فيهـا الاطـار الفني عنـد لافونتين واقتبس مضامينها من ابن المقفع.

ومن بين هؤلاء الشعراء أيضا أحمد فارس الشـديـاق الـذي نظم تسعـا وستين خرافـة ضمنهـا كتـابـه «اللفيف في كل معنى ظريف» نسـج فيهـا على منوال لافونتين من حيث الخصائص الفنية والبناء الدرامي واقتبس مضمونها من كليلة ودمنة عدا القليل منها فمن تأليفه.

وهكذا ينتقّل لافونتين بخرافاتـه إلى أدبنـا العربي الحـديث من خلال هؤلاء الأدبـاء والشعراء العرب الـذين قـدروا قيمـة الرمز في هـذه الخرافـات فراحوا يحاكونـه وينسجون على منوالـه وإذا بخرافـات هؤلاء الأدبـاء تنتشر انتشـارا عظيمـا في كتب الأطفـال وفي كتب القراءة المـدرسيـة مثـل قصـة الثعلب والديك لأمير الشعراء أحمد شوقي والتي أشرنا إليهـا آنفـا فهي تنتشر انتشارا عظيما في كتب القراءة المدرسيـة ويرددهـا الأطفـال وينشـدونهـا في البرامج الاذاعية والتليفو يونية للأطفال.

ويرجع السبب في انتشار هذه الحكايات على هذا النحو إلى أن علماء النفس والتربيـة قـد اهتمـوا ببيـان قيمـة هـذه الحكايـات في تهـذيب أخـلاق التلاميـذ وتنمية خيـالهم واتسـاع دائرة إدراكهم ومعـارفهم وتعليمهم أسـاليب اللغة والبلاغة وقد اعتمد هؤلاء العلمـاء على دراسـاتهم التربويـة والنفسيـة في

---

60) راجع ترجمته في تاريخ آداب اللغـة العربيـة لجرجي زيـدان ج 4 ص 248 (ط. دار الهلال بالقاهرة) بتحقيق الدكتور شوقي ضيف.

61) النفاثات لرزق الله حسـون حماد ط لندن عام 1867م.

وضع الأسس التي يجب أن ترتكز عليها هذه الحكايات والشروط التي يجب أن تتوافر فيها حتى يتحقق الهدف الذي وضعت من أجله وهو تربية أخلاق الأطفال وتنبيه أذواقهم وخيالهم ووجدانهم واتساع دائرة إدراكهم ومعارفهم.

وقد روعي في هذه الحكايات أن تتنوع وتختلف حسب مستويات الأطفال وحسب أعمارهم ولذا تنوعت حكايات الحيوان تنوعا كبيرا واختلفت باختلاف أعمار الأطفال كما روعي فيها الجانب التعليمي للغة ولعلم التاريخ الطبيعي فعمد واضعوها إلى الارتقاء في الأساليب اللغوية في هذه الحكايات من سنة إلى سنة وعمدوا إلى زيادة الثروة البلاغية واللغوية عند الأطفال من خلال هذه الحكايات كما قدموا في ثناياها المعلومات إلى الأطفال كحقائق ثابتة من التاريخ الطبيعي لا خيال فيها فهي وإن جاءت على لسان الحيوان فانها تقدم إلى الأطفال معلومات وحقائق علمية من خلال حديث الحيوان عن نفسه.

ومن هذه الحكايات ما جاء على شكل مغامرات أو محاورات بين الحيوانات ومن خلال هذه المحاورات والمغامرات تقدم المعلومات إلى الأطفال أيضا ونتيجة لكل هذا تنوعت حكايات الحيوان تنوعا كبيرا فكان منها الاسطورى ومنها الحقيقي وكان منها المنقول أو المقتبس عن الشرق القديم والمقتبس من الغرب الحديث المترجم كما كان منها ما هو موضوع وما هو منقول نقلا دقيقا أو بتصرف وكان منها المطول ومنها المختصر وجاء بعضها في كتب خاصة بحكايات الحيوان وجاء بعضها الآخر مع قصص أخرى في كتب القراءة المدرسية للأطفال وانتشر في جميع أنحاء العالم نوع

من الفابولات الحيوانية ينشأ فيها الحيوان بين أفراد الأسرة وينمو مع نمو طفل فيها صديقا ورفيقا ومن خلال مراحل النمو المختلفة للحيوان والطفل وما يتخلله من مواقف وأحداث ومغامرات تقدم إلى الأطفال مبادئ الأخلاق والتهذيب وآداب السلوك ثم أن هذا الحيوان كثيرا ما يكون له مواقف ومغامرات ومحاورات مع حيوانات أخرى في نفس القصة تكشف عن طبيعة هذه الحيوانات ومراحل نموها المختلفة كما نجد في قصة نسيج العنكبوت للكاتب الانجليزي (وايت) E.B. White والتي يقدم فيها الكاتب معلومات متنوعة ومفيدة عن الخنازير والعنكبوت وذلك من خلال مواقف ولبر Welber الخنزير مع صديقته فيرن Fern الطفلة وأيضا من خلال مواقف ومحاورات ولبر مع صديقه اتشرلوت Charlotte العنكبوت[61].

وقد لعبت السينما والتليفزيون والمسرح دورا خطيرا في هذا المجال فقد شاع في جميع أنحاء العام حكايات حيوانية مصورة تعرضها الشاشة الكبيرة أو الصغيرة وتمثل على خشبة المسرح من إبداع الفنان العالمي الشهير والت ديزني.

فقد اهتم ديزني بتصوير مختلف الحيوانات ومن أشهرها الفار ميكى ماوس[62] وكان لعبقريته في تصويره ورسم حكاياته وعرضها بألوانها الجذابة المليئة بالغرابة والفكاهة في نفس الوقت أكبر الاثر في إقبال الأطفال عليها فكانت وسيلة ناجحة للغاية لتسلية الأطفال وتعليمهم وتنمية خيالهم

---

62) Charlotte's Web. E.B. White
Hamish–Hamilton. Kondon. 1952.

63) قصص الحيوان في الأدب العربي للدكتور عبد الرزاق حميدة ص 213.

وإدراكهم في نفس الوقت وقد انتشرت حكايات ديزنى ومسرحياته المصورة في جميع أنحاء العالم وعرضتها دور السينما والمسرح في مختلف البلدان.

والحق أن الخرافات الحيوانية في القرن العشرين تحتاج إلى دراسة مستقلة موسعة تكشف عن أنواعها وعوامل التأثير والتأثر فيها ودورها في المجال التربوي كوسيلة لتعليم الأطفال وتربيتهم وتنمية خيالهم وادراكهم ووسائل الايضاح التي تستخدم لتحقيق هذا الهدف ليقبل الأطفال عليها والأسس العلمية التي يعتمد عليها في تقديم هذه الخرافات للأطفال إلى غير ذلك من مسائل تتعلق بهذا الموضوع.

وربما بكون هذا موضوع دراسة مستقلة تفردها في المستقبل للخرافات الحيوانية في القرن العشرين وأثرها في المجال التعليمي والتربوي للأطفال إن شاء الله.

القاهرة **د. مجدي محمد شمس الدين إبراهيم**

أحمد بن المامون البلغيثي وأبو شعيب الدكالي

بعض نقط اختلاف في الاتجاه الفكري والمذهبي

أحمد العلمي

ويقع هذا المبحث في الفصل الثالث من الباب الثاني من الدراسة لديوان البلغيثي «تبسم ثغور الإشعار بتنسم عبير الأفكار». ويشمل غرض ‹جاء بعض علماء عصره. بتصرف.

أما عن العلامة البلغيثي فهو أحمد بن المامون البلغيثي (1282 هـ ـ 1865م ـ 1348 هـ ـ 1929م). العلامة الأديب الشاعر ابن نقيب الشرفاء العلويين بفاس. والبلغيثي نسبة إلى جده أبي الغيث. وقد نشأ في بيت أصيل في الشرف والمجد ونباهة الذكر، وكان في وقته ذا شهرة واسعة طبقت الآفاق داخل المغرب وخارجه.

فالبلغيثي من العلماء الذين يمثلون بغزارة علمهم وأدبهم وتنوع ثقافاتهم الحصن الحصين للثقافة الإسلامية والعربية الحقة في المغرب بعد أن أخذ جيل تلاميذهم، أو من هم في طبقتهم في الانقراض. وقد أجمع كل الذين

ترجموا له أنه كان نسيج وحده وفريد عصره بالمغرب. يقول عنه المرحوم محمد بن العباس القباج :

«علم كبير من جهابذة العلم المشهورين في المغرب، وأحد المتضلعين في الفقه الإسلامي تضلعا فائقا، ولا يوجد اليوم في المغرب من طبقته من يدانيه في استحضار الخلاف، والنصوص التي ترتكز عليها قواعد الإسلام حتى صار الآن بعد انقراض طبقته في فاس مرجعا للفتوى، وموئلا لحل معضلات النوازل ومشكلات القضايا»[1].

ولا يزال بعض العلماء ممن لا يزالون على قيد الحياة من جيل تلاميذه الذين أخذوا عنه، وأفادوا من معارفه داخل المغرب وخارجه شديدي الاعتزاز والفخر بعمله وأدبه يتخذونه القدوة والمثال في سعة المعرفة وكثر الاطلاع ويأسفون لأفول نجم أمثاله.

وكان العلامة الأديب أحمد بن المامون البلغيثي على جلالة قدره، ورفعة مكانته بين علماء وأدباء عصره منضويا للطريقة التجانية، وخاصة في بداية حياته وقبل نزول أبي شعيب الدكالي بالرباط، وانتشار دعوته في الآفاق شأنه في ذلك شأن العديد من علماء وأدباء عصره.

ويظهر أنه كان من المعتدلين في طريقته، فلم يفرد الطريقة التجانية بتأليف خاص، ولم يكتب فهارس في ترجمة شيوخ وأتباع هذه الطريقة على نحو ما نجد عند بعض الغلاة في الطريقة. كما عند العلامة أحمد اسكيرج مثلا. بل انه لم يطل حتى الحديث عن هذه الطريقة في مؤلفاته وأشعاره.

---

1) الأدب العربي في المغرب الأقصى ج 1 ص 15.

إلا أننا نعثر في ديوانه على بعض الرسائل النثرية، وبعض القصائد الشعرية القليلة تثبت تجانيته التي كان يجهر بها. كقوله في رسالة بعث بها إلى عالمين من علماء سوس، وهما الطاهر التمنرتي الافراني، والعربي السمكني وهما من أتباع هذه الطريفة. يقول في ختام هذه الرسالة : «بعناية شيخنا، ووسيلتنا إلى ربنا القطب، القطب المكتوم، الذي به مقام الختم مختوم، ومن بالانحياش إليه في أقرب مدة يصل العبد الجاني، العارف الأكبر أبو العباس مولاي أحمد التجاني»[2]. ويقول عن حال الزاوية التجانية في ختام هذه الرسالة : «ثم إذا تشوفتم للأخبار، وتشوقتم للأنباء، فالزاوية الزاهرة الأحمدية كل يوم في ازدهاء، والسر - والحمد لله - في ازدياد، والسرور في انقياد، والحب منا - كما تعهد - يزيد في الصفاء[3]».

ويقول عن تنفيذ طلب العالمين المذكورين بالدعاء لهما أمام ضريح الشيخ التجاني : «وأما الغرض الذي أخبرتم بعدم المسامحة فيه، والعدول إلى ما ينافيه، من تخصيصكم بالدعاء بالمحل الأنور، والموضع الأطهر، فهذا دين نرى قضاءه واجبا، فرضا وحقا لازبا[4]» ويختم هذه الرسالة بتوقيعه قائلا : «أخوكم في الله، وفي الطريقة المحمدية الأحمدية أحمد بن المامون البلغيثي»[5]. ويؤرخها بثاني شوال عام 1317 هـ. ونراه في شعره كلما اشتدت به الأهوال، أو عصف به مكروه، أو عزم على سفر بعيد، بادر إلى نظم شعره

---

2) ديوانه ج 1 ص 561.

3) نفسه ج 1 ص 562، 563.

4) نفسه ج 1 ص 565.

5) نفس المصدر والصفحة المذكورين.

في التضرع بشيخه والتوسل بجاهه والالتجاء لرحب رحابه طالبا المدد :

أبـا العبـاس جئتـك ذا اضطرار ومـالي غير بـابـك من قرار
أتيتـك أرتجي فتحـا قريبـا ومن ذنبي المخـوف أخـا فرار[6]

ومن ذلك قوله : «ولما حصل لي ضعف بـالبصر، وأدمنت التشفع لله في كشفه بأشرف مضر، كان من جملة الابتهال أني طلبت من صاحبنا الأديب الحاج إدريس السناني النيابة عني في قصيدة أتعلق فيها بشيخنا القطب المكتوم، ذي السر المختوم، أبي العباس مولاي أحمد التجاني. فنظم وامتثل، فسارعت لتشطيرها من غير مهل[7]». وهذه القصيدة أكثر إيغالا، ومبالغة في تقديس جانب الشيخ، والرفع من مكانته، والتضرع به.

ـ هجاؤه بسبب الخلاف في الاتجاه الفكري والمذهبي وما كنا نتعرض لهذا الجانب من الهجاء في شعره لولا وجود ظاهرتين بارزتين عنده، وهما : طريقته (التجانية) وهجاؤه ـ على قلته ـ للشيخ أبي شعيب الدكالي، وغيره، وللمصلح الجزائري الشيخ عبد الحميد ابن باديس. مع بعض إشارات له بديوانه تفصح عن عدائه للدعوة الوهابية، ولمن ساعد على نشرها بالمغرب. مثل هذه الإشارات جعلتنا نتمهل قليلا ونحن ندرس هذا اللون من الهجاء في شعره لتوضح ماله من مواقف في هذا الاتجاه، وذلك لأهمية هذا الموضوع على ضوء المرحلة التي عاشها البلغيثي، وما كان لذلك من تأثير بالغ في مختلف النواحي الدينية، والاجتماعية، والسياسية، والأدبية فيما بعد.

---

6) نفسه ج 1 ص 453.

7) نفسه ج 1 ص 455.

أما عن أبي شعيب الدكالي فهو المحدث الكبير، ورائد الدعوة السلفية في مطلع هذا القرن بالمغرب، وهو من رجال السنة المناضلين عنها، الخبير بأصولها وفروعها، وكل ما يتعلق بقضاياها، عز نظيره، وقلما جاد الزمان بمثله. فقد قضى مدة بمصر ومكة المكرمة، واطلع إطلاعا واسعا على مختلف الحركات الإصلاحية في المرحلة الأخيرة التي وصلت إليها حركة الإصلاح الذي بدأه الإمام ابن تيمية في نهاية القرن السابع وبداية الثامن، كما تشبع بأفكار أهم المصلحين مثل الشيخ جمال الدين الأفغاني، وتلميذه محمد عبده الذي يرجع إليه الفضل الكبير في يقظة الإصلاح العامة التي شملت كل البلاد الإسلامية، والتي حملها عنه تلامذته بعده مثل الشيخ محمد رضا، والمجاهد الكبير الأمير شكيب أرسلان، وعبد الله السنوسي وغيرهم.

عاد أبو شعيب الدكالي إلى المغرب، وأخذ يدرس كتب السنة دراسة بحث وتحليل معتمدا على حرية التفكير، واستعمال العقل في فهم النصوص، كما اهتم بدراسة الكتاب العزيز بيانا وتحليلا، معتمدا في ذلك كله على حرية التفكير، واستعمال العقل في فهم النصوص، وتوجيه الأنظار إلى محاربة البدع وتصفية الإسلام من الشوائب التي لحقت به، ودعا إلى الرجوع لما كان عليه السلف الصالح، ومحاربة التقليد والجمود والضلالات، والطرقية العمياء. وثافن دروسه جموع العلماء والطلاب، وأم الناس حلقاته من مختلف الأنحاء والجهات. وسرعان ما ضاء نجمه متألقا، واشتهر أمره عند العامة والخاصة، فانقادت إليه الرئاسة العلمية في وقت كانت البلاد في مسيس الحاجة إلى أمثاله المصلحين. وهكذا ما نشب أن تكونت حوله جماعة من مناصريه في دعوته، وطائفة من تلاميذه ـ وهم كثيرون ـ حملوا دعوته، ونشروا مبادئها في الآفاق، وعملوا في جد ومثابرة على محاربة

الخرافات والشعوذة، وتطهير الأفكار من البدع الضالة، ومعارضة المتطرفين من أهل الزوايا، ودعوتهم للأخذ بما في الكتاب والسنة. «وكان ما كان من صراع بين الشباب المتفتح والشيوخ، سواء في المغرب والجزائر الشقيقة أثناء العشرينات الميلادية، والأربعينات الهجرية»[8].

وقد ظهرت نتائج هذه الدعوة السلفية في المقالات العديدة التي كان ينشرها الشباب في الصحف، وخاصة صحافة الجزائر التي تكونت فيها هي الأخرى خلال هذه الفترة جمعية سلفية أسسها مصلح الجزائر الكبير الشيخ عبد الحميد بن باديس، وهي جمعية العلماء. فكان لها أكبر الفضل في إحياء الفكرة الوطنية. كما ظهرت على يد هؤلاء الشبان المغاربة بعض المؤلفات التي تهاجم الطرقيين، وتنعتهم بالضلال والجهل، وترميهم بالكفر والإلحاد، والخروج عن مقومات الإسلام الأساسية (الكتاب والسنة)، وبالتضليل والغواية عن طريق الدين المستقيم. فكتب المكي الناصري كتاب إظهار الحقيقة وعلاج الخليقة[9] يقول فيه : «اعلم أن ما حدث بعد النبي ﷺ، ينقسم إلى قسمين : قسم تقتضيه أصول الدين، وتتناوله أدلة الشرع الكريم، وهذا من الدين قطعا. وقسم لا تقتضيه أصول الدين، ولا تتناوله أدلة الشرع. وهذا هو المسمى بالبدعة والضلالة، وهو المردود على صاحبه»[10].

ومن هذه البدع اتخاذ القبور حرمات ومعابد، وابتداع أحكام جديدة في الدين، وخلق أذكار وأوراد يتبرأ منها الإسلام، وكتابه الكريم، وسنته

8) عبد الله الجراري في كتابه المحدث الحافظ أبو شعيب الدكالي ص 15.

9) وهو كتيب صغير طبع سنة 1343 هـ = 1925م على نفقة المرحوم محمد بن العباس القباج الذي كتب مقدمته يحي فيها حركة النهضة الجديدة.

10) إظهار الحقيقة ص 7.

السمحة، والإعراض بذلك عن تلاوة القرآن، والتغالي في مدح الرسول الذي نهى عنه، والمبالغات السخيفة في الاستغاثة بالشيوخ، والاستمداد منهم بصيغ لو سمعها مشركو قريش لنسبوا أصحابها إلى الكفر والزندقة، والمروق من الدين، وهي أكثر وطأة من تلبية مشركي قريش[11]، ويظهر أن هذه الحملة الإصلاحية على أهل الطرق كانت عنيفة حتى وصلت إلى حد الشتائم، لأن السلفيين اعتبروا أن كل ما حل بالبلاد من اضمحلال وفساد مرجعه إلى ضلال هذه الطرقية» إذا تحققت أن كل ما أصابنا من أنواع الانحطاط والجمود، والفشل والافتراق، والتنازع والتباغض، والتحاسد والشقاق إنما هو من نتائج بدع المتصوفة المبطلين»[12]، وقد كان كتاب إظهار الحقيقة أول ما ألف في الموضوع، وقامت حوله ردود ومعارضات[13]. وأهم هؤلاء المعارضين أتباع الطريقة التجانية. ومن ردودهم أن ظهر لهم كتاب نهاية الانكسار لمؤلف يدعى الشرقي الذي رمى صاحب الإظهار بالكفر، وحمل عليه حملة شنيعة كما ظهرت للتجانيين تحفة المنصفين وتذكرة المخالفين لمن اسمه الغربي في الرد كذلك على مؤلف إظهار الحقيقة، فتصدى محمد بن اليمني الناصري ـ وهو من تلامذة أبي شعيب الدكالي ـ ليرد على هؤلاء الطرقيين، ويناصر أخاه صاحب الإظهار، فألف كتابه «ضرب نطاق الحصار على أصحاب نهاية الانكسار» شدد فيه النكير على مزاعم الطرقيين، وسفه أحلامهم، ورماهم بالخروج عن سيرة السلف الصالح[14]. وكان هذا الكتاب

---

11) المصدر السابق ص 21، 22.

12) نفسه ص 41.

13) الأدب العربي في المغرب الأقصى ج 2 ص 77.

14) ضرب نطاق الحصار ص 88.

أكثر عنفا في الحملة على الطرقيين من سابقه. وخاصة بتلك المقالة القيمة التي ختم بها لمحمد الجزولي، وعنوانها : «لا طرق في الإسلام» ذيلها بعشرين سؤالا، ووجهها إلى شيخ الطريقة التجانية بالرباط آنذاك، يقول في فاتحتها عن مساوئ هذه الطرق : «الطرق هي ما دعي فيه إلى أعمال وأقوال زائدة غير صالحة في نفسها، ولا مصلحة لغيرها، مستمدة من عالم الأذواق والإلهام ! لم يدع إليها محمد ﷺ، ولا أحد من أصحابه نصا»[15]. كما ألف السيد عبد الحميد الرندي كتابه «تحقيق الانكسار لمدعي الانتصار على صاحب الإظهار»[16]. وهكذا اشتدت المعركة بين الفريقين، وصمم السلفيون الذين سموا أنفسهم بحزب الإصلاح بأن يصفوا كل الطرق والطرقيين، وأن يقضوا على آخر جموعهم[17]. وكان بعض الملوك العلويين يناصرون مثل هذه الدعوات الإصلاحية بدءا بالمولى سليمان، الذي ناصر الدعوة الوهابية، وحارب الطرقية، وكتب في ذلك وخطب. كما كان السلطان عبد الحفيظ من رجال العلم ألف كتابا في الرد على التجانية نشره بفاس، وعمل على الحد من أضاليلهم[18]، وسار على نهجه خلفه المولى يوسف الذي أمد بساعدته وموافقته دعوة الإصلاح، وساعد في التشديد على الطرقية وأهل البدع[19].

والواقع أن أخطار هذه الطوائف صارت تهدد المجتمع المغربي في عقيدته، ومستقبل بلاده خاصة بعد أن ثبت عمليا تدخل بعض رؤساء

---

15) نفسه ص 157.

16) انظر الصفحة الأخيرة من غلاف الكتاب المذكور.

17) المصدر والصفحة المذكوران.

18) انظر كتاب حديث المغرب في المشرق لعلال الفاسي ص 10 وما بعدها.

19) ضرب نطاق الحصار ص 80.

الزوايا في شؤون البلاد، وممالئتهم للمستعمر. وكانت لهم أساليب ماكرة «فقد حصلوا على مراكز عظمى في القلوب، واستعمروا متسعات كبيرة كانت فارغة في النفوس لما لهم من القدرة على تملك المشاعر والسيطرة على الإحساس والوجدان بأساليب الخداع التي يستعملونها، وطرق التدليس التي يسلكونها»[20]، يقصد السيطرة على مشاعر الناس، وجذبهم بقوة لإدماجهم معهم. ومما زاد في هول المصيبة انخراط نخبة من العلماء، ورجال الفكر في الأمة في هذه الفترة في سلك هؤلاء الطرقيين، وانجرافهم مع تياراتهم «إنهم بدل اشتغالهم بمحاربة تلك البدعة الشنيعة في دروسهم، وخطبهم، ومواعظهم حتى لا تعم تلك البلوى بها... صاروا يعللون جوازها بعموم البلوى بها، ونحوه من التعليلات الواهية الموقعة في الهاوية»[21].

والآن وقد عرفنا المحيط الديني الذي عاش فيه البلغيثي، وأنواع الصراع الذي دار بين السلفيين والطرقيين، وأوضحنا طرقية الشاعر ونوع عقليته المحافظة[22]. يحق لنا أن نتساءل عن موقفه من حركة السلفيين، وزعماء الإصلاح سواء القدامى منهم أو المحدثين داخل المغرب أو خارجه في أتون من التطاحن والصراع بين الطرفين.

إن موقف البلغيثي من رائد الإصلاح، وحامل لواء السلفية بالمغرب أبي شعيب الدكالي موقف فيه شيء من الغموض. ذلك أن الشعر الذي بين أيدينا في هذا الموضوع قليل جدا، بالإضافة إلى أنه عمد في آخر حياته إلى محو بعض الأبيات في نوع هذا الهجاء من ديوانه، ومع ذلك، ورغم قلة هذا

---

20) إظهار الحقيقة ص 22.

21) ضرب نطاق الحصار ص 64.

22) انظر مبحث «ثقافته» ص من هذه الدراسة.

الشعر وما احتوى عليه من تعمية إخفاء لمن نظم في حقه فهو يدل الدارس على موقف معين للشاعر. يبدو أنه لم يتح للبلغيثي أن تعرف على أبي شعيب أو جالسه قبل نزوله بالرباط وقدومه من المشرق، وقبل أن تنعقد صداقتهما، وتتوطد عرى المحبة بينهما فيما بعد. إلا ما كان يصله عنه في ذلك، وفي محاربته للطرقية وأهل البدع، فما كان من البلغيثي، وبدافع المنافسة العلمية أيضا إلا أن هجاه بهذا الأسلوب الساخر على عادته، فرماه بالاختلاف والكذب في ما يقوله ويدعيه، ونعته بالدهاء في الكيفية التي يستولي بها على عقلية مخاطبيه وحواسهم :

فليهنأ الغرب بإقبال من حفظه للعلم عجيب غريب
لأنه أول فجر أضا في الغرب من شرق بنور مريب
أبا شعيب فقتنا بالدها وما الدها من مثلكم بالعجيب[23]

وطبيعي أن يغلي صدر الشاعر حنقا وحقدا عليه لأنه كان يخالفه في الاتجاه الفكري والمذهبي الذي يمس ما يعتقده في طريقته. وربما كان ذلك لمزاحمة الشيخ مكانة البلغيثي العلمية عند الخاصة والعامة ولا سيا وهو ذو الوجاهة السامية عند السلطان يوسع له في مجالسه. لذلك نرى البلغيثي يلح في هجائه له على صفة الكذب، فيجمع لذلك جميع صيغ المبالغة، ولا يكتفي بذلك حتى يطلق لفظ التصغير ويريد به التكثير :

فكذاب ومكذاب كذوب كذيب ثم قل كذب شعيب
ومكذاب وكيذوب وزد من مولد فكرتي أيضا كذيب[24]

---

23) ديوانه ج 1 ص 145.
24) نفسه ج 1 ص 142.

وربما كان أعنف هجاء البلغيثي في أبي شعيب تلك القصيدة البائية والتي يدور هجاؤه من حيث الأفكار في هذه القصيدة حول المناصب السامية التي أصبح أبو شعيب يشغلها في الدولة كوزارة العدل مثلا، فيرى البلغيثي أن أبا شعيب غير أهل لها، وأنه يعتمد في ما يدعيه في مجالسه العلمية على التمويه، والتزوير للحقائق كي يظهر أمام الناس بمظهر الفحولة في العلم، ويبهرهم بدروسه حيث يريهم العجب العجاب. وذلك كله من دهائه، وأساليبه الماكرة :

أبا شعيب[25] وقول الحق طبعي ما	نراك أهلا لما قد نلت من رتب
إن كنت موهت والتمويه شأنك في	جميع ما تحتذي فلست تلعب بي
أف لمرتبة أصبحت سائسها	تسعى بها لانتقاض الشرع باللعب
أف لمن قد حباك اليوم منصبها	لما حبا مغرما بالمزح والكذب
حاشا أحاديث تتلوها على فرض	يسوء يوم اللقا من قول خير نبي
تزيد فيها بآراء وتنقص ما	تريد كيما تريهم غاية العجب[26]

ولاحظ أنه في هذا الهجاء لم يثر ما يشكل جوهر الخلاف بين السلفية والطرقية، وذاك من سياسة التقية والحيطة التي كان يتخذها البلغيثي، ويعمل بها في مثل هذه المواقف الحرجة حتى لا يثير غضب الشيخ وتلامذته. ولذلك ظل هؤلاء جميعا يقدرونه، ويقرون بعلمه وفضله وجلهم من تلامذته.

---

25) في ديوانه «أبا فلان»، وفي مجموع من التقاييد الخطية بالخزانة الصبيحية بسلا دون رقم «أبا شعيب».

26) ديوانه ج 1 ص 138.

هذا كل ما ضمه ديوانه في هجائه لأبي شعيب. أما في غير ذلك فلا نجده يذكر أبا شعيب إلا ويثني على علمه، وسعة اطلاعه، وعميق حفظه. وقد انعقدت - كما قلنا - صداقة حميمة بين الرجلين، وعرف كل منهما فضل الآخر. ولا أدل على ذلك ما في الديوان من مباسطات أدبية، ومراسلات، وإخوانيات دلت على ما كان يجمع بينهما من محبة. حتى لنرى أبا شعيب يعجب بشعر البلغيثي، فيحمل إليه بعض الأبيات من مختار حفظه في الحكمة، وينشدها أمامه طالبا منه أن يخمسها له أو يشطرها[27]. والواقع أن البلغيثي كان لبقا في معاملاته، حسن التصرف مع كل الفئات، وكان يعرف كيف يعطي لكل ما يناسبه حتى يرضي الجميع. ولعل ذلك يتجلى في قوله :

والبس لكل زمان وفق لبسته   وعاشرن بوفاق واعن بالناس[28]

وفي معسكر التجانيين يقف البلغيثي أمام المفتقرة ليقدم لهم بشعره هذه النصيحة التي تشيد بمبادئ الطريقة، يوصيهم بالصمود عليها، ويحثهم على التمسك بأهداب الإيمان بما يعتقدون، وأن يعضوا على ذلك بالنواجذ، ويمجد الشيخ التجاني، ويرمي السلفيين، ومن يناصرهم بالقساوة، والمروق في الدين وتحويل كل ما هو جدي معقول إلى ضلال وبهتان :

بني طريقتنا إن تبتغوا سيرا   على مناهج أزكى الخلق خير نبي
وتقتفوها بإرشاد أتى لكم   من شيخنا الختم عالي العلم والنسب

---

27) انظر مثلا على ذلك ديوانه ج 2 ص 83 ب.

28) نفسه ج 1 ص 557.

فلتسمعوا المحض من هذي النصائح إذ حوت من الرشد ماينجىمن العطب
عضوا عليها اهتماما بالنواجذ كي ينجاب عنكم ظلام الجهل في الطلب
ولا تميلوا لأقوام جلامد في طريقنا قد أحالوا الجد للعب[29]

ومن ثم كان خير الهدى عنده، هدي الشيخ التجاني. وإذا كانت كل طائفة لا تهتدي إلا بأقطابها، وشيوخها، فلا مجال لأن نسمع نصيحة هؤلاء الأغبياء (يعني السلفيين).

ما الهدي والله عند كل طائفة إلا بأحبارها لا عند كل غبي
كمثل ذا الحبر من أدى الأمانة من علومه فهدى لأوضح اللحب[30]

مرة أخرى وخارج وطنه المغرب أسفرت طرقيته عن وجهها واضحة أثناء رحلته الجزائرية التونسية (1346 هـ = 1927م) وذلك حينما وصل إلى مدينة قسنطينة وتجاهله علماؤها المنضوون تحت لواء الشيخ عبد الحميد بن باديس فلم يلق منهم ما كان يأمله ولم يقدم عليه إلا محرر جريدة الفلاح وفي ذلك يقول :

حللت قسنطينة أبتغي لقا العلماء وأهل الصلاح
فلم أحظ منهم بما أرتجيه ولكن كفاني لقاء (الفلاح)[31]

---

29) ديوانه ج 1 ص 177، 178.
30) المصدر والصفحة المذكوران.
31) ديوانه ج 1 ص 176.

ولما تيقن البلغيثي أن ابن باديس هو الذي دبر له هذه الإهانة، وحرض عليه علماء تلك المدينة نظرا لطرقيته. قال في هجائه :

قالوا وقد جهلوا معنى الحقود أبن أبن لنا عنه جهرا دون تلبيس
فقلت : قوموا اذهبوا كي تعرفوه إلى باب الأديب الشهير بابن باديس[32]

وكان ابن باديس من كبار علماء الإصلاح والتجديد الديني في الجزائر، تولى رئاسة جمعية العلماء المسلمين، وأصدر عدة جرائد ومجلات من ضمنها مجلة الشهاب التي صدر منها في حياته خمسة عشر مجلدا، وتعد سجلا حافلا لتاريخ الجزائر ونهضتها الحديثة فيما بين الحربين الأولى والثانية[33]. وكانت متشددة في حملاتها على الطرقيين. ولهذا نرى البلغيثي خلال مقامه بقسنطينة يدافع ـ على غير عادته عن طرقيته، ويدعم مقوفه من تجانيته، ويستمر في هجائه لابن باديس وأتباعه، ومجلته الشهاب، ويرمي الكل بالبدعة والغواية، والجهل والجمود بأسلوب أكثر حدة وعنفا ينم عن غضبه وسخطه. يقول ضمن قصيدة طويلة :

ومل علومي أخو بدعة ملال الحصور حديث النكاح
وليس يضيرني مل فتى تطفي (شهابه) مني الرياح
رياح تدمر كل جهول وكل جحود لنور الصباح
ولست أراعي امرءا قد غدا لتنقيص أسلافنا ذا ارتياح
يرى أنهم أخطؤوا في اجتهاد وأن الصواب بما له لاح
فسحقا ومحقا لمن دينه على غير دين الهداة الصراح

32) نفسه ج 1 ص 585.

33) أعلام الجزائر لعادل نويهض ص 82.

وبعـــدا لمن عـــابني بـــالـــذي بـــه قـــد نصرت طريـق الفـلاح
نصرت الأئمـــة أهـــل الهـــدى وكل ولي حليف صـــــــلاح[34]

وأما موقفه العدائي للدعوة الوهابيـة، والعـاملين على نشرهـا فصريح. فقد حاول الرد عليها غير ما مرة. ذلك أنه لما وصل إلى بسكرة من صحراء قسنطينة خلال هـذه الرحلة المذكورة ألقى في بعض المجالس العلمية التي عقدها هناك دروسا في التفسير، والحديث النبوي، وقال في التعليق على ذلك : «وكنت في الدرسين، وفي المحافل أرد شبه الطائفة الوهابية بالبراهين الواضحة، حيث عمت البلوى في هذا الوقت بضلالهم شرقا وغربا. فالله حسيب من أدخل علينا هذا الداء للأقطار المغربية»[35].

ومن هذه المحافل التي أشار إليها حيث يجادل فيها قضية الدعوة الوهابية، وما جاءت به من مبادئ. ما وقع له «مع معتمد ملك الحجاز بالشام سابقا، ووكيل أمير المدينة إذاك الشيخ ياسين الرواف من مذاكرات علمية، وبالأخص في مسألة الوهابيين. فاز فيها المترجم له (البلغيثي) فوزا كبيرا زاد في معناه عند الدمشقيين»[36].

ونحن لا نعلم تفاصيل ذلك، وما سجلناه في هذا الموضوع لا يعدو هذه الإشارات التي وردت في ديوان أشعاره، وفي بعض مؤلفاته.

---

34) ديوانه ج 1 ص 276.
35) ديوانه ج 1 ص 276، 277.
36) مقدمة كتابه تشنيف الاسماع ج 1 ص 12 بقلم ابنه عبد الملك.

تلك أهم الجوانب في شعره الهجائي في هذا الاتجاه الذي خص به الدفاع عن اتجاهه الفكري، ومعتقده في طريقته محاولا الذود عنه بشعره يهجو من يحاول النيل منه، أو يهين كرامته بسببه، وقد أفاد القارئ لهذا الموضوع عنده صور بعض الجوانب لطبيعة المرحلة المعقدة التي عاشها الشاعر، والتي حاول فيها المصلحون غرس المثل العليا في النفوس وتشذيب ما علق بالاذهان من الخرافات والأوهام، وذلك بالعودة إلى منبع الإسلام : الكتاب والسنة قصد الحفاظ على دعائم الشخصية الإسلامية الحقة.

وإذا كان ما صدر عن البلغيثي في هذا الجانب من تجانيته السمحة البيضاء يعتبر ـ إلى حد ـ نقطة ضعف في سيرة حياته الفكرية والمذهبية. فإننا نجد له مواقف أخرى مشرفة ظهر فيها أحمد بن المامون البلغيثي بشعره ونثره على السواء مصلحا ذا غيرة عليا على قضايا الدين والوطن مناصرا للحق في أبهى صوره، داعيا للوحدة والتآخي داخل المغرب وخارجه مساهما بإنتاجه العلمي الأدبي في دفع حركة البعث متسلحا بضميره الحي وإيمانه القوي وإقدامه المعهود.

وبذلك حافظت شخصيته على قوتها في عصر الضعف، ونالت تقدير كل العلماء والأدباء في كل الوطن العربي آنذاك، وحظيت بالاحترام والاعزاز والاقرار بالفضل، بما في ذلك رواد السلفية أنفسهم.

مكناس **أحمد العلمي**

أنواع الأدب الشّعْبي بالمغرْب
- طربُ الآلـة -
(3)

مالكة العاصمي

شعبية هذه الموسيقى

من الضروري الإجابة أولا عن سؤال بشأن شعبية هذا اللون من الطرب أو عدم شعبيته، وقد تناولنا في نطاق بحثنا في مفاهيم الأدب الشعبي مدلولات هذا الأدب.

طرب الآلة لغويا، هو أدب عربي في أغلَب أشعاره، لكنه لم يأت على نمط الشعر العربي المعروف، بل ابتدع لنفسه نهجا خاصا في الأدب سمي الموشح، فهو إذن لا يشبه الأدب الشعبي في لغته العامية، بل ان لغته فصيحة في الغالب، وهي لغة النخبة المثقفة. كما أن الأشعار العامية التي تغنى في هذه الموسيقى ليست أشعارا عامية شعبية وإنما هي بلغة وسطى بين العربية الفصيحة والعامية، وهي أميل إلى أن تكون عربية فصيحة من أن تكون لغة شعبية وهي بالتالي لغة النخبة المثقفة وليست لغة شعبية.

وطرب الآلة يستلزم إطارا يتميز بنوع من الفخامة من جهة، والوقار من جهة ثانية، لذلك فهو يعزف ويغنى في الحفلات الرسمية في بلاطات الملوك والأمراء، ورجال الدولة، وأعيان البلاد، ولا يغادر إطاره الرسمي إلا في القليل، ويروى أن المرحوم البريهي عندما دعي للغناء في الإذاعة أول تأسيسها رفض ذلك، لأن المذياع يغني في دكان «الخراز» و«الشكايري»، وهذا امتهان له ولفنه، مما يفيد طابع هذه الموسيقى الارسطقراطي.

وموسيقى الآلة لم تنقل شفاهة، ولكنها ضبطت ووقع التاريخ لها وتدوينها ونشرها في الأندلس والمغرب خلال فترات متقدمة فهي ليست ضمن التراث الشفاهي.

كما أن مؤلفي أشعارها، وواضعي طبوعها معرفون في الغالب كشعراء أو فنانين نسبت إليهم إنتاجاتهم فهي ليست نتاجا جماعيا ولا نتاجا مجهولا.

هذه العناصر تبعد موسيقى الآلة عن أن تكون موسيقى شعبية لا على مستوى اللغة، ولا على المستوى الطبقي للفئة التي تتداولها وتنتج لها. ولا على المستوى التاريخي.

مع ذلك فموسيقى الآلة امتزجت بوجدان الشعب وتناقلها في ثراته المحلي، المتميز عن باقي ثرات العالم العربي، فأحرى باقي العالم وقد ازدهرت أيما ازدهار في عدد من المدن المغربية، وتعاطتها فئات الشعب وأحبتها.

من هذه الوجهة فقط سنعتبرها بتجاوز كبير ضمن إطار الأدب الشعبي وإن كانت في حقيقتها أدبا رسميا نخبويا.

أصول طرب الآلة

إذا كان الشعب قد تبناها واستقرت في ثراته الأدبي والفني، فلماذا لاننسبها له ولماذا ننسبها إلى الأندلس.

الموسيقى «الأندلسية» - كما يسميها المصطلح العربي - يسميها المجتمع المغربي طرب الآلة أو موسيقى الآلة، ولعل في مثل هذه التسمية ما يوحى بعدم موافقة المجتمع على هذا التمييز أو هذه النسبة.

كانت الأندلس والمغرب تتناقلان ثراتا فنيا وموسيقيا موحدا، لأن الطريق إلى الأندلس كان يمر عبر المغرب، بحيث قام المغرب بدور الوسيط في نقل الحضارة واللغة، والفكر العربي إلى الأندلس.

غير أن مؤرخين آخرين يؤكدون أن الموسيقى الأندلسية هي إبداع فرد معين في بيئة معينة، ومنها انتشرت إلى باقي البلاد. فهي إنتاج زرياب أحد تلامذة إسحاق بن إبراهيم الموصلي، وقد هاجر من بغداد على اثر إعجاب الرشيد به مما أثار غيرة أستاذه فطلب منه أن يغادر البلاد. فجاء واستقر في الأندلس، وأبدع نوبات خاصة، وأسس مدرسة، وتناقل أبناؤه وتلامذته هذه النوبات، وهذا النمط الموسيقى، فذاع في الأندلس وصار فنها الخاص وطابعها.

اما انتقال هذه الموسيقى إلى المغرب فجاء في ركاب الوافدين من الأندلس بعد الهجرة الجماعية خلال مراحل الصراع المؤذنة بسقوط الدولة وخاصة ابتداء من العصر المريني في أوائل القرن السابع. ويقول الأستاذ عبد العزيز بن عبد الجليل في كتابه مدخل إلى تاريخ الموسيقى انه «هاجرت

إلى العـدوة المغربيـة جمـوع غفيرة من مسلمي بلنسيـة، وكانت مـدن المغرب وبخـاصـة فـاس الوجهـة الأُولى لهؤلاء المهـاجرين فنشـأ عن ذلـك أن تلقى المغرب أُسلوب التأليف البلنسي.

ويظهر لي أن الالتزام بمثل هذا الرأي هو قراءة للتاريخ من نهـايتـه. لأن الهجرة بين الأندلس ظلت متبادلة منذ فتح الأنـدلس سنـة 91 هـ وأن الموسيقى المغربيـة انتقلت إلى الأنـدلس كما انتقلت المـوسيقى الأنـدلسيـة إلى المغرب منذ أيام الفتح الأُولى وقد أعجب المغـاربـة بشبـه الجزيرة الإيبريـة فرحلوا إليهـا وتنقلـوا في مرابعهـا وتغنـوا بفنـونهم ومـوسيقـاهم خـلال هـذه الرحلات بل لقـد ألحق شمال المغرب بـالحكم الأُمـوي في الأنـدلس زمن عبـد الرحمـان النـاصر في القرن الرابع ولـو لفترة وجيزة. وان طريـق الأُنـدلسيين إلى الشرق وفكره وحضـارتـه وثقـافتـه، وإلى مكـة مركزه الـديني، أو مصر وبغـداد ودمشـق مراكـزه السيــاسيــة، كانت تمر عبر المغرب. وشكل العنصر البربري نسبـة مهمـة للغـايـة من سكان الأنـدلس، فنحن نعرف أن جيـوش الفتح كانت جيـوشـا مغربيـة وأنهـا استقرت بعـد الفتـح وتـوطنت وشكلت النـواة الأولى للمجتمـع الأنـدلسي كما أن جـزءا من ثقـافـة المغرب، وفنـونــه، وعلومه، وحضارته، انتقلت إلى الأندلس عن طريق مدينة سبتـة التي لعبت دورا هاما في علاقـة المغرب بـالأندلس، وفي تـاريخ المغرب الحضـاري، ممـا يفسر ماهِيَّة اللون الـذي نجـازف ونطلق عليـه اللون الأنـدلسي وننسبـه إلى أصوله الشرقية والإسبانية وتنسى أُصوله البربرية.

وبالمقابل فلقد اتصل المغرب بالتراث الأندلسي منذ أيـام الفتح الأولى وظلت الأندلس تُمِـد المغرب بعنـاصر من تراثهـا، وأتوقع أن تكون موسيقى

زريـاب ونوبـاتـه ومـدرسـتـه قـد انتقلت إلى المغرب في فتراتهـا الأُولى ضمن حركة المبادلة بين العـدوتين. ولقـد بـدأت الهجرة المضـادة من الأنـدلس إلى المغرب على الأَقل بعـد استيلاء أُمويي الأنـدلس على ثغـور المغرب الشمالي أو على الأَقل بعد قيـام الامبراطوريـة المرابطيـة الكبرى في العقـد الثـامن من القرن الخـامس 479 هـ. وان هــذه المـوسيقى جــاءت مـع الـوافـدين من الأندلس بعد الهجرة الفردية إلى عاصمة الدولة زمن المرابطين والموحـدين، ثم بعد الهجرة الجماعية إثر سقوط الأندلس.وان هذه الموسيقى استقرت في المدن التي عبروا منها في طريقهم إلى العـاصمـة مراكش. ثم في المـدن التي استقرت فيها أفواج الأندلسيين وهو بالفعل ما يبرر وقوف هـذه الموسيقى في حـدود المدينة من الجنوب لكونها كانت هدف الرحلة ومنتهـاهـا كعـاصمـة للـدولـة قبل سقوط الأَندلس وبعدها. بل ان المغـاربـة أنفسهم نقلوا ألوانـا من هـذه الموسيقى خلال رحلاتهم وجولاتهم في الأَندلس، كما نقلهـا الأنـدلسيون خلال رحلاتهم وجولاتهم في المغرب.

بذلك سيكون من بـاب التمحل اعتبـار هـذا اللون من الموسيقى لونـا أندلسيا وسلخهُ عن أرضه وبيئته المغربية، خاصة وأَنه ليس فيما ترسب لـدى المجتمع من معارف ما يثبت صحة هذا الانتماء، وان الواقع التاريخي لا يبرره ولا يستسيغـه، بل يؤكـد وجود كيـان وهـويـة مغربيـة قبـل فتـح المغرب وبعده، قبل فتح الأَندلس وبعده، وان هـذا الكيـان تشكل خلال التـاريخ واندمج وتطور ونما، ولكنه لم يمت أبدا ولم يسلم لحضارة وافـده أن تستوطن على حسـاب وجوده وهويتـه، مما يؤكـد أن مـوقفـا كهـذا يجـانب منطـق التـاريخ الحضـاري، والتـاريخ الاجتماعي للشعوب في عـلاقـاتهـا التـاريخيـة الحضارية.

ومنطق التـاريخ يفرض علينـا اعتبـار الأنمـاط الموسيقيـة الأولى التي عـاشت في الأنـدلس وفي المغرب ذات أصول مـوحـدة، وتـاريـخ مشترك، ومسيرة مشتركـة، مع اعتبـار نوع من الاختلاف لا يزيـد عن الاختلافـات التي تقـوم عـادة بين ثرات الأقـاليم المتبـاعـدة أو المتجـاورة بفعـل الرواسب البشرية والفكرية والحضارية، وبفعل مكونات البيئة الجغرافيـة، علما بـأن القرن العـاشر لم يكن فترة تبـادل فكر أو حضـارة، ولكنـه كان فترة تقوقـع الحكم المغربي داخل أراضيه وضعفه عن حمايتها، وحماية وجوده وتخبط دولـة بني الأحمر، وملوك الطوائف بالأندلس، واجترار المجتمع الأندلسي لهزائمـه، ممـا شكل اللون الغرناطي المتميز.

وسنكون مضطرين بحكم ما سبق من بحث إلى الاعتراف بمغربية هـذه الموسيقى، وأصالتها، وانتمائها إلى الثرات العربي المتشكل في المغرب والأندلس معـا. ولعلهـا تكون قـد ازدهرت في الأنـدلس بفعل المنـاخ الملـوكي هنـاك. فحكام الأنـدلس كانـوا يخصصـون مجـالس المـوسيقى في بـلاطهم بشكل يكاد يكـون دائمـا، وكانـوا يشـاركـون في هـذه المجـالس بشكل إيجـابي للغـايـة، ويخصصون لأنفسهم قيانا وقينات، ومغنين ومغنيـات، وعـازفين وعـازفـات، وهو ما عبر عنه الشاعر العربي بقوله :

بني أميـــة هبـوا طـــال نـومكم   ان الخليفـــة يعقـوب بن داوود
ضـاعت امـامتكم يـاقـوم فـالتمسوا   خليفـة اللـــه بين الـزق والعـود

ولم يكن ملوك المغرب منسـاقين مع هـذا الجـو. ولم يثبت على أحـد منهم الانصراف إلى هـذه المجـالس بـالشكل الـذي عرفـه البـلاط الأنـدلسي والعباسي. بل كان ملوك المغرب ملتزمين بما يقتضيـه الملـك من مسؤوليـات

وانشغلات. ولكن هذا لم يمنعهم من الاستمتاع بالموسيقى والاستماع إليها وتشجيعها بدليل تنوع التراث الموسيقي والفني في المغرب وازدهاره وانتشاره واستمراره، مما يؤكد استمرار هذه الموسيقى هي الأخرى في المغرب، إلى جانب الأنماط الموسيقية الأخرى، وانتعاشها ونموها.

وقد يكون المظهر الذي تميزت به هذه الموسيقى في الأندلس سببا في نسبتها إلى هذه المنطقة من طرف بعض الباحثين، لشيوعها في هذه الربوع، ولزومها لبلاطات أمرائها. أو أن تكون قد شهدت في الأندلس ومجالسها مظاهر من التطور والازدهار. خصوصا وقد كان يرافقها رفض القيان وأصوات النساء في مجالس الملوك. وهو ما لم نعرفه في الصورة المغربية لهذه الموسيقى سواء قبل سقوط الأندلس أو بعده.

وأكاد أنسب هذا الرأي إلى فترة المد الاستعماري الذي جند ممكناته الفكرية، كما جند ممكناته العسكرية ليسلب العالم العربي من مظاهر حضارته، ويوجد لكل مظهر من هذه المظاهر أصلا آريا استعماريا، ويجعل الشعب العربي والحضارة العربية كلها حضارة منقولة مكرورة ليس فيها أي إبداع، أو فن، وان الفكر العربي لم يساهم في الحضارة الإنسانية بأي نصيب، وإنما الحضارة الغربية تمتد عن نفسها وعن أصولها الآرية مباشرة من اليونانية والرومانية والبيزنطية، وأن العرب إذا كانوا قد قاموا بفضل ما، فإنما كانوا وسطاء في نقل هذه الثقافة نقلا لم يكن حتى أمينا في الغالب لنقص قابلياتهم لاستيعاب هذه العلوم العظيمة الفائقة، بل أكثر من ذلك أن العرب بددوا جزءا من التراث الفكري الآري بهمجيتهم وتوحشهم وعجزهم

عن تقـدير أهميـة الثقـافـة والفكر. وان فترة سيطرة الحكم العربي كانت فترة اجترار وجمود وأن ما ساهموا به لم يكن سوى.

وموسيقى الآلة بما فيهـا من خصـائص فنيـة وجمـاليـة يجب أن تكون إبداعا آريـا أخـذه العرب من الثرات الإسبـاني بـالأنـدلس، أو افرزه منـاخ المنطقـة على أسوء تقـدير، كما هـو الطبـخ واللبـاس والشعر والفن ومظـاهر الحضارة العربية في الأندلس والمغرب

ونحن لاشك ندرك هذا المسعى الاستعماري لسلب التـاريخ والحضـارة العربية وإيجاد امتدادات وهمية لكل مـا يمكن أن يكون بـارزا من مظـاهر حضارة المجتمعـات العربيـة، في التـاريخ والثرات والفكر والحضـارة الغربيـة القديمة.

ولا ننسى ما ساهم به الأندلسيون أنفسهم في مهـاجمـة المغرب، وثراتـه، وحضارته، أثر سقوط الأندلس، دفاعا عن أنفسهم من تحامل المغاربة عليهم، وتحميلهم مسـؤوليـة الهـزيمـة بـالانصراف إلى الملـذات والتراخي عن حمـايــة الوطن والقيام بواجب صون المكسبات، والصمود في الشدائد.

وأكاد أنسب هذا الرأي إلى الخصومة التي ترتبت بين المغرب والأندلس بعد القضاء على ملوك الطوائف وإتباع الأندلس إلى الحكم المغربي الذي أخذ المجتمع الأندلسي الـذي يوشـك على الانحلال بقسـاوة، وصمم على إعـادتـه إلى الأخلاق الإسلاميـة والقضـاء على مظـاهر الانحـلال والتفسـخ التي كانت في طريقها إلى التفشي فيه، الشيء الذي أثار ضغينة الشقندي وأمثاله، فهـاجموا

المرابطين واعتبروهم برابرة مستوحشين، جفاة، بدوا غليظي الطبع، بعيدين عن الحضارة والفن، ووسم بهم الشعب المغربي بأكمله.

وقد أذكى هذه الخصومة أولئك الذين فقدوا امتيازات كانت لهم في ظلال الحكم الأندلسي، وكان لأحكامهم انعكاس على ما أسسه المؤرخون فيما بعد من نظريات حول الفنون والتاريخ المغربي والأندلسي. كما أن الخصومة العقائدية والسياسية بين الموحدين والمرابطين ساهمت في تنشيط مثل هذه الأراء.

هذا وان كنت لا أستبعد الآراء السابقة حول الأُصول الأندلسية القريبة لموسيقى الآلة احتراما للسادة الباحثين، وثقة فيما بذلوه من جهد، وما استنطقوا من مصادر.

يتبع

مراكش **مالكة العاصمي**

في مكتبة المناهل

جلالة الملك الحسن الثاني ملك المملكة المغربية
الملك الإنسان

إعداد وإنجاز : عبد الحق المريني
عرض : نجاة المريني

صدر أخيراً كتاب جديد بعنوان : «جلالة الملك الحسن الثاني ملك المملكة المغربية، الإنسان والملك»، حجم 21 × 26 سنتم الطبعة الأولى 1985، طبع وزارة الإعلام المغربية، يقع الكتاب في 360 صفحة من القطع الكبير في طبعة أنيقة، مزيناً بصور جلالة الملك المواكبة للأحداث والمناسبات السياسية والوطنية.

يضم الكتاب مجموعة من المقالات المركزة بأقلام عدد من الأعلام المغاربة وغير المغاربة في تخصصات مختلفة، يتحور موضوعها حول شخصية جلالة الملك الحسن الثاني باعتباره مواطناً مغربياً، أو إنساناً كما جاء في عنوان الكتاب، وباعتباره ملكاً راعياً لشعبه ولوطنه.

تتصدر هذه المقالات مقالة رائدة بمثابة خطاب مفتوح إلى الشعب المغربي بقلم جلالة الملك الحسن الثاني، وهي تقع في إحدى عشرة صفحة، وتمتاز بالدقة والتركيز في تلخيص مكونات شخصية جلالته باعتبارها تكوّن مدرسة الحسن الثاني، فهي كما قال الأستاذ عبد الحق المريني في تقديمه للكتاب «مدرسة الحسن الثاني ليس فيها ابتدائي أو ثانوي أو عالي، بل هي مجموعة قيم كبر فيها المغاربة دون أن ينتبهوا ويعايشونها اليوم في بيوتهم وندواتهم ومكاتبهم وبين أصدقائهم وذويهم» (ص 21).

تتألف هذه المقالة الرائدة من نظريات جلالته السديدة، ورؤاه الحكيمة في مجالات الحياة الحيّة والمتعددة، فهي درر ملكية ثمينة صدرت عن جلالته عبر مواقف مختلفة، وفي مناسبات سياسية ووطنية، وخلال أنشطة فكرية واجتماعية، ولقاءات عربية وإسلامية جمعها وألف بين فقراتها في لحمة وتماسك الأستاذ عبد الحق المريني، واجتهد في أن تكون هذه الدرر المختارة ملخصة للفكر الحسني تقنيناً وتطبيقاً، عنوان هذه المقالة «الحسن الثاني بقلم الحسن بن محمد».

بكلمات صادقة وأسلوب مؤثر، أكّد جلالة الملك المبدأ الإسلامي : المسلم أخو المسلم وذلك في قوله «إنكم تعلمون حقّ العلم من هو أخوكم في الإسلام الحسن بن محمد بن يوسف بن الحسن» (ص 5)، والاعتزاز بالمدرسة الإسلامية اعتزاز بالوطنية الحق وممارسة لها في نفس الوقت، ومن ثمّ يتناول جلالة الملك مجموعة من النقط التي تعتبر محاور أساسية في فكر جلالته، ويمكن تلخيصها كما يأتي :

ـ فجلالته تلميذ مدرسة محمد الخامس تغمده الله برحمته، هذه المدرسة المبنية على ركائز ثلاث : الملكية الدستورية، الرفع من مستوى الشعب بتعميم الثقافة والتعليم، العناية بمشاكل الفلاحة.

ـ وجلالته يؤكد اعتزازه بمغربيته عندما يؤكد : «أفتخر بمغربيتي» (ص 7)، تغمره السعادة بعيد ميلاده الذي واكب ظروفا وأحداثا، فأتاح له الفرصة ليعيشها، إذ لولاها «لما أعطيت من نفسي وجهدي وشبابي وقوتي ما أعطيت وما بذلت» (ص 7).

ـ حبه لشعبه وخدمته لوطنه، يقول جلالته : «كونوا على يقين بأنكم ستجدون دائماً في ملككم وخادمكم الحسن الثاني ذلك الشاب الذي عرفتموه منذ نعومة أظفاره [...] عرفتموه دائماً سائراً وراء نهج أبيه، وملكا دستوريا، وجنديا على رأس جنوده» (ص 10)، بعد هذه النقط المحورية يلخص جلالته الحديث عن دوره كعاهل للمغرب ويتجلى ذلك في مظهرين :

1 ـ ضمان الحرية.

2 ـ تجسيد شخصية البلاد.

فجلالته مسؤول عن الأمة، محافظ على وحدتها، ساهر على مصالحها، لذلك فهو يرحّب باستمرار بكل من يطرق بابه، وكذلك بكل «من يريد العمل مخلصاً من أبناء أمتي لتحقيق تقدمها ورخائها، فبابي مفتوح في أوجه الجميع» (ص 11).

وبمداد الفخر والاعتزاز يسجّل جلالته مجموعة من المواقف، فهو وفيّ لشعبه، مجتهد في درء المكاره عنه وجلب المنافع إليه، ممثل له كأحسن سفير

بالخارج، «كنا ولله الحمد نفتخر لأننا على رأس دولة وشعب» (ص 15)، وجلالته رجل واقعي متفائل، يفضّل السلم ويعتبر «عمل الجماعة أحسن بكثير من الأعمال الفردية» (ص 15)، ويختم جلالته هذا الخطاب السامي بقوله : «لقد أبررت بقسمي، وإنني شعبي العزيز سوف أبقى مدينا لك طول العمر على أن سهلت علي المامورية، وجعلتني أبرّ بقسمي» (ص 15).

إن لهذا المقال السامي قيمة أدبية كبيرة تتضح في رصانة الأسلوب، ورقة العبارة، وبلاغة الدلالة، كما أن له قيمة أخلاقية تبدو في السّمو والنبل؛ يمثله الإيثار والتضحية والوفاء والتواضع، وقيمة سياسية في تأكيد الصمود أمام أي إعصار، والدفاع عن حوزة الوطن وكيانه بكل شجاعة وصبر، وقيمة اجتماعية في العمل على الرفع من مستوى المواطنين المغاربة بتعميم الثقافة والتعليم، وحلّ المشاكل الاقتصادية وأهمها الفلاحة، والخلاصة أنني مهما حاولت أن أتحدث عن هذه المقالة فلن أرقى إلى الإلمام بكل خصائصها ونظرياتها، مؤكدة بأنها تعكس بصدق منهج الحسن الثاني في قيادة شعبه تنظيراً وممارسة باعتباره قائداً ماهراً وسياسياً قديراً، ومفكراً حكيماً، وملكاً مسؤولاً...

* * *

بعد هذا الموضوع الهام نجد فهرسة للمواضيع المتناولة، وعددها خمسة وثلاثون موضوعاً، أربعة منها باللغة الفرنسية كنصوص أصلية تمّ تعريبها ونقلها إلى اللغة العربية، وكلها تتناول بالدرس والتحليل شخصية جلالة الملك الحسن الثاني الإنسان والملك، وقبل تقديم محاور هذه المواضيع تجدر الإشارة إلى تقديم الأستاذ عبد الحق المريني ـ الذي أعدّ هذا الكتاب وجمع

مواضيعه ـ لهذا الكتاب، فهو كما يقول عنه : «عبارة عن فصول من المدرسة الحسنية تقدّم للناس دروساً في طلب العلم والمعرفة والتحصيل، وفي التحلي بعظيم الصفات وكريم المزايا، وفي التّمسك بالتعاليم الإسلامية الصحيحة» (ص 20)، ويتعرض الأستاذ المريني لمبادئ المدرسة الحسنية ـ وهي مبادئ مدرسة محمد الخامس تغمده الله برحمته ـ بالتحليل والتوضيح سواء على المستوى الداخلي أو الخارجي، ويقول «وما هذا المصنف ـ الذي نعتز بتقديمه للقارئ المغربي الكريم ـ ليس سوى نافذة سيطل منها على رحاب المدرسة الحسنية، وسيتملّى طلعة مسيرتها الخلاقة الإبداعية، ليزيد اعتزازاً على اعتزاز، وافتخاراً على افتخار، والتزاماً على التزام» (ص 21).

مواضيع الكتاب :

أول موضوع بعنوان «الحسن الثاني الخلف الصالح للسلف الصالح» بقلم الأستاذ الحاج محمد أبا حنيني، وهو يتناول جانباً هاماً من جوانب شخصية جلالة الملك منذ أن ابتلي المغرب بالاستعمار، فكان إلى جانب والده يتصدى ويواجه ويعمل للحفاظ على كرامة بلاده، وبعد أن تحمّل مسؤولية قيادة الأمة بعد وفاة والده المنعم، نجده يستسهل كل صعب ويهوّن كلّ خطب، ويعمل على تحرير البلاد واستقلالها واستكمال وحدتها الترابية في مرونة ولين «أثارت إعجاب الناس، وحركت في قلوب الخصوم الحنق والحقد، وأفضت في نهاية المطاف بعد ظرف وجيز إلى بلوغ المرام» (ص 24).

بعد هذا الموضوع الشامل يمكن تصنيف المواضيع المطروقة إلى :

1 ـ مواضيع عامة : تتحدث عن شخصية جلالة الملك الحسن الثاني منذ أن كان طالباً إلى أن اعتلى كرسي الحكم، وجلس على عرش أسلافه المنعمين من خلال وقائع يومية ومعالم واضحة أبرزت خصائص جلالته علماً

وسلوكاً، وهذه المواضيع تتخذ مواصفة لها ذكريات أصحابها مع جلالة الملك فهو (الطالب المجدّ الطموح) في موضوع الأستاذ محمد عواد، وهو (الملك المناضل والسياسي المحنك) في موضوع الأستاذ أحمد رضا كَديرة، وهو (العالم الموسوعي ذو الشخصية الفذة) في موضوع الأستاذ عبد الوهاب بن منصور.

2 ـ مواضيع سياسية قانونية : وهي مواضيع تتميز برصد خصائص الفكر الحسني في المجال السياسي والقانوني، ويبلغ عددها اثني عشر موضوعا، مرتبة كالآتي :

الحسن الثاني رجل القانون للأستاذ إدريس السلاوي.
الحسن الثاني ووسطية الفكر السياسي للأستاذ عبد الهادي بوطالب.
الحسن الثاني عاهل المغرب الجديد للأستاذ أحمد عصمان.
الحسن الثاني القائد الملهم المحنك للأستاذ المعطي بوعبيد.
الحسن الثاني رائد الحرية والديموقراطية للأستاذ إدريس البصري.
الحسن الثاني باني الاستقلال وموحد الوطن للأستاذ عبد الكريم غلاب.
الحسن الثاني الملك الدستوري الديمقراطي للأستاذ الداي ولد سيدي بابا.
الحسن الثاني المنصف العادل للأستاذ مولاي مصطفى بلعربي العلوي.
الحسن الثاني الملك الاشتراكي للأستاذ عبد الكبير العلوي المدغري.
الحسن الثاني أعظم سفير للشعب المغربي للدكتور عبد الهادي التازي.
الحسن الثاني القائد العسكري للكولونيل عبد الحق القادري.
الحسن الثاني مبدع المسيرة الخضراء ومحرر الصحراء للأستاذ أحمد مجيد بنجلون.

وكما سبق تركّز هذه المواضيع على تحليل الجانب القانوني في فكر جلالة الملك من خلال زاويتين وذلك فيما يتعلق بالسياسة الداخلية :

1 ـ الإيمان بالديموقراطية والعمل على ترسيخها : فقد حرص جلالته على إعداد الدستور وإقراره سنة 1962، وهكذا فقد انصبت اهتمامات الأساتذة كل في موضوعه على تحليل ومناقشة الظروف الذاتية والموضوعية التي جعلت جلالته يحرص على تحقيق مشروع الدستور وإقرار حياة ديموقراطية في ظل ملكية دستورية..

2 ـ استكمال الوحدة الترابية : وقد مثله التحرك لاسترجاع الصحراء بتنظيم المسيرة الخضراء، وكما يقول جلالته : «فالمغرب غير مستعد مطلقاً لأن يضحي بشبر من ترابه» (ص 134).

ـ أما فيما يتعلق بالسياسة الخارجية فقد اهتمت مجموعة من المواضيع بتحليل معالم السياسة الخارجية وأبعادها في فكر جلالة الملك لتحقيق ديبلوماسية مغربية ناجحة، فكما يقول جلالته : «أنا أحسن سفير لشعبي بالخارج» (ص 14)، وتتعرض هذه المواضيع للمواقف المغربية السياسية بالنسبة للقضايا العربية والإسلامية والإفريقية والعالمية، وكلها تستشهد بفقرات من خطب جلالة الملك في تلك المواقف سواء في المؤتمرات العربية أو الإسلامية أو العالمية.

وجهود جلالة الملك قائمة باستمرار من أجل توحيد الصف وجمع الكلمة، وحل المشاكل وتذليل الصعاب، مما جعل جلالته «على قمة الديبلوماسية العالمية يعالج ما استعصى من قضايا الإنسانية» (ص 168).

وبالإضافة إلى هذه المواضيع القانونية، فقد عالج موضوعان آخران الدور القيادي الذي يقوم به جلالة الملك في العالمين العربي والإسلامي باعتباره مفكراً عربياً وزعيماً إسلاميا، متحملا مسؤولية قيادية كبيرة بكل صدق وإخلاص. أما الموضوع الأول فهو للأستاذ العلامة عبد الله كَنون وعنوانه : «الحسن الثاني باعث الدعوة الإسلامية»، والثاني للأستاذ أحمد بنسودة عنوانه : «الحسن الثاني الزعيم الإسلامي العربي».

3 ـ مواضيع تربوية اجتماعية : وهي مواضيع تحاول أن تبرز النظرية الحسنية في الميدانين التربوي والاجتماعي على المستويين النظري والتطبيقي، وتضم عشرة مواضيع تتمحور حول شخصية جلالة الملك من حيث كونه :

- ناصراً للعلم والدين للأستاذ محمد المكي الناصري.
- رائداً لمسيرة التربية والتعليم للدكتور عز الدين العراقي.
- قائد المسيرات التنموية للأستاذ الطيب بن الشيخ.
- محرر المرأة المغربية لسموّ الأميرة للا فاطمة الزهراء.
- حامي الطبقة العاملة للسيد أرسلان الجديدي.
- الرياضي الأول للكولونيل ماجور حسني بنسليمان.
- منظراً للتربية المغربية للدكتور محمد الكتاني.
- الرائد الذي يصدق أهله للأستاذ محمد العربي الخطابي.
- ملكا شعبياً للدكتور عبد اللطيف الفيلالي.
- مشيداً بانياً للأستاذ أندري باكار، وقد نقل النص الفرنسي إلى اللغة العربية الأستاذ مصطفى القصري.

وقد تطرقت أغلب هذه المواضيع إلى التصوّر الحسني في أبعاده ومراميه لنهج سياسة متوازية في التربية والتعليم والاجتماع والاقتصاد،

فجلالته حريص على رفع راية العلم في كل مكان، حريص على التطور الاقتصادي لبلده، وعلى حماية العمال، وعلى تحرير المرأة المغربية وعلى البناء والتشييد.

4 ـ مواضيع علمية ثقافية : وهي تتناول بالتحليل الجانبين العلمي والثقافي في شخصية جلالة الملك باعتبار الثقافة أساساً لإثبات هويّة الشخصية المغربية الوطنية، وجلالته رجل الأدب والإبداع في فنون القول، تشكّلها أنماط كثيرة كالخطب والرسائل والمذكرات والاستجوابات وغيرها، وباعتباره ناصراً للتقنيات وللفنون على اختلاف ألوانها، ويبلغ عدد هذه المواضيع خمسة وهي :

الحسن الثاني حامل مشعل الثقافة والفكر للدكتور سعيد بلبشير.

الحسن الثاني رجل الأدب والإبداع وفنون القول للدكتور عباس الجراري.

الحسن الثاني رجل الثقافة للأستاذ ليوبولد سيدار سنغور، وقد نقل النص الفرنسي إلى اللغة العربية الأستاذ عبد اللطيف خالص.

الحسن الثاني نصير العلوم والتقنيات للأستاذ أحمد الاخضر غزال.

الحسن الثاني والفن الملكي للأستاذ موريس دريون، وقد نقل النص الفرنسي إلى اللغة العربية الأستاذ عبد اللطيف خالص.

وبالإضافة إلى هذه المواضيع، فقد اختار منجز الكتاب ومعدّه الأستاذ عبد الحق المريني نظرية التحدي في فكر جلالة الملك ليتحدث عنه ملكا متحديا، محللا مفهوم التحدي عند جلالته منذ أن حضر وهو «أمير صغير» مؤتمر أنفا التاريخي سنة 1943، ومنذ أن اختار جلالته أن يكون «الحسن

بن محمد الأمير ولي العهد»، فتحدى الصعوبات والعراقيل بالعزيمة القوية والعمل البناء...

وأخيرا، فإن هذا الكتاب يعتبر وثيقة هامة في تاريخ الفكر المغربي، فهو انطلاقا من مقال جلالته وانتهاء بالمواضيع الخصبة التي تناولت جوانب النبوغ في فكر جلالته يرصد المبادئ الفكرية الحسنية والقيم الخلقية والطموحات الكبيرة التي يؤمن بها جلالة الملك على المستويين التنظيري والعمليّ. إن هذا الكتاب وهو يتعرض لمواقف وأحداث، وذكريات وآراء، يعكس في صفاء ووفاء تحديات جلالة الملك المتمثلة في العمل من أجل بناء مغرب مستقل متحدّ، كما أنه يعكس المنهج الحسني العملي في الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية، إضافة إلى أنه يلقي الأضواء على معالم السياسة الخارجية المغربية في علاقة المغرب مع غيره من الدول العربية والإسلامية والإفريقية والعالمية.

إن طبيعة هذا الكتاب إعداداً وإنجازاً قد استقطبت دارسين كثيرين في اختصاصات مختلفة، ومن اتجاهات متعددة لتحليل النظريات الحسنية واستخلاص مفاهيمها واستعراض نتائجها، فهو يتميز بخاصيات كثيرة وإفادات كبيرة، وهو بمواضيعه الخصبة ومحاوره المتنوعة يهدف إلى إعطاء صورة عن شخصية جلالة الملك الحسن الثاني الغني عن كل تعريف، وبإعداد هذا الكتاب كما قال الأستاذ المريني «فإننا نتمنى أن تعطي هذه الباقة ـ التي نهديها للقارئ المغربي الكريم ـ صورة قد لا نصفها بالوافية عن صاحب الجلالة الحسن الثاني الإنسان والملك»...

الإعلام الثقافي

معرض نماذج من الكتاب المغربي
الصادر في عهد جلالة الحسن الثاني نصره الله

بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لتربع صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله على عرش أسلافه المنعمين، ترأس السيد محمد بن عيسى وزير الشؤون الثقافية مساء يوم الخميس 17 جمادى الثانية 1406 (27 فبراير 1986) ببهو وزارة الشؤون الثقافية حفل تدشين «معرض نماذج الكتاب المغربي الصادر في عهد جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله» استمر إلى غاية 10 مارس 1986، ضم مآت من الكتب التي صدرت في المغرب في كل ميادين المعرفة.

حضر حفل افتتاح هذا المعرض والي صاحب الجلالة على الرباط وسلا وعدة شخصيات تهتم بالثقافة والكتاب.

تدشين المندوبية الإقليمية للشؤون الثقافية بطنجة

في إطار الاحتفالات بالذكرى الخامسة والعشرين لتربع صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله على عرش أسلافه المنعمين أشرف السيد محمد بن عيسى وزير الشؤون الثقافية صحبة السيد عامل صاحب الجلالة على إقليم طنجة، على تدشين بناية المقر الجديد للمندوبية الإقليمية لوزارة الشؤون الثقافية، والمركز الثقافي، وخلال حفل التدشين ألقى السيد الوزير كلمة أبرز فيها جهود صاحب الجلالة من أجل التنمية الثقافية والاشعاع الثقافي والحضاري للمغرب مشيرا إلى أن طنجة تحتضن لأول مرة مركزا مغربيا للثقافة يضم مكتبة عامة ومعهدا موسيقيا وقاعات الاجتماعات للجمعيات الثقافية بهذه المدينة ومرافق أخرى.

التعاون الثقافي بين وزارة الشؤون الثقافية ومعهد العالم العربي في باريس

انعقدت بوزارة الشؤون الثقافية يوم السبت 26 جمادى الثانية 1406 (8 مارس 1986) جلسة عمل برئاسة السيد محمد بن عيسى وزير الشؤون الثقافية والسيد بيير غيدوني رئيس معهد العالم العربي في باريس، أعرب خلالها هذا الأخير عن تأثره البالغ بالاستقبال الذي حظي به من لدن صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله.

من بين القضايا والمشاريع التي تمت مناقشتها :

- إسهام المغرب في تجميل المعهد.

- إدخال نظام الإعلاميات في النظام المكتبي المغربي للربط الآلي بين الخزانات الكبرى. ـــ؟

- الملتقى الدولي الأول حول ابن بطوطة الذي تعتزم الوزارة تنظيمه في مدينة طنجة.

- التعاون في مجال الإنتاج التلفزي والسينمائي في مختلف المجالات الثقافية كما وجه السيد بيير غيدوني دعوة رسمية إلى السيد محمد بن عيسى وزير الشؤون الثقافية للمشاركة في الافتتاح الرسمي لمعهد العالم العربي في باريس المزمع تدشينه في شهر أكتوبر القادم.

بناية مطبعة وزارة الشؤون الثقافية بالرباط

في إطار الاحتفالات بالذكرى الخامسة والعشرين لتربع صاحب الجلالة على عرش أسلافه المنعمين أشرف السيد محمد بن عيسى وزير الشؤون الثقافية رفقة السيد والي الرباط وسلا وسفير اليابان بالمغرب على وضع الحجر الأساسي لبناء مطبعة ثقافية بالرباط تمثل الشطر الأول من مشروع المؤسسة الوطنية للطبع والنشر. التي ستعمل على طبع الإنتاج الفكري المغربي وتيسير تداوله على أوسع نطاق وتوفير الحيوية اللازمة للنشاط الثقافي الوطني وذلك بطبع مؤلفات الكتاب وخاصة الشباب منهم بدون مضايقات مالية وشروط تجارية.

وقد أسهمت اليابان في إنجاز هذا المشروع بمعدات وتجهيزات مطبعية وبالمساعدة في تكوين التقنيين المغاربة العاملين بهذه المطبعة وذلك في إطار التعاون الثقافي القائم بين المملكة المغربية واليابان.

التعاون الثقافي بين المملكة المغربية وسلطنة عمان

على هامش تنفيذ التعليمات السامية لصاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله بتكليف السيد محمد ابن عيسى وزير الشؤون الثقافية بتسليم رسالة ملكية إلى السلطان قابوس بن سعيد، قام السيد الوزير باتصالات مع المسؤولين عن الشؤون

الثقافية والتراث القومي في السلطنة، وعلى رأسهم سمو الأمير فيصل بن علي وزير التراث القومي والثقافة في عمان، تكللت هذه الاتصالات بالتوقيع بين الجانبين على محضر يعنى بعدد من المشاريع التي سيساهم فيها المغرب بسلطنة عمان كما يشير إلى عدد من المجالات سيشملها بروتوكول التعاون الثقافي بين البلدين.

كما قام السيد الوزير بزيارة تفقدية لعدد من المنشآت التراثية والقلاع والحصون التي يعمل فريق مغربي على ترميمها، وتعتبر أعمال هذا الفريق بحق مفخرة كبرى تحظى بالاعجاب الكبير على المستويين الحكومي والشعبي في السلطنة.

تدشين الخزانة البلدية بمدينة سوق الاربعاء الغرب

بمناسبة الاحتفال بالذكرى الخامسة والعشرين لتربع صاحب الجلالة على عرش أسلافه المنعمين، قام السيد محمد بن عيسى وزير الشؤون الثقافية رفقة السيد عامل صاحب الجلالة على إقليم القنيطرة بتدشين الخزانة البلدية بمدينة سوق الأربعاء الغرب.

وخلال حفل التدشين ألقى السيد الوزير كلمة أبرز فيها الأهمية الثقافية لهذا الإنجاز، وشكر المجلس البلدي والسلطات المحلية على الجهود التي بذلوها إسهاما منهم في بلورة الاشعاع الثقافي في هذه المدينة مشيرا إلى أن وزارة الشؤون الثقافية ستشرع في دراسة شاملة لإدخال المعلوماتية في كل الخزانات المغربية لتقريب الوثائق والكتب من القراء والباحثين.

صاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير الجليل سيدي محمد يترأس حفل توزيع "جائزة المغرب" لسنة 1985

تتوالى العناية الملكية الخاصة التي يوليها صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله للعمل الثقافي والعلمي والإبداعي، ذلك بأن سن جلالته تقليدا بتكريم الفائزين بـ «جائزة المغرب» كل سنة، وأعطى تعليماته السامية ليترأس صاحب

السمو الملكي ولي العهد الأمير الجليل سيدي محمد حفل تكريم الفائزين بالجائزة لسنة 1985.

وكانت مراكش على موعد مع هذا الحفل مساء يوم الجمعة 18 جمادى الثانية 1406 (28 فبراير 1986) الذي ترأسه صاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير الجليل سيدي محمد بحضور عدد من أعضاء الحكومة ومستشاري صاحب الجلالة وعدة شخصيات تنتمي إلى عالم الثقافة والعلوم والفنون.

وخلال هذا الحفل تناول الكلمة السيد عبد الهادي التازي عضو أكاديمية المملكة المغربية، فتوجه باسم أعضاء لجنة التحكيم لجائزة المغرب لسنة 1985، بالشكر لصاحب السمو الملكي الأمير الجليل سيدي محمد، معربا عن امتنانهم لسموه على تفضله بقبول رئاسة الحفل.

والجدير بالإشارة إلى أن الفائزين بجائزة المغرب لسنة 1985 :

- في العلوم الإنسانية والاجتماعية : الأستاذ يحيى ابن سليمان، سفير صاحب الجلالة في روما على مؤلفه «نحن المغاربة».

- في العلوم : الدكتور أحمد وجيه المعزوزي الاختصاصي في جراحة القلب بالمركز الصحي الجامعي بالرباط على كتابه «الوقاية من روماتيزم القلب في المغرب».

- في الفنون والآداب : السيدان عبد الكريم الرايس مدير المعهد الموسيقى بفاس ومحمد أبريول أستاذ الموسيقى بنفس المعهد عن كتابها «الموسيقى المغربية الأندلسية - نوبة غريبة الحسين».

وقد قدم الأستاذ يحيى ابن سليمان كلمة باسم الفائزين بالجائزة أعرب فيها عن عميق ابتهاجه للشرف الكبير الذي حظي به، وهو يتسلم من يدي صاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير سيدي محمد الجائزة، والتمس من سموه إبلاغ صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني أيده الله آيات ولائه وإخلاصه وتعلقه بشخصه الكريم.

بعد ذلك ألقى السيد محمد بن عيسى وزير الشؤون الثقافية، خطابا أعرب فيه بالخصوص عن بالغ اعتزازه وعميق تأثره وكذا امتنانه لصاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير سيدي محمد علي قبوله رئاسة هذا الحفل تكريما للعمل الثقافي والفني

ببلادنا، وأشار السيد الوزير إلى أن حفل تسليم «جائزة المغرب» لهذه السنة يصادف مناسبتين عزيزتين على بلادنا وهي الذكرى الخامسة والعشرين لتربع صاحب الجلالة الحسن الثاني على عرش أسلافه المنعمين، والاختيار الموفق والحكيم لصاحب الجلالة بجعل سنة 1986 سنة للثقافة، كما أشاد السيد الوزير بالمنجزات الكبرى التي حققها صاحب الجلالة في ميادين العلوم والفنون والآداب، وكذا المنجزات المنتظر تحقيقها مستقبلا، وتوجه إلى صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني بأخلص مشاعر الإكبار والامتنان شاكرا لجلالته رقيق عنايته وكريم رعايته للفن والفنانين الموسيقيين في شخص الأساتذة : عبد الكريم الرايس، وأحمد الوكيلي، ومحمد العربي التمسماني.

موسم المسرح المغربي الأول

احتفاء بالذكرى الخامسة والعشرين لجلوس صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله على عرش أسلافه المنعمين ومن أجل انطلاقة حقيقية لحركة. مسرحية دائمة، حركة جديدة ومتجددة، تنعش المسرح وتنتعش بالمسرح، تغطي كل الوطن من أقصاه إلى أقصاه وتخرج المسرح من المدن حيث يتواجد الناس في القرى والمداشر، وفي إطار البرنامج الرامي إلى جعل سنة 1986 سنة للثقافة، نظمت وزارة الشؤون الثقافية «موسم المسرح المغربي الأول» عبر مختلف أقاليم المملكة، بمشاركة 14 فرقة تقدم 104 عروض مسرحية في 60 مركزا حضريا وقرويا وفيما يلي برنامج المرحلة الأولى (فبراير، مارس، أبريل) من هذا الموسم :

□ الخميس 6 فبراير :

☆ **الخميسات** مسرحية «**عكاز الطريق**» لعبد الحق الزروالي، قاعة دار الشباب.

□ الجمعة 7 فبراير 1986 :

☆ **مراكش** مسرحية «**شجرة العائلة**» لفرقة البدوي، سينما بلاص.

☆ **فاس** مسرحية «**عكاز الطريق**» لعبد الحق الزروالي سينما بيجو.

□ **السبت 8 فبراير 1986 :**

☆ **أحفير** مسرحية «**المقبرة**» للمسرح الطلائعي، سينما أحفير.

☆ **تازة** مسرحية «**سالف لنجة**» للواء المسرحي بتازة، قاعة دار الشباب.

☆ **زرهون** مسرحية «**لعبة الحلم والاجهاض**» لجمعية رواد الخشبة، دار الشباب.

☆ **الصويرة** مسرحية «**سقوط الأقنعة**» لجموعة العمل المشترك بالجديدة، سينما الريف.

☆ **الجديدة** مسرحية «**المفتاح**» لجمعية نادي خشبة الحي، المسرح البلدي.

☆ **انزكَان** مسرحية «**الجندي والمثال**» لجمعية أنوار سوس، قاعة البلدية.

☆ **الرباط** مسرحية «**شطحات جحجوح**» لجموعة العمل المسرحي بسلا، قاعة الوزارة.

☆ **مراكش** مسرحية «**شجرة العائلة**» لفرقة البدوي، سينما بلاص.

□ **الأحد 9 فبراير 1986 :**

☆ **مراكش** مسرحية «**شجرة العائلة**» لفرقة البدوي، سينما بلاص.

☆ **تازة** مسرحية «**عكاز الطريق**» لعبد الحق الزروالي، قاعة دار الشباب.

□ **الإثنين 10 فبراير 1986 :**

☆ **البهاليل** مسرحية «**عكاز الطريق**» لعبد الحق الزروالي، قاعة دار الشباب.

□ **الخميس 13 فبراير 1986 :**

☆ **أكَادير** مسرحية «**شجرة العائلة**» فرقة البدوي، سينما ريالطو.

□ **الجمعة 14 فبراير 1986 :**

☆ **أكَادير** مسرحية «**شجرة العائلة**» لفرقة البدوي، سينما ريالطو.

☆ **زرهون** مسرحية «**عكاز الطريق**» لعبد الحق الزروالي، قاعة دار الشباب.

□ **السبت 15 فبراير 1986 :**

☆ **بركان** مسرحية «**المقبرة**» للمسرح الطلائعي بوجدة، سينما الملكي.

☆ **وجدة** مسرحية «**يا مد البحر متى تأتي**» للمسرح البلدي بوجدة، سينما باريس.

☆ تاونات مسرحية «سالف لنجة» للواء المسرحي بتازة، سينما الوحدة.
☆ الحاجب مسرحية «لعبة الحلم والاجهاض» لجمعية رواد الخشبة، دار الشباب.
☆ تارودانت مسرحية «الجندي والمثال» اجمعية أنوار سوس، سينما الصحراء.
☆ أصيلة مسرحية «العقرب والميزان» لمجموعة العمل المشترك بطنجة، قصر الثقافة.
☆ البيضاء مسرحية «البحث عن رجل يحمل عينين فقط» للمسرح الجامعي بالبيضاء، سينما الكواكب.
☆ البيضاء مسرحية «الباحث» الأشبال البيضاء، قاعة عبد الصمد الكنفاوي.
☆ آسفي مسرحية «سقوط الأقنعة» لمجموعة العمل المشترك بالجديدة، قاعة الأفراح.
☆ الصويرة مسرحية «المفتاح» لجمعية نادي خشبة الحي، سينما الريف.
☆ سوق الأربعاء مسرحية «شطحات جحجوح» لمجموعة العمل المسرحي بسلا، سينما النهضة.
☆ تزنيت مسرحية «شجرة العائلة» لفرقة البدوي، سينما الباهية.
☆ مكناس مسرحية «عكاز الطريق» لعبد الحق الزروالي، سينما الريف.

□ الأحد 16 فبراير 1986 :
☆ تزنيت مسرحية «شجرة العائلة» لفرقة البدوي، سينما الباهية.

□ الإثنين 17 فبراير 1986
☆ تارودانت مسرحية «شجرة العائلة» لفرقة البدوي، سينما الصحراء.

□ الثلاثاء 18 فبراير 1986 :
☆ تارودانت مسرحية «شجرة العائلة» لفرقة البدوي، سينما الصحراء.

□ الخميس 20 فبراير 1986 :
☆ الصويرة مسرحية «شجرة العائلة» لفرقة البدوي، سينما الريف.

□ الجمعة 21 فبراير 1986 :
☆ الرباط مسرحية «عكاز الطريق» لعبد الحق الزروالي، قاعة الوزارة.
☆ الصويرة مسرحية «شجرة العائلة» لفرقة البدوي، سينما الريف.

□ **السبت 22 فبراير 1986 :**

☆ **فكَيكَ** مسرحية «**يامد البحر متى تأتي**» للمسرح البلدي بوجدة، سينما فكَيكَ.

☆ **الخميسات** مسرحية **لعبة الحلم والاجهاض**» لمجموعة رواد الخشبة بمكناس، دار الشباب.

☆ **طنجة** مسرحية «**العقرب والميزان**» لمجموعة العمل المشترك بطنجة، سينما موريطانيا.

☆ **البيضاء** مسرحية «**ناو مانس لاند**» للسلام البرنوصي، قاعة دار الشباب البرنوصي.

☆ **اليوسفية** مسرحية «**سقوط الأقنعة**» لمجموعة العمل المشترك بالجديدة، قاعة الأفراح.

☆ **آسفي** مسرحية «**المفتاح**» لجمعية نادي خشبة الحي، قاعة الأفراح.

☆ **وزان** مسرحية «**شطحات جحجوح**» لمجموعة العمل المسرحي بسلا، دار الشباب.

☆ **آسفي** مسرحية «**شجرة العائلة**» لفرقة البدوي، قاعة الحفلات.

☆ **المحمدية** مسرحية «**عكاز الطريق**» لعبد الحق الزروالي، دار الشباب العربي.

□ **الأحد 23 فبراير 1986 :**

☆ **آسفي** مسرحية «**شجرة العائلة**» لفرقة البدوي، قاعة الحفلات.

☆ **البيضاء** مسرحية «**عكاز الطريق**» لعبد الحق الزروالي، المسرح البلدي.

□ **الإثنين 24 فبراير 1986 :**

☆ **الجديدة** مسرحية «**عكاز الطريق**» لعبد الحق الزروالي المسرح البلدي.

□ **الخميس 27 فبراير 1986 :**

☆ **الجديدة** مسرحية «**شجرة العائلة**» لفرقة البدوي، المسرح البلدي.

□ **الجمعة 28 فبراير 1986 :**

☆ **الجديدة** مسرحية «**شجرة العائلة**» لفرقة البدوي، المسرح البلدي.

□ **السبت 1 مارس 1986 :**

☆ **أزرو** مسرحية «**لعبة الحلم والاجهاض**» لمجموعة رواد الخشبة بمكناس، دار الشباب.

☆ **العرائش** مسرحية «**العقرب والميزان**» لمجموعة العمل المشترك بطنجة، سينما اسبانيول.

☆ **البيضاء** مسرحية «**الباحث**» لأشبال البيضاء، سينما العثمانية.

☆ **اليوسفية** مسرحية **المفتاح**» لجمعية نادي خشبة الحي، قاعة الأفراح.

☆ **سلا** مسرحية «**شطحات جحجوح**» لمجموعة العمل المسرحي بسلا، سينما لوبيرا.

☆ **البيضاء** مسرحية «**شجرة العائلة**» لفرقة البدوي، سينما أنفا.

☆ **تزنيت** مسرحية «**الجندي والمثال**» لجمعية أنوار سوس، سينما الباهية.

□ **الأحد 2 مارس 1986 :**

☆ **البيضاء** مسرحية «**شجرة العائلة**» لفرقة البدوي، سينما بوليو.

□ **الإثنين 3 مارس 1986 :**

☆ **البيضاء** مسرحية «**شجرة العائلة**» لفرقة البدوي، سينما الصحراء.

□ **السبت 8 مارس 1986 :**

☆ **بوعرفة** مسرحية «**المقبرة**» للمسرح الطلائعي بوجدة، سينما بوعرفة.

☆ **جرادة** مسرحية «**يامد البحر متى تأتي**» للمسرح البلدي بوجدة، قاعة النادي الثقافي.

☆ **خنيفرة** مسرحية «**لعبة الحلم والاجهاض**» لمجموعة رواد الخشبة، سينما الأطلس.

☆ **القصر الكبير** مسرحية «**العقرب والميزان**» لمجموعة العمل المشترك بطنجة، قاعة الشبيبة والرياضة.

☆ **خريبكة** مسرحية «**نو ما نس لاند**» للسلام البرنوصي، قاعة الأفراح.

☆ **مراكش** مسرحية «**سقوط الأقنعة**» لمجموعة العمل المسرحي بالجديدة، قاعة الكازينو.

☆ **قلعة السراغنة** مسرحية «**المفتاح**» لجمعية نادي خشبة الحي، قاعة دار الشباب.

☆ **سيدي يحيى** مسرحية «**شطحات جحجوح**» لمجموعة العمل المسرحي بسلا، قاعة البلدية.

□ **الخميس 13 مارس 1986 :**

☆ **فاس** مسرحية «**شجرة العائلة**» لفرقة البدوي، سينما لومبير.

□ **الجمعة 14 مارس 1986 :**

☆ **فاس** مسرحية «**شجرة العائلة**» لفرقة البدوي، سينما لومبير.

□ **السبت 15 مارس 1986 :**

☆ **الناضور** مسرحية «**المقبرة**» للمسرح الطلائعي بوجدة، قاعة دار الثقافة.

☆ **أحفير** مسرحية «**يا مد البحر متى تأتي**» للمسرح البلدي بوجدة، سينما أحفير.

☆ **البهاليل** مسرحية «**سالف لنجة**» للواء المسرحي بتازة، قاعة دار الشباب.

☆ **الرشيدية** مسرحية «**لعبة الحلم والاجهاض**» لمجموعة رواد الخشبة، سينما الواحة.

☆ **تطوان** مسرحية «**العقرب والميزان**» لمجموعة العمل المشترك بطنجة، دار الثقافة.

☆ **المحمدية** مسرحية «**البحث عن رجل يحمل عينين فقط**» للمسرح الجامعي بالبيضاء، دار الشباب العالية.

☆ **ابن جرير** مسرحية «**سقوط الأقنعة**» لمجموعة العمل المشترك بالجديدة، دار الشباب.

☆ **مراكش** مسرحية «**المفتاح**» لجمعية نادي خشبة الحي، قاعة الكازينو.

☆ **سيدي سليمان** مسرحية «**شطحات جحجوح**» لمجموعة العمل المسرحي بسلا، قاعة البلدية.

☆ **كَلميم** مسرحية «**الجندي والمثال**» لجمعية أنوار سوس، قاعة المركب الثقافي.

□ **السبت 22 مارس 1986 :**

☆ **بركان** مسرحية «**يا مد البحر متى تأتي**» للمسرح البلدي بوجدة، سينما الملكي.

☆ **شفشاون** مسرحية «**العقرب والميزان**» لمجموعة العمل المشترك بطنجة، دار الشباب.

☆ **بني ملال** مسرحية «**الباحث**» لأشبال البيضاء، سينما الأطلس.

☆ **الجديدة** مسرحية «**سقوط الأقنعة**» لمجموعة العمل المشترك بالجديدة، المسرح البلدي.

☆ **ابن جرير** مسرحية المفتاح» لجمعية نادي خشبة الحي، قاعة دار الشباب.

☆ **سيدي قاسم** مسرحية «**شطحات جحجوح**» لمجموعة العمل المسرحي بسلا، سينما وليلي.

□ **السبت 29 مارس 1986 :**

☆ **وجدة** مسرحية **«المقبرة»** للمسرح الطلائعي بوجدة، سينما باريس.

☆ **طانطان** مسرحية **«الجندي والمثال»** لجمعية أنوار سوس، سينما النهضة.

☆ **وادي زم** مسرحية **«البحث عن رجل يحمل عينين فقط»** للمسرح الجامعي بالبيضاء، سينما الملكي.

☆ **قلعة السراغنة** مسرحية **«سقوط الأقنعة»** لمجموعة العمل المسرحي بالجديدة، دار الشباب.

☆ **بلقصيري** مسرحية **«شطحات جحجوح»** لمجموعة العمل المسرحي بسلا، سينما وليلي.

□ **السبت 5 أبريل 1986 :**

☆ **فكَيكَ** مسرحية **«المقبرة»** للمسرح الطلائعي بوجدة، سينما فكَيكَ

☆ **بوعرفة** مسرحية« **يا مد البحر متى تأتي»** للمسرح البلدي بوجدة، سينما بوعرفة.

☆ **فاس** مسرحية **«سالف لنجة»** للواء المسرحي بتازة، سينما لامبير.

☆ **سطات** مسرحية **«نومانس لاند»** للسلام البرنوصي، قاعة دار الشباب.

☆ **القنيطرة** مسرحية **«شطحات جحجوح»** لمجموعة العمل المسرحي بسلا، قاعة الأفراح.

□ **السبت 12 أبريل 1986 :**

☆ **جرادة** مسرحية **«المقبرة»** للمسرح الطلائعي بوجدة، قاعة النادي الثقافي.

☆ **الناضور** مسرحية **«يا مد البحر متى تأتي»** للمسرح البلدي بوجدة، دار الثقافة.

☆ **إيموزار** مسرحية **«سالف لنجة»** للواء المسرحي بتازة، قاعة دار الشباب.

☆ **ابن أحمد** مسرحية **«البحث عن رجل يحمل عينين فقط»** للمسرح الجامعي بالبيضاء، دار الشباب.

☆ **تمارة** مسرحية **«شطحات جحجوح»** لمجموعة العمل المسرحي بسلا، سينما المسيرة.

□ **السبت 19 أبريل 1986 :**

☆ **الحسيمة** مسرحية «**سالف لنجة**» للواء المسرحي بتازة، سينما الكبير.

☆ **برشيد** مسرحية «**الباحث**» لأشبال البيضاء، سينما الريف.

☆ **أكَادير** مسرحية «**الجندي والمثال**» لجمعية أنوار سوس، قاعة الأفراح.

☆ **ابن سليمان** مسرحية «**نومانس لاند**» للسلام البرنوصي، قاعة دار الشباب.

□ **العروض المسرحية**

☆ **مسرحية «المقبرة» :** تأليف : وليد اخلاص إخراج عمر درويش

☆ **مسرحية «يا مد البحر متى تأتي» :** إعداد وإخراج : ابن يحي العزاوي

☆ **مسرحية «لعبة الحلم والاجهاض» :** تأليف : محمد مسكين إخراج ابن يحي العزاوي

☆ **مسرحية «ناو مانس لاند» :** تأليف : محمد قاوتي إخراج إبراهيم نشيخ

☆ **مسرحية «الباحث» :** تأليف : عاطف الهلالي إخراج التهامي جمرقان

☆ **مسرحية «المفتاح» :** تأليف : يوسف العاني إخراج محمد عواطف والمجموعة

☆ **مسرحية «سقوط الأقنعة» :** تأليف : محمد كابي إخراج علي السماعي

☆ **مسرحية «البحث عن رجل يحمل عينين فقط» :** تأليف : الصغير المسكيني إخراج عبد الإله عاجل

☆ **مسرحية «الجندي والمثال» :** تأليف : الصغير المسكيني إخراج عبد القادر اعبابو

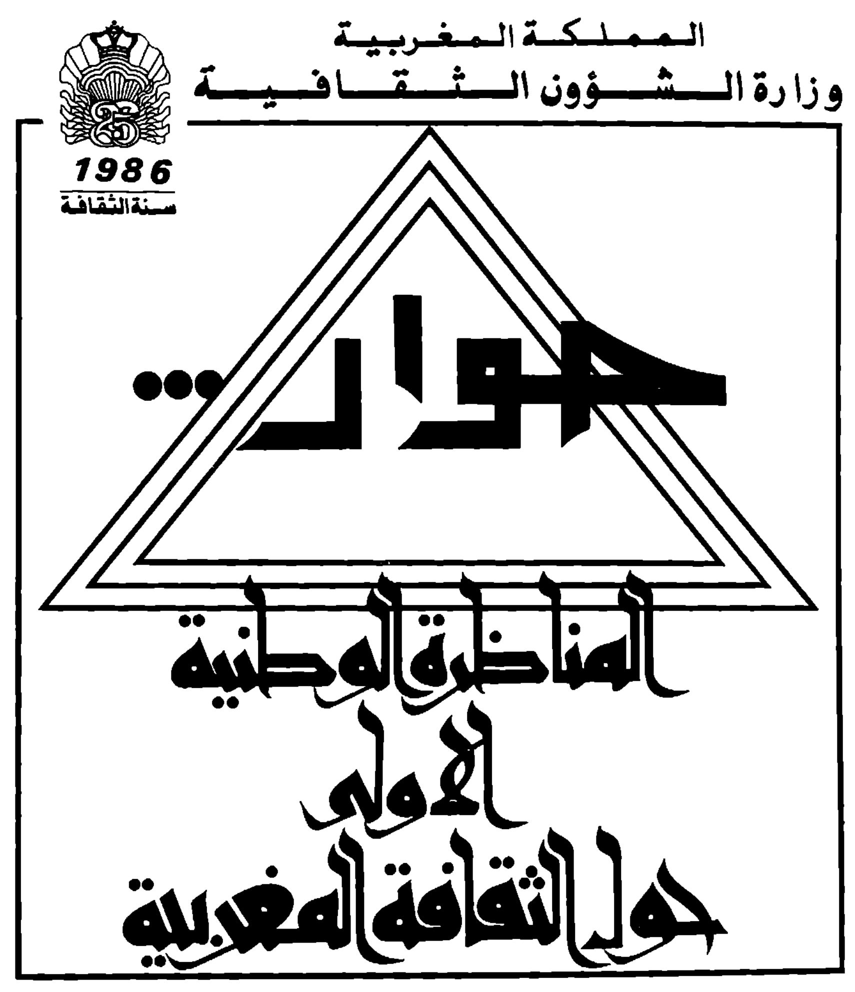
☆ **مسرحية «العقرب والميزان» :** تأليف : الصغير المسكيني إخراج أحمد الأشقر

☆ **مسرحية «شطحات جحجوح» :** تأليف : عبد الكريم برشيد إخراج عبد المجيد فنيش

☆ **مسرحية «سالف لنجة» :** تأليف : عبد الكريم برشيد إخراج محمد بلهيسي

☆ **مسرحية «شجرة العائلة» :** تأليف : عبد القادر البدوي إخراج عبد الرزاق البدوي

☆ **مسرحية «عكاز الطريق» :** تأليف وإخراج : عبد الحق الزروالي



تارودانت
15/14/13
يونيو
1986

المناظرة الوطنية الأولى حول الثقافة المغربية

بتوجيه من صاحب الجلالة الحسن الثاني نصره الله، نظمت وزارة الشؤون الثقافية بمدينة تارودانت أيام 15/14/13 يونيه 1986 المناظرة الوطنية الأولى حول الثقافة المغربية، وقد ترأس السيد وزير الشؤون الثقافية الأستاذ محمد بن عيسى صباح يوم الجمعة 13 يونيه 1986 رفقة السيد وزير السكنى والتعمير وعامل صاحب الجلالة على اقليم تارودانت والنواب البرلمانيين والمنتخبين ورجال السلطة وعدة شخصيات أخرى الجلسة الافتتاحية لأشغال هذه المناظرة التي ضمت ـ علماء ومفكرين ومبدعين من مختلف الاتجاهات في البلاد.

كما تميزت بحضور مكثف لعدد وافر من أجهزة الاعلام الوطنية والدولية، والتي سارعت إلى استجابة الدعوة لتغطية أعمال المناظرة، كحدث هام يستوجب ملاحقة ما يجري في جلساته، والاسهام المشترك في التعريف والاعلان عن نتائجه.

وبعد تلاوة آيات بينات من الذكر الحكيم قرأ السيد وزير الشؤون الثقافية الكلمة التوجيهية السامية التالية لصاحب الجلالة الحسن الثاني حفظه الله.

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وءاله وصحبه

حضرات السيدات والسادة

يسرنا سرورا عظيما أن نوجه أصدق وأخلص تحياتنا إلى لقائكم الحافل هذا، المعقود افتتاحا لأعمال المناظرة الوطنية التي اتخذت الثقافة موضوعا للمطارحة والحوار، وهو موضوع نوليه نصيبا وافرا من اهتمامنا لما ننيطه بالثقافة من آمال.

لقد كان هَذا الاهتمَام داعياً لنا منذ سَبعة عشـر عاماً إلى إحدَاث وزَارة عهدنا إليها بجمَيع الشؤون التي يَنتظمها مَفهوم الثقافة في عصرنا الحاضر.

ولاغرْوَأن تتَبوأ الثقافة من نفسنا وعقلنا مكانَ العنَاية، وتحظى لدَينا بسابغ الرعَاية، ذَلك أن تراثاً ضخماً انتقلَ إلينَا عبر العصُور المتلاحقَة، تلقينَاه من أسَلافنا الذينَ جَالوا في سَاحَاتٍ شاسعَة مختلفة، ببرَاعة وقدَمٍ رَاسخَة، وأورَثونا من إبدَاعهم آياتٍ بيناتٍ، فكان لزاماً علينَا أن نحوطَ مَا تلقينَاه بمَا يسَتحقه من إكبَارٍ وحَفاوَة.

وإذا كان مَدلول الثقافة قد تطوَّر وَاتسع وتعـدَّد، على توَالي الأعوَام وَالحِقب، فإن الأمة الإفريقية العربيـة الإسلامية التي ينتمي إليهَا المغربُ بلغت - يومَ هبت ريحُها وانتشَر سُلطانها - شأواً بعيداً في كثير مما ينتسبُ الآن إلى مجالات الثقافة، فقد أبدعَ عقلها في ميَادينِ الفكـر على اختلافها، كما أبدعَ إحسَاسُها في ميَادين الفنون على تعدّدهَا وتباينها، وكانَ من آثار ما استنبطـه فكرُها، وابتكره خيَالُها وإحسَاسها أن انبثقت وتألقت

حَضَارة عَربِيَة إسلاَمِيَة في شَرق البلاد الإسلامية وغربها.

وكما هو شأن جَميع الثقافات والحضَارات التي تتفرعُ من أصْل مُعيَّن وتظل حَاملةً لخُصوصَيات مَعلومة، فإن الثقَافة المغربية انسمَت على مرّ القرُون، في إطار الهوية الإفريقية العربية والعقيدة الإسلامية، بسماتٍ وخصَائص متميزة أنشأتها العبقرية المغربيةُ الصّرفة.

وهَذه الثقافةُ المغربية البَارزة في مَيادينَ شتى، المعربة عن نفسهَا بوسَائل الإعراب الفكرية منها والخيالية والوجدَانية، المتجَلية في العلوم والآداب وَالفنون، والعادَات والتقَاليد، وسَائر الصناعَات وَالمهَارات، إذا كانت تستَمسك بشخصيتهَا وأصَالتها، وتغار على جميع مَا تتألف منه خصُوصيَتُها وهويتها، فإنها ترحب أيمَا ترحيب بكل وَافد جَديد عَليهَا خَليق بأن يضيف إلى ثرائها ثراءاً طريفاً يشتد به سَاعدُها ويَعظم به نماؤها ولكن شرَيطة أن لا يمَسّ جوهَرها بسُوء، ولا يؤذي مَلامحَها، ولا يشين محَاسنَها، ففي حوَار الثقافات، وتَفاعل الحَضَارَات خيرٌ جَزيل لمن يحُسن الأخذَ وَيجيد الاقتباس.

وثقافتنا التي نتوق إلى أن ترتقي إلى مراقي الثقافات الغنية الخصبة، لا نريدها أن تقتصر على الأخذ والاقتباس والتأثر بغيرها، ولكننا نطمح أن تتسع آفاقها وتغزر مادتها ويفيض عطاؤها وتصبح ثقافة ذات فعالية وتأثير في مجتمعنا وشعبنا وفي غير مجتمعنا وشعبنا من المجتمعات والشعوب.

ولنا اليقين بأن الحوار الذي سيدور بينكم طوال أيام مناظرتكم هذه، سيتناول مختلف جوانب ثقافتنا الوطنية، ولنا اليقين من جهة أخرى بأنكم ستحرصون، وأنتم تتحاورون وتتناقشون في كل شأن من شؤون الثقافة - في التراث ووسائل صيانته وطرق الانتفاع به، في الفنون على اختلاف ألوانها وأشكالها، في التأليف ونشر الكتاب وتوزيعه وتيسيره للقراء، والباحثين، في المسرح، وفي الإبداع سواء تعلق الامر بإبداعنا القديم أو الحديث أو المعاصر - لنا اليقين بأنكم ستحرصون على أن يظل الانسان المغربي ماثلاً أمام أعينكم وحاضراً في أذهانكم وستأخذون أنفسكم بالاهتمام من خلال الإكباب على عرصات الثقافة.

بكل وسيلة قادرة على الإسهام في نموه وصلاحه علمياً وفكرياً ووجدانياً وأدبياً وخلقياً وبالتالي في نمو المجتمع وصلاحه.

ولا مراء في أن أعمال مناظرتكم وما ستترامى إليه جهودكم من أهداف، وما ستفضي إليه هذه الجهود من نتائج إيجابية، سيكون كل هذا غرة في جبين هذه السنة التي نتطلع إلى أن تكون سنة يبرز في أثنائها بصورة مشرفة، تراؤنا وتألقنا الثقافي.

بلغنا الله وإياكم المقاصد النبيلة والغايات الجميلة التي نواصل السعي من أجلها دائبين جادين، وأعاننا وإياكم، ويسر لخطانا الطريق السوي المستقيم، وأمدنا جميعاً بعطاء توفيقه وتسديده.

"وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً"

صدق الله العظيم

والسلام عليكم ورحمة الله

وبعد فاصل استراحة عاد الحاضرون للاستماع إلى خطاب السيد وزير الشؤون الثقافية وفيما يلي :

نصّ خطاب السيّد محمّد بن عيسى وزير الشؤون الثقافيّة

بسم الله الرحمن الرحيم
السيد وزير السكنى
السيد عامل صاحب الجلالة
حضرات السيدات والسادة :

أريد في البداية أن أبادل الشكر السيد رئيس مجلس بلدية مدينة تارودانت ومن خلاله مضيفينا سكان مدينة وإقليم تارودانت على كرم الضيافة وحفاوة الاستقبال، التي يحظى بها جميع المشاركين في هذه المناظرة الوطنية الأولى حول الثقافة المغربية.

كما يسعدني أن أتقدم بالشكر الجزيل وبعبارات التقدير الصادق إلى السيد عامل صاحب الجلالة على إقليم تارودانت، ومن خلاله إلى كافة أطر العمالة ومساعدي سيادة العامل، على كافة الخدمات والامكانات والأطر التي وضعوها رهن إشارة سكرتارية المناظرة، وعلى كافة الترتيبات : من إقامة، ونقل داخلي، ومرافق إدارية، مما يؤمن الراحة للمشاركين في هذه المناظرة.

إننا فعلا معجبون بكل ما تلقيناه وما نتلقاه من عناية من لدن السيد عامل صاحب الجلالةعلى إقليم تارودانت.

حضرات السيدات والسادة :

لن أخفي سرا إن قلت لكم أنني ترددت كثيرا في قرار قيامي كوزير للشؤون الثقافية في حكومة جلالة الملك بتوجيه خطاب أولي في هذه المناظرة، والأمر ليس سرا لأنني أولا لم أحضر كلمة بالمرة حتى بالأمس ليلا وثانيا لأنني كنت أفضل أن أتحدث إليكم بتلقائية بدل كتابة ما أقرأه الآن. ولكن زملائي وخشيتي أن لا أوفق مرتجلا في تبليغ ما أريد تبليغه لكم - في إيجاز - دفعني للكتابة. وبقي قرار التحدث إليكم. فقد كنت أود أن أغير العادة وأن لا يستحوذ الوزير على شريط عمل المناظرة بخطاب رسمي ربما يكون ثقيلا.

لم أكن أرغب في التحدث إليكم في هذه المناظرة كوزير، لأني كنت أعتقد وما أزال أن لا خطاب كيفما كان، يمكنه أن يصاغ في بلاغة وعمق وتبيان خطاب جلالة الملك الحسن الثاني رعاه الله وأيده، الذي استمعنا إليه في هذا الصباح.

فالخطاب الملكي السامي حدد بوضوح موازين عدد هام من القضايا الثقافية التي ستكون موضوع مناقشاتنا خلال هذه المناظرة. والخطاب الملكي عدد في نفس الوقت المحاور المختلفة التي ترشد ما قد أسميه في هذه المناظرة **«بالقضية الثقافية المغربية»**. ولعل أكبر دليل على اهتمام العاهل الكريم بهذه «القضية الثقافية المغربية» هو رعاية جلالته لهذه المناظرة، وتوجيهه خطابه الضافي لنا، وبالتالي اعتبار جلالته، حفظه الله، للقطاع الثقافي جزءا من مجموع قضية التنمية، تماما مثل قطاعات الفلاحة والتربية والتعليم والسكنى والبيئة وغيرها من القضايا التنموية الأخرى.

من هذا المنظور التنموي للثقافة أتناول هذا الصباح هنا معكم القضية الثقافية المغربية.

حضرات السيدات والسادة :

من نافلة القول أن بلادنا عرفت منذ تحريرها سنة 1956، وبصفة خاصة منذ تولى جلالة الملك الحسن الثاني عرش أسلافه المنعمين، عرفت بلادنا تطورا ملموسا هائلا في عدة مجالات هيكلية، وحققت بلادنا، بقيادة جلالة الملك الحسن الثاني، مكاسب هامة، بما في ذلك بوجه خاص، مكسب تحرير وتوحيد الوطن، في الجزء الجنوبي من المملكة. وحقق المغرب مكاسب هامة أخرى من حيث مكانته في الأسرة العربية الافريقية والأمة الإسلامية والعالم بصفة عامة. وعرفت بلادنا تفتحا متميزا تجاه حضارات وثقافات مختلفة، وتعرض المغاربة في ربع القرن الأخير بوجه خاص لمؤثرات فكرية وسلوكية متعددة، وذلك اعتبارا لعدة عوامل أهمها التواصل القائم بين الجالية المغربية خارج الوطن من عمال وطلبة وتجار وباقي اخوتهم في المملكة، وكذلك عن طريق المبادلات والزيارات الثقافية والساحية التي تعرفها بلادنا بفضل حالة الاستقرار والتفتح التي يتمتع بها المغرب. وتعرض الشعب المغربي أيضا لمؤثرات حضارية وثقافية أخرى عن طريق وسائل الاتصال المختلفة من إذاعة وتلفزيون وسينما وكتب ومجلات تستورد من مختلف بلاد العالم وتستهلكها مختلف الشرائح الشعبية والنخبوية من أبناء وبنات هذا البلد الأمين.

في خضم كل هذه المفترقات الذهنية والمذهبية والسلوكية تعرضت الذاتية الثقافية المغربية لمؤثرات انعكست تفاعلاتها على قيمنا الاخلاقية والجمالية وعلى تصوراتنا لأنفسنا والآخرين وعلى قدراتنا في الابداع والخلق.

وكان طبيعيا أن ينعكس كل ذلك على معايير الخير والشر التي ترشد المجتمع، وعلى موازين الفضيلة والرذيلة، والجميل والقبيح، والطيب والخبيث، وبذلك ـ كما نرى ـ تعرف البنية الاجتماعية المغربية صراعات في سلوكها الحضاري تتمثل في الجوانب العمرانية من مبانينا، والقيم الجمالية في أثاثنا وملابسنا، والمقاييس السلوكية في تعاملنا مع بعضنا البعض ولغة التخاطب في الشارع وبعض البيوتات. هذه الصراعات ليست من عفويات التلاقي الحضاري كما قد يسميه بعض الاجتماعيين أو علماء الانتربولوجيا وإنما هي وليدة واقع الثقافة المغربية ومعاناتها والمخاطر التي تحذق ان هي بقيت معرضة دون تحدي مثل هذه الصراعات.

ومن ثم أطرح قضية الثقافة المغربية، وأطرحها بالأساس من منطلق تنموي باعتبار أن معادلة التنمية تبقى ناقصة، بل غير هادفة إن لم تشمل عنصر العمل الثقافي كأساس حتمي ولا غنى عنه اطلاقا في برامج التنمية الشاملة المتكاملة. وإلا كان تناولنا لمضمون وشكل التنمية تناولا يفرغ العمل التنموي من مفهومه الإنساني. بحيث تكرس جهود المخططين والممارسين لسياسة التنمية للابقاء على المجتمع المغربي كمجتمع استهلاكي، متكل يفتقر لروح المبادرة والابداع والخلق.

والحق أن الشعب المغربي كان دائما وما يزال واعيا لهذا الجانب من توجهاته التنموية، غير أن بلادنا عرفت ككل بلاد العالم تقلبات فرضها عليها الانفتاح، مما زحزح من قيمنا ومعاييرنا الاخلاقية والجمالية.

وفي السنين التي أعقبت تحرير المغرب منذ ثلاثين سنة، حققت بلادنا انجازات هامة من حيث المؤسسات التربوية التعليمية، وتكونت أطر هائلة

في مختلف المهارات الأكاديمية والفلاحية والصناعية، وأفرزت البنية المجتمعية المغربية أدباء وفنانين وعلماء نفخر ونعتز بهم، هم ركيزة ما يميز خصوصية الحضارة والثقافة المغربية. ومن ثم كانت قولة جلالة الملك الحسن الثاني : «العلم والثقافة هما الحاسة السادسة للشعب المغربي تلازمه وستلازمه».

وعودة إلى ما يعترض الذات الثقافية المغربية من مؤثرات بحكم ما سبق لي أن ذكرت. فهذه المؤثرات لها اسقاطاتها أيضا في قيم تذوقنا للأمور، موسيقانا هل هي فعلا موسيقانا ؟ فنانونا عموما بماذا يسترشدون في وعيهم الباطني وهم يبدعون ؟ أين الجسور التي تربط الحداثة في أعمال مبدعينا ورصيد الثقافة الشعبية والارستوقراطية المغربية الرفيعة التي نحاول اخفاءها وراء كلمة الأصالة ؟ ونفس التساؤلات يمكن طرحها بالنسبة لمسرحنا وللسينما عندنا، للحرفيين المهرة ممن نسميهم بالصناع التقليديين، ممن يعملون في فنون الطرز والنقش والخزف والوشم والزليج وغير ذلك من الابداعات الشعبية التي لازمت تطور الأمة المغربية منذ قدم التاريخ وحددت بذلك خصوصيات الثقافة المغربية الشعبية.

وتبقى لي ملاحظة عامة لابد من تسجيلها وأنا أستعرض في إيجاز كبير بعضا مما تتميز به المرحلة الراهنة من تطورنا الثقافي. تلك هي احجام الأغلبية العظمى من الميسورين في بلادنا عن الاستثمار في القطاعات الثقافية. واحجام هذه الأغلبية العظمى من المساهمة في إقامة الهياكل الثقافية من مراكز ثقافية ومسارح ومكتبات وأروقة وأندية وغيرها. فقد أو كل هؤلاء الميسورون هذه المهمة كلها للدولة ولم نعد نسمع أو نرى وقفا أو حبسا يخصص لصيانة مكتبة أو احداث مركز ثقافي أو تمويل نشاط فني كما كان يفعل ذلك من سبقونا من آبائنا وأجدادنا من قبل.

والدولة مهما عظمت مواردها ومهما حاولت لا يمكنها أن تفي بكافة متطلبات الأمة الثقافية والابداعية. ولا أن تحل محل عبقرية الفرد في الابداع والانشاء.

وحين تحاول الدولة تولي مهمة التكفل بمثل هذه المتطلبات، تبدأ بالموازاة لها عمليات البطش والتحريم والمنع الذى عرفته وتعرفه الأنظمة الاستبدادية والديكتاتورية، هذه الأنظمة التي تتبنى قضية الثقافة تحسبا لما قد ينتج عنها من حريات قد لا ترضيها لذلك عرفت بلادنا في محيط الديموقراطية وأجواء الحرية العامة والضمانات التي يجسدها شخص جلالة الملك الحسن الثاني وتبصره وحبه المتجذر للحرية والديموقراطية والطمأنينة لشعبه، عرفت بلادنا تطورات هامة في عدد من المجالات الثقافية، وذلك بفضل جهود الدولة من جهة وبفضل صمود ونضال المنظمات غير الحكومية من جمعيات ثقافية واتحادات فنية وتعاضديات مسرحية وغيرها. فمغرب الحسن الثاني من مفاخره هذا التعايش القائم بين مختلف الشرائح الفكرية والمذهبية وهذا التنافس الصحي السليم الذي يطبع سلوك كافة مؤسساتنا حكومية كانت أو غير حكومية.

ولكنه مع ذلك تعرف البنية الثقافية والفنية نقصا ملموسا من حيث الهياكل والأطر والمناهج فبلادنا في مرحلتها الراهنة أصبحت في حاجة إلى مراكز ثقافية في كل إقليم وفي حاجة إلى متاحف، ومؤسسات متخصصة في تكوين أطر الابداع والتنشيط الثقافي والفني في الموسيقى والغناء والتشكيل والزينة والتجميل والفنون الاستعراضية الأخرى من مسرح ورقص وغيرها. والطباعة والنشر والتوزيع قطاع ثقافي آخر يحتاج إلى ترشيد

وفق متطلبات المرحلة وحاجات الملايين من القراء المغاربة الذين يستهلكون كل سنة عشرات الآلاف من النشرات والكتب هي في أغلبيتها العظمى غير مغربية.

واعتبارا لذلك كله اتبعت وزارة الشؤون الثقافية منذ سنة منحى يهدف بالأساس إلى الاستجابة لهذه المتطلبات. واسمحوا لي أن أستعرض عليكم بسرعة عناوين بعض هذه المشاريع التي تتابع وزارة الشؤون الثقافية هذه السنة دراستها والسعي لتوفير الموارد اللازمة لتمويلها واخراجها للوجود :

- إقامة مكتبة وطنية مركزية في العاصمة الرباط.

وتقوم الوزارة حاليا بالتعاون مع برنامج الأمم المتحدة الإنمائي ودول شقيقة للبدء في إقامة هذه المؤسسة قبل نهاية هذا العام إن شاء الله.

- إقامة متحف ملكي للفنون في الرباط. ومتحف وطني للفنون المعاصرة بالدار البيضاء، ومتحف وطني للفنون الخزفية في آسفي، إضافة إلى المتاحف الاقليمية والجهوية، مثل متحف ابن بطوطة الذي تقوم الوزارة ببنائه حاليا في طنجة، ومتحف الفخار الريفي الذي نأمل في إقامته في الناضور ومتحف الفنون الصحراوية الذي سيقام في العيون وغيرها وبهذا الصدد قامت الوزارة في هذه السنة بإعادة إصلاح وتجهيز وتحديث رواق باب الرواح ليستجيب للمتطلبات الدولية من حيث شروط العرض المتعارف عليها دوليا.

- إقامة مدرسة للتعبير الجسدى في بني ملال، ومدرسة لتكوين الأطر السينمائية المتوسطة في ورزازات، ومدرسة للفنون التشكيلية والتعليم الفني في مدينة مراكش، ومدرسة للموسيقى العربية في طنجة.

- وستفتح الوزارة في نهاية هذا الصيف المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث، والمعهد العالي للفن المسرحي والتنشيط الثقافي، كما يتم تحديث وتطوير البنية الهيكلية والأطر والبرامج والمناهج التعليمية في المعاهد الموسيقية، وكذلك مدرسة الفنون الجميلة بتطوان، ومدرسة المهارات الحرفية في تطوان أيضا.

وقد شرعت الوزارة في عيد العرش المجيد في هذه السنة في بناء مطابع الوزارة، وذلك بغرض إحداث دار للطباعة والنشر تابعة لوزارة الشؤون الثقافية تكون أساسا في خدمة الناشئة من كتابنا وشعرائنا، وكذلك في خدمة قضايا الطباعة والنشر عموما بالنسبة للمنظمات الأهلية والجمعيات والاتحادات.

- وكما هو في علمكم فقد قامت وزارة الشؤون الثقافية بتأسيس «فرقة الفنون الشعبية المغربية» وفق أساليب الرقص المتعارف عليها أكاديميا مع الحفاظ لها على روح الديناميكية والتلقائية والمبادرة الابداعية التي تميز الرقص الشعبي المغربي.

- وفي هذا السياق تدرس الوزارة الآن مشروع إقامة فرقة المسرح الوطني لتستعيد بذلك أمجاد ما عرفته فرقة المسرح الوطني في الخمسينات والستينات، حيث قدمت أعمالا أكسبت بلادنا الاحترام والاعجاب والتقدير شرقا وغربا شمالا وجنوبا، وأملنا من وراء ذلك أن نعيد كذلك للمسرح الوطني المتمثل في مسرح محمد الخامس بالرباط حرمته ونعطيه سمته الوطنية التي أقيم على أساسها حتى يصبح منشأة تنهض أولا وقبل كل شيء بالمسرح والمسرحيين المغاربة. وغرضنا أن نقوم بجرد كامل لكل ما يتعلق بالفنون

الاستعراضية في بلادنا على أساس مراجعة هيكلة هـذه المؤسسـات والبنيـات الأساسية والقوانين التي تضبط هذه المنشآت وهذه الفنون من مسرح ورقص وموسيقى وغناء... الخ.

حضرات السيدات والسادة :

بقي قبل أن أختتم هذا العرض الذي لم أبدأه ليكون على هـذا الطول والاستطراد في الشروحـات والمشـاريـع، أريـد أن أوجـه عنـايـة السيـدات والسادة المشاركين في هذه المناظرة إلى بعض القضايا الثقافية التي اعتقد أنها تستوجب منا كامل العناية والتمعن.

وأول هـذه القضـايـا يتعلق بثقـافـة الطفل، أو بعبـارة أوضح وأسلم، بالانتاج الثقافي الموجه للطفل المغربي، فقـد سبق أن تحـدثت عن التيـارات الحضارية والثقافية التي يتعرض لهـا الشـاب المغربي في هـذا النصف الأخير من القرن العشرين، وأود أن أضيف شيئـا هـو من صميم اسقـاطـات هـذه المؤثرات. ذلك أن الانفصام الذي بـدأ يطبع شخصيـة الشبـاب المغربي يعود إلى عدة أسباب أهمهـا يتعلق بفترة طفولـة هؤلاء الشبـاب، وهي الفترة التي يحجم فيها وجدان الإنسان المغربي ومشاعره ويصقل فيها ذوقه وتجـدر فيهـا قيمه وتحدد خلالها معالم مقدساته وأصالته وهويته.

إن موضوع ثقافة الطفل هذا لا أعتقد أنه وقف على الدولة وحـدهـا، فهو مثل كافة القطاعات الابداعية والثقافية الأخرى، قاسم مشترك بين كافة المسؤولين في البلاد داخل الحكومة وخارجهـا، وفي مقـدمـة هؤلاء المسؤولين صفوة العلماء والمفكرين والمبدعين.

وقضية ثانية نسعى نحن في وزارة الشؤون الثقافية تناولها من حيث الجوانب التشريعية في بلادنا، ويتعلق الأمر بضمان سبل العيش الكريم وقت الشيخوخة والهرم بالنسبة للعاملين في الحقول الابداعية والفنية في بلادنا، وفي اعتقادنا أن هذا الضمان يجب أن يشمل حق التفرغ للتأليف والانتاج الأدبي والفني بصفة عامة وفق قوانين معينة، وحق التطبيب في حالة العجز المادي والمرض، وحق المؤلف والفنان المحتاج في دخل ثابت يكفل له عيشا كريما مصونا. فربما حان الوقت للتفكير جديا في «صندوق مقاصة» لتغطية العجز الحاصل في متطلبات المفكرين والعلماء والفنانين العجزة المحتاجين.

على أن كل ما سبق ذكره، خاصة فيما يتعلق بتنشيط الحركة الثقافية وإقامة المنشآت الضرورية وتوفير الأطر الكفأة اللازمة كل ذلك يبقى آمالا عظاما إذا لم تكن هناك مشاركة فعالة مستمرة ماليا وإداريا من جانب المجالس البلدية والمجالس الجماعية القروية وكذلك المجالس الاقليمية. فالتباين والتعددية الحضارية التي تميز الزخرفة الثقافية المغربية، هذه اللوحة من الفسيفساء المتعددة الألوان كما وصفها جلالة الملك هي أحد الخصوصيات اللازمة للحضارة المغربية وهي أيضا منبع القوة والتطور في ثقافتنا الوطنية. والحفاظ على هذا التباين الايجابي هو من صميم العمل الثقافي للمجالس الجماعية، على أن تبقى وزارة الشؤون الثقافية مركزا للتنسيق والدعم وتوفير هياكل البحث والتوثيق وتكوين الأطر الوطنية المطلوبة. هذا هو ما نعنيه بلا مركزية العمل الثقافي الوطني.

وبهذا الصدد أتوجه إلى كافة المجالس الجماعية وهي تستعد لعقد مناظرتها الوطنية الثالثة تحت رعاية صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني في

مدينة مكناس، أتوجه إليها حتى تعير الجانب الثقافي من اختصاصاتها ما يستحقه من اهتمام وترصد له في ميزانيتها ما يستحق من اعتمادات.

حضرات السيدات والسادة

هذه المناظرة الوطنية الأولى حول الثقافة المغربية التي تجمعنا هنا في مدينة تارودانت الجميلة، سميناها «حوارا» تأكيدا على تشبث جلالة الملك الحسن الثاني بمبدأ الحوار وسلوك الحوار والتعايش من خلال الحوار، فمناظرتنا تجمع علماء ومفكرين ومبدعين من مختلف الاتجاهات والمشارب في البلاد، فهي بذلك «برلمان» صفوة المفكرين والمبدعين، ومن حقنا انطلاقا من هذه المسلمة أن نأمل في أن لا يحجبنا ما يحجب عادة السياسيين من تصورات حزبية ضيقة أو مزايدات سياسية عابرة، فبذور العمل الثقافي تثمر بعد سنين وربما بعد أجيال، وقد لا نرى نحن أبدا ثمار ما نزرعه اليوم هنا بتارودانت لذلك أتطلع إليكم كواحد منكم راجيا أن نضع نصب أعيننا القيم النبيلة والضوابط الثابتة التي أبقت على مغربنا موحدا مسلما حرا منذ الازل. تلك الضوابط التي أمنت لنا العيش في ظل ملكية دستورية ديموقراطية اجتماعية، بفضلها نلتقي اليوم هنا لنتحاور بحرية وتجرد ومسؤولية.

بدأت بقولة لصاحب الجلالة وأنتهي بقولة كريمة أخرى لصاحب الجلالة : «النبي ﷺ علمنا أن نتحاور أولا، ونتحاور بعد ذلك ونتحاور دائما».

واسترشاداً بما جاء في الخطاب الملكي الموجه إلى المناظرة، اجتمع المشاركون في جلسة مسائية لتشكيل لجان خمس، توزعت لتدارس المحاور التالية :

- اللجنة الأولى : خصوصية الثقافة المغربية.
(السيد محمد زنيبر رئيساً والسيد عبد الحميد عقار مقرراً).
- اللجنة الثانية : الكتاب وقضايا النشر والتوزيع وحقوق التأليف.
(السيد محمد حجي رئيساً والسيد عبد العلي الودغيري مقرراً).
- اللجنة الثالثة : الفنون الاستعراضية - سينما - مسرح - رقص.
(السيد محمد مسكين رئيساً والسيد عبد الرحمن بن زيدان مقرراً).
- اللجنة الرابعة : الفنون التشكيلية،
(السيد حسين الطعواطي رئيساً والسيد خالد الخضري مقرراً).
- اللجنة الخامسة : لجنة حماية التراث وتوظيف المآثر التاريخية في العمل الثقافي،
(السيد محمد المنوني رئيساً والسيد عبد الكريم البسيري مقرراً).

وقد عكفت اللجان على مناقشة أعمالها طيلة الأيام الثلاثة للمناظرة في جو طُبع بروح الحوار المثمر، والنقاش الجدي المسؤول، مما انعكس إيجابياً على نتائج أعمالها، والإجماع على الخروج بتوصيات محددة هادفة وعملية، فتمثل اهتمامات كل لجنة على حدة، وما يشغلها وتحتاجه.

وفيما يلي نص التوصيات والمقترحات حسب ترتيب المحاور واللجان :

توصيات ومقترحات لجنة خصوصية الثقافة المغربية

إن لجنة خصوصية الثقافة المغربية وعيا منها بالأهمية التي تكتسيها الثقافة الوطنية في تكوين الشخصية المغربية، وفي مجهود التنمية وبناء الاستقلال وشعورا منها بالمسؤولية الجسيمة التي اضطلعت بها في المناظرة الأولى حول الثقافة المغربية المنظمة من لدن وزارة الشؤون الثقافية بتارودانت أيام 13 - 14 - 15 يونيو 1986، تجاه ضرورة تحديد تصور لخصوصية الثقافة المغربية، عقدت جلستين تدارست خلالها مختلف وجهات نظر المتدخلين ضمن تحليل المعطيات الأساسية للثقافة بالمغرب وترى اللجنة من واجبها بادىء ذي بدء أن تتوجه بتحية إجلال وإكبار إلى مقام صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله على خطابه التوجيهي للمناظرة إذ يؤكد على أن

«الثقافة المغربية اتسمت على مر القرون في إطار الهوية الافريقية العربية والعقيدة الإسلامية بسمات وخصائص متميزة أنشأتها العبقرية المغربية الصرفة».

وكأساس ينبغي أن تقوم عليه ثقافتنا من حيث. ضرورة انفتاحها وتلاقحها بغيرها من الثقافات الأخرى، أكد جلالته حفظه الله على أن ثقافتنا «إذا كانت تستمسك بشخصيتها وأصالتها وتغار على جميع ما تتألف منه خصوصيتها وهويتها فإنها ترحب أيما ترحيب بكل وافد جديد عليها خليق بأن يضيف إلى ثرائها ثراء طريفا يشتد به ساعدها ويعظم به نماؤها ولكن شريطة أن لا يمس جوهرها بسوء ولا يؤدى ملامحها ولا يشين محاسنها».

وكما هو واجب كل ثقافة وطنية في أن تسعى لتأخذ وتعطي وتتأثر وتؤثر قال جلالته : «وثقافتنا التي نتوق إلى أن ترتقي إلى مراقي الثقافات الغنية الخصبة لا نريد لها أن تقتصر على الأخذ والاقتباس والتأثر بغيرها، ولكننا نطمح أن تتسع آفاقها وتغزر مادتها ويفيض عطاؤها، وتصبح ثقافة ذات فعالية وتأثير في مجتمعنا وشعبنا وفي غير مجتمعنا وشعبنا من المجتمعات والشعوب».

وعلى ضوء مناقشة الأعضاء وعروضهم استخلصت اللجنة ما يأتي :

1) إن خصوصية الثقافة المغربية المرتكزة على تاريخ عريق وتجربة اجتماعية خصبة لتطبعها جملة من الخصائص يمكن ارجاعها الى العناصر التالية :

أ ـ التنوع والغنى من حيث انتماء المغرب عربيا وإسلاميا وافريقيا ومن حيث تفاعلهم مع المكونات المحلية المتمثلة بالثقافة الشعبية بكل ألوانها وأصنافها التعبيرية وفي روافد الثقافة الأجنبية بحكم موقعه الجغرافي المتميز باعتباره ملتقى قارات الأمر الذي يطبع ثقافتنا بالتفتح والحوار والتواصل.

ب ـ طموح المغرب الجديد والتطلع إلى مستقبل مشرق يقتضي القفز بثقافتنا إلى مستوى الثقافات العالمية حتى يكون لها دورها في الاسهام الحضاري كونيا، ومن

شروط ذلك تحررها من ربقة التبعية والتقليد والسير بها قدما في سبيل الخلق والابداع والابتكار.

2) إن تطلعا من هذا المستوى يستلزم :

أ ـ أن يكون الإنسان المغربي حيث هو وبكل شرائحه وفئاته الاجتماعية هو المحور الأساسي للممارسات الثقافية وشغلها الشاغل الذي تتكرس له كل الطاقات العاملة في الميدان الثقافي.

ب ـ أن تعمل ثقافتنا باهتمام متزايد على دعم مجتمع يسوده العدل وتطبعه ديموقراطية وتتكافأ في ظل الفرص المتاحة وتمحى كل الفوارق الاجتماعية انسجاما مع ما تقتضيه الهوية المغربية بكل سماتها العربية والاسلامية والافريقية.

ج ـ توفير كل الشروط الضرورية لسيادة القانون كما يضمنها الدستور حتى تظل جميع منابر الفكر ووسائل التثقيف في حماية من أي تحجير أو ضغط أو مصادرة، وذلك ضمانا للحرية اللازمة لأي عمل ثقافي.

د ـ ضرورة العمل على تعميم المعرفة حتى يشمل اشعاعها كافة الصعيد الوطني وذلك بتوسيع مجال التعليم توسيعا يتحقق معه القضاء على الأمية والجهل ومن مقتضيات ذلك الاستكثار ما أمكن من النوادى الثقافية والخزائن العلمية واستغلال التكنولوجيا الحديثة وإتاحة فرصة القراءة للجميع باعتبارها أهم عامل في إشاعة الثقافة.

هذا واعتبارا لما للثقافة من دور فعال في مجال الاستثمار، وذلك استهدافا لتطوير التنمية الاقتصادية فإن اللجنة تهيب بالدولة في أن تكثف من اعتماداتها في هذا المجال.

كما تناشد في الوقت نفسه كافة أصحاب رؤوس الأموال الخاصة، من أجل دعم المشاريع الثقافية، بتوظيف أموالهم توظيفا يساهم في ضمان ازدهار الميدان الثقافي على الوجه الأكمل.

3) المبادرة بتنشيط المجلس الوطني للثقافة، نظرا للأهمية المعلقة عليه كجهاز تنتظر منه الثقافة ما يحرك دواليبها باستمرار.

4) احداث معهد وطني للثقافة الشعبية بقصد دراستها في مختلف أنواعها دراسة علمية شمولية، وضبط أصولها ضبطا يحفظها من الضياع والاندثار، وبالتالي رصد تفاعلاتها مع الثقافات الشعبية الأخرى لا سيا العربية والافريقية.

5) إن اللجنة وشعورا منها بأهمية ثقافة الطفل انطلاقا من أهميته هو في بناء مجتمع الغد، لتعير هذا الموضوع ما يستحقه من اهتمام وعناية موقنة بأن ثقافة الطفل جزء لا يتجزأ من المنظور العام للثقافة، وأن أي أمل لا يمكن عقده على مستقبل ثقافتنا ما لم تعن عناية خاصة بثقافة الطفل.

6) إن اللجنة إيمانا منها بدور العامل والفلاح والمرأة، سيا البدوية والمغربية في الخارج، لتعتبر أن العمل على توسيع مدارك هؤلاء واتاحة الفرص لهم من أجل تثقيف أكثر من آكد الواجبات التي ينبغي أن تعبأ لها جهود الجميع، وترصد لها الاعتمادات الضرورية.

وفي الأخير يسعد اللجنة الأولى أن تنوه بمبادرة وزارة الشؤون الثقافية بإقدامها على عقد هذه المناظرة التي تعتبر بحق حدثا بارزا في مسارنا الثقافي لما حققته من تواصل بين مختلف المثقفين المغاربة وفي القاء المزيد من الأضواء على ثقافتنا واقعا ومستقبلا مع رجاء حار في أن يتجدد مثل هذا اللقاء الموسع خدمة للفكر، ودفعا للثقافة نحو أسمى مراقيها.

كما أن اللجنة تسجل بارتياح ما تضمنه خطاب السيد وزير الشؤون الثقافية من وعود ومشاريع نتمنى أن تتحقق في الآجال المضروبة لها.

توصيات ومقترحات لجنة الكتاب وقضايا النشر والتوزيع وحقوق التأليف

إذا كانت التنمية الثقافية هي الشرط الأساسي لكل تنمية اقتصادية واجتماعية شاملة، ولاسيا بالنسبة لبلد مثل بلادنا التي تواجه ما تواجهه من تحديات صعبة، فإن أية نهضة ثقافية لا يمكن أن تقوم إلا على أساس ازدهار الكتاب وانتشاره ونهضته، وبالتالي فإن الاهتمام بالكتاب يكاد يكون هو محصلة الاهتمام بالثقافة عموما.

وبهذا المعنى لا يجوز اعتبار الكتاب والمجلة وغيرهما من وسائط نشر الثقافة من القضايا التي تهم وزارة معنية أو هيئة دون أخرى، بل إن مسؤولية النهوض بهذا القطاع مسؤولية مشتركة بين سائر فئات المجتمع وهيئاته وأفراده كما أنها مسؤولية جميع القطاعات الحكومية والقطاعات الخاصة أيضا.

وقد كانت هذه المناظرة التي نظمتها وزارة الشؤون الثقافية وأسهم في أعمالها سائر المهتمين بالكتاب المغربي على اختلاف مشاربهم، مناسبة لتدارس أهم المشاكل والمعوقات التي تشخص واقع هذا الكتاب واقتراح الحلول والتوصيات الكفيلة بالوصول إلى ما تصبو إليه مطامح بلادنا وهي في طريقها نحو التقدم.

لعل من أهم ما يتسم به واقع الكتاب المغربي في المرحلة الراهنة :

1 - إن مناهج التعليم والتربية عندنا منذ روض الأطفال وحتى مدرجات الجامعة تتميز من جهة بسيادة نمط التلقين والحفظ عوض الابتكار والذاكرة بدل العقل، ومن جهة أخرى تفصل فصلا مضرا ولا مبرر له بين التكوين والتأطير المتخصص من ناحية وبين التثقيف من ناحية أخرى أي بين التعليم والثقافة الأمر الذي لا يدفع

بـالتلاميـذ والطلاب نحو المطـالعـة في المجلـة والكتـاب والبحث والتنقيب في بطـونهـا للاستفادة من محتوياتها ومضامينها.

2 ـ ضعف عنـايـة مختلف الهيئـات والمؤسسـات المهتمـة بـالكتـاب والمجلـة في مختلف مراحل إنتاجها واستهلاكها تأليفا وكتابة وطبعا وإخراجا وتوزيعـا وتسويقـا الأمر الذي ينعكس سلبا على الكتاب في مختلف مراحله.

3 ـ تقلص عدد القراء ببلادنا وعدم انتشار عادة القراءة لـدى مختلف الفئـات الشيء الذي يقتضي وضع سياسة ثقافية من شأنها تلافي هذا التـدهور وبعث الحيويـة والحماس في المؤلفين والناشرين والطابعين والموزعين والقراء.

4 ـ وحيث لا يتصـور أي ازدهـار للكتـاب المغربي بـدون أن تحتـل اللغـة الوطنية مكانتهـا المطلوبـة، فـإن مـا نلاحـظ من استمرار للازدواجيـة في لغـة الاعلام والتعليم والادارة والمرافق العامة لما يلحق أشد الضرر بقضية الكتاب والكتابة ببلادنا.

وفضـلا عمـا ذكر هنـاك مشكـلات أخرى تنعكس آثـار وجـودهـا على وضعيـة الكتاب المغربي انعكاسا سلبيا كضعف القوة الشرائيـة للمواطن في الوقت الـذي يعرف ثمن الكتاب ارتفاعا مستمرا. وكضعف العناية بـالتـأليف للأطفـال بـاعتبـار أن كتـاب الطفل يعمل على غرس عادة القراءة منـذ حـداثـة السن. وكضعف الثقـة في الكُتّـاب والمؤلفين المغاربة وإنتاجهم.

وإن المتناظرين من أجل تجاوز هـذه المعوقـات وغيرهـا ليرون ضرورة مراعـاة المقترحات والتوصيات التالية :

أ ـ التعليـــم :

1 ـ يرى المتنـاظرون ضرورة التنسيق بين وزارتي التربيـة والثقـافـة بـل بين جميع الوزارات فيما يتصل بقضايا نشر الكتاب وتيسير وصوله إلى أكبر عـدد ممكن من

القراء والتلاميذ والطلاب وعموم المواطنين. ذلك لأن الكثير من مشكلاته المختلفة منذ مراحل التأليف حتى الطبع والتوزيع... الخ. تتصل بمختلف القطاعات الحكومية وفي مقدمتها التربية الوطنية فضلا عن وزارة الثقافة.

2 - فرض وجود كتب للأطفال مناسبة على جميع رياض الأطفال حتى يتعود أبناؤنا وهم في سن ما قبل التمدرس على معاشرة الكتاب والاستئناس به.

3 - استمرار العمل على تنفيذ فكرة أو مشروع «المكتبة ذات البابين» في كل ثانوية والالتزام باقتناء ولو نسخة واحدة من كل كتاب مغربي لكل مكتبة بكل ثانوية من ثانويات المغرب.

4 - حمل التلاميذ على قراءة عدد معين من الكتب كل سنة وذلك في مختلف مراحل وسنوات التعليم الابتدائية والاعدادية والثانوية وأن يعطى للمادة معامل في امتحانات الانتقال. كما يمكن أن تستغل في مواد الانشاء والتعبير مثلا.

5 - احترام ما تنص عليه تشريعات وزارة التربية الوطنية من ضرورة تغيير الكتب المدرسية المقررة بحيث لا تتجاوز ثلاث سنوات، بما يسمح بالتجديد والتطوير الثقافي التربوي وأيضا بمساهمة مؤلفين متنوعين في شروط تنافس شريف على الاجادة والتجديد لما فيه مصلحة تلاميذنا وتعليمنا وثقافتنا الوطنية والعربية الاسلامية.

ب - المكتبات العمومية (الخزانات)

1 - إعادة النظر في تشريعات وهياكل الخزانة العامة للكتب والوثائق بالرباط. بما يوفر لها أن تصبح بحق مكتبة وطنية ذات استقلال ذاتي كامل ومسيرة حسب المتطلبات العلمية المعاصرة المعمول بها في المكتبات الوطنية.

وأول شروط ذلك تحويلها إلى بناية كبرى تليق بوظائفها ومطامحها.

2 - تأسيس وبناء أكبر ما يمكن من المكتبات البلدية والقروية مع تنظيمها

وتوفير الميزانيات الكافية والتجهيزات الضرورية لها وكذلك المؤطرين المختصين واللازمين لتسييرها. مع توفير شروط تأمين محتوياتها.

3 - توفير وسائل ايصال الكتاب إلى المناطق النائية والمتفرقة في البادية المغربية وخصوصا بالاكثار من المكتبات المتجولة بواسطة سيارات ناقلة للكتب.

4 - إعادة النظر في التشريعات المنظمة للايداع القانوني تمشيا مع المعايير والتقنيات الحديثة.

ت - المؤلف وحقوق التأليف

1 - تطبيق المذكرة رقم 84/3 بتاريخ 5 رجب1404 موافق 7 أبريل 1984 الصادرة عن وزارة الشؤون الثقافية في شأن تشجيع المؤلفين والناشرين.

2 - إعادة النظر في قانون حقوق التأليف على ضوء التوصيات المصادق عليها في الدورة السادسة للجنة الاتفاقية العالمية المعدلة في 1971 (باريس 17 - 25 يونيو 1985) والمنبثقة عن اللجنة الدولية الحكومية لحقوق التأليف.

3 - تطبيق قانون حماية الملكية الثقافية المغربية على الكتاب وفصله عن قانون «الايداع القانوني».

4 - تحقيق هدف استقلال المكتب المغربي لحقوق التأليف، وتأسيس الهيئة الوطنية للمؤلفين المغاربة، حسب ما ينص عليه الفصل 53 من ظهير 29 يونيو 1970.

5 - إحداث جائزة الدولة التقديرية للمبتكرين والمؤلفين. والكتاب المغاربة.

6 - توفير ضمان صحي واجتماعي وظروف التفرغ والاستجمام الموسمي للكتاب المغاربة، مع ما يلزم من بعض الامتيازات التي يستحقها الكاتب نظرا لما يبذله من

تضحيات ومعاناة في سبيل إمتاع وتثقيف أبناء وطنه والإنسانية عموما، ومن ذلك تخفيضات في النقل والاقامة ودخول المؤسسات الثقافية وما إلى ذلك.

7 - تحضير «عقدة» نموذجية يقع الرجوع إليها والاستفادة منها عند الاتفاق بين الكاتب المغربي والناشر.

8 - حماية الانتاج المغربي مما يتعرض له من قرصنات.

ث - تشجيع التأليف والتعريف بالكتاب والمجلة

1 - احداث صندوق وطني لدعم الكتاب والمجلة والكاتب، وخصوصا باقتناء نسخ من المنشورات المغربية، تستحصل موارده من غير المواد الاستهلاكية الضرورية لمعاش المواطنين.

2 - إحداث جوائز مختلفة للكتاب من حيث طباعته وإخراجه وغلافه وكذلك للناشرين والموزعين والكتبيين من حيث الدعاية وطرق العرض ومدى البيع والترويج وطنيا وبالأخص عربيا ودوليا.

3 - إحداث أسبوع وطني في كل سنة يخصص للتعريف بالكتاب والكتب المغربية بوساطة : الملصقات واللافتات والحديث عنه داخل الفصول الدراسية والندوات والمحاضرات والمعارض... الخ مع توزيع الجوائز الوطنية المخصصة للكُتّاب والناشرين خلال نفس الأسبوع.

4 - تنظيم معارض للكتاب المغربي مدرسية - محلية - وطنية وكذا تأسيس معرض دولي سنوي للكتاب بالمغرب، مع ضرورة مشاركة المغرب في كل المعارض العربية والدولية.

5 - تخصيص برنامج اذاعي وآخر تلفزي أسبوعيا خاصين بعرض إخباري موضوعي وعادل، لكل ما يصدر عن المطابع المغربية من كتب ومجلات.

6 - العمل على إصدار نشرة أو صحيفة شهرية متخصصة في الاعلام بما تصدره المطابع المغربية من منشورات ثقافية.

7 - توفير أكبر عدد ممكن من النسخ مما يصدر من الكتب المغربية في الملحقيات الثقافية لسفاراتنا وقنصلياتنا المغربية بالخارج. وذلك يعني ان تلتزم وزارة الشؤون الخارجية باقتناء عدد محدد من النسخ من كل كتاب.

8 - تخفيض تكاليف نقل الكتب والمجلات المغربية داخل البلاد وخارجها سواء تعلق الأمر بالنقل الجوي أو البري أو البحري.

9 - إحداث مؤسسة خاصة بتوزيع الكتاب المغربي في الداخل والخارج مدعومة من طرف الدولة.

10 - العناية والاهتمام بترجمة ما يستحق وما نحن في حاجة إليه من ثقافة الشعوب الأخرى وبالأخص في مجالات العلوم التجريبية.

11 - إنجاز ونشر دراسات إحصائية عما يطبع وينشر ويوزع ويستهلك من الكتب والمجلات.

12 - السماح بتصدير الكتاب المغربي على سبيل المقايضة ولو مؤقتا ما دامت هي الوسيلة الناجعة حاليا لتحقيق تصدير الكتاب والمجلة المغربيين.

13 - التفكير في طريقة لفرض الكتاب المغربي على من نستورد منهم كتبا عربية أو أجنبية والاستفادة في هذا الخصوص من تجارب بعض البلاد العربية.

14 - تشجيع الصناعات الوطنية المنتجة للمواد التي تدخل في صناعة الكتاب.

15 - نظرا لما يتطلبه استيراد الكتب وتوزيعها من حس وطني، ولتلافي الانعكاسات السلبية على الكتاب، نرى ضرورة مراعاة قانون المغربية بصفة صارمة في هذا الميدان.

جـ - تنظيم وتطوير مهن الطباعة والنشر والتوزيع

1 - إثبات سعر الكتاب المغربي على غلافه مع ضرورة مراقبة أسعار بيع الكتب المستوردة بما يحمي القارىء من بعض التجاوزات.

2 - تنظيم مهنة الكتبيين بما يؤدي إلى ضرورة أن يكون الكتبي حاصلا على حد معين من الثقافة والتكوين تؤهله للتعامل مع الكتاب وقارئه، اقتناءا وعرضا ودعاية وبيعا.

3 - توفير شروط أفضل لتكوين مهني متوسط وتخصص في ميدان الطباعة بما يساير المستحدثات التكنولوجية في هذا الصعيد.

4 - تشجيع استعمال التقنيات الحديثة في ميدان الطباعة.

د - وضع قانون للاستثمارات الثقافية

وضع قانون للاستثمارات الثقافية على غرار القوانين الموضوعية لمجالات أخرى مثل : الفلاحة والصناعة والسياحة والتعليم الحر يتضمن مختلف الترتيبات القانونية والمالية والتنظيمية الهادفة إلى تشجيع وتيسير عمليات تأليف وطبع ونشر وتوزيع وقراءة المجلات والكتب المغربية ويعمل على ازدهار الصناعة المتصلة بانتاج الكتاب من خلال النهوض بالثقافات الوطنية وبالتالي النهوض بالمواطن المغربي.

توصيات ومقترحات لجنة الفنون الاستعراضية
(مسرح - سينما - موسيقى)

في إطار المناظرة الوطنية الأولى للثقافة المغربية المنعقدة بمدينة تارودانت أيام 6 - 7 - 8 شوال عام 1406 الموافق 13 - 14 - 15 يونيه 1986 اجتمعت اللجنة

الثالثة للفنون الاستعراضية «مسرح ـ موسيقى ـ سينما ـ رقص» بحضور جميع الأعضاء المدعوين من المتخصصين والمهتمين بالفنون المذكورة. فانتخبت في البداية الأستاذين محمد مسكين رئيسا وعبد الرحمان ابن زيدان مقررا.

في بداية العمل شرعت اللجنة في الاستماع لأوراق العمل المهيأة ومناقشتها للتوصيات والمطالب التي تظمنتها فبدأت بورقتين حول المسرح ثم انتقلت إلى ورقة الموسيقى، وورقة حول السينما.

وبعد الانتهاء من الاستماع إلى الأوراق والعروض التي أعقبتها من المتدخلين، عينت اللجنة من بين الأعضاء لجنة لصياغة التقرير الختامي التالي :

محمد مسكين ـ عبد الرحمن بن زيدان ـ محمد الرايسي

إن المجتمعين في المناظرة الوطنية الأولى حول الثقافة المغربية أعضاء لجنة الفنون الاستعراضية «المسرح ـ الموسيقى ـ السينما ـ التعبير الجسدي» بعد المناقشة المستفيضة للقضايا المطروحة في ورقات العمل التي استمعت إليها، حول الجوانب المحيطة بالفنون المغربية واستنارة بما ورد في خطاب جلالة الملك الموجه إلى المناظرة وبما ورد في كلمة السيد وزير الشؤون الثقافية ترى :

أن الممارسة الثقافية، تشكل عنصرا حيويا فاعلا في تطور المجتمع المغربي ودالا على مستوى التفاعل الحضاري ومدى مساهمة الإنسان المغربي في الانجازات الحضارية الإنسانية، وتتمظهر هذه الممارسة الثقافية في مجموعة من الفعاليات وألوان التعبير التي تبرز العبقرية المغربية في عطائها واسهامها في اثراء التراث الوطني والعربي والاسلامي والافريقي والإنساني ويعتبر المسرح والموسيقى والأهازيج الغنائية وأنماط التعبير الجسدي بالاضافة إلى السينما عناصر بنائية تشكل لبنة أساسية في الهيكل العام للممارسة الثقافية إلى جانب صيغ التعبير الأخرى.

ولا شك أن المرحلة التي يجتازها المغرب الجديد مغرب الديموقراطية والتعددية بقيادة جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله تطرح ضرورة صياغة أسئلة جديدة عن

سيرورة ومكونات هذه الفنون وآفاق تطورها واشعاعها وطنيا وقوميا وإنسانيا بما يؤكد الهوية المغربية وما تتميز به من عمق وأصالة.

I المســـرح

إن الحديث عن المسرح هو حديث عن صيغة إبداعية ارتبطت بالإنسان ورافقته على امتداد مسيرته التاريخية والحضارية وليس غريبا أن يعتبر المسرح مظهرا عاما من مظاهر الحضارة الإنسانية بل هو من أهم المؤشرات الدالة على مستوى التطور الحضاري لشعب ما حين اكتشف الإنسان المسرح اكتشف وسيلة فعالة للتواصل والتخاطب اكتشف أسلوبا هاما يمكنه من تحقيق بعده الإنساني - ككائن اجتماعي يعيش بالناس ومعهم.

إن المسرح بالاضافة إلى كونه لعبة يشكل مجالا لاكتشاف المهارات الابداعية لدى الافراد والجماعات بالاضافة إلى كونه فرجة ولقاء حيا وحارا يمكن أن يحقق لدى الناس إحساسا بالفرح والمرح إنه كذلك بالأساس عبارة عن وقفة تتم بالبحث والتساؤل عن مصير الإنسان، عن ماضيه وحاضره ومستقبله لهذا كان المسرح ولا زال - متجذرا في التاريخ الإنساني وهو مستمر مادام الإنسان يفرح ويحزن ويتساءل.

وليس غريبا أن يبدع الشعب المغربي أشكالا متعددة من الفرجة المسرحية وهو الشعب الميال إلى المرح والفكاهة والتواصل المستمرين «الحلقة»، و«البساط» و«سيدي الكتفي» تؤكد بالملموس خصب الخيال الشعبي في المجال المسرحي ومدى ما يختزنه من طاقات إبداعية في هذا المجال.

وحفاظا على هذا التراث الشعبي وتطويرا له، تفرض اللحظة النظر إلى الواقع المسرحي بعيون مغايرة تراعى دوره كأداة فاعلة في بلورة ذوق جديد وذهنية مغايرة تستجيب لحاجيات العصر خاصة وأن المغرب - ابتداء من هذه السنة - يطمح إلى تأسيس نهضة ثقافية تساهم في صنع إنسان جديد يساير المنجزات الاقتصادية والاجتماعية التي يعرفها المغرب.

ولا يمكن أن تكون ـ هناك ـ حركة حقيقية في الحقل المسرحي الا بتوفير مجموعة من الشروط المادية والمعنوية التي تشكل اللبنة التحتية للحركة المسرحية كفعل متكامل تساهم فيه كل الفعالات المختلفة : الأدب، الرقص، الغناء، الفنون التشكيلية، العلوم الاجتماعية واللغوية.

وتوقا إلى إعطاء المسرح المغربي موقعه الحقيقي المناسب، نرى ضرورة الكشف عن كل المعوقات التي تحول دون تحقيق تغير نوعي في الابداع والتسيير والاستمرارية في العطاء، كما نرى ضرورة وضع برنامج عمل يمكن أن يشكل مدخلا أوليا لايجاد مشروع مسرحي جديد متخذين من التعاليم السامية لصاحب الجلالة الحسن الثاني نصره الله، نبراسا نهتدي به في تحقيق هذا البرنامج واضعين الحوار منهجا أساسيا في تشكيل مسرح مغربي عربي إسلامي وذلك بما يلي :

1) التعجيل بإخراج مشروع المعهد العالي للفن المسرحي والتنشيط الثقافي إلى حيز الوجود ذلك باعتبار أن المسرح في جوهره ـ علم من العلوم، وعليه فقد وجب أن تكون له مؤسسة علمية تمده بالأطر الواعية بشروط الفعل المسرحي.

2) خلق فرص العمل لخريجي المعهد، سواء في التلفزة أو الاذاعة أو السينما أو المسرح أو المؤسسات السياحية والاجتماعية.

3) حتى يكون للمغرب حضور نوعي في اللقاءات والمهرجانات الدولية، بمسرح يجسد حقيقة النهضة المسرحية المغربية وحتى تجتمع كل الطاقات الابداعية لتتفاعل وتعطي وتبدع في إطار شروط صحية وموضوعية نرى ضرورة تأسيس مسرح وطني يكون أكثر من فرقة للإنتاج والعرض، مسرح يمكن أن يشكل مؤسسة الانتاج والابداع والبحث والتجريب والتوثيق.

4) ادخال المسرح ـ نصا وممارسة ـ إلى المدرسة والجامعة كتربية وثقافة ـ أو ذلك من أجل ذوق مسرحي مستقبلي، ومن أجل تأسيس جمهور يعي كل مكونات الفرجة.

5) وتحقيقا للحوار العميق والسليم بين الثقافة الوطنية المغربية والثقافات الإنسانية وتعميقا للخبرات المسرحية المحلية نرى ضرورة توفير منح للدراسات العليا في الخارج.

6) حتى يحقق المسرح تواصله مع الجمهور في كل جهات المملكة (في المدن والمداشر والقرى) نرى أهمية إنشاء مسرح متنقل.

7) تحديد الوسائل الادارية والقانونية لتحديد الممارسة المسرحية بالمغرب، وذلك باحداث خلية تتكون من المسرحيين وذوي الخبرة القانونية لاقتراح نصوص تقنن هذه الممارسة.

8) ضرورة مساهمة المجالس الاقليمية والجماعات المحلية والقروية والمصالح الاجتماعية للمؤسسات العمومية والخاصة في تنظيم مهرجانات مسرحية وفي تشجيع المسرح، بشراء عروض مسرحية يستفيد منها عامة المواطنين.

9) العمل على تشييد مسارح ـ جديدة ـ يراعى في بنائها طبيعة المعمار المغربي الإسلامي ويبقى أن تتم استشارة المهتمين بشؤون المسرح حتى تستجيب هذه البنايات لكل متطلبات المسرح وشروطه التقنية، ومن جهة أخرى يسجل أعضاء لجنة الفنون الاستعراضية بارتياح كبير صدور مذكرة وزارة السكنى المتعلقة بتخصيص قطع أرضية للمرافق الثقافية وذلك داخل كل تجزئة سكنية محدثة وتوصي اللجنة بالعمل على تطبيقها.

10) نظرا للدور الريادي الذي يقوم به المغرب على المستويين العربي والاسلامي تدعو الضرورة إلى تنظيم مهرجان مسرحي خاص بالدول الاسلامية والافريقية وذلك حتى يتم التعاون بين الشعوب لمساهمة وتأكيد الحضور المغربي المتميز بإبداعه وعطاءاته الفكرية والحضارية.

11) اسهاما في نشر الثقافة المسرحية وفي توثيق الابداعات المسرحية ومواكبة النشاطات الفنية توصي بـ :

☆ تصوير الأعمال المسرحية المغربية وفق شروط تقنية وفنية تحترم جودة العمل.

☆ إنجاز برنامج تلفزيوني وإذاعي خاص بالمسرح.

☆ تقديم نماذج جيدة من المسرح العالمي والعربي.

☆ توسيع اختصاصات المعاهد والمدارس المتخصصة في الفنون الجميلة وذلك بإعادة فتح شعبة الفن الدرامي.

☆ معادلة شهادات التكوين المسرحي للشهادات التي تمنح لتلاميذ الفن التشكيلي.

☆ أن يلتحق خريجو هذه المدارس بالمعهد العالي للفنون الدرامية لمتابعة دراساتهم وتخصصاتهم.

☆ تنظيم مسابقة سنوية للتأليف المسرحي للتشجيع على الابداع

☆ اصدار موسوعة خاصة بالمسرح والمسرحيين المغاربة

☆ الحفاظ على بدء الموسم المسرحي مع التفكير في صيغة جديدة لتطويره.

☆ تكريم رجالات المسرح، وحماية المهنة المسرحية وفق تشريعات وقوانين يعمل بها - ويتعلق الأمر - كما قال السيد وزير الشؤون الثقافية، بضمان سبل العيش الكريم وقت الشيخوخة والهرم بالنسبة للعاملين في الحقول الابداعية الفنية في بلادنا وفي اعتقادنا أن هذا الضمان يجب أن يشمل حق التفرغ للتأليف والانتاج الأدبي والفني بصفة عامة وفق قوانين معينة. وحق التطبيب في حالة العجز المادي والمرض، وحق المؤلف والفنان المحتاج في دخل ثابت يكفل له عيشا كريما مصونا..».

☆ إحداث صندوق لدعم العمل المسرحي يكون مدخوله من الضرائب الغير المباشرة على بعض المواد الكمالية.

☆ مطالبة المناظرة الوطنية الثالثة حول الجماعات المحلية المنعقدة بمكناس بالعناية بالقطاع المسرحي على مستوى الجهات والأقاليم.

☆ إيجاد مقاييس موضوعية يتم على أساسها اختيار الأعمال المسرحية التي تمثل المغرب تمثيلا مشرفا في المهرجانات العربية والدولية وحتى يتم تنفيذ وتحقيق هذه المقترحات ترى ضرورة إنشاء مصلحة بوزارة الشؤون الثقافية تختص بالشؤون المسرحية يكون من مهامها.

1) التخطيط والتأطير.

2) وضع البرامج.

3) حماية الأعمال الابداعية الجادة.

☆ إلحاق بعض المسرحيين العاملين بوزارات أخرى أو في الخارج بوزارة الشؤون الثقافية لاثراء العمل المسرحي.

☆ الدراسات النظرية.

☆ تنظيم جولات مستمرة لصالح الجالية المغربية في الخارج للمحافظة على الهوية الوطنية.

☆ المكتبة المسرحية.

☆ متابعة التوصيات المتعلقة بالمسرح والتي تصدر عن الندوات والمناظرات والتداريب.

☆ العلاقات مع المصالح والهيئات المسرحية في العالم.

☆ التخطيط لخلق مسرح الطفل.

☆ المجلة المسرحية.

☆ طبع النصوص والدراسات.

إن هذا البرنامج/المشروع يحمل طموحا جادا ووعيا بمهمة المسرح الاجتماعية والحضارية لأنه أداة تواصل بين الأفراد والجماعات والشعوب.

والمغرب بقيادة رائده الهمام جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده يسعى إلى أن يتبوأ مكانة مرموقة على مستوى جميع الأصعدة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

لهذا أصبح لزاما على المسرح ألا يتخلف عن هذه المسيرة المباركة نحو المستقبل الزاهر.

II الموسيقى

تمثل فنون الغناء والموسيقى والتعبير الجسدى في حياة الشعب المغربي عنصرا مؤثرا في حيويته وذوقه السمعي والحسي، مما يفرض علينا تقصي النظر في هذه الفنون وفي صيغها وطرق ممارستها واللجنة إذ تمثل الحجم الكبير في أنماط التراث الموسيقى وطرق التعامل معه على مستوى الممارسة من جهة والتفاعل من جهة أخرى فهي تسجل بكثير من الحسرة.

- تدجين التراث الموسيقى من طرف غير قليل من الممارسين تحت غطاء توظيفه واستلهامه، وبدعوى تقريبه إلى الجماهير الواسعة والتعريف به الأمر الذي يؤدى إلى تشويه هذا التراث وتحريفه من أصوله والتضحية بميزاته وخصوصيته.

- تدنى مستوى التذوق لدى الجماهير المغربية الواسعة للموسيقى.

ومن جانب آخر تسجل اللجنة تعثر عملية التعليم والتربية الموسيقية بالمعاهد المختصة بالرغم من مضي أكثر من خمسة عقود على قيامها. وهو واقع تعود أسبابه إلى ضعف البنية القانونية لهذه المعاهد وانعدام سبل استكمال التكوين بها وغموض الآفاق المستقبلية لها.

وأمام هذا الواقع المزري للتربية الموسيقية، ورغبة في تجذير انطلاقة سليمة لها تقترح اللجنة :

أولا : العناية بالموروث وحمايته :

1) ضرورة القسام بمسح ميداني للتراث الغنائي الموسيقى وفنون التعبير الجسدي المتداولة في الممارسة الشعبية. واستدراك ما لم يزل محفوظا في الذاكرة.

2) تأسيس مركز للجرد والتوثيق والبحث والدراسة والتحليل والتصنيف متخصص في الأمازيغ الشعبية، مع العمل على تزويده بالأطر المختصة.

3) وضع خارطة بأنماط الفنون المغربية الغنائية وفنون التعبير الجسدى تشمل سائر مناطق الوطن.

4) ضرورة المحافظة في التوثيق على المصطلحات والنعوت والمسميات الشعبية للأنماط الغنائية وفنون التعبير الجسدي.

5) وضع جذاذات بأسماء الشيوخ والرواس والقبائل والدواوير والمناطق التي تحتضن فنون التعبير الجسدى والغنائي.

6) تسجيل وتدوين الأساطير والملاحم والمنظومات الشعبية المرتبطة بالغناء الشعبي.

7) استكمال تدوين وتسجيل النوبات الاحدى عشر وقصائد الملحون.

8) جمع الروايات الشفوية في وصف التقاليد والعادات المرتبطة بكل نمط غنائي أو تعبير جسدى شعبي.

9) تصوير وتدوين وتسجيل حلقات الذكر في الزوايا من عمارة وحضرة وحلقات التصوف وأغاني ألعاب الأطفال القديمة والختان وما كان يلقنه المدرسون في الكتاتيب القرآنية.

ثانيا : ارساء تكوين موسيقي يراعي التوجه العلمي والخصوصية الوطنية في مناهجه ويشمل :

1) دعم المعاهد الموسيقية بالوسائل المادية والبشرية.

2) العناية بالمعاهد الموجودة حاليا وذلك بتوفير البنايات وتجهيزها.

3) التعجيل بإصدار القانون المنظم للمعاهد الموسيقية والاهتمام ببرامجها وأنظمتها الداخلية وأنواع الشهادات ومعادلتها بغيرها دون اشتراط التوفر على شهادات في مجالات أخرى.

4) احداث معهد وطني عالي تدرس فيه جميع أنواع التخصص في الموسيقى وفن التعبير الجسدى.

5) توفير الآلة والأسطوانة والكتاب بأثمان في متناول الجميع وإعفاؤها من الرسوم الجمركية.

6) تشجيع خريجي المعاهد بالمنح الدراسية لمتابعة دراستهم بالخارج.

7) الالتفات إلى خريجي المعاهد وتسوية وضعيتهم بإدماجهم كمدرسين في المعاهد وفق الشروط المنصوص عليها.

8) إدراج الأنماط التراثية في مقررات المعاهد لضمان استمرارها، وتكوين الناشئة الموسيقية من الاطلاع عليها والاستفادة منها.

9) تكوين لجنة استشارية لدى الوزارة من الدارسين المتخصصين من أطر التعليم الموسيقي وغيرهم من غير المنتسبين للوزارة.

10) تنظيم تداريب خاصة تمنح فيها دروس أولية لهواة الموسيقى من غير المنتسبين إلى المعاهد.

11) اقرار مادة التربية الموسيقية بسائر مراحل التعليم العام بكل أطواره.

ثالثا : الاعتناء بالطفل في مجال الموسيقى

1) استقبال أطفال في سن مبكر بالمراحل الاعدادية في المعاهد الموسيقية.

2) تهيء برامج للتربية الموسيقية تجمع بين الترفيه والتكوين لصقل ملكة الطفل.

3) تربية ذوق الطفل باسماعه الأعمال الموسيقية والغنائية في مستوى استيعابه جماليا وخلقيا وفنيا.

رابعا : خلق مهرجان سنوي تقدم فيه الأعمال الموسيقية المبتكرة والمؤلفة على صيغ الأنماط التراثية على المستوى الوطني والجهوي والاقليمي.

1) الأعمال الآلية الاوركسترالية الموظفة لقوالب تراثية.
2) الأعمال الغنائية المستمدة والموظفة لصيغ الأهاجيز الشعبية.
3) الأعمال الاوركسترالية الموظفة للفنون التعبيرية الجسدية.
4) الأغاني المبتكرة بدون تحديد للصيغ والقوالب.
5) الملاحم والمسرحيات الغنائية.

خامسا : الانفتاح على التجارب الإنسانية

1) استضافة أجواق في مختلف الأنماط والألوان الغنائية والموسيقية.
2) تمكين المستمع المغربي من الأعمال الموسيقية الجادة والمؤثرة في حركة التطور الموسيقي لدى مختلف الشعوب حسب الإمكان.
3) الاهتمام بالثقافة الموسيقية عمليا ونظريا وذلك بتنظيم مهرجانات ومواسيم وندوات ولقاءات ومؤتمرات تهتم بالموسيقى.
4) إرسال بعثات وأجواق وفرق موسيقية وفرق التعبير الجسدى للتعريف بها في الخارج.

5) استضافة فرق الاستعراضات في الرقص الكلاسيكي والمعاصر.

وتسجل اللجنة الثالثة في الأخير بأسف غياب قسم الموسيقى بالاذاعة والتلفزيون عن المناظرة.

III السينما

نظرا لتغيب ممثل القطاع السينمائي الرسمي عن المناظرة الأولى :

1) المركز السينمائي المغربي.
2) اللجنة الوطنية المكلفة بمنح صندوق الدعم للانتاج السينمائي.
3) الغرفة المهنية المنتجين السينمائيين.
4) الغرفة المهنية لموزعي الأفلام وأرباب القاعات.
5) الجامعة الوطنية للأندية السينمائية.

باستثناء نائب رئيس الغرفة المهنية للمبدعين السينمائيين.

ارتأت اللجنة آسفة عدم اصدار أية توصيات.

توصيات ومقترحات لجنة الفنون التشكيلية

المقدمة :

تعتبر لجنة الفنون التشكيلية فرصة المناظرة الوطنية الأولى حول الثقافة المغربية مناسبة هامة لتسجيل مدى اهتمام حكومة صاحب الجلالة بدور الثقافة في التنمية الوطنية.

وتقديرا من المشاركين في أعمال هذه اللجنة لخطورة هـذا الـدور، فقـد تم حوار صريح وغني بين أعضـاء هـذه اللجنـة على اختـلاف هـويـاتهم ومشـاربهم تمخض عنـه تشخيص عميق لمختلف الأبعاد الثقافية للعمل التشكيلي ومدى حساسية هذا الميدان.

وقد أدى هذا الحوار إلى استنتاجات موضوعية على المستويين الفكري والمادي.

سجلت اللجنة بارتياح قرارات السيد وزير الشؤون الثقافية التي تضمنها خطابه الافتتاحي. وفيما يلي ملخص النقط التي تطرق إليها أعضاء اللجنة وما انتهوا إليـه من توصيات.

تقييم رصيد الحركة التشكيلية بالمغرب

تستحق التجربة التشكيلية في المغرب الحديث دراسة متكاملة تتناول أسسهـا كما تتناول تياراتهـا وتـاريخهـا، ولا شـك أن مثل هـذه الـدراسـة ستكون مفيـدة إن هي توجهت نحو مسألة وضعنا التشكيلي العام في علاقتـه بـالوضع الثقـافي وبـالاختيـارات التي تجتهد منذ بداية الستينات في تبيان مسالك الثقافة الوطنية المنشودة.

عندما نتمعن في دراسة حصيلة الحركـة التشكيليـة المعـاصرة في المغرب نقف على التشخيص التالي :

هنـاك رصيـد غني سواء على المستوى النظري أو على المستـوى المـادي العملي لا يمكن تقييمـه بمنئى عن الجـدل السـائـد حول تحـديـد مصطلحـات الموروث والثقـافـة والفولكلور والغزو الفكري الخ...

هذا الرصيد يضاف إليـه الرصيـد التقليـدي الغني الـذي يعتبر مرجعـا أسـاسيـا للحركة التشكيليـة المعـاصرة فبـالنسبـة للمستوى النظري للرصيـد المعـاصر فقـد يقوم الفنـانـون التشكيليـون بجهـد تنظيري وفكري من خـلال البيـانـات والـدراسـات والتصريحات والوثائق الفنية المتوفرة وأهم محاور هذا الجهد التنظري هي :

أولا : محاولة حل معضلة التكوين الأكاديمي والفكري والاستلاب الغربي لايجاد صيغة لتأصيل الفكر التشكيلي ليتم توظيفه في الابداع والفعل التشكيلي والمادي.

ثانيا : محاولة إيجاد صبغة لحل معضلة الخصوصية الثقافية وعلاقتها بمعطيات معاصرة بما فيها الجوانب الايجابية من الثقافة المغربية.

على المستوى المادي : قام الفنانون التشكيليون بمارسات وتجارب لتحيص منطلقاتهم الفكرية السابقة الذكر سواء على مستوى المعارض الميدانية وابتكار فعاليات جديدة أو على المستوى البيداغوجي أو التربوي وتمتين علاقاتهم بالمبدعين في الميدان الثقافي من كتاب وأدباء وشعراء مع ادخال الفن التشكيلي على الهندسة المعمارية مما أدى إلى فتح حوار هام وغني مع المهندسين المعمارين الذين اتجهوا من جهتهم إلى اثراء إنتاجهم عن المستويين مستوى التصميم ومستوى التقنيات المرتبطة بالتراث.

هذا الرصيد هو حصيلة عمل الفنانين التشكيليين المغاربة على قلة عددهم وعصاميتهم ولا يمكن لهذا الجهد أن يعوض عمل المؤسسات والأطر والتجهيزات التي تتطلبها أية حركة فنية على نطاق واسع مما يجعلنا نطرح الملاحظة التالية والمتمثلة في غياب المجتمع ومن خلاله هيآت القرار من المنظمات وأحزاب وطنية والادارة.

وتعتبر لجنة الفنون التشكيلية هذه المناظرة الأولى كفرصة ووقفة ضرورية للنظر في الحصيلة ووضع المعالم لتصبح الحركة التشكيلية المغربية المعاصرة قضية المغاربة كلهم وليس قضية التشكيليين وحدهم وهذا شرط أساسي لكي يستطيع الفنان التشكيلي المغربي أن يقوم بدوره كاملا في الاسهام في ثقافة الإنسان المغربي.

توطئة للتوصيات

وتوطئة للتوصيات، واعتمادا على المناقشات التي سادت أشغال اللجنة نسجل الاعتبارات التالية :

أولا : إن للفنون التشكيلية كنشاط ابداعي ثقافي علاقة وشيجة بالمجتمع الذي يفرزها ذلك لأنه تعتبر على انشغالاته وتطلعاته.

ثانيا : إن ثروة التراث التشكيلي المغربي مادة خام في حاجة ملحة إلى الأبحاث والدراسات والحفظ من الضياع والاتلاف.

ثالثا : إن للحركة التشكيلية المعاصرة رصيدا غنيا ينتظر التصنيف والمحافظة عليه.

رابعا : إن غياب النقد والأدب التشكيليين يشكل تغرة في العلاقة الثقافية بين المبدع والمتلقي.

خامسا : إن تدخل الادارة في فرض نماذج ومعايير جمالية أو معمارية يشكل مجازفة بروح الابداع وحريته.

سادسا : إن للظروف المادية والمعنوية أثرا عميقا على ممارسة الفنان التشكيلي لعمله.

سابعا : إن الفنان التشكيلي يعيش أزمة في التواصل مع الجمهور والتجواب مع تطلعاته وأحاسيسه.

في سبيل سياسة مكاملة للحكومة

توصي اللجنة بالتنسيق على المستوى الوزاري في سبيل خلق سياسة متكاملة للحفاظ على التراث المعماري والتشكيل وحمايته.

- توصي اللجنة بتطبيق اللا مركزية في التوزيع الجغرافي للتجهيزات والميزانيات المخصصة للمنجزات المتعلقة بالهندسة المعمارية والفنون التشكيلية.

- توصي اللجنة بتأسيس مجلس أعلى لرعاية الفنون التشكيلية والمعمارية.

- توصي اللجنة باحترام الخصوصيات الجهوية في التعمير والتشكيل وخلق هيئات جمالية للحفاظ على هذه الخصوصيات.

- في سبيل العمل على تجديد الفنون التشكيلية في البيئة الاجتماعية وتطوير الحس الجمالي من أجل تحسين الاطار المعاشي.

توصي اللجنة بتنظيم وتسهيل الربط بين التشكيليين والصناع التقليديين، لتمكين الحوار وتبادل الخبرات وتطوير البحث من أجل التجديد وضمان حيوية الفن التقليدي المغربي مسايرته لمتطلبات العصر.

- في سبيل إنشاء البنيات والمؤسسات الكفيلة بتنشيط الفن التشكيلي تعليما ونشرا وتسويقا.

- توصي اللجنة السلطة المكلفة بالسياحة بتشجيع المستثمرين السياحيين على تخصيص قاعات لعرض الابداعات التشكيلية ضمن مشاريعهم.

- توصي اللجنة بتشجيع المستثمرين الخواص على إنشاء قاعات للعرض وإشراك الفنانين التشكيليين في أنشطتهم التجارية.

- توصي اللجنة بإعفاء قاعات العرض الخاصة من الضرائب تشجيعا لنشاطها الثقافي.

- توصي اللجنة بإنشاء المعاهد والمراكز للبحث والدراسة في التراث القديم والمعاصر ورصد الميزانيات الملائمة لها والمنح الكفيلة بتفرغ الباحثين.

- توصي اللجنة بتأسيس جمعيات ثقافية وفنية على الصعيد الجهوي.

- توصي اللجنة بتنشيط العمل التشكيلي عن طريق جوائز دورية في الفنون التشكيلية.

- توصي اللجنة بتخصيص نسبة 100/1 المائة من الغلاف المالي المخصص للمنشآت ذات الطابع الاداري لمنجزات تشكيلية.

- توصي اللجنة بتخصيص نسبة مائوية من الغلاف المالي المخصص للمشاريع التي تشرف عليها الدولة لتخصيصها للدراسات والأبحاث في الميدانين التشكيلي والمعماري.

- توصي اللجنة بإنشاء معرض وطني دوري للفنون التشكيلية.

- توصي اللجنة بالاهتمام بالتربية الفنية انطلاقا من مرحلة الطفولة مرورا بالتعليم في كل مراحله.

- توصي اللجنة بإنشاء مدارس للفنون التشكيلية والتطبيقية مع مراعاة التوزيع الجغرافي.

- توصي اللجنة برفع المدرسة الوطنية للفنون الجميلة بتطوان إلى معهد عالي للفنون التشكيلية.

- توصي اللجنة بتشجيع إنشاء تعاونيات جهوية لشراء المواد الأولية وتسويق الانتاجات الفنية ورفع الرسوم الجمركية على المواد الأولية.

في سبيل خلق حركة نقدية، وأدب تشكيلي ضروريين لتقييم النشاط المعماري والتشكيلي وإغنائهما.

- توصي اللجنة بإحداث شعب متخصصة في العمارة والفنون التشكيلية بالمعهد العالي للصحافة، وإحداث كراسي جامعية لتاريخ الفن وعلوم الجمال وادخال مواد بصرية حديثة بمناهج التعليم الفني.

- توصي اللجنة بنشر كتيبات ودفاتر للتعريف بالفنانين والمعماريين ونشاطاتهم تمهيدا لإنشاء مكتبة مختصة بالفنون التشكيلية.

- توصي اللجنة بتنظيم المباريات في الفنون التشكيلية، والتعمير وكل ما تعلق الأمر بمشروع ذي أهمية جماعية أو وطنية.

في سبيل تصنيف الثروة التشكيلية القديمة والمعاصرة وتوثيقها والتعريف بها.

ـ توصي اللجنة بالاهتمام بضرورة تصنيف كل الآثار المعمارية والتشكيلية سواء في الحواضر أو البوادي وتوثيقها علميا.

ـ توصي اللجنة بإحداث معاهد للصنائع والفنون الوطنية والتطبيقية وجعلها مراكز للتعليم والبحث.

في سبيل توفير الشروط المادية والمعنوية للمبدع التشكيلي وحمايته الاجتماعية.

ـ توصي اللجنة بخلق الظروف المادية والمعنوية الملائمة لتأمين حياة الفنان التشكيلي وتوفير الضمان الاجتماعي له.

توصيات ومقترحات
لجنة حماية التراث وتوظيف المآثر التاريخية

إيمانا بقيمة التراث المغربي ودوره في إبراز طابع الشخصية المغربية وتأكيد ذاتيتها وشعورا بما يفرضه الواجب الوطني من ضرورة الكشف عن المدخرات الوطنية والعمل على صيانتها وتأكيدا على ضرورة التعريف بتراثنا والمحافظة عليه وتيسير سبل الحصول عليه قصد الاستفادة منه. اجتمعت لجنة «حماية التراث وتوظيف المآثر التاريخية» في إطار المناظرة الوطنية الأولى حول الثقافة المغربية التي نظمتها وزارة الشؤون الثقافية بتارودانت خلال أيام 13 ـ 14 ـ 15 يونيه 1986 لدراسة ما يتعلق بجوانب حماية التراث المخطوط والمآثر التاريخية واستنارة بالتوجيهات السامية لصاحب الجلالة الحسن الثاني نصره الله التي وردت في خطابه الكريم الموجه إلى المناظرة الأولى

حول الثقافة المغربية والتي جاء فيها أن : (هذه الثقافة المغربية البارزة في ميادين شتى، المعربة عن نفسها بوسائل الاعراب الفكرية منها والخيالية والوجدانية المتجلية في العلوم والآداب والفنون والعادات والتقاليد وسائر الصناعات والمهارات... تستمسك بشخصيتها وأصالتها وتغار على جميع ما تتألف منه خصوصيتها وهويتها فإن اللجنة توصي بما يلي :

ففيما يخص التراث المخطوط ترتئي اللجنة ما يلي :

- ضرورة حماية التراث بالتعريف به والمحافظة عليه وتيسير الوصول إليه والإستفادة منه.
- تصوير المخطوطات المتعلقة بالمغرب والموجودة بالخارج ووضع نسخ منها داخل الخزانات المغربية.
- تصنيف أنواع المخطوطات وتنميطها حسب أهميتها.
- إحداث شعبة خاصة لترميم المخطوطات تكون تابعة للمعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث.
- وضع كشاف عام للمخطوطات المغربية يكون نواة لوضع الفهارس وتكثيف الجهود من أجل وضع كشافات تامة ومنظمة للمخطوطات المغربية واضافة فهارس مجملة ثم فهارس مفصلة لأجل تتميم الناقض وبيان المجمل.
- احداث لجان اقليمية للاعتناء بالتراث اقليميا ولجنة مركزية للاهتمام به وطنيا.
- تسهيل الحصول على المخطوطات وتبسيط الاجراءات المعقدة.
- التنسيق بين وزارتي الشؤون الثقافية والتربية الوطنية من أجل تفريغ باحثيين متخصصين في المخطوطات.
- التنسيق بين وزارتي الشؤون الثقافية والأوقاف من أجل العمل على انقاذ الخزانات التابعة لوزارة الأوقاف.
- القيام باحصاء الخزانات الخاصة على الصعيد المحلي.

- توحيد المجهودات المتعلقة بالمحافظة على التراث وعدم توزيعها كما هو حاصل الآن.
- توظيف خبراء في المواد العلمية للمخطوطات في الخزانات التراثية.
- حماية التراث من الضياع والتسرب إلى الخارج عن طريق تطبيق القوانين واتخاذ الوسائل الفعالة.

وفيما يخص التراث الشعبي والمآثر التاريخية فإن اللجنة توصي بما يلي :

- احداث مركز للتراث الشعبي وادراجه ضمن التصميم المقبل بحيث يكون من مهامه المحافظة على الماثورات الشعبية.
- الحفاظ على المآثر المعمارية والتاريخية وعلى طابعها المميز لها بكل مدينة وإقليم (كما تنص على ذلك القوانين المعمول بها).
- تكوين «أرشيف» ومكتبة فنية وما يستتبع ذلك من توفير الوسائل الحديثة لعملية التصنيف والتوثيق.
- دعم قسم جرد التراث بوزارة الشؤون الثقافية بالوسائل المادية والبشرية لتحقيق هدفه.
- التنسيق بين وزارتي الشؤون الثقافية والصناعة التقليدية لتكوين صناع حرفيين في ميدان البناء التقليدي في إطار مراكز يشرف عليها «معلمون» ذوو تجربة في مختلف جوانب المعمار القديم.
- الاهتمام بسائر الفنون الشعبية المغربية في مجموع الأقاليم (بما فيها الحسانية، الأمازيغية، الملحون، الزجل الحكاية الشعبية الخ...).
- الاهتمام بالمآثر التاريخية والعلمية والمخطوطات لأقاليمنا الجنوبية ولاسيما تلك التي لم تحظ بعد بالاهتمام.
- التنسيق بين وزارتي الشؤون الثقافية والتربية الوطنية من أجل أن تصبح بعض شرائح التراث المغربي في جميع أطرافه من بين المواد المقررة في الدراسة كالتراث المغربي المبدع في أقاليمنا الجنوبية.

- نسجل بارتياح اقدام وزارة الشؤون الثقافية على إنشاء المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث وما جاء في خطاب السيد الوزير من إنشاء المكتبة الوطنية وفرقة الفنون الشعبية وتعميم المتاحف والمدارس الفنية بالمملكة كما نلفت النظر إلى تعميم مندوبيات الوزارة بجميع أقاليم المملكة.

واللجنة إذ تشكر وزارة الشؤون الثقافية على هذه المبادرة القيمة تتمنى أن تتكرر في مناسبات أخرى ليكون ذلك مرآة لمعطيات بلادنا والمحافظة على تراثنا.

كما تشكر عامل إقليم صاحب الجلالة على إقليم تارودانت وكذا السلطات والشخصيات التي أسهمت في توفير المناخ المناسب لهذه المناظرة والمتناظرين.

وفي نهاية عمل اللجان تم تشكيل لجنة لصياغة بيان ختامي ألقي في جلسة عامة والذي يمثل ديباجة وشبه مدخل لما انتهت إليه أشغال اللجان واحتوته تقاريرها وتوصياتها، ونصه :

ديباجة (*)

انعقدت بمدينة تارودانت أيام 6 ـ 7 ـ 8 ـ شوال 1406 (13 ـ 14 ـ 15 يونيو 1986) المناظرة الوطنية الأولى حول الثقافة المغربية، التي دعت إليها ونظمتها وزارة الشؤون الثقافية.

وقد سجلت باعتزاز، الاستجابة الواسعة التي أعرب عنها المثقفون والمبدعون بحضورهم المكثف ومشاركتهم الفعالة في كل أعمال ولجان المناظرة، تعبيرا عن أهميتها وتقديرا للخطوة الايجابية التي تمثلها.

وقد تميزت المناظرة، بالخطاب السامي الذي وجهه إليها جلالة الملك، متضمنا الثوابت والأسس التي تشكل خصوصية الثقافة المغربية باستمساكها بشخصيتها

*) من اعداد لجنة الصياغة العامة المشكلة من السادة :
أحمد اليابوري، عبد الجبار السحيمي، محمد بن يحيى، مصطفى اليزناسي، المهدي الدليرو.

وأصالتها، مع تأكيد خطاب جلالته على حوار الثقافات وتفاعل الحضارات، شريطة الحفاظ على جوهر هذه الشخصية.

واسترشادا بالمبادىء السامية التي سطرها جلالة الملك في خطابه إلى المتناظرين، عكفت لجان خمس على تدارس محاور المناظرة المتمثلة في العناوين التالية :

1 ـ خصوصية الثقافة المغربية
2 ـ الكتاب وقضايا النشر وحقوق التأليف.
3 ـ الفنون الاستعراضية : (مسرح، سينما، موسيقى...)
4 ـ الفنون التشكيلية
5 ـ حماية التراث وتوظيف المآثر التاريخية.

ويشيد المتناظرون بما ساد أعمال هذه المناظرة من روح الحوار الديمقراطي الذي مكن من طرح مختلف وجهات النظر والرؤى والاجتهادات في إطار من الوعي والمسؤولية.

وهكذا، خلصت اللجان، إلى ضبط جوهر القضايا والمشاكل المتعلقة بمحاور المناظرة، وقدمت في شأنها توصيات اتسمت بطابع شمولي عملي يهدف إلى تجاوز المصاعب التي تعترض العمل الثقافي، وذلك بتقديم جملة اقتراحات تسهم في التطوير الايجابي للثقافة المغربية حتى يكون لها إشعاعها المتميز والوفي لقيم الثقافة العربية الافريقية والعقيدة الإسلامية والتراث المغربي الأصيل، بحيث سجلت لجنة خصوصية الثقافة المغربية الأهمية التي تكتسيها الثقافة الوطنية في تكوين الشخصية المغربية وفي مجهود التنمية وبناء الاستقلال، بتنوعها وغناها من خلال مقوماتها العربية والإسلامية والافريقية وتفاعلها مع المكونات المحلية المتمثلة في الثقافة الشعبية بكل ألوانها وأصنافها التعبيرية، واهتمامها بدعم مجتمع يسوده العدل وتطبعه الديمقراطية.

كما أكدت لجنة الكتاب وقضايا النشر والتوزيع وحقوق التأليف ضرورة التنسيق بين قطاعي التعليم والثقافة، وبين قوانين تشجع المؤلفين والكتاب والناشرين، وإصدار قانون للاستثمارات الثقافية.

أما لجنة الفنون الاستعراضية، فقد أوصت بأهمية تحديد الاجراءات التنظيمية لضبط الممارسة المسرحية بالمغرب، وإرساء تكوين موسيقى يراعي التوجه الأكاديمي والخصوصية الوطنية.

في حين أبرزت لجنة حماية التراث وتوظيف المآثر التاريخية، القيمة الكبرى للتراث المغربي ودوره في تأكيد الشخصية المغربية، مما يدعو إلى حمايته وصيانته.

واعتبرت لجنة الفنون التشكيلية، أن التجربة التشكيلية المغربية تستحق دراسة متكاملة تتناول أسسها وتياراتها وتاريخها بمساءلة الوضع التشكيلي في علاقته بالوضع الثقافي العام.

وإن المشاركين في المناظرة، إذ ينوهون بالمبادرة الايجابية التي قامت بها وزارة الشؤون الثقافية، يثمنون ما أفصح عنه خطاب السيد وزير الشؤون الثقافية من إرادة جادة في تطوير العمل الثقافي، وتيسير وسائله. ويأملون أن تتوفر الممكنات المادية والشروط الموضوعية للإسراع بإنجاز الطموحات التي تمثلت في كل من خطاب السيد الوزير وتوصيات المناظرة.

وللمشاركين اليقين، في أن الرعاية التي شمل بها جلالة الملك هذه المناظرة، والتوجيهات السامية التي تضمنها خطاب جلالته السامي لهي الكفيلة بأن تقوي آمالهم في الدعم الذي ستحظى به توصيات وأعمال المناظرة من حيث توفير الهياكل والأطر اللازمة للنهوض بالثقافة الوطنية المغربية.

واختتمت المناظرة أشغالها مساء يوم الأحد 15 يونيه 1986 بجلسة ختامية ترأسها السيد محمد بن عيسى وزير الشؤون الثقافية بحضور عامل صاحب الجلالة على إقليم تارودانت والنواب البرلمانيين والمنتخبين ورجال السلطة وكافة المتناظرين وقد تميزت بتلاوة نص البرقية التالية التي رفعها المتناظرون لصاحب الجلالة نصره الله، وفيما يلي نص البرقية :

البرقية التي رفعها إلى صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني أيده الله السيد محمد بن عيسى وزير الشؤون الثقافية باسم المشاركين في المناظرة الوطنية الأولى حول الثقافة المغربية بتارودانت

مولاي صاحب الجلالة،

يشرفني أن أرفع إلى جلالتكم، باسم المشاركين في المناظرة الوطنية الأولى حول الثقافة المغربية بتارودانت أيام 13 و14 و15 يونيو 1986 وباسمي الخاص، أرقّ عبارات الولاء والعرفان، والحبّ والإجلال والامتنان، على الخطاب التوجيهي السّامي الذي توّجتم به أعمال هذه المناظرة الكبرى والأولى من نوعها في تاريخ المغرب الثقافي الحديث، وكرّمتم به المشاركين فيها من مفكرين، وأدباء، وفنانين، وعاملين في شتى حقول الثقافة من ناشرين وإعلاميين، ذلك الخطاب الجامع الذي كان مصْدر تنوير وإلهام وتفتيق للأفهام، وتحريض على المبادرة والإسهام.

ومرة أخرى، يامولاي، تؤكدون حضوركم القويّ، وإشعاعكم المقرون بالبيت النبويّ، في ميدان يفتخر أهله بانتسابكم إليه، ويعتزون بتبريزكم الشخصي والشمولي فيه مفكراً، ومؤلفاً، وخطيباً وفنّاناً، وتطمئن نفوسهم إلى ما تشملون به هذا القطاع الحيَوي المتميز من رعاية خاصّة، وما يحظى به في عهدكم الزاهر من عناية وتشجيع. وما هذه المناظرة التي تبادل فيها المثقفون الرأي بكل حرية ومسؤولية، وتجرّد والتزام، ووعي كامل بانعكاسات نتائجها على مسار العمل الثقافي في الحاضر، وبالنسبة للأجيال القادمة، إلا دليل على اقتناع جلالتكم بجدوى الثقافة والفنون كحافز تنموي، وشرط حضاري ضروري لجميع القطاعات الحيوية الأخرى.

وإن مما يؤكد النجاح الباهر لسياسة جلالتكم النيرة الملهمة في حماية مبادئ حرية الفكر والتعدّدية والحوار، وفتح نوافذ مملكتنا السعيدة على جميع الثقافات والاتجاهات، ما لمسناه من وعي مسؤول في تفكير المشاركين في المناظرة على اختلاف مشاربهم، وحرصهم على أن يخرجوا منها بنتائج إيجابية تشرفهم، وترفعهم إلى المنزلة الرفيعة، والمقام الأسنى الذي يحظون به لدى جلالتكم.

أبقى الله جلالتكم لأهل الثقافة قلباً كبيراً، وفكراً وقاداً، ومرفأ آمناً لحرية الإبداع والتجديد والحوار لأبناء الأمة العربية والإسلامية والعالم الثالث أجمع، وبارك فيكم، ومتعكم بالصحة والعافية والهناء، وأعانكم على تحقيق كل ما تتمنونه لشعبكم من خير وعز ونماء، وأقر عينكم بولي عهدكم صاحب السمو الملكي الأمير سيدي محمد وبأخيه الماجد صاحب السمو الملكي الأمير المولى الرشيد، وسائر أفراد الأسرة الشريفة.

والسلام على جلالتكم ورحمة الله.

تارودانت في 8 شوال 1406

الموافق 15 يونيو 1986

خديم الأعتاب الشريفة

محمد بن عيسى
وزير الشؤون الثقافية

وعلى هامش أشغال المناظرة عقد السيد وزير الشؤون الثقافية ندوة صحفية تناول فيها بالتحليل مختلف القضايا المتعلقة بشؤون الثقافة، مجيباً على جميع أسئلة الصحفيين الملقاة، مشيراً إلى أن وزارته مستعدة كل الاستعداد لتشجيع وتأطير كل الأعمال الثقافية.

رقم الإيداع القانوني 6 / 1974

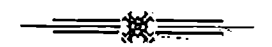
مطبعة فضالة - المحمدية (المغرب)



تصـــدرهـــا :

وزارة الشــؤون الثقافيــة

زنقة غاندي ـ الرباط ـ المغرب
التليفـــون : 680.37
تلكــس : 63 318 الثقافة



AL - MANAHIL

Publication du

MINISTERE DES AFFAIRES
CULTURELLES

Rue Ghandi – Rabat (Maroc)
Tél : 680-37
Télex : 318 63 Attakafah

مطبعة فضالة ـ المحمدية (المغرب)